رواية

في الربع الأوّل

لِسحر خواتمي وَ هبة اعرابي

سلسلة فيء الغمام

عن الرّواية

هذه الرّواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدِّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابَّات لِكُلٍّ منهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها. تدور معظم الأحداث في السلسلة فيما أشرنا إليه بـ "الوطن"، وهو إحدى الدول العربية في الشرق الأوسط دون تحديد أو تقييد.

وفيما يخصُّ التصنيف العمريّ، فنحن نرى أنَّ السلسلة مناسبة لمن عمرهم خمسة عشر عامًا أو يزيد، لكن مع هذا فإنَّ الحبكة الدرامية وما بها من تفاصيل وجوانب نفسيَّة واجتماعيَّة تؤهلها لمن هم فوق العشرين عامًا.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

Website : www.faibooks.com

E-mail : info@faibooks.com

Facebook : @faibooks

Instagram : @faibooks7

Twitter/X : @faibooks7

رواية في الربع الأوّل

تأليف: سحر خواتمي وَ هبة اعرابي

رقم الإصدار وتاريخه: الإصدار الأوّل – 10 يونيو 2026.

تصميم الغلاف: هبة اعرابي

الرسوم التصويريَّة: سحر خواتمي

تنويه: جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلفتين استخدام أي مادة من مواد هذا الموقع الشبكي أو استنساخها أو نقلها كليًّا أو جزئيًّا –في أي شكل وبأي وسيلة– سواءً بطرائق إلكترونيّة أو آليّة، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

سحر وَ هبة

إهداء

إلى أصحاب الهِبات الخفيّة، في عتمة السَّحر

مقدِّمة

لا تُقاس الحياة بما ننجزه وحدنا، بل بما نبنيه مع من يرافقوننا في الطريق. ثمّة رابطٌ خفيّ يتشكّل حين ينسجم شخصان، فتتعاقب لحظاتهما بين صعودٍ وهبوط؛ يتقدّم أحدهما فيقود، ثمّ يأتي الآخر ليساند ويتابع، فتتآلف حركتاهما بدقّة. وعندما يقدّم كلٌّ منهما أفضل ما لديه في اللحظة ذاتها، تمضي بهما الحياة بانسيابٍ متناغم، كأنّهما نغمةٌ واحدة تُعزف، فتترك أثرًا عميقًا لا يندثر.

الشخصيَّات الأساسيَّة

عمر، مايو 1985

جود، يناير 1986

"لا يكفي أن تصل إلى الحل، بل أن تفهم لماذا هو الحل"

محمّد البوزجاني

الفصل الأوَّل

عمر

أبريل 2004 – السنة الأولى

لم يكن كأيِّ يومٍ عاديٍّ. بدأ مُشرقًا، ثمَّ تغيَّر الطقس، بل تغيَّر كلُّ شيءٍ بشكلٍ مُفاجئٍ. هكذا هو أبريل؛ لا يمكنك أن تخرج من المنزل وتعود إليه بسلامٍ، فإمَّا أن تخنقك الشَّمسُ أو يُغرقك المطرُ. وبينما كنتُ أنتظر أيَّ وسيلةِ نقلٍ -سيارةَ أجرةٍ، حافلةً، أو حتّى ميكروباص- مرَّت سيارةٌ مُسرعةٌ، فتطاير الوحلُ واتَّسخت ثيابي بالكامل، وأصبح منظري مُزريًا. وبعد أكثر من ربع ساعةٍ، وجدتُ ضالَّتي، فاستقليتُ سيارةَ أجرةٍ، وبعد رحلةٍ طويلةٍ ومُزعجةٍ وصلتُ إلى المنزل عند الساعة السابعة مساءً.

خلعتُ حذائي قبل أن أطأ مدخل المبنى، إذ يبدو أنَّ العمَّ هيثم قد انتهى من تنظيفه للتوِّ؛ كانت الأرضُ لامعةً للغاية، والرُّخامُ يبرق كالمرآة. مشيتُ بحذرٍ كي لا أنزلق، ونظرتُ بين أحواض الزَّرع وناديتُ:

- فهد! هل أنت هنا؟

لم أسمع أيَّ صوتٍ، فأكملتُ طريقي نحو المصعد بتأنٍّ شديدٍ. وحين دخلتُ المنزل، وجدتُ صالات الضُّيوف مُضاءةً ومُجهَّزةً بشكلٍ رسميٍّ، فسألتُ غالية:

- هل سيزورنا ضيوفٌ اليوم؟

أقبلتْ غالية نحوي، ورغم صدمتها برؤيتي بهذه الهيئة البائسة، أجابت بوقارٍ:

- نعم.
- لم تُخبرني والدتي بالأمر، أهنَّ صديقاتُها؟
- لا، بل والدك.
- والدي؟! ما هذه الزيارةُ المُفاجئةُ؟ لقد التقينا منذ ثلاثةِ أيَّامٍ، لماذا لم يُخبرني بنيَّتِه في زيارتنا؟

قاطعتْ غالية تساؤلاتي قائلةً:

- عليك تبديلُ ملابسك، لقد جهَّزتُها في غرفتك.
- سأستحمُّ أوَّلًا.

انطلقتُ إلى غرفتي لأتهيَّأ، وحين انتهيتُ توجَّهتُ إلى قاعة الضُّيوف مُجددًا، فوجدتُ والدتي تتقدَّم نحوي، فسألتُها:

- هل لي أن أعرف ما مناسبةُ اللِّقاء اليوم؟

ابتسمتْ والدتي ابتسامةً جافَّةً وقالت:

- ستعرف بعد قليلٍ.

لم تمرَّ عشرُ دقائقَ حتّى وصل والدي. استقبلته غالية عند الباب، وبخطواتٍ هادئةٍ ورزينةٍ دخل إلى الرَّدهة، ألقى السَّلام على والدتي ثمَّ عانقني:

- كيف حالك يا عمر؟
- بخيرٍ، الحمدُ لله.
- متى امتحاناتك؟
- الشَّهرُ القادم.
- بالتَّوفيق مُقدَّمًا.
- شكرًا.

ثمّ دعتْنا والدتي إلى غرفة الطَّعام. لم أفهم ما الذي يجري، لكنَّني أدركتُ أنَّ لديها ما ستقوله. جلستُ أتأمَّل المائدة، التي جُهِّزت بأكثر الأطباق رسميَّةً، والُمخصَّصة للمناسبات الخاصَّة. أمَّا أدواتُ المائدة فكانت تلك التي لا أطيق استخدامها؛ لقد طلبتُ من غالية مرارًا ألا تضع لي أدواتٍ فضيَّةً، لكن لا خيار، فهي من طقوس اللِّقاءات الرَّسميَّة.

جلس الجميع، ومع تقديم طبق الحساء بدأتْ والدتي الحديث:

- لقد أعددتُ العشاء هذه اللَّيلة لأنَّ لدينا ما نقوله لكَ يا عمر.

أومأتُ برأسي، بينما كان والدي يشرب حساءه بهدوءٍ وطمأنينةٍ، فأردفتْ والدتي:

- حين تزوَّجنا أنا ووالدك، كان زواجنا مُخطَّطًا له وقائمًا على مصلحة العائلتين. لم نُجبر عليه، بل كُنَّا مُتحمِّسين لذلك الارتباط، لكن الأمور لم تَسِر كما أردنا. حاولنا بكلِّ الطرائق أن نتأقلم ونُكوِّن عائلةً مثاليَّةً، لكن دون جدوى، ولم نفصح لعائلتينا برغبتنا في الانفصال خشية الصَّدمة.

قاطعها والدي وأضاف:

- وبدل أن نصدمهم، صُدمنا بخبر حمل والدتك، واضطررنا للبقاء معًا حتَّى أصبحتَ الآن شابًّا بالغًا.

تنهدتْ والدتي، ولم يبدُ أنَّ حديثه أعجبها، لكنَّها رسمتْ ابتسامةً مُكرهةً. سألتُ نفسي: هل يُريدان تحميلي مسؤولية تعاستهما؟

نظرتُ إلى والدتي التي كانت تنتظر ردي، فوضعتُ سكينَ الزُّبدة وملعقةَ الحساء بشكلٍ مُتعامدٍ على شكل علامة (+)، فأدركتْ والدتي ما أقصده، وأنّي جاهزٌ لكلامها التالي، ثمَّ جاءت غالية وأخذت الأطباق.

وحين قُدِّمت الوجبةُ الرَّئيسيَّةُ، استأنفتْ والدتي:

- نحن اليوم نجتمع للمرّة الأخيرة بصفتنا عائلة. قد نلتقي لاحقًا في مناسبات، لكنّنا لن نكون عائلةً واحدة. عمر، لقد قرّرنا أنا ووالدك أن ننفصل رسميًّا، وسيتمّ الطلاق الأسبوع القادم.

"سينفصلان رسميًّا!" إذن هذا هو الخبر الذي أرادا أن يزفّاه لي اليوم. شعرتُ بغصّةٍ في حلقي، وتسارعت نبضاتُ قلبي. لم أُرِدْ سماع المزيد، لكنّني لم أكن لأرفع صوتي أو أجادلَ والدتي في موقفٍ كهذا. التزمتُ الصمت، وأكملتُ اللعبةَ السخيفةَ التي بدأتُها بأدواتِ المائدة؛ فرميتُ الشوكةَ والسِّكّينَ فوقَ بعضِهما بوضعية (X)، فعلمتْ والدتي أنّ الكلامَ لم يُعجبْني. نظرتُ إلى غالية، فوجدتُها قد فهمت أنّني لا أعني طعامَها، بل الكلامَ المُرَّ الذي أسمعه، والذي وقع على قلبي تمامًا كالسِّكّينِ التي أمامي.

توقّفتْ والدتي عن الكلام، بينما ظلَّ والدي هادئًا ولم يُعقِّبْ بشيءٍ. وقبل أن تضعَ لي غالية طبقَ الحلوى، وضعتُ السِّكّينَ على وضعيةِ الانتهاءِ، ثم استأذنتُهما ومضيتُ إلى غرفتي مسرعًا.

أوصدتُ بابَ غرفتي، ووقفتُ في منتصفِها مذهولًا، أستجمعُ أنفاسي. كان العرقُ يتصبّبُ من جبيني، وشعرتُ أنّني غيرُ قادرٍ على التنفّس،

فأرخيتُ ربطةَ عنقي. وبينما كانت الأفكارُ تتدافعُ في عقلي، وقع نظري على تلك الصورةِ التي جمعتنا قبل خمسِ سنواتٍ. أمسكتُ الإطارَ بين يديّ، ورحتُ أتأمّلُ ملامحهما.

لا! لم يكن قلبُ أيٍّ منهما، ولا عقلُه، ينتمي للآخر.

رميتُ الإطارَ على الأرضِ بغضبٍ، فتحطّمَ زجاجُه. لم أكترثْ، بل رحتُ أحدّثُ نفسي وأنا أقطعُ الغرفةَ ذهابًا وإيابًا. كانت يدايَ ترتعشان، وأنفاسي تتلاحق...

لا، لستُ غاضبًا! ولمَ سأغضبُ؟ أرادا إيصالي إلى مرحلةٍ معيّنة، وها قد وصلتُ إليها. إذن، حان الوقت لكلٍّ منهما أن يعيش حياتَه كما يريد.

بقيتُ على هذه الحالِ بضعَ دقائقَ، حتّى شعرتُ بالدوار، فارتميتُ على سريري. أخذتُ نفسًا عميقًا، ورحتُ أتأمّلُ سقفَ الغرفة.

لا، لستُ غاضبًا! على العكس، يبدو الأمرُ مضحكًا للغاية.

"لن ننفصلَ وأنتَ طفلٌ، فهذا سيضرُّ بنفسيتك."

ما هذه الذريعةُ الهشّة؟ هل يصدّقانها بالفعل؟ من يسمعهما يظنُّ أنّهما منحاني كلَّ الحبِّ والحنان. لا أذكر من طفولتي سوى وجودي بين يدي

المربّيات، وهنَّ يقمن بواجبهنّ تجاهي. ليتَهما انفصلا منذ البداية وقدّما لي ما أحتاجه من الرعاية والاهتمام!

لا مانعَ أن تسعى المرأةُ إلى تحقيق ذاتها خارج المنزل، ولكن أن تنذر نفسَها بالكامل لمجتمعها وأصدقائها ووالديها! إذن لماذا تزوّجت، ولماذا أنجبت؟! هذا كان حال أمي، ابنةُ الباشا؛ ربّاها جدّي وعاملها على أنّها سيّدة المجتمع الراقي، فنذرت وقتها وجهدها للحفاظ على هذا اللقب. أمّا والدي، المحامي الشهير في البلد، الذي يدافع عن الناس ويحامي عنهم، فقد فشل في حماية عائلته المفكّكة، وحماية ابنه من هذه الحياة الجافّة. لم أجده بجانبي حين احتجتُ إليه، لا في طفولتي ولا في مراهقتي؛ كان غارقًا في مكتبه وقضاياه وعملائه.

تذكّرتُ في هذه اللحظة أمنيتي التي كنتُ أحلم بها في طفولتي، أن يكون لي أخٌ أو أخت. ضحكتُ ساخرًا: خيرًا فعلا إذ لم يُنجبا سواي، ولم يُعرّضا طفلًا آخر للمعاناة.

استرجعتُ كلامَ والدتي قبل قليل، فشعرتُ ببرودةٍ تسري في أطرافي. خلعتُ حذائي ورميته، والتحفتُ فراشي بملابسي الرسميّة المزعجة، فلم يكن لدي أي طاقة لتبديلها.

نظرتُ حولي وأنا أتساءل: أين فهد؟ هل ما يزال يتجوّل في الخارج؟

أطفأتُ الأنوار، وقررتُ أن أنام ملء جفوني. أغمضتُ عينيّ، ورحتُ أتقلّب يمينًا وشمالًا. سألتُ نفسي: ماذا يفعلان الآن؟ على ماذا يتّفقان؟ وعن أيّ موضوعٍ يتحدّثان؟

وضعتُ الوسادة فوق رأسي، فشعرتُ بالاختناق أكثر، فرميتها على الأرض، بعدما أبعدتُ كلَّ الأغطية المزعجة من حولي. جلستُ على السرير وأنا أفكّر: لم يُطرق الباب، ولم يخطر ببال أيٍّ منهما أن يطمئنّ عليّ! ابتسمتُ في العتمة ابتسامةً خائبة.

وبعد عدة دقائق شعرتُ بالتعب والإرهاق، فاستلقيتُ مجددًا محاولًا ألّا أفكّر في شيء. بقيتُ عالقًا بين اليقظة والنوم، حتّى أدركتُ أنّني على وشك أن أغفو...

رحتُ أتمتم:

أين فهد؟ أين وضعتِ الملاعق يا غالية؟

انفصلا... فهد أسرع قليلًا...

دموع... لا! أنا لا أبكي...

هذه ليست دموعًا...

جود أبريل 2004 – السنة الأولى

كان الظلام دامسًا، والهدوء يعمّ المكان، يتخلّله صوت عقرب الثواني المستفزّ، الذي يشعرني أنّ الوقت يسيل ويمضي دون فائدة. يا إلهي، ما أصعب أن يهرب النوم! كرّرت دعاء الأرق مرارًا، ثمّ رحت أتقلّب يمينًا وشمالًا دون أي بوادر للنوم. نظرتُ إلى الساعة، فإذا هي الثانية بعد منتصف الليل! يا إلهي، كيف سأستيقظ بعد خمس ساعات وأنهض من فراشي؟

وبينما كنت أصارع لأغفو، شعرت بجوعٍ شديد، فتذكّرت أنّني لم أشارك عائلتي العشاء اليوم، فقد أعدّت والدتي البيض المقلي بناءً على طلب كرم المدلل. لطالما أخبرتها أنّ البيض المقلي لا يصلح كوجبة عشاءٍ خفيفة.

أصدرت معدتي فجأةً أصواتًا مريبة، وبدأت موائد الطعام تفترش مخيلتي. فاستسلمت وتسلّلت بهدوءٍ إلى المطبخ، ملأت صحنًا بالمكسرات، وغسلت تفاحةً وبعض الكرز، ثمّ أكلتها بهدوء وعدت إلى سريري. قرأت بعض الأذكار ودعاء الأرق، ثمّ وضعت رأسي على الوسادة...

دقيقة، اثنتان، عشرة، نصف ساعة...

لا أمل! ويبدو أنّ التفاحة قد طارت بالنوم تمامًا. استسلمت مجددًا وقررت أن أستغلّ وقتي بشيءٍ مفيد، وبدأت أبحث عن أمرٍ نافع يشغلني دون أن أزعج النائمين.

الدراسة؟ طبعًا لا، ما يزال هناك وقت كافٍ للامتحانات.

القراءة؟ أيضًا لا، أنهيت إحدى الروايات البارحة، وأفضّل أن أمنح نفسي وقتًا كافيًا لتحليلها، ولا أودّ أن أبدأ قراءة شيءٍ جديدٍ فتتداخل الأفكار.

الكتابة؟ لا أشعر برغبةٍ في كتابة أيّ شيء، أفكاري مبعثرة، وليس لدي حافز أو إلهام.

وبينما أنا في حيرتي تلك، تذكّرت حديث طلاب الدفعة الأسبوع الماضي عن منتدى الكلية الذي سيُطلق قريبًا على شبكة الإنترنت ضمن موقعٍ خاصٍّ بكليتنا. سألت نفسي: يا ترى، هل أصبح الموقع جاهزًا أم لا يزال؟

نهضت من السرير بحماس، فتعثّرت في الظلام، وعلى إثر ذلك استيقظت ريم فزعةً وسألتني وهي تهمس بذعر:

- ماذا تفعلين في هذا الوقت المتأخّر؟ هل تمشين أثناء نومك؟

أجبتها بصوتٍ خافت:

- أنا لم أنم بعد.

سألتني وهي تهمس بغضب:

- وما الذي يؤرقك؟ نامي وكفى إزعاجًا.

همستُ لها بغضبٍ أشدّ:

- كما لو أنّ الأمر بيدي!

وما إن أدرت جهاز الحاسوب حتّى نهضت ريم وقالت:

- هل تمزحين؟ هل هذا وقت جهاز الحاسوب؟ ستوقظ مروحة الجهاز كلّ من في المنزل.
- صوتك هو الذي سيفعل ذلك.
- تحدّثي بأدبٍ مع أختك الكبيرة.
- أنا أتحدّث بأدب.
- وتتصّلين بالإنترنت؟ جود! سيوقظ صوت الاتصال كلّ الحارة.

- اصبري قليلًا، ها هو قد اتصل بشبكة الإنترنت وانتهى الأمر، عودي إلى فراشك.
- سأخبر والدتي في الصباح عن كلّ أفعالك.
- هل تظنّين أنّني طفلة في الخامسة لأخاف من تهديدك؟
- لستِ طفلة، ولكنّك ستُحرمين من الإنترنت إذا علم والدك بالأمر.
- وما هي جريمتي؟
- تتصلين بالإنترنت في هذا الوقت المتأخّر.
- أنا لا أفعل شيئًا خاطئًا، ثمّ هناك شيءٌ ضروريٌّ عليّ أن أبحث عنه.
- وما هو الشيء الضروريّ الذي لا يمكنك تأجيله؟
- منذ عدّة أشهر وبعض الطلاب في دفعتنا يعملون على تصميم موقع للكلية، وأعتقد أنّهم أطلقوه بالفعل، أشعر بفضولٍ شديدٍ لتصفّحه، اصبري قليلًا، دعيني أعثر على اسم الموقع.
- لا فائدة منك! والدك سيغضب، هو لا يسمح لنا بمشاهدة التلفاز بعد العاشرة مساءً، فكيف بتصفّح الإنترنت بعد منتصف الليل!

- ها هو الموقع، وجدته، لقد أطلقوه بالفعل، يا إلهي، يبدو رائعًا للغاية.

نهضت ريم من فراشها لتلقي نظرة، وقالت:

- وأين الروعة؟ لا أرى سوى ألوان باهتة.
- لا تحكمي على الموقع من ألوانه.
- حاضر! والآن، هلّا أطفأت جهاز الحاسوب!
- انتظري قليلًا، لا تكوني لحوحة، أرغب في إنشاء حساب، لن أتمكّن من النوم قبل أن أسجّل في المنتدى.
- أنتِ حرّة، ولكنّك ستوقعين والدتك في مشكلة.
- لا تقلقي، سيكون كلّ شيء على ما يرام. ثمّ ما الجديد؟ جولةٌ تقليديّةٌ من تراشق الاتهامات، والدك سيغضب ويؤنّبها لأنّها لم تحسن تربيتنا، وهي ستستعيد كلّ ذكرياتها المؤلمة معه وتندب حظّها... تعودنا! لذا دعيني أكمل ما بدأته، أرجوك، أنا أبحث عن شيءٍ مهمّ.
- كم أنتِ عنيدة! تصبحين على خير أيّتها المزعجة.
- وأنتِ بألف خير، أتمنى لكِ أحلامًا سعيدة وممتعة.

أجبتها وأنا أقلّب الصفحات بعشوائيّة، وأتساءل: أين هو؟ أين؟ لا أجده.

أخذت نفسًا عميقًا وعدت مجددًا إلى الصفحة الرئيسية لأبحث بانتظام. وبالفعل، وجدته أخيرًا. خفق قلبي حين رأيت اسمه ضمن قائمة المشرفين، لكن للأسف لم أستطع استعراض ملفه الشخصيّ. أسرعت إلى صفحة إنشاء الحساب الجديد، وحين وصلت إلى اختيار الاسم تساءلت: هل أضع اسمي الحقيقي أم اسمًا مستعارًا؟ فكّرت قليلًا ثمّ قررت اختيار اسمٍ مستعار، كي أشعر بحرية في التعبير عن آرائي بصراحة، ومناقشة الجميع دون مجاملة. فأنا أخشى إن وضعت اسمي الحقيقيّ أن يصبح جلّ همّي تلميع صورتي أمام الآخرين. أريد أن أكون حقيقيّةً في كتاباتي ومشاركاتي.

همستُ مجددًا بصوتٍ خافت:

- ريم، هل تساعدينني في اختيار اسمٍ لي؟
- أنا نائمة.
- كيف تجيبين إن كنتِ نائمة؟
- يا للإزعاج! فكّري في الأشياء التي تحبينها وستجدين اسمًا مناسبًا.

- ممم، أحبّ القهوة، الملابس، الحقائب، الشوكولاتة، الأحذية، النوم، الورد، الشموع، الروائح العطرة، الأيام المنعشة في الربيع... ريم! بالتأكيد لن أسمي نفسي أيًّا من تلك الأمور.
- الورد اسم جميل.
- الورد؟ يبدو مجردًا جدًا.
- إذًا أضيفي إليه شيئًا، "وردة الحب" مثلًا.
- ما هذا الاسم المبتذل؟ أعطني اقتراحًا آخر.
- الورد جميل.
- هل هذا اسم أم جملة خبرية؟
- إذًا اقترحي أنتِ أيّتها الكاتبة الفذّة.
- ما رأيك بـ"وردة القمر"؟

أدارت ريم ظهرها وهي تجيب:

- لا ينسجُمان.
- وماذا عن "وردة العطاء"؟
- مملّ!

صمتُّ قليلًا ثمّ هتفت:

- وجدته أخيرًا.

- وما هو أيّتها الشاعرة المرهفة؟
- لن أفصح عنه.
- كما لو أنّ الفضول سيقتلني! تصبحين على خير، لا تزعجيني مجددًا.
- وأنتِ بألف خير.

أنهيتُ خطوات التسجيل، ثمّ أسرعت إلى صفحته الشخصية. وأول ما وقعت عليه عيني كان تاريخ ميلاده: أغسطس 1985. يا لسعادتي، إنّه يكبرني سنًّا، ورغم أنّ الفارق بيننا أشهر قليلة إلا أنّها كافية. بحثت في مشاركاته، فوجدته قد كتب تعليقاتٍ متفرّقةٍ وشارك كلمةً افتتاحيّةً للمنتدى. قرأت كلماته بتأنٍ. يا إلهي، ما أروع لغته العربية الفصحى!

شعرت بسعادةٍ تغمر قلبي، ومن شدّة الحماس بدأ النعاس يثقل عينيّ. أطفأت جهاز الحاسوب واستلقيت على سريري بطمأنينة. ردّدت أذكار النوم، ودعوت الله أن أستيقظ لصلاة الفجر بعد هذه الليلة الطويلة.

عمر | أبريل 2004 – السنة الأولى

- صباح الخير، هل أنتَ ذاهبٌ إلى الكليّة اليوم؟

سألتني والدتي وهي تنظر إلى المرآة للتأكّد من مظهرها قبل انطلاقها، فأومأتُ لها بالإيجاب، حينها قالت:

- انتظرني، سأقلّك معي.

مضينا، وركبتُ معها في السيّارة، وما إن أدارت المحرّك حتّى سألتني:

- التنقّل بواسطة السيّارة أسهل يا عمر، لِمَ لا تقبل بأن أشتري لك واحدة؟
- لا أرغب بامتلاك سيّارة حاليًّا، لا أزال طالبًا في السنة الأولى، ناهيك عن صعوبة ركن السيّارة في الكليّة، فلا توجد أماكن مخصّصة لنا نحن الطلّاب.
- لا بأس، كما تشاء.

أكملتْ طريقها، فسألتُها وأنا أعلم الإجابة:

- هل ستذهبين إلى الجمعيّة؟

- لا، بل إلى المحكمة.
- المحكمة؟
- اليوم هو الأربعاء، ألا تذكر؟ موعد الطلاق.

قالتها وهي تبتسم، فعقّبتُ على حماستها قائلًا:

- هل أنضمّ إليكما لأحضر هذا الحدث الرائع؟

نظرت إليّ وقطّبت حاجبيها، وقالت:

- عمر، أتسخر منّي، هل تجد أنّ هذا التصرّف لائق؟
- أنا لا أسخر، لكنّك تبدين سعيدةً للغاية، فقلت لنفسي: لِمَ لا أشاركك فرحتك!
- لا تشاركني شيئًا، اهتمّ بجامعتك ولا تفكّر بنا.

كالعادة، إنّها تعاملني كما لو أنّي رجلٌ آليّ! توقّفتُ عن إزعاجها عند هذا الحدّ، وبعد خمس دقائق من الصمت، قالت لي:

- سنكون معًا في المحكمة حين يُعقد قرانك وتتزوّج.
- لا أريد أن أتزوّج أساسًا.
- لا تتزوّج... لكن ابتسم قليلًا.
- بالمناسبة، ألا يودّ القاضي أن يسألني: مع من أرغب أن أعيش؟

ضحكتْ ثمّ قالت:

- أنتَ شابٌّ بالغٌ ومستقلٌّ قانونيًّا، تستطيع اختيار المكان الذي تودّ العيش فيه دون الحاجة لسؤال القاضي.
- وهل ستحزنين إن اخترت العيش مع والدي؟
- لن أحزن، طالما أنّه اختيارك، لكن عليك أن تدرك أنّ والدك سيتزوّج قريبًا.
- هل سيتزوّج حقًّا؟
- نعم، لقد سمعت عن نيّته تلك.
- ومن أخبرك؟ لعلّها إشاعة؟
- إشاعة؟ عن أيّ إشاعةٍ تتحدّث؟ هو من أخبرني بالأمر!
- أنتما صريحان جدًّا، أوليس لديكِ مشكلة بقول ذلك؟
- طبعًا لا، ما بك عمر؟ كأنّك تتعرّف إلى والدتك لأوّل مرّة!

صمتُّ مجدّدًا وأنا أتلقّى الصدمات واحدةً تلو الأخرى، وبعد عدّة دقائق سألتني:

- هل حقًّا تودّ أن تعيش مع والدك؟

أجبتها بحزمٍ:

- لا، بل سأبقى معكِ، ألم أختر ذلك منذ سنة؟ حين انفصلتما وعاش كلٌّ منكما في منزلٍ مستقلّ؟ فلمَ سأغيّر رأيي الآن؟
- أنتَ من قلت ذلك.

لم أجبها، لكنّي تمنّيتُ لو أقول لها: كنتُ أختبر ردّة فعلكِ يا والدتي، كنتُ أريدكِ أن تتمسّكي بي، أن تقولي: ابقَ معي يا ولدي! لكنّني، كالعادة، لم أسمع منكِ كلمةً واحدةً تشعرني بأهمّيتي لديكِ.

عمر يونيو 2004 – السنة الأولى

أغلقتُ كتابي، ولم يعد لديّ ما أضيفه إلى مذاكرتي للمادّة، فقد أنهيتُ المنهاج كاملًا. لا أفهم لِمَ يستهلّون برنامج الامتحانات بأصعب مادّة!

تحدّثتُ مع آدم عبر الهاتف لأطمئنّ عليه، فحالُه سيّئة، ولم يُنهِ دراسته بعد. أخذ يتذمّر، وأخبرني أنّ أغلب الطلّاب –ومن ضمنهم هو– يعتقدون أنّهم لن يتمكّنوا من اجتياز امتحان هذه المادّة غدًا. فأستاذ المادّة لا يتساهل مع الطلّاب أبدًا، وتصحيحه صارمٌ وشديد، كما أنّه لا يكترث بنسبة النجاح، حتّى لو بلغت الحدّ الأدنى. لم أشأ أن أخبره بأنّي لستُ أفضل منه حالًا؛ فأنا أيضًا أشكّ في قدرتي على اجتياز هذا الامتحان، ولا أشعر بتمكّني من هذه المادّة. ومع ذلك، حاولتُ رفع معنوياته قدر الإمكان. والحقّ يُقال، فإنّي أجد المواد المتعلّقة بالأسس الكهربائيّة من أعقد المواد وأكثرها صعوبة.

ولكي لا أطيل التفكير في احتمال الرسوب منذ الآن، قرّرت أن أتفقّد منتدى الموقع الإلكترونيّ للكلية. فتحتُ صفحة المنتدى، فوجدتُ بعض الاستفسارات التقنيّة للأعضاء، وبعض التعليقات غير اللائقة

التي قمتُ بحجبها. لا تبدو مهمّة "المشرف" جذّابة في الواقع، لكنّني حين قرّرنا افتتاح المنتدى، شعرتُ بالحماس للانضمام إلى المشرفين، رغم أنّ مسؤولياتي في الجمعيّة أخذت تتزايد في الآونة الأخيرة، ولم يعد لديّ وقتٌ كافٍ لمهمّاتٍ جديدة. على أي حال، أن أشغل نفسي ووقتي بأمورٍ عديدة أفضل من أن أفكّر في وحدتي وحياتي الجافّة.

أنهيتُ تفقّد الأمور الإداريّة، ثمّ عرّجتُ على قسم السنة الأولى، لأرى إن كان هناك أي نقاش مفيد حول تلك المادّة الصمّاء أو توقّعات للأسئلة. وكما هو متوقّع، لم يكن أغلب الأعضاء متفاعلين البتّة، فالجميع منشغلٌ بالتحضير للامتحان.

لا مواضيع جديدة، ولا مشاركات مثيرة للاهتمام. وقبل أن أغلق الصفحة، رأيتُ موضوعًا جديدًا قد نُشر للتوّ. لفت انتباهي، وعلى الرغم من عنوانه الممل، انتابني فضول لقراءته.

وردة الربيع

مليئةٌ هي الحياة بالمصاعب والتحدّيات، تحدّياتٌ تتزاحم علينا، ترهقنا، تمتصّ طاقتنا وقوّتنا. بل لربّما تهزم عزيمتنا، فتشعرنا بأنّنا على وشك الاستسلام.

ولكن ثمّة طاقة داخليّة تدفعنا للاستمرار، وصوتٌ خافت يهمس لنا بأنّ الغد سيأتي بما هو أفضل.

إنّه الأمل! النور الذي يجعلنا نؤمن بأنّ هناك شيئًا جميلًا في انتظارنا، والحافز الذي يدفعنا للمضيّ قدمًا والمثابرة على العمل الجاد، أيًّا كانت الظروف.

هو ليس تفاؤلًا عابرًا فحسب، بل إيمانٌ عميق بأنّ الله معنا، وسيمنحنا العون والمدد. وفي عقيدتنا، لا مكان لليأس في قلب المؤمن، فقد أمرنا الله ألّا نقنط من رحمته. فالأمل بالله هو ما يدفعنا للاستمرار في السعي، مهما كان الطريق ضبيابيًّا ومظلمًا.

لكن يحدث –في بعض الأحيان– أن يخلط المرء بين الأمل والأحلام المستحيلة، وشتّان ما بينهما! فالأمل مرتبطٌ بالسعي نحو تحقيق أهداف

واقعيّة وقابلة للتحقيق، أمّا الأحلام المستحيلة، التي تتجاوز قدراتنا أو تعتمد على قرارات الآخرين، فلا تجلب سوى الإحباط.

أشعر بالحزن عندما أرى أشخاصًا يرفعون سقف توقّعاتهم بشكلٍ غير واقعيّ، فتجدهم ينهارون حين لا تتحقّق أحلامهم! وإن حاولتَ أن تلفت انتباههم إلى أنّ هذه التوقّعات بعيدة المنال، وأنّ تلك الآمال لا تحاكي الواقع، عاتبوك واتّهموك بأنّك تنتزع منهم الأمل ظلمًا وعدوانًا. وللأسف، هم يظلمون الأمل بفهمهم الخاطئ ذاك؛ فالأمل جسرٌ يربط برفقٍ بين الواقع والأحلام، لا الأوهام.

وفي الختام، تذكّر عزيزي القارئ أنّ الحياة قاسية من غير أمل، لذا تمسّك به، وتمسّك بكل ما يدفعك إليه، وكل من قد يغمرك به.

فما معنى الحياة دون أملٍ جموح، وحلمٍ في الأفق يلوح؟!

عمر يونيو 2004 – السنة الأولى

الأمل... الأمل... الأمل!

أنهيتُ قراءة الموضوع وأنا أضحك، فأضفتُ تعليقًا ساخرًا:

- يبدو أنّ لديكِ أملًا في النجاح في مادّة الغد، وردة الربيع!

وما إن أغلقتُ جهاز الحاسوب، حتّى سألتُ نفسي: لماذا افترضتُ أنّ لديها امتحانًا غدًا؟ لعلّها من دفعةٍ أخرى! وحين أمعنت التفكير قليلًا، شعرتُ بتأنيب الضمير: ما الذي دفعني لكتابة تعليقٍ سخيفٍ على موضوعٍ جادّ ومحترم؟

أردتُ التراجع عن ذلك التعليق وحذفه، لكنّني سمعت نداء غالية للعشاء، فقرّرتُ تركه كما هو. فجهاز الحاسوب يحتاج إلى عشر دقائق ليقلع، ناهيك عن الاتصال بالإنترنت، ووالدتي لا تحبّ أن أتأخّر عن مواعيد الطعام.

توجّهتُ نحو غرفة الطعام، وألقيت التحية على والدتي التي عادت منذ قليل من اجتماع الجمعيّة، وتبادلنا بعض الأحاديث الروتينيّة. لكنّني،

وقبل أن أنتهي من طعام العشاء، أردتُ أن أثير فضولها بموضوعٍ حسّاس لأرى ردّة فعلها، فقلتُ لها:

- أتعلمين؟ قد يتراجع والدي عن قرار زواجه بسبب بعض المشكلات.

نظرت نحوي بغضب، وقالت:

- عمر! أنت تعرف أنّني لا أحبّ الخوض في هذه المواضيع، وأكره القيل والقال. ومنذ متى وأنت من الأشخاص الذين يتناقلون مثل هذه الأحاديث؟

أحرجني كلامها، فاعتذرتُ منها عمّا بدر مني، وأنهيت طعامي واستأذنتها وعدتُ إلى غرفتي وأنا أشعر بالضيق. يا للغباء! ما أزال أحلم بأن نعيش معًا، وأتمسّك بخيوط أملٍ واهية.

نظرتُ إلى جهاز الحاسوب، وضحكتُ ساخرًا من نفسي هذه المرّة. يبدو أنّ هذا هو الحلم المستحيل...

الحلم الذي يعتمد على قرارات الآخرين، لا على ما نتمنّاه نحن.

جود — يوليو 2004 – العطلة الصيفيّة

جهّزتُ نفسي لأنطلق إلى الكلية، لكن قبل أن أخرج، تصنّعتُ اللطف الشديد وأنا أسأل ريم:

- أختي الكبيرة الحنونة! هل تسمحين لي باستعارة هاتفكِ الخليوي اليوم؟

سألتني وهي تتذمّر:

- إن كنتِ بحاجةٍ إلى هاتفٍ خليوي، فلمَ لا تدّخرين المال وتشترين واحدًا؟
- حاولتُ ولا أزال أحاول، وفي كلّ مرّة لا يكون المبلغ كافيًا!
- طبعًا، فأنتِ تنفقين أموالك هنا وهناك: حقائب، ملابس، إكسسوارات، مقاهي ومأكولات خفيفة، بالتأكيد لن يتبقّى شيءٌ للادّخار!
- دعيكِ الآن من هذا! أحتاجه اليوم كثيرًا، هلّا أعرتِني إيّاه؟
- لماذا تحتاجينه؟

- ستصدر اليوم علامة المادة الأخيرة لهذا الفصل، وأرغب أن أكون أول من يتصل بجُمان ليزفّ لها الخبر.
- وهل أنتِ واثقةٌ من نجاحكما؟
- نعم، أنا متفائلةٌ جدًّا إن شاء الله.
- حسنًا، تستطعين استعارته، لكن بشرط ألا تتأخّري وألّا تجري اتصالاتٍ كثيرة، فأنا لا أملك رصيدًا كافيًا، فكما تعلمين، لا دروس خصوصيّة في أشهر الصيف، لذا لا أملك ميزانيةً جيّدة.
- مفهوم يا أحلى أخت في الدنيا. بالمناسبة: ماذا إن وردني اتصال من إحدى أمّهات تلاميذك؟
- لا تردّي، وأنا سأعاود الاتصال فيما بعد.

ودّعتُها ومضيتُ إلى الكلية، وبعدما وصلتُ بنصف ساعة، رأيتُ تجمّعًا لطلاب دفعتنا حول لوحة الإعلانات، فعلمتُ أنّ المادة الأخيرة قد صدرت بالفعل. انتظرتُ ريثما خفّ الزحام، ثمّ تقدّمتُ وقلبي يخفق من الحماسة.

تأكّدتُ من العلامات مرارًا، ثمّ اتصلتُ بجُمان، وما إن سمعت صوتها حتّى هتفتُ بحماس:

- جُمان، أنا في الكلية، وصدرت العلامات، لقد نجحنا في مادة الاحتمالات! حصلتِ على خمسٍ وثمانين بالمئة.

أجابتني بسعادة:

- حمدًا لله، شكرًا لكِ جود، وماذا عنكِ؟
- واحدٌ وستّون، أنا سعيدةٌ للغاية.
- مباركٌ لكِ يا عزيزتي، وما علامة يزن؟
- تسعون!
- توقّعتُ ذلك، هو بارعٌ في كلّ المواد.
- ما شاء الله، وهو الأوّل لهذه السنة، وأنتِ الثانية على الدفعة يا عزيزتي، دعينا نحتفل بمناسبة خلاصنا من المواد جميعها، وحصولك على المركز الثاني بجدارة.
- حسنًا، سأجهّز نفسي وآتي إلى الكلية حالًا.
- وسأكون بانتظاركِ جُمان.

أنهيتُ المكالمة وانطلقتُ إلى مقهى الكلية كي أنتظرها هناك.

رائعةٌ هي جُمان، ملأت فراغًا في حياتي ما ظننتُ أن يقدر أحدٌ على ملئه. إذ كان يومًا حزينًا، يوم صدرت نتائج القبول في الجامعة، وعلى الرغم من سعادتي بالتحاقي بقسم الهندسة الطبيّة، إلا أنّ صديقتي ورفيقة

عمري ياسمين التحقت بكلية العلوم الطبيعيّة. كان وقع الخبر مؤلمًا بالنسبة لي، فحتّى آخر لحظة كنتُ أمنّي نفسي بأنّ الفارق بين علاماتنا لن يصل إلى الحدّ الذي يفرّقنا إلى كليّاتٍ مختلفة.

بدأ الفصل الدراسيّ الأوّل من السنة الأولى، وقلبي يعتصر على فراق ياسمين. وفي الأيام الأولى شعرتُ بأنّي على وشك تبديل الاختصاص، لكنّي لا أحبّ مواد العلوم، ولا يمكنني التخصّص فيها. تحدّثتُ مع ياسمين مرّاتٍ عديدة في هذا الخصوص، ولم يكن حالها أفضل منّي بكثير. قطعنا وعدًا بأن نبقى على تواصلٍ ونلتقي بشكلٍ منتظم، إلا أنّ واجبات الجامعة ومحاضراتها ودراستها كانت تستهلك الوقت كلّه.

أذكر كم عانيتُ في بادئ الأمر، فأنا لستُ معتادةً على قضاء الوقت وحيدة، كنتُ أبحث عمّن يحتوي حماسي، يسمعني ويفهمني، كنتُ أبحث عن ياسمين في كلّ فتاةٍ ألتقيها في الكلية. مضى شهرٌ على هذه الحال، أيقنتُ حينها أنّي لن أجد نسخةً مطابقةً لياسمين، فلكلّ امرئٍ شخصيّته المميّزة. لكنّي بقيتُ منغلقةً بعض الشيء، ولم يخرجني من هذا العناد والانغلاق إلا حرف اسمي!

هناك قسمٌ عمليّ لكلّ مادّة من موادنا، تنقسم فيه الدفعة إلى فئاتٍ وفقًا للحرف الأوّل لاسم الطالب. وبالتالي، يندرج اسمي واسم جُمان ضمن

الفئة ذاتها، فأشاركها التجارب والجلسات العمليّة. لفتت انتباهي منذ الجلسة الأولى لنا معًا، فتاةٌ مهذّبة، تلتزم قواعد وبروتوكولات الإتيكيت، وتنحدر من أسرةٍ طبيّة؛ والداها وجدّاها، وكذلك أعمامها وخالاتها، معظمهم من أشهر الأطباء في البلد. والمثير أنّها فتاةٌ وحيدة، لا أخت لها ولا أخ. اعتقدتُ في بادئ الأمر أنّها مدلّلةٌ للغاية وقد يصعب التعامل معها لكونها معتادة أن تكون مركز الاهتمام، لأكتشف فيما بعد أنّ والديها صارمان معها جدًّا، وأنّها جلِدة وتتحمّل المسؤولية.

ظلمتُها في بادئ الأمر، وحكمتُ عليها استباقيًّا أنّها مغرورة أو متعالية، أو -بأفضل الأحوال- لا تحبّذ أن أكون مقرّبةً إليها. وعلى إثر ذلك، كنتُ حذرةً كي لا تتعمّق العلاقة فيما بيننا، لألّا تظنّ بأنّي أتقرّب منها لمصلحةٍ ما، فناهيك عن كون جُمان من أكثر الطلاب جدّيةً وامتيازًا وذكاءً في الدفعة، فهي أيضًا متميّزةٌ بشخصيّتها وبمستوى عائلتها الماديّ والاجتماعيّ على حدٍّ سواء.

ومع مرور الأيام، لاحظتُ أنّها تحاول أن تطيل حديثها معي، وتتعمّد أن تجلس بجانبي في المحاضرات، كما أنّها تلاحظ وجودي وغيابي. شيئًا فشيئًا أدركتُ أنّها متواضعة وذات خلقٍ جميل وتربيةٍ فاضلة، وما هي إلا أسابيع قليلة حتّى أصبحنا كالتوأم في الدفعة.

نظرتُ إلى الساعة، فعلمتُ أنّ جُمان قد شارفت على الوصول، فهي سريعة ولا تستغرق وقتًا طويلًا لتجهّز نفسها، كما أنّ مواصلاتها سهلة ومتوفّرة، لذا فمواعيدها دقيقةٌ جدًّا. وبالفعل وصلت جُمان في الموعد، استقبلتُها بابتسامةٍ وفرحةٍ كبيرة:

- مباركٌ نجاحكِ وتفوّقك، أنا فخورةٌ بكِ جُمان.
- شكرًا لكِ يا عزيزتي، مباركٌ لنا معًا. كيف حالكِ؟
- بخير، الحمد لله، أشعر بسعادةٍ غامرة، فنحن الثلاثة قد نجحنا والحمد لله.
- آه تذكّرت، هل نجح أُسيد؟ ما هي علامته؟
- نعم نجح وحصل على سبعين علامة، ما شاء الله، متفوّقٌ كعادته.
- حفظه الله لوالديه.
- وجميع أحبّائه!
- آمين.

ابتسمت جُمان ابتسامةً فهمتُ مغزاها، فهي إلى الآن متحفّظةٌ على طبيعة مشاعري تجاه أُسيد، فارس أحلامي الذي لم أتحدّث إليه مرّةً واحدةً حتّى هذه اللحظة.

جلسنا قرابة الساعة نتبادل أطراف الحديث، وحين اقتربت الساعة من الثالثة ظهرًا، اقترحت جُمان أن نتناول طعام الغداء معًا. اعتذرتُ منها بحجّةٍ واهية، رغم أنّي كنتُ متشوّقة لقضاء وقتٍ أطول معها، لكنّي أعلم أنّ والدي لن يسمح لي، ولم تكن لديّ الطاقة الكافية لاستئذانه، إذ إنّه لن يوافق مهما بذلتُ من جهد. ودّعتُها، وعدتُ إلى المنزل، فطريقي طويل، ومن الأفضل أن أصل قبل والدي.

عمر	يوليو 2004 – العطلة الصيفيّة

كنتُ مع والدتي في السيارة، متأنّقًا لزيارتنا الأسبوعيّة، إذ لا يمكنني الذهاب إلى منزل جدّي إلا بملابس رسميّة. من يراني يظنّ أنّني ذاهبٌ إلى مقابلة عمل، فما تتجاوزه والدتي في البروتوكولات، يشدّد عليه جدّاي بصرامة. طلبتُ من والدتي أن تمرّ بالكلية، وبالفعل ذهبنا. وحين وصلنا ودّعتها قائلًا:

- لا داعي لانتظاري، قد أتأخّر، والجوّ حارّ!

أجابتني وهي تعدّل نظارتها الشمسيّة:

- لا عليك، سأنتظر.

توجّهتُ نحو لوحة نتائج الامتحانات، فوجدتُ أنّ علامة المادة الأخيرة قد صدرت بالفعل. بحثتُ عن اسمي، فوجدتُني بين الناجحين، بل الناجين!

أمّا آدم، فلم يتمكّن –مع الأسف– من تجاوز هذا الامتحان. أرسلتُ له رسالةً قصيرة، أعلمه فيها بنتيجته كي لا يتعنّى ويأتي خصيصًا إلى الكلية:

- مرحبًا آدم، يؤسفني إعلامك بأنّك لم تنجح في مادة الاحتمالات، حظًّا أوفر في الفصل المقبل يا صديقي.

عدتُ إلى السيارة مسرعًا، وحين أغلقتُ باب السيارة، سألتني والدتي:

- بشّرني؟
- نجحتُ بحمد الله.
- مباركٌ لك عمر.

أجبتها ببهجة:

- شكرًا لكِ!

وفي طريقنا، مرّت والدتي على محلٍّ لبيع الحلويات، واشترت كعكة بمناسبة نجاحي. مازحتُها، ويبدو أنّ المزحة لم تكن مناسبة، إذ قلتُ لها:

- هل هذه الكعكة بمناسبة نجاحي أم طلاقك من والدي؟

تغيّرت ملامحها، ونظرت إليّ بجدّيّة وهي تقول:

- عمر! لا تمزح في هذه الأمور. فكما للزواج حرمته، للطلاق حرمته أيضًا. ألا ترى أنّك تماديت؟

صمتُّ، فأردفتْ كلامها بحزم:

- عمر! حاولنا لعشرين سنة ولم نفلح، وحان الوقت لاتخاذ هذا القرار، فهلّا توقّفتَ رجاءً عن الخوض في هذه المسألة من الآن وصاعدًا؟

بقيتُ صامتًا ولم أشأ أن أتجادل معها. شعرتُ أنّني أفسدتُ فرحتي بالنجاح وفرحتها هي أيضًا، لكن ما باليد حيلة. شعورٌ مزعجٌ يلازمني طيلة الوقت ويدفعني لرمي الكلمات والتعبير عن استيائي مع كلّ فرصةٍ متاحة.

بقينا صامتين حتّى وصلنا إلى بيت جدّي، وبعدما تناولنا طعام الغداء معًا، جلسنا في غرفة الجلوس نحتسي الشاي. كانت أحاديثهم اعتيادية، لا شيء مميّز. كنتُ عابسًا لا أشاركهم الحديث، حين نظر جدّي إليّ وسألني:

- عمر! حدّثني عن أخبارك؟

أخباري؟! كنتُ سأجيبه أنّه لا خبر لديّ سوى أنّي غير راضٍ عن قرار والدتي بانفصالها النهائيّ عن والدي، لكن ما الفائدة من أن أتفوّه بذلك، وهما يؤيدان ابنتهما مهما فعلت؟ أذكر كيف عقدتُ الآمال حين

زرناهما بعد طلاق والدتي بيومين؛ توقّعتُ أن أجد منهما أيّ إشارةٍ تدلّ على تأثّرهما بما حدث، أن ينصحاها بالتراجع، أن يتدخّلا لإصلاح الأمر بين والدتي ووالدي، لكن لا، تصرّفا بشكلٍ طبيعي، وكأنّ حدثًا ضخمًا مثل طلاق ابنتهما لم يقع!

بالنسبة إليهما، كلّ ما تفعله هيام صحيحٌ وغير قابلٍ للنقاش، وكلّ ما ترغب به يجب أن يتحقّق. ورغم أنّها ليست الكبرى ولا الصغرى بين إخوتها، إلا أنّها تحظى بالنصيب الأكبر من محبّة جدّي ودعمه غير المحدود. حين قرّر والدي أن يعيش في منزلٍ منفصل السنة الماضية، عرض جدّي على والدتي كلّ الخيارات: أن تسكن معهما، أو تبقى في منزلها، أو أن يشتري لها منزلًا آخر في الحيّ الذي تفضّله... أو أو أو... وببساطةٍ، فضّلت والدتي أن نبقى في منزلنا، ووافقها جدّي مباشرة. لا مشكلة لديه في أي قرارٍ ما دام يُسعد هيام. وبالطبع، لا يمكن بأيّ حالٍ أن يعاملها والدي بهذه الطريقة التي اعتادت عليها، لذا كان من المستحيل أن يرضخ أيٌّ منهما للآخر، فعاش كلٌّ منهما بالطريقة التي ترضيه دون أخذ رأي شريكه بالاعتبار.

أجبتُ جدّي ببرود:

- لا جديد لديّ!

- وكيف هو استعدادك للسنة الثانية؟
- لا يوجد استعدادٌ خاصّ، هي سنةٌ كسابقتها.

نظرتْ إليّ والدتي وقطّبت حاجبيها، فأسلوب كلامي لم يكن مناسبًا مع جدّي، لكنّي كنتُ مستاءً من الجميع، ولم أستطع أن أرسم حتّى ابتسامةً مزيفة على وجهي. ومع ذلك استدركتُ وقلتُ له:

- على كلّ حال، آمل أن تكون المواد أسهل.
- أنت ذكيٌّ ومجتهد كوالدتك، ولن يصعب عليك شيء.

أومأتُ له برأسي، ثمّ تذرّعتُ بأنّ لديّ بعض المهمّات الملحّة واستأذنته. توجّهتُ نحو غرفة المكتب في الطابق السفلي، ورحتُ أنظر إلى المرآة الضخمة التي تتوسّط الحائط ريثما يقلع الحاسوب. ويلاه، كم كان وجهي عابسًا! حاولتُ أن أفرد حاجبيّ بإصبعي، ومع ذلك بقي وجهي مفزعًا.

اتّصلتُ بالإنترنت، فتمّ الأمر بسهولةٍ ويسر. كلّ شيء في بيت جدّي سريع، عدا ردود الأفعال! رحتُ أتصفّح بريدي الإلكترونيّ وموقع الكلية، وبعد عشر دقائق شعرتُ بحركةٍ تحت الطاولة، فعلمتُ أنّها ألما، قطّة جدّي، التي خرجت من تحت الطاولة وهي تتمايل وتتمختر بفروها الرماديّ المميّز. حمدتُ الله أنّني لم أخطُ عليها دون أن أشعر، إذ لا يجرؤ

أحدٌ على إزعاج المدلّلة ألما، فهي شيرازية ذات مزاجٍ صعب. استدارت نحوي وأخذت تنظر إليّ بوجهٍ عابسٍ يشبه الوجه الذي رأيته قبل قليل في المرآة. قلتُ لها وهي تحدّق بي:

- ابتسمي! حاولي على الأقل!

لم يعجبها الكلام، فتجاهلتني وقفزت على الأريكة التي تتصدّر المكتب لتكمل غفوتها ودلالها.

وردة الربيع

هي ليست انحناءةً بسيطةً في الشفاه فقط، بل هي لغةُ الروح وأجملُ تعبيرٍ عن التفاؤل، وعلاجٌ نفسيٌّ يبعث على الراحة والسكينة، ويُحرّرنا من توتّر الأيام. ففي اللحظة التي نرسم فيها ابتسامةً على وجوهنا، نغمر أنفسنا بطاقةٍ تنعكس على من حولنا دون أن ننطق بكلمة. فالابتسامة لغةٌ يفهمها الجميع، تصل إلى القلوب مباشرةً، وتفتح الأبواب المغلقة.

وفي ديننا الحنيف، الابتسامة ليست مجرد ردّة فعلٍ عابرة، بل عبادةٌ يُؤجر عليها الإنسان، وصدقةٌ لا تكلّفنا سوى دفء قلوبنا، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "تبسّمك في وجه أخيك صدقة"؟ فأحيانًا قد تكون تلك الابتسامة التي تستقبل بها صديقك أو جارك، أو شخصًا تقابله بالصدفة، هي ما يحتاجه ذلك الشخص ليشعر أنّ الحياة ما تزال تنبض بالحبّ والدفء.

قد تمرّ بأوقاتٍ عصيبة، وقد تشعر أنّ العالم كلّه يقف ضدّك، فلا تدع ابتسامتك تتأثّر، بل اجعلها علامة قوةٍ وإصرار، وبرهانًا على يقينك بأنّ الغد يحمل بين طيّاته ما هو أفضل.

ابتسم! فالحياة أجمل حين نواجهها بابتسامةٍ وأمل. ابتسم! ماذا تنتظر؟

عمر أغسطس 2004 – العطلة الصيفيّة

استيقظتُ مفعمًا بالنشاط والحماس، فآدم سيرافقني في جولاتي الميدانيّة لهذا اليوم. لم أكن على معرفةٍ مسبقةٍ بآدم قبل التحاقي بالكلية، ورغم ذلك نشأت بيننا علاقة صداقةٍ متينة. هو شخصٌ صريحٌ ومباشر، ويهتمّ لأمر الآخرين، يغلب عليه طابع المرح الذي أفتقده بشدّة في نفسي. فأنا لم أكن بهذه الجدّية حين كنتُ طفلًا، لكن مع ازدياد إدراكي لسوء العلاقة بين والدي ووالدتي، بدأتُ أتغيّر، ولم أعد أجيد المزاح، فصارَت شخصيّتي تتّسم بالهدوء والصرامة المبالغ فيها. لذا، حين قابلت آدم، لفت انتباهي ببساطته وفكاهته وروحه المرحة.

جهّزت نفسي وانطلقت إلى الجمعية، وهناك التقيت بآدم، وأخذت بعض الأدوات من مكتبي الصغير.

جمعية "سنابل الخير"، هذا المركز الخيريّ الذي تأسّس قبل أكثر من عشرين عامًا، بمبادرةٍ من جدّي وعددٍ من أصدقائه، الذين تولّوا إدارته لسنواتٍ طويلة. وحين تقاعد جدّي، لم يعد يترشّح لمجلس الإدارة، بل بات يُشرف على الجمعية بشكلٍ غير رسميّ، يمرّ ويُدلي برأيه، ويستشيره الجميع، وبقي الأبَ الروحيَّ للجمعيّة. أمّا والدتي كانت من أبرز

المرشّحين لتولّي منصبٍ إداريّ مهم، فقد كانت اليدَ اليمنى لجدّي منذ البدايات؛ تتولّى تخطيط الفعاليات وتنسيق البرامج، كما كانت الواجهة الأساسية لمعظم الأنشطة والفعاليّات الخيريّة. لذلك بقيت والدتي قريبةً من تفاصيل العمل في كلّ مراحله، واكتسبت خبرةً واسعةً لا يُستهان بها في مجال العمل الخيري.

بصفتها: سيّدة مجتمع، تؤمن والدتي بأنّ لديها واجباتٍ ومسؤولياتٍ تجاه ذلك المجتمع، ورغم أنّي كنتُ مستاءً من انخراطها الشديد في الجمعية واستنزافها لوقتها وجهدها بالكامل في نشاطاتها، إلا إنّي، وفي نهاية المطاف، وجدتُ أنّ انضمامي إلى قائمة المتطوّعين في الجمعية سيكون حلًّا جيّدًا؛ فمن جهةٍ لا شيء أجمل من العمل الجماعي والخيري، ومن جهةٍ أخرى، بانضمامي إلى فريق العمل أستطيع أن أوجد مساحةً مشتركةً مع والدتي على الأقل، أو هذا ما ظننته. فما إن انخرطتُ أكثر في تفاصيلهم واجتماعاتهم، حتّى اكتشفتُ أنّ ثمة خللًا في مفهوم العمل الخيريّ عند كثيرٍ من الأعضاء.

لكن مع هذا وذاك، أحببتُ الجمعيّة، وعلى الرغم من أنّ صفتي فيها طيلة السنوات الماضية هي "متطوّع"، إلا أنّ أغلب مدراء الأقسام يعتمدون عليّ كما لو أنّي عضوٌ فاعل، سيّما في الأوقات التي يزداد فيها

ضغط العمل. لذا فقد خصّصوا لي مكتبًا صغيرًا في زاوية إحدى الغرف، لكثرة نشاطاتي وأوراقي وحاجياتي.

وصل آدم في الموعد المحدّد، فانطلقنا إلى مركز المسنّين في الحيّ الذي نشرف عليه، وبدأنا الجولة. ففي العادة، تشرف كلّ جمعيّة على منطقةٍ ما في المدينة، فتُعنى بأيتامها ومسنّيها وأراملها والنساء اللواتي ليس لديهنّ عائل، وذوي الاحتياجات الخاصّة، والمرضى، وكلّ من قد يحتاج معونةً مؤقّتةً أو دائمة، أيًّا كانت تلك المعونة: ماديّةً أو معنويّةً أو طبيّة، ناهيك عن مراكز التأهيل للعمل.

كنتُ أراجع أوراقي حين قلتُ لآدم:

- علينا أن نتفقّد عشرة مسنّين اليوم.

أومأ لي دون أن يتحدّث، وكنتُ أتفهّم شعوره؛ فهي المرّة الأولى بالنسبة إليه، ولا بدّ أنّه مرتبكٌ بعض الشيء.

دخلنا الغرفة الأولى، حيث العم أبو سالم، تبادلنا بعض الأحاديث الروتينيّة، ثمّ بدأتُ بتفقّد القائمة التي بحوزتي لأتأكّد من أنّه يحصل على كلّ ما يحتاج من رعايةٍ ودواءٍ ولوازم وخدمات. أخبرني العم أبو سالم بأنّ صحّته ليست على ما يرام، ووصف لي بعض الأعراض التي يعاني

منها، فوضعتُ ملاحظةً لضرورة الكشف الطبي وطمأنته أنّنا سننظر في الأمر سريعًا، ونحدّد موعدًا مع المستشفى لإجراء الفحوصات الدوريّة اللازمة. دونتُ بعض الملاحظات والأشياء التي تنقصه، بينما كان آدم صامتًا، لم يشارك بأيّ حديث، مع أنّي كنتُ أعوّل على ظرافته وخفّة دمه لترطيب الأجواء الكئيبة التي تخيّم على الغرف. ومجدّدًا تفهّمتُ حالته، لكن قلتُ في نفسي: لم يرَ شيئًا من الشقاء بعد! ماذا سيفعل حين ندخل الغرف التالية؟

لم أنهِ تساؤلي حتّى فتح لنا العم أبو عبد القادر باب غرفته، ودخلنا. وكما توقّعت، تغيّرت ملامح آدم، لا سيّما حين علم بأنّ العم أبا عبد القادر مصابٌ بالزهايمر. وبعد مرور أكثر من ساعة، ازدادت حالة آدم سوءًا، فكلّ غرفةٍ ندخلها تحمل قصة كهلٍ في أواخر عمره، يشكو وحدته قبل أي شيءٍ آخر. ومع كلّ محاولاتنا لتحسين أوضاعهم، إلا أنّ إمكانيات الجمعية محدودة، ولا نستطيع وضع كلّ الميزانية في مجالٍ واحد فقط.

وحين لم يتبقَ سوى غرفتين، كان آدم قد انهار تمامًا، ودموعه تنهمر بلا توقّف رغم محاولاته لكبتها. طلبتُ منه أن ينتظرني وألا يرافقني، إذ أشفقتُ على حاله. وافق آدم على اقتراحي، فمضيتُ لاستكمال المهمّة.

أفهم حال آدم رغم أنّي لم أعايشها، فأنا لم يكن لديّ تجربة "المرّة الأولى"، إذ كنتُ على تماسٍ دائمٍ بهذه القصص والزيارات والفعاليات منذ كنتُ طفلًا صغيرًا، لذا تناثرت مشاعر التجربة الأولى على دفعاتٍ، مما خفّف من حدّتها. ورغم ذلك، تمرّ عليّ حالات تجعلني أنهار تمامًا كما انهار آدم اليوم.

أنهيتُ المهمّة وعدتُ إليه، حيث كان ينتظرني بعينين متورمتين ونفسيّةٍ مرهقةٍ للغاية. سحبته من يده، وقبل أن ننطلق عائدين، اقترحتُ عليه أن نجلس في حديقةٍ مجاورة كي يرتاح قليلًا، فطريق العودة طويل، ومن الأفضل أن يستجمع قواه.

جلسنا على أحد الكراسي، فسألته بقلق:

- آدم! هل أنت بخير؟ ما الأمر؟

ردّ بحدّةٍ ممزوجةٍ بالألم:

- ما بك يا عمر؟ كيف تسألني سؤالًا كهذا، ألا تعلم ما الأمر؟
- أعلم، لكن لم أتوقّع أن تنفعل لهذه الدرجة.

نظر إليّ باستغراب وسألني:

- بالله عليك، كيف تحافظ على هذا الثبات الانفعالي؟ كيف تستطيع التعامل مع هذه الحالات الإنسانيّة دون أن تنهار؟

أخذتُ نفسًا عميقًا ثمّ أجبته:

- آدم! لن أتمكّن من مساعدتهم إن تعاملتُ معهم بعاطفةٍ مفرطة، بل سأزيد الأمور سوءًا. لا شيء أسوأ من نظرة الشفقة؛ فهي تشعرهم بالعجز والقهر. لذا أتعامل وكأنّ الأمر طبيعيّ تمامًا: شخصٌ بحاجةٍ إلى مساعدةٍ ما، وأنا هنا لأسمع طلباته وأسعى لتأمين احتياجاته وتقديم العون بالقدر الذي أستطيع، بثباتٍ ودون انفعال.
- تتحدّث وكأنّك رجلٌ في الأربعين! لم أكن أعلم أنّ لديك هذا الجانب الحكيم والمتّزن.

صمتُّ قليلًا، وأخذني تفكيري إلى مكانٍ آخر...

قلتُ في نفسي: عن أي حكمةٍ واتزانٍ تتحدّث يا آدم؟ ليتك تراني وأنا غاضبٌ وحانق، فأنا، حتّى لو كتمتُ ما في قلبي، أتعمّد إزعاج من حولي في المنزل، ولا أستطيع السيطرة على مشاعري بشكلٍ جيّد في تعاملي مع أهلي، ووالدتي على وجه الخصوص.

لاحظ آدم أنّني غارقٌ في أفكاري فسألني:

- عمر! ما بك؟

مسحتُ وجهي براحة يدي، وتنهّدتُ بألم، ثمّ نظرتُ إلى السماء وقلتُ:

- لستُ حكيمًا أو متّزنًا إلى هذا الحدّ، لا تنخدع بي.
- هلّا أوضحت؟
- منذ بضعة شهور، انفصل والداي رسميًّا...

تفاجأ آدم وقاطعني:

- عمر، ماذا تقصد؟ لم أفهمك!
- تطلّقا.
- كيف ومتى؟
- لا تستغرب كثيرًا، لم يحدث الأمر بين ليلة وضحاها، بل على مراحل.
- سامحك الله، لماذا لم تخبرني؟ ألستُ صديقك؟
- لم يكن شيئًا جديدًا، اعتدتُ الأمر.
- لا يبدو عليك أنّك اعتدته.

ابتسمتُ ساخرًا وقلتُ:

- لقد اعتدته، صدّقني!

تنهّد آدم ثمّ قال:

- وما الذي كنتَ تودّ قوله؟
- لا أستطيع تقبّل الفكرة، ولا أتصرف بحكمةٍ أو اتزانٍ فيما يخصّ هذا الأمر.

شعرتُ أنّه على وشك التأثّر من جديد، فقلتُ له:

- ألن تسألني مع من أقيم؟

ابتسم بحزنٍ وسألني:

- مع من؟
- مع والدتي، فأبو عمر على وشك الزواج مرّة أخرى.

التفتُّ بغضبٍ إلى الناحية الأخرى، فشعر آدم بتخبّط مشاعري، وربّت على كتفي وهو يقول:

- لا تجعل هذا الأمر يزعجك يا عمر، فهذا حقّه الطبيعي، أليس كذلك؟

- أتعلم؟ والدتي متصالحةٌ مع فكرة زواجه ولا تشعر بأيّ حرجٍ أو انزعاج.
- إنّها تؤمن بالنصيب، هذا كلّ ما في الأمر.
- ماذا عن شعوري أنا؟ الأمر مؤلمٌ يا آدم.
- أعلم، لكنّك ستجتازه، تحتاج بعض الوقت، وكلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، صدّقني.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وشعرتُ بالارتياح لأنّي بحتُ لأحدٍ بما يختلج في صدري. وقفتُ والتفتُّ حولي، ثمّ سألتُ آدم:

- هل نأكل شيئًا؟ أشعر بالجوع.
- وأنا أيضًا، دعنا نبحث عن مكانٍ نأكل فيه.

مشينا قليلًا، فوجدنا مطعمًا متواضعًا في الحي، اشترينا بعض الشطائر وتناولناها بنهمٍ وشهيّة، إذ استهلك هذا الاستنزاف العاطفيّ كلّ قوانا. فرغنا من الطعام، ثمّ انطلقنا عائدين، وقبل أن نفترق، قلتُ له:

- بالمناسبة، ألم يأنِ الأوان للاستفادة من خبرتك؟
- عن أيّ خبرة تتحدّث؟
- سأتسلّم الإشراف على الفعاليات الرياضية للأطفال بدءًا من الأسبوع المقبل، أريدك أن تساعدني في هذه المهمّة.

نظر إليّ بحيرة، ثمّ قال:

- إن شاء الله.
- كن أكثر استعدادًا وحذرًا، فالتعامل مع الأطفال واليافعين دقيقٌ للغاية.
- كلامك يقلقني.
- لا عليك، ركّز على هدفٍ واحد: إسعادهم وإدخال السرور إلى قلوبهم، ولن أقحمك بتفاصيل حياتهم، اتفقنا؟
- حسنًا.
- آدم! أنا بحاجةٍ ماسّةٍ لشابّ مثلك ضمن المتطوّعين، صدّقني ستضفي الحماسة والروح المرحة على الفعاليات وترسم البهجة على وجوه الأطفال. سيحبّونك كثيرًا، أرجوك لا تُخيّب أملي.
- سأحاول، أعدك بذلك!

جود   سبتمبر 2004 – السنة الثانية

عدتُ من الكلية متعبةً للغاية، تبدو السنة الثانية أصعب من سابقتها، ورغم أنّنا ما نزال في بداية الفصل، إلا أنّ المحاضرات مكثّفة والمواد متنوّعة وليست يسيرة. صلّيت العصر ثمّ استلقيت على سريري، أبحث عن لحظة راحة بعد هذا اليوم المرهق. وما إن بدأ النعاس يتسلّل إلى عينيّ، حتّى اشتدّ الجدال بين والديّ، ورغم أنّ باب الغرفة مغلق، إلا أنّ صوتهما وصلني بوضوحٍ فأفزعني. قلت في نفسي لعلّها دقائق ويهدأ الوضع، لكنّ وتيرة الشجار كانت ترتفع أكثر فأكثر، فعلمت أنّ لا أمل لي بنومٍ هانئ.

حاولت أن أتذكّر: متّى كان آخر شجارٍ حادّ بينهما؟ لعلّه الشهر الماضي... إذن لا بدّ من تجديد العهد!

آثرت البقاء في غرفتي، فلا طاقة لي بمشاهدة المشهد بصورة كاملة، واكتفيت بالصوت. بقيت مستلقية على سريري حتّى دخلت ريم فجأةً وهي في حالة اضطراب، فنهضت وسألتها:

- ما موضوع شجار اليوم؟

- كما توقعتِ، لن يسمح لنا غدًا بالذهاب إلى الفطور الجماعي في المقهى مع صديقات والدتنا.
- وما حجّته هذه المرة؟
- لا يحبّ هذه الأجواء. قال: لماذا تجتمع النساء خارج المنزل للأكل والضحك، وقد يسمعهنّ القاصي والداني؟ ثمّ أضاف غاضبًا: وبعضهن قد يدخن أو يطلبن الأركيلة.
- من أين أتى بهذه المعلومة؟ أغلب صديقات والدتك لا يدخن، فقط اثنتان.
- وهذا كافٍ ليجعل الجلسة مشبوهة بنظره.
- وأنتِ لماذا تبكين؟ هل نالكِ شيءٌ من الصراخ؟
- بالطبع!
- قلت لكِ لا تتدخّلي... كم أنتِ عنيدة!
- حزنت على والدتك، لا أفهم لماذا تصرّ على الذهاب!
- حين تصرّ على أمرٍ يرفضه والدنا، تشعر كأنّها تدافع عن حقٍّ من حقوقها.
- ولماذا كلّ هذا الإصرار والجدال؟ هي تعلم في النهاية أنّه لن يسمح، وأنّ قراره سيُنفّذ.

- هذا جزءٌ من شخصيتها. جدّك -رحمه الله- كان هينًا لينًا، لا يقف عند مثل هذه التفاصيل، المسكينة صُدمت بعد الزواج. أتعلمين؟ من الجيد أنّها استطاعت مسايرة والدكِ بعض الشيء، ولولا لذلك لما عرفنا الشارع، ولغدونا حبيسات المنزل، لا نذهب سوى للمدرسة ونعود منها.
- أنتِ تفهمين الشخصيات بطريقة مدهشة يا جود. ليتني أعلم كيف تتحمّل والدتكِ مزاجه؟!
- ليس لديها خيار، جزاها الله خيرًا، تتحمّل كلّ هذا لأجلنا.
- من قال؟ هي تحبّه، وستدافِع عنه بعد قليل.

ارتفعت الأصوات مجددًا، فسألتني ريم بخوف:

- هل نتدخّل؟
- لا تزيدي الأمر سوءًا. سيتعاظم غضب والدك لو وقفنا في صفّها، وفي كلّ الأحوال لن نذهب غدًا. الأفضل أن ينهيا الأمر وحدهما.
- إذن لا أمل في المشوار.
- مع الأسف لا، كنتُ أتمنى الذهاب فعلًا، صديقات والدتنا لطيفات وأحاديثهنّ ممتعة.

صمتنا، ثمّ لاحظنا أنّ الشجار قد توقّف. خرجنا من الغرفة، فوجدنا والدي قد غادر المنزل غاضبًا، بينما كانت والدتي تجلس في غرفة المعيشة والدموع على خدّيها. عانقناها أنا وريم، ثمّ اقترحنا مشاهدة فيلم معها. وافقت، فأحضر كرم بعض المأكولات الخفيفة، وجهّزنا الفشار، وجلسنا معًا.

وما إن بدأ الفيلم حتّى عادت ابتسامتها تدريجيًّا، وبدأت تندمج معه. كنت أفهم شعورها؛ فجلسة كهذه مع أولادها تكفي لتجبر قلبها المنهك وتمنحها بعض القوة من جديد. وكما توقعت ريم، لم تخلُ الجلسة من كلمات دفاعٍ عن والدي، وكأنّها تخشى أن يترك شجارهما فينا مشاعر نفورٍ تجاهه.

غمزتني ريم بمكر، وواصلنا المشاهدة، لكنّي لم أستطع التركيز في أحداثه، ففي البداية كنتُ أراقب ملامح والدتي، وبعدما أطمئنّ قلبي عليها، شردت، وسرحت في عالمٍ آخر.

كنت أفكر: يومًا ما، حين يجمعني القدر بفارس أحلامي، أنا متأكدة أنّه لن يجرحني أو يكسر قلبي. سيكون حازمًا، نعم، لكن حدوده ستكون الحلال والحرام لا المزاج والعادات. سيكون منطقيًا في رفضه، واضحًا

في كلامه، رفيقًا في أسلوبه، وإن رفض شيئًا لسببٍ غير شرعيّ، سيقول بهدوء: أنا أغار عليكِ، هذا كلّ ما في الأمر.

لا يرحل غاضبًا، لا يظلم، ولا يصرخ، ولا يؤذي أحدًا بالكلمات.

سيكون رفيقًا بالقوارير... أنا متأكدةٌ من ذلك.

جود　　　　فبراير 2005 – السنة الثانية

مرّ عامٌ كاملٌ يا أُسيد، بفصوله، وشهوره، وأيّامه، بساعاته، ودقائقه، وثوانيه التي لم تفارقني فيها أبدًا. قبل ذلك اليوم، لم أكن حتّى على درايةٍ باسمك! أتساءل: كيف تتحوّل أسماء الأشخاص وتتغيّر؟ فقد كنت (الشخص الذي لا أعرف)، ثمّ أصبحت (الشخص الذي يلفتني)، لينتهي الأمر إلى (الشخص الذي أحبّ).

فبراير 2004، كيف لي أن أنسى تلك الأيّام؟! كان النّهار ما يزال قصيرًا، خرجت من القاعة بعد انتهاء المحاضرة، وصعدت بخطىً سريعةٍ على الدرج متّجهةً نحو المصلّى لإقامة صلاة المغرب، وفي الركعة الأخيرة سمعت أحدهم يقيم الصلاة في المصلّى المجاور لنا والمخصّص للرجال، وبصوتٍ جهوريٍّ وواضحٍ، كبّر فكبّر وراءه البقيّة، وحين بدأ بتلاوة سورة الفاتحة، تسمّرتُ في مكاني، كان صوته جميلًا، لم أسمع بحياتي أجملَ وأجودَ من ترتيله. أردت أن أعرف من هو، فانتظرتُ حتّى أتمّوا الصلاة، قلت في نفسي: كيف سأعرف أيّهم كان الإمام؟! كنت أحاول النظر من طرف عيني، وأنا أتظاهر بأنّي أبحث عن شيءٍ في حقيبتي. وما إن هممتُ بالتحرّك حتّى قال أحدهم: "ما شاء الله،

تلاوتك رائعة، ستؤمّنا في كلّ مرّة، اتّفقنا"، وربّت على كتف شابٍّ كان يُحكم ربط حذائه. نظرتُ إليه نظرةً خاطفةً وسريعةً، فرأيته يبتسم وهو يجيب: "إن شاء الله". عرفته على الفور، هو من دفعتنا، لم يخطر ببالي أن يكون هذا الشابّ على هذا القدر من الإتقان في التلاوة!

بدأت أراقبه، وألاحظ تصرّفاته، شخصيّته قويّة، معتدٌّ بنفسه، ملامحه هادئة، ذكيٌّ جدًّا، وذو نظرةٍ ثاقبة، والأهمّ من هذا كلّه أنّه يبدو ملتزمًا دينيًّا. لا يُحادث الفتيات، وهو جادٌّ للغاية. لم أستطع أن أصل إلى اسمه، وبعد قليلٍ من التحرّيات تبيّن لي أنّ اسمه أُسيد، أُسيد الذي لم أستطع إلّا أن أُعجب به، لم تمرّ بعدها إلّا بضعُ أسابيع حتّى أفصحتُ لجُمان عن مشاعري تجاهه، إذ كنتُ أراقبه وأرتبك حين يكون أُسيد بجوارنا، فكان لا بدّ أن أشرح لها الأمر، وأريح نفسي من تبرير اضطرابي. في بداية الأمر لم تقتنع جُمان بهذا الإعجاب المفاجئ، واعتبرت مشاعري حالةً عابرة، ومع الوقت، وحين لاحظت جُمان ازدياد تعلّقي به، أبدت استنكارًا حول الأمر، صرّحت جُمان منذ البداية بأنّها لا تجد توافقًا بيني وبينه بالأساس، بعدها أخذ كلامها منحًى آخر، ألّا وهو نصحي بألّا أتعلّق به، لكنّها وفي الآونة الأخيرة استسلمت للأمر، ورغم ذلك ما أزال أشعر بأنّها تسايرني لا أكثر، إذ إنّها مقتنعةٌ تمامًا أنّنا غير ملائمين لبعضنا بالأساس، ناهيك عن كون مشاعري من طرفٍ واحدٍ لا غير!

أمّا أنا فأشعر أنّه نصفي الثاني الذي يُكمّلني، لطالما دعوتُ الله ولا أزال، أن يرزقني زوجًا صالحًا، يفهم الدين، ويدرك المغزى منه، مسلمًا قويًّا في دينه، وعلمه، أبني معه لبنةً صالحةً، وأسرةً في سبيل الله. وأنا على ثقةٍ بأنّي لن أخيب، فحبّي له ليس كحبّهم لبعضهم.. إنّما هو حبٌّ في الله.

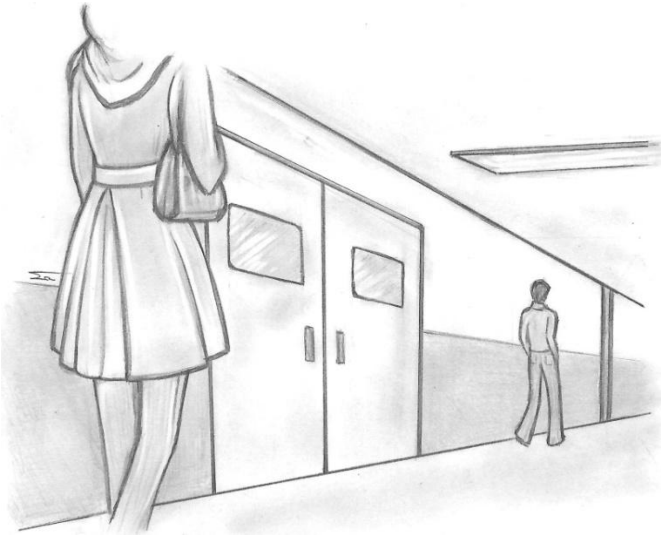

عمر فبراير 2005 – السنة الثانية

كنتُ أُعدّ كوبَ القهوة بالحليب، حين دخلت غالية إلى المطبخ وبدأت بلومي قائلةً:

- لماذا لم تُخبرني لأُعدَّه لك؟

ابتسمتُ وقلت:

- لا عليكِ، لقد تعبتُ من الجلوس والدراسة، ما الضير إن تحرّكت مفاصلي؟
- هل أُحضّر لكَ ما تأكله؟
- لا أمانع في شطيرةٍ من الزبدة والمربّى بعد قليل.
- سأعدّها حالًا.
- هل قدّمتِ الطعام لفهد؟
- نعم، وأنهى وجبته وخرج ليتنزّه.
- شكرًا لكِ!

وبينما كنتُ على وشك الرجوع إلى غرفتي، رنّ الهاتف، فأجابت غالية، ومن ثمّ نادت والدتي:

- سيّدة هيام! السيّد مالك ينتظر على الهاتف.

السيّد مالك؟! ماذا يريد؟ لقد مررتُ صباحًا على الجمعية وتحدّثتُ إليه، وبالعادة يُرسل معي الأخبار أو العقود لوالدتي إن احتاج توقيعها. عدتُ إلى غرفتي، وما إن استأنفتُ دراستي، حتّى طُرق الباب.

- من؟
- أنا والدتك.
- تفضّلي.

دخلتْ والدتي الغرفة ووجهُها مشرقٌ من الفرحة، وقالتْ بحماس:

- لديّ خبرٌ سارٌّ زفّه لي السيّد مالك الآن!

سألتُها باستغراب:

- ما الأمر؟

ثمّ تمتمتُ بصوتٍ خافتٍ للغاية: "هل طلب يدكِ للزواج؟"، أجابتني:

- تمّ ترشيحك لمنصبٍ إداريٍّ في الجمعية. ألفُ مبارك!

نظرتُ إليها بشيءٍ من الدهشة وقلت:

- أهكذا يتمّ التعيين؟ دون أيّ مسابقاتٍ أو إجراءات؟ ألأنّي حفيدُ عزمي باشا؟

ابتسمت والدتي قائلة:

- عمر! كم تُحبّ أن ترتدي عباءة المثاليّة! وترمي الاتهامات هنا وهناك معتقدًا بأنّ كلّ شيءٍ من حولك فاسد! بالطبع لا يتمّ التعيين لهذه الأسباب، أنتَ تعمل مع الجمعية بصفة متطوّعٍ رسميٍّ منذ ثلاث سنوات، وأغلب الأعضاء يعرفون اجتهادك وتفانيك. طرحوا اسمك مرّاتٍ عديدة، والآن حان الوقت. أرجوك، لا تتسرّع باتّهامنا بالفساد.

قلتُ لها:

- إذا كان الأمر كذلك، أليس من الأفضل أن يعرضوا الأمر عليّ أوّلًا؟
- سيتواصلون معك قريبًا، لكنّ السيّد مالك، وكونه المسؤول عن قسم الموارد البشريّة في الجمعيّة، اتّصل بي أوّلًا لأكون أوّل من يزفّ لك الخبر، ألا أستحقّ هذه الفرحة؟

صمتت قليلًا، ثمّ أردفتْ:

- على كلّ حال، القرار يعود إليك في قبول المنصب أو رفضه. لن أضغط عليك، وأرجو أن تعتبر هذا تصرّفًا إيجابيًّا من ناحيتي، ولا تُضِفه إلى سلبيّاتي التي دائمًا ما تذكرها، فعندما تركتُ لكَ حرّيّة الاختيار بعد طلاقنا، اعتبرتني لا أكترث ولا أتمسّك بك.
- أمّي، لا رغبة لي في النقاش الآن، لديّ مهمّاتٌ عليّ إتمامها.

نظرت إليّ بعتابٍ قائلة:

- أتمنّى لو كانت هناك مرآةٌ تعكس لكَ تصرّفاتك معي.
- وأنا أتمنّى ذلك أيضًا.

فقالت بنبرةٍ حزينة:

- لا أفهم لماذا تُحبّ أن تنتزع فرحتي؟

لم أجب، وقبل أن تخرج من الغرفة قالت لي:

- بالمناسبة، سمعتُ سؤالك السخيف قبل قليل، تعليقاتك ليست ظريفةً أبدًا، حذاري أن تُلقي النكات، فأنتَ لا تُجيدها.

ثمّ نادت على غالية:

- غالية! سأخرج الآن. قد أبيتُ عند والديّ الليلة.

ودّعت غالية وغادرت. وبالفعل، باتت عند جدّي تلك الليلة. أحيانًا أشعر أنّ مشكلات والديّ أصبحت بيني وبين والدتي بعد طلاقهما. لعلّها تبحث عمّن تُجادله، وأنا المرشّح الأنسب لتلك المهمّة، ابنُه الذي ورث طباعه!

فكّرتُ مجدّدًا بمنصب الجمعية وسألت نفسي: لِمَ اعتبروني مرشّحًا مناسبًا لإدارة قسمٍ ضخمٍ؟

فتحتُ جهازي الحاسوب لأراجع معلومات الأقسام، وأطّلع عليها، إذ لديّ نسخةٌ عن ميثاق الجمعية وملفّاتها الأساسيّة كلّها، الإداريّة منها والإعلانيّة، ففي آخر تحديثٍ لها، كنتُ مسؤولًا عن تحريرها قبل الطباعة النهائيّة.

قسم الأيتام! هل حقًّا سأقبل بالمنصب؟ إنّها مسؤوليّةٌ كبيرة! والسؤال الأهمّ: هل سأستطيع تحمّل هيئة الأعضاء؟ وكيف سأصبح جزءًا منهم؟ فالاحتكاك بهم بصفة متطوّعٍ يختلف عن فكرة الانتماء إليهم. لا أُحبّ طريقتهم، وأشعر بأنّ وراء عملهم وتفانيهم أسبابًا أكثر من تقديم العون والمساعدة للمحتاجين. كيف سأدخل هذه المنظومة وأحضر اجتماعاتهم؟! أنا متأكّدُ بأنّي سأصطدم معهم! لا أشعر برغبةٍ في قبول المنصب.

في المقابل، ثمّة أحلامٌ كبيرة، واقتراحاتٌ لطالما عرضتُها على المدير السابق لقسم الأيتام، وقوبلت بالرفض. لذا، كيف سأُضيّع فرصةً كتلك؟ فرصةٌ تمنحني سلطةً تمكّنني من تنفيذ الأفكار والمشاريع التي أحلم بأن تُقدَّم للأطفال.

أشعر بالحيرة الشديدة! وليس لديّ من أُناقش الأمر معه. فحتّى آدم، إن سمع كلامي فسيستنكره، وإن سألته سيُجيبني: "وافق وخذ الأمر ببساطة".

لا! لا أستطيع أخذ الأمر ببساطة. ثمّ ما بالها والدتي؟ لِمَ كلّ هذه السعادة والحماسة؟ هل تودّ أن تتباهى أمام صديقاتها ونسوة المجتمع خاصّتها باستلامي منصبًا في الجمعية؟

أغلقتُ الملفّات جميعها، وعرجتُ على بريدي الإلكترونيّ وبعض المواقع الإلكترونيّة، وحين وصلتُ إلى منتدى الكلّية، تصفّحتُ بعض المواضيع، فإذا بتلك الفتاة مجدّدًا، تُعلّق على مواضيع السنة الثانية، لا بدّ وأنّها طالبةٌ من دفعتنا نفسها بالفعل. وبالرغم من أنّ عدد الفتيات الملتحقات بالمنتدى من دفعتنا قليلٌ جدًّا، إلّا أنّ وردة الربيع تلك تبدو نشيطةً ومتحمّسةً.

وردة الربيع

ما أجمل النيّة؟! إحساسٌ داخليٌّ يُعقَد في القلب، فيُغيّر المعادلة، بل يُغيّر معنى الحياة! فالنيّة لا تقتصر على كونها المُحرّك والدافع لما نقوم به، بل هي المُحوِّل الذي يجعل من الأعمال الاعتياديّة أعمالًا نبيلةً، وأجورًا جليلةً بإذن الله.

لا يهمّ إن كنت تدرس، تعمل، تقرأ، تتأمّل، تتنزّه، تُنظّف المنزل، تأكل، أو حتّى تنام! ما يُحدّد قيمة ما تفعله هو نيّتك.

اسأل نفسك: لماذا أدرس؟ لماذا أحافظ على صحّتي؟ لماذا أتعامل بإحسانٍ مع الناس؟ لماذا ألتقي مع أقربائي وأصدقائي؟ لماذا أهتمّ بمظهري ونظافة ما حولي؟ أَلِأنالَ رضى الآخرين؟ أم لأكون صورةً ونموذجًا للمسلم القويّ، بعلمه ودينه وصحّته وثقافته وماله وفهمه للدنيا؟

لماذا أجمع المال؟ لأتفاخر به؟ أم لأكون مقتدرًا على كفاية نفسي وعائلتي ومساعدة الآخرين؟

أأقرأ لأتعلّم وأُفيد من حولي؟ أم لأتكبّر وأتعالى عليهم؟

أم لعلّي لا أعلم الإجابة؟ ولستُ لا من هؤلاء ولا من هؤلاء؟! وأفعل ما يفعله الآخرون، وأصبو إلى ما يصبو الجميع إليه، دون أن أُدرك لماذا؟ ومن أجل ماذا؟

"ما هي دوافعي؟" اسأل نفسك دومًا هذا السؤال، وابحث عن إجابةٍ تزيد من رصيد حسناتك، واجعل كلّ نَفَسٍ تتنفّسه عبادةً وأجرًا بإذن الله.

وبالمناسبة، ليس بالضرورة أن يعلم الجميع بحُسن نيّاتك تلك، لذا لا تكترث بما يظنّه الآخرون بك. فالله سبحانه وتعالى لا يُضيع صدق النيّات، حتّى لو خفيت عن عباده. فأرح قلبك مهما أُسيءَ الظنّ بك، فالله وحده يعلم ما في القلوب، قال الله تعالى: {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [سورة الإسراء:25].

ومن الأولى في هذا السياق أن تُحسن الظنّ بالآخرين، ولا تحكم على نيّاتهم.

جود　　　　　　　　　　　　　　　　　　مارس 2005 – السنة الثانية

جميلٌ هو شهرُ مارس، تأتي فيه أيّامٌ ينطبق عليها وصفُ الربيع بحذافيره، ورغم قلّتها إلّا أنّني أستمتعُ فيها كثيرًا.

انطلقتُ من المنزل، متّجهةً نحو الكلّية، ووقفتُ أنتظر الميكروباص الذي يمرّ أمام منزلنا، كانت النسماتُ عليلةً ومنعشةً للغاية، رحتُ أتأمّل الأشجار التي تصطفّ حول سور الحديقة المجاورة، والتي تتأهّب للإزهار قريبًا. لم تمرّ بعدها بضعُ دقائق حتّى وصل الميكروباص، صعدتُ وبدأتُ رحلةَ الذهاب إلى الكلّية.

يستغرق طريقي قرابةَ الأربعين دقيقةً في أحسن الأحوال، أمّا حين يشتدّ الزحام، فقد أحتاج لساعةٍ للوصول إلى الكلّية. فتحتُ دفتري لأتأكّد من برنامج المحاضرات، فتذكّرتُ أنّ لديّ مهمّةً صعبةً اليوم، ألا وهي تبديل إحدى الفئات العمليّة، بسبب تأخّر وقتها، إذ تبدأ الجلسة الساعة السادسة والنصف، ولا تنتهي قبل الساعة الثامنة مساءً، وعلى إثر ذلك أحتاج بعدها لساعةٍ على أقلّ تقدير كي أصل إلى المنزل، الأمر الذي لا تُحبّذه عائلتي أبدًا، أخبرتُ والدي بأنّي سأحاول التبديل مع طالبٍ آخر إلى فئةٍ بتوقيتٍ أبكر.

يعزّ عليّ أن أترك جُمان في الفئة وحدها، إلّا أنّها تفهّمت الوضع ولم تمانع.

لم يكن الطريق مزدحمًا، نظرتُ من خلال النافذة، فإذا الشمس مشرقة، رحتُ أتأمّل جمال ما حولي، وبسبب الهدوء، كان من السهل متابعة كلمات الأغنية التي وضعها السائق في مسجّل الصوت، توالت الأغاني تباعًا دون توقّف، تارةً تتحدّث عن الفراق واللوعة، وتارةً عن الحبّ والشوق، كانت كلّها رقيقةً وعاطفيّةً للغاية، سرحتُ في أحلامي معها. حقًّا، لا شيء يُضاهي شعورَ المُحبّ، بلوعته وألمه وجماله ورقّته وشوقه.

وبينما كنتُ في عالمٍ آخر، تنبّهتُ فجأةً بأنّي قد تجاوزتُ المحطّة القريبة إلى كلّيّتي، فنزلتُ في المحطّة التي تليها، واضطررتُ للعودة سيرًا على الأقدام.

مشيتُ لمدّة ربع ساعة، وكانت المحاضرة الأولى قد بدأت بالفعل، فقرّرتُ ألّا أدخل إلى المحاضرة كي لا أُحرج نفسي، فأستاذة تلك المادّة ترمي تعليقاتٍ مزعجةً للمتأخّرين. جلستُ في مقهى الكلّية، أخرجتُ كتابًا وعزمتُ أن أستغلّ وقتي وأدرس، لكن مع هدوء المكان، ورومانسيّة الأغاني التي كانت تصدح في المقهى، لم أستطع التركيز، ومجدّدًا سرحتُ في عالمٍ آخر.

أمسكتُ قلمي، وفتحتُ دفتري، ورحتُ أكتب...

أقبل الربيع يا أُسيد، أقبل وملأ قلبي بالحبّ والحنين إليك أكثر فأكثر، أتعلم يا أُسيد بأنّك تجمع فيّ المتناقضات؟ فأنا أحزن وأفرح في الآن ذاته حين أراك، يطمئنّ قلبي ويضطرب معًا حين أُراقب تحرّكاتك وكلماتك وكلّ ما يصدر عنك، أتألّم لعدم قدرتي على الحديث معك، وفي الوقت نفسه لا أرغب بذلك أساسًا. لِمَ تفعل بي ذلك؟

أُسيد! مدركةٌ بأنّي غير مرئيّة بالنسبة إليك، ومتأكّدةٌ بأنّك لا تعرف حتّى اسمي. لكنّي واثقةٌ بأنّك ستراني يومًا ما، وحتّى ذلك الحين، ها أنا ذا أنتظرك، أدعو الله أن يكتب لنا الخير، ويجمعنا بما يُحبّه ويرضاه.

كنتُ منغمسةً في دفتري حين نادتني جُمان. رفعتُ رأسي، وقلت:

- أهلًا، هل انتهت المحاضرة؟
- نعم، لماذا لم تأتِ؟
- تأخّرتُ، هل كانت المحاضرة صعبة؟
- بعض الشيء! لا عليكِ، سأشرحها لكِ.
- شكرًا لكِ يا أجمل وأرقّ معلّمة!
- هل تشربين القهوة؟
- بالطبع!

طلبنا كوبَي قهوةٍ وجلسنا، شعرت بي جُمان وأنا أتلفّت يمينًا ويسارًا، فقالت لي برفق:

- لا تُرهقي نفسك، لم يكن موجودًا في المحاضرة صباحًا، لعلّه سيأتي بعد قليل، فلدينا اليوم دوامٌ طويل، لا بدّ أن يأتي.

حينها تذكّرتُ أمر الفئات العمليّة، فقلتُ لجُمان:

- عليّ أن أجد بديلًا لفئة العملي المتأخّرة.
- آه صحيح، دعينا نبحث الآن.

ومضينا في رحلة البحث عن بديلٍ، مررنا على أربع أو خمس شبّان من الفئات الصباحيّة، لكنّ الجميع قابل طلبي بالرفض، عدا شابٍّ واحد، اسمه آدم، كان على وشك أن يُبدّل معي فئته، لكن حين أخبرته عن موعد فئتي، أجابني وهو يعبث بشعره:

- أوه لا!
- ما الأمر؟
- لديّ في الموعد ذاته جلسةٌ عمليّة لمادّةٍ من السنة الماضية.
- يا إلهي، لقد تعبتُ!

قلتُ ذلك وأظهرتُ وجهًا حزينًا، كنتُ متعبةً من معاودة البحث والسؤال مجدّدًا، فحزن ذلك الشابّ لأجلي وقال:

- هل تُناسبكِ الفئة في اليوم التالي عصرًا؟
- نعم! المهمّ أن أجد البديل!
- حسنًا، انتظري قليلًا.

ثمّ أخرج هاتفه وأجرى اتصالًا.

عمر   مارس 2005 – السنة الثانية

كنتُ أراجع العقد الذي أرسله لي السيد مالك، وأكتب ملاحظاتي، حين رنّ هاتفي، فأجبت:

- أهلًا آدم.
- أين أنت؟ هل تعتقد بأنّنا ما نزال في العطلة؟ لقد بدأ الدوام يا أستاذ!
- أعلم، أعلم، لكن كما تعلم لديّ موعد اليوم مع السيد مالك، ثمّ من يسمعك يظنّ أنّك المجتهد الذي لا يضيع محاضرة!

ضحك بصوتٍ مرتفع ثمّ قال:

- لديّ طلب، هل ستلبّيه أم ستردّني خائبًا؟
- هاتِ ما عندك.
- فتاةٌ من دفعتنا تحتاج إلى تبديل فئتها المسائية.
- سأبدّل فئتي معها، ما اسمها؟
- نسيت أن أسألها.

غاب قليلًا ثمّ عاد وأجابني:

- جود، هل تعرفها؟
- لستُ متأكّدًا تمامًا، على أي حال، سأكون في الكلّية عند الساعة الثانية عشرة، وسأمرّ على المهندس المسؤول وأطلب منه أن يبدّل أسماءنا، قل لها أن تخبره بالأمر هي أيضًا.
- ممتاز، لا تتأخّر يا حضرة المدير.
- لم أصبح مديرًا بعد، لديّ شروط، إن وافق عليها السيد مالك حينها سأوقّع العقد.
- ويتشرّط أيضًا، يا لكَ من مغرور!
- اغرب عن وجهي الآن، ألقاك عند الثانية عشرة ظهرًا.
- إلى اللقاء.

أنهيتُ مراجعة العقد، وجهّزتُ نفسي لموعدي مع السيد مالك وانطلقت. وهناك، وحين وصلتُ إلى الجمعية، جرت الأمور بسلاسة، ووافق السيد مالك على تعديل راتبي، الذي قمتُ بخفضه إلى النّصف، وعدّلتُ عدد ساعات العمل بطريقة مرنة، بحيث تتوافق مع دوامي في الجامعة، سيّما خلال أيّام الامتحانات. وبطبيعة الحال، فإنّ دوامي جزئيّ، ولن يتجاوز عشر ساعاتٍ في الأسبوع. وقّعتُ العقد وتسلّمتُ منصب: "مدير قسم الأيتام في الجمعية". منصبًا لم أكن لأقبل به لولا إيماني بأنّي –وبقبوله– سأتمكّن من مساعدة عددٍ أكبر من الناس بطريقةٍ

أكثر فاعليّة. ومع ذلك، وحين خرجتُ من الجمعية، عاد السؤال ذاته يدور في رأسي: هل أستحقّ هذه الوظيفة أم لا؟

لم أكن واثقًا بالإجابة، لكنّي عزمتُ أن أثبتها بالأفعال لا بالأقوال.

عمر أبريل 2005 – السنة الثانية

وصلتُ إلى الجمعية قبل موعدي بساعة، إذ كان عليّ إنهاء بعض المهمّات، اجتمعتُ ببعض المتطوّعين، وقمنا بتنسيق برنامج العمل، وحين انتهيتُ، توجّهتُ نحو مكتب الأستاذ مالك، كانت الساعة حوالي الثالثة والنصف بعد الظهر، رحّب بي، ومن ثمّ بدأ يسرد لي بعض الملاحظات حول أدائي خلال الشهر الماضي، دوّنتُها بتأنٍّ، واستفسرتُ عن بعض الأشياء التي واجهتني خلال مهامي الإداريّة الجديدة. كنتُ على وشك المغادرة حين سألني:

- هل أرسلتَ بطاقات الشكر للمتبرّعين الجدد؟
- أيّ متبرّعين؟
- خلال الحفل السابق، والتي أقمناه للأمّهات، لم يمضِ على الحفل سوى أسبوعين تقريبًا، هل أرسلتَ بطاقات الشكر للمتبرّعين الجدد؟
- لا!
- لا بأس، أرسلها حتّى لو تأخّرنا.
- لكن ليس لديّ معلوماتهم ولا حتّى أسماؤهم!

- كيف ذلك؟ ألم تحصل على الشيكات؟
- نعم، لكن لم أحتفظ بالمعلومات، أصلًا لم أطلبها منهم.
- كيف ذلك؟ كنتَ المسؤول في ذلك اليوم عن هذا الأمر!

أجبته بكلّ ثقة:

- لكن ألا يجب المحافظة على سرّيّتهم؟! وألّا ندوّن من أنفق وماذا؟ لماذا علينا الاحتفاظ بأسمائهم، بل وإرسال بطاقات شكر لهم؟

نظر إليّ وقطّب حاجبَيه، ثمّ ردّ بانفعال:

- ما هذا المنطق الذي تتحدّث به يا عمر؟ أنتَ تخلط بين مفهوم العمل الخيريّ ومبدأ الشفافيّة والاعتراف بفضل الآخرين. صحيحٌ أنّ المتبرّع لا ينبغي أن يسعى وراء التقدير، لكن في عملنا، تقدير جهود المتبرّعين وإظهار الامتنان لهم أمرٌ أساسيّ. هذا لا يتعلّق فقط باللباقة، بل هو وسيلةٌ لتشجيعهم على الاستمرار في العطاء وتعزيز علاقتهم بنا!

حاولتُ الردّ بتبريرٍ آخر حتّى أخفّف حدّة الموقف، لكنّه أردف بنبرةٍ حازمة:

- عمر! عندما نهمل توجيه الشكر للمتبرّعين، نُضيّع على الجمعية فرصة استمرار دعمهم. وقد نخسر ثقتهم وإحساسهم بالانتماء إلينا. بطاقات الشكر ليست مجرّد أوراق؛ هي رسالة تقدير تعني لهم الكثير، وتُحفّزهم على تقديم المزيد من الدعم، ممّا يساعدنا على مساعدة عددٍ أكبر من المحتاجين. كان من الضروري أن تحتفظ بأسمائهم وأرقامهم لتسهيل التواصل معهم، بدلًا من إهمال الأمر تمامًا.

صمتُّ ولم أُجبه، فأضاف:

- عليك أن تُدرك أنّ مسؤولياتك في الجمعية لا تقتصر على النيّات الطيّبة والحماسة. لم تعد متطوّعًا كما كنت سابقًا يا عمر؛ لقد أصبحتَ موظّفًا لدينا، وعليك أن تعمل بكفاءة.

شعرتُ بالخجل من نفسي بعد حديثه. يبدو مُحقًّا، فقد تعاملتُ مع الأمور بطريقةٍ مفرطةٍ في المثاليّة، كما كانت والدتي تتّهمني دائمًا، دون أن آخذ في الاعتبار الجوانب العمليّة. اعتذرتُ منه، ووعدته أن أتدارك خطئي، وأن أجد طريقةً أصل بها إلى الأسماء ولو بعضًا منها.

خرجتُ من الجمعية مستاءً للغاية، ورحتُ أفكّر: يبدو بأنّي لستُ نافعًا، ثمّة أخطاءٌ مزعجةٌ تجعل المرءَ يشعر بالإحباط الشديد.

وقفتُ أنتظر سيارة أجرة، فرنّ هاتفي، فإذا به والدي.

- أهلًا أبي! اليوم؟ انتهيتُ من دوامي، ألقاك هناك.

تساءلتُ: ما هذا الموعد المفاجئ؟ أوقفتُ سيارةً للأجرة وتوجّهتُ نحو المطعم الذي سألتقي فيه والدي، بناءً على طلبه. كان مطعمًا فاخرًا للغاية، يبدو بأنّه أخذ من طباع والدتي من غير أن يشعر، إذ لم يكن يهتمّ بهذه التفاصيل سابقًا. دخلتُ إلى المطعم فوجدته ينتظرني، رحّب بي، ومن ثمّ جلسنا، اختار كلٌّ منّا ما سيتناوله، ثمّ تبادلنا بعض الأحاديث، انتظرتُ أن يسألني عن منصبي الجديد في الجمعية، وقلتُ في نفسي لعلّها فرصةٌ كي أحكي له عن شعوري نحو الأمر، فينصحني بما عليّ فعله. لكنّه لم يسألني، قلتُ في نفسي: ربما لا يعلم بالأمر أساسًا. كنتُ على وشك إخباره، لكنّه سبقني بالكلام وقال:

- عمر! لديّ ما أقوله لك.
- تفضّل.
- سنتزوّج أنا وفريال الشهر المقبل.

لم يُصدمني الأمر، بل بالعكس، كنتُ سأستغرب إن تأخّر زواجه أكثر من ذلك، فلقد مضى على طلاقه من والدتي سنةٌ كاملة، وخلال تلك السنة التقيتُ بفريال مرّاتٍ عديدة، أجبته بثبات:

- مباركٌ لكما!
- أخبرني كم بطاقةً تحتاج؟
- من أجل ماذا؟
- لحفل الزفاف.

صمتُّ قليلًا، ولم أعرف بماذا أُجيب. هل من المعقول أن يُقيم والدي زفافًا وهو في هذا السنّ؟ وابنه في العشرين من عمره؟

قاطع والدي صمتي وأكمل حديثه:

- سيكون هناك صالةٌ مخصّصة للنساء، وصالةٌ أخرى مخصّصة للرجال، هذه هي رغبة فريال. على إثر ذلك أخبرني كم بطاقةً تحتاج إن رغبت بدعوة أصدقائك؟ وأمّهاتهم وأخواتهم؟ أهلًا بالجميع.

في تلك اللحظة، انفجرتُ غضبًا، يتحدّث معي عن زواجه وكأنّنا أصدقاء مقرّبون، كيف يستطيع تجاهل مشاعري هكذا؟ هل يعتقد أنّني بلا مشاعر، وأنّني تقبّلت طلاقه بسهولة وسأتقبّل زواجه برحابة صدر؟

أجبته:

- ما رأيك بأن أدعو والدتي أيضًا؟
- عمر! أرجوك لا تتهكّم. أتعامل معك باحترامٍ وودّ، وأعاملك على أنّك رجلٌ ناضجٌ، فلا تتصرّف كالأطفال! ثمّ إنّني لا أفهم ما هي مشكلتك؟ إذا كنّا -أنا ووالدتك- قد تعاملنا مع الطلاق بشكلٍ حضاريّ وراقٍ، دون مشكلاتٍ تُذكر، فلماذا لا تستطيع تقبّله أنت؟
- لأنّني كأيّ شخصٍ في هذه الدنيا، أحلم بعائلةٍ متماسكةٍ وطبيعيّة.

- من الممكن أن تكون العائلة طبيعيّةً دون أن تكون متماسكة. لكلّ عائلةٍ حالتها الخاصّة، وستدرك هذا عندما تصبح لك عائلة.
- عائلة!
- نعم، عائلة. فمن الطبيعيّ جدًّا بعد أن تتخرّج وتبدأ بالعمل أن تتزوّج. لا تنسَ أنّنا قمنا بتأمين كلّ شيءٍ لك، منزلك، مكتبك، وحتّى سيّارتك.
- لكنّكما أفقدتماني الشغف بتكوين عائلة، لا أريد بناء أسرةٍ محكومةٍ بالفشل.
- ولماذا تبني أسرةً محكومةً بالفشل؟ من قال إنّ أسرتنا كانت فاشلة؟ علاقتي بوالدتك قد تكون فاشلة، لكن لا أسمح لك أن تنعت أسرتنا بالفاشلة.
- اعذرني، لا رغبة لي في متابعة هذا الحديث.
- كما تشاء.

أنهيتُ ما تبقّى من طبقي، واستأذنتُ منه، فسألني:

- إذًا لن تحضر الزفاف؟

أجبته بحزم:

- لا!

نظرتُ نحوه فرأيت علامة تجهمٍ على وجهه تدلّ على حزنه لعدم حضوري، لكنّه آثر ألّا يُصرّ عليّ للحضور، وقال لي:

- كما تشاء!

ودّعته وعدتُ إلى المنزل، كنتُ أشعر بضيقٍ شديد، دخلتُ إلى المطبخ مباشرةً لأُحضّر القهوة لعلّ أعصابي تهدأ بعض الشيء، فرأيت غالية تُحضّر كعكة، سألتُها:

- ما هي المناسبة يا غالية؟ لا تقولي لي إنّه بمناسبة زفاف والدي!

وضحكتُ بصوتٍ مرتفع، ابتسمت غالية وأجابت:

- ستزورنا صديقات والدتك غدًا، وأنا أُجهّز بعض الحلويّات. ولكن أخبرني، هل تحدّد موعد زفاف السيّد فتحي؟
- نعم، ودعاني لحضوره! تخيّلي! بل وطلب منّي أن أدعو أصدقائي أيضًا، يا للغرابة!
- وماذا كان ردّك؟
- ماذا برأيك؟ أخبرته أنّني لن أحضر بالطبع، ولن أدعو أحدًا!

قاطعتني والدتي في تلك اللحظة، إذ دخلت المطبخ دون أن أُلاحظها، فسألتني:

- ولماذا لن تحضر؟ هل هناك سببٌ محدّد؟
- أمّي! هل تسألين هذا السؤال بجدّية؟
- بالطبع أسألك بجدّية!

صمتُّ قليلًا، وبدأتُ أفكّر في هذا البرود الذي تتعامل به والدتي مع الموضوع. نحن نتحدّث عن زفاف رجلٍ كان زوجها قرابة العشرين عامًا!

قاطعتني وقالت:

- عمر! إنّه والدك. إن دعاك فيجب أن تُلبّي الدعوة. ثمّ لا تنسَ أنّ أعمامك ليسوا في البلد، لذا فسيكون وحده، وأنتَ ابنه، هو يعاملك كأخٍ وصديق. وإن كنتَ تخشى على مشاعري –مع أنّي أشكّ في ذلك– فلا تقلق، فزواجه لن يُزعجني، من الطبيعيّ أن يتزوّج ويرتبط، ما زال في الأربعينات من عمره، هل يُسعدك أن يعيش والدك وحيدًا؟ ما الضير أن يملأ وحدته؟
- وماذا عنكِ؟ هل ستتزوّجين أيضًا إذا شعرتِ بالوحدة؟

- ومن قال إنّي أشعر بالوحدة؟ لديّ والداي، جمعيّتي، وأنت، وغالية! ثمّ إنّك ستتزوّج بعد سنواتٍ قليلة وتملأ بيتي بالأحفاد.
- عدنا إلى الموضوع نفسه!
- أيّ موضوع؟ لم أفهم!
- تزعمان أنّكما مختلفان وغير متوافقين، لكنّكما تفكّران بالمنطق ذاته!
- عن أيّ منطقٍ تتحدّث؟
- كرّر لي والدي كلماتٍ مشابهةً لما ذكرتِه للتو، عن "زواجي وعائلتي".
- فيما يتعلّق بك، فنحن دائمًا متّفقان. نريد لكَ الأفضل! هل تفهمني؟ اتّصل بوالدك وأخبره أنّك ستحضر زفافه.

لم أُجبها، أخذتُ كوب قهوتي وتوجّهتُ نحو غرفتي، ورحتُ أفكّر، لطالما كنتُ ألوم والديّ على عدم توافقهما، لكن بعد حديثي معهما اليوم، أدركتُ أنّهما موضوعيّان وعقلانيّان للغاية، هذا كلّ ما في الأمر. أحيانًا، عندما يُسيطر التفكير السلبيّ على شعورك نحو الآخرين، سترى كلّ ما يصدر منهم سلبيًّا، حتّى صفاتهم الإيجابيّة!

حاولتُ أن أكون أكثر نضجًا، وفكّرتُ بالأمر برويّة، ثمّ اتّصلتُ بوالدي وأخبرته بنيّتي في تلبية دعوته وحضور زفافه، ودعوة أحدٍ من

أصدقائي. فرح والدي وشكرني، شعرتُ كما لو أنّي أهديته الدنيا! في الواقع، عليه أن يكون ممتنًّا لوالدتي وليس لي، ولعلّه خمّن بنفسه أنّها هي من أقنعتني!

هدأت مشاعري بعض الشيء، فنظرتُ إلى المرآة المعلّقة على حائط غرفتي، حاولتُ أن أبتسم، فلاحت لي مشكلتي في الجمعية مجدّدًا. بقيتُ أتأمّل ملامحي المكفهرة تلك، وحاولتُ عبثًا أن أتصنّع الابتسامة، لكنّي لم أفلح.

"هي ليست انحناءةً بسيطةً في الشفاه فقط، بل لغة الروح وأجمل تعبيرٍ عن التفاؤل".

تفاؤل! كيف سأجد مكانًا للتفاؤل في هذا اليوم البائس؟

عمر	مايو 2005 – السنة الثانية

فتحتُ عينيّ فلم أرَ شيئًا إلّا السواد، إنّه فهد مستلقٍ فوق رأسي. أزحتُه برفقٍ وقلتُ له:

- فهد! كلّ عامٍ وأنتَ بخير!

مرّت خمسُ سنواتٍ بالفعل، حين احتفل والداي بيوم ميلادي الخامس عشر، وكانت هديّتهما لي "فهد"، وبسبب عدم الدقّة في تحديد يوم ميلاده، فضّلتُ أن أحتفل بيوم قدومه إلينا كيوم ميلادٍ له.

نهضتُ وبدأتُ أُحضّر نفسي، فوردني اتصالٌ من والدي ليهنّئني بعيد ميلادي، اعتذر لأنّه لن يستطيع مشاركتي أيّ فعاليّةٍ اليوم أو الاحتفال بي، فهو عريس! ولم يمضِ على زفافه سوى أسبوعٍ واحد. أخبرته ألّا يفكّر بالأمر على هذا النحو، ووعدني أن يلتقي بي قريبًا، كي يحتفل بي ويُعطيني هديّتي لهذا العام، وكأنّ جلّ همّي هو هديّة عيد ميلادي!

أوصلت لي فريال سلامًا حارًّا، ومن بعدها أغلقتُ الهاتف. تُعاملني فريال معاملةً جيّدة، فهي تعتقد بأنّي متصالحٌ مع زواجها من والدي، سيّما أنّني حضرتُ زفافهما في نهاية المطاف، الأمر الذي أكّد لها تلك

الظنون. على أيّ حال، لم يكن الوضع بهذا السوء، فوجود آدم معي جعل الأمر أقلّ إزعاجًا، أمّا والدتي، فتقصّدت أن تبيت في منزل والديها في ذلك اليوم، متذرّعةً ببعض الشؤون التي يجب أن تهتمّ بها مع جدّي. كانت تُخفي شعورها، أعلم أنّها ليست حزينة، لكنّها لم تكن على طبيعتها، لم أُزعجها أو أُحاصرها أو أُحقّق معها، فهي تزعم دومًا أنّ الأمر عاديّ وطبيعيّ، لكنّه ليس كذلك.

خرجتُ من غرفتي، فاستقبلتني غالية بابتسامةٍ عريضة، وراحت تهنّئني بيوم ميلادي:

- أتمنّى لك سنةً سعيدةً ومليئةً بالتوفيق والنجاح، ما شاء الله! تزداد رجولةً ووسامةً كلّ عام.

ربّتُّ على كتفها وشكرتُها على مشاعرها الجميلة، وما إن أنهيتُ كلامي مع غالية حتّى خرجت والدتي من غرفتها وتوجّهت نحوي لتبارك لي بيوم ميلادي.

- عمر! حبيبي! كلّ عامٍ وأنت بخير.

ابتسمتُ لها وأومأتُ برأسي، فضمّتني بين ذراعيها. ليس من عادتها أن تأخذني في حضنها، شعرتُ بأنّها لا تزال مشوّشة بسبب زواج والدي.

- ما هي مخطّطاتك اليوم؟

سألتني وهي تُعدّل لي ملابسي، فأجبتها:

- دوامٌ في الكلّية، ومن ثمّ سأمرّ على الجمعية.
- إذًا نلتقي في الجمعية، ومن ثمّ ننطلق إلى منزل جدّك لنحتفل بك.
- مفهوم.
- لا تتأخّر!

شربتُ فنجان قهوتي وودّعتها وانطلقتُ إلى الكلّية، أمضيتُ يومي بشكلٍ روتينيٍّ، وحين ذهبتُ إلى منزل جدّي قدّما لي هديّة عيد ميلادي، ميداليّةً من الفضّة محفورًا عليها اسمي بدقّةٍ وإتقان، وقدّمت لي والدتي ساعةَ يدٍ فاخرة. شكرتُهم بلباقة، وبعدما تناولنا كعكة عيد ميلادي التي حضّرتها غالية خصيصًا لي، عدنا إلى المنزل.

وهناك أعطيتُ فهد هديّة عيد ميلاده، مجموعةً جديدةً من الألعاب، رغم أنّني موقنٌ بأنّها لن تُثير انتباهه أو فضوله، لكنّي لم أفقد الأمل يومًا بأن يتفاعل أكثر مع العالم الخارجي، فهو بطيءٌ في كلّ شيء، لا يهتمّ بما يجري حوله، يمشي الهوينى، ولم أره يومًا يجري أو يقفز، قطٌّ كسولٌ وبليدٌ لأقصى حدّ، رغم ذلك كلّه، فأنا أحبّه كثيرًا.

كنتُ مرهقًا، لكنّي، وقبل أن أخلد إلى النوم، جلستُ لأتصفّح منتدى الكلّية، إذ يظهر في إعلانات الصفحة الرئيسيّة بأنّ اليوم هو يوم ميلاد فلان، واعتاد الأعضاء أن يهنّئوا صاحب عيد الميلاد بمعايداتٍ لطيفةٍ وأمنياتٍ جميلة.

جلس فهد في حجري، كان يبدو عليه التوتّر، لم أشأ أن أُزعجه بيومٍ مميّزٍ كهذا، فتركته مستلقيًا رغم ضيق المكان. اتّصلتُ بشبكة الإنترنت، وبالفعل، وجدتُ موضوعًا أنشأه أحد زملائي بالدفعة منذ منتصف اليوم، يهنّئني بعيد ميلادي، وعليه توالت التعليقات من أعضاء مختلفين، من دفعتنا وغيرها. كنتُ أقرأ التعليقات فأردّ عليها مباشرةً وأشكر أصحابها، منهم من أعرفهم ومنهم من أقرأ أسماءهم لأوّل مرّة. ابتسمتُ وقلتُ في نفسي: يبدو أنّ لديّ شعبيّةً لكوني مشرفًا في المنتدى.

رحتُ أُكمل كتابة الردود والمجاملات إلى أن استوقفني أحد التعليقات، خفق قلبي حين وجدتُ تعليقًا منها موجّهًا خصيصًا لي، كتبتْ فيه:

وردة الربيع: الأخ عمر، تمنياتي لكَ بعامٍ جميل، تحقق فيه ما تصبو إليه، وتزداد علمًا ونجاحًا، وتبقى فيه سندًا وعونًا لمن حولك، ولزملائك في الدفعة. شكرًا على تقديم المساعدة لنا دومًا.

شعرتُ بأنّ الدم يغلي في وجهي، قرأتُ التعليق مرّةً واثنتين وعشرَ مرّات، ولم أفهم: عن أيّ مساعدةٍ تتحدّث؟ إذًا فهي تعرفني شخصيًّا؟ من هي يا تُرى؟

أمسكتُ بفهد وضممته إليّ، وأنا أشعر بالارتباك، وسألته: من هي يا فهد؟

نظر إليّ فهد بعدم اكتراثٍ وأغمض عينيه مجدّدًا، فأعدتُ قراءة التعليق، خفق قلبي، وشعرتُ بفرحةٍ تخترق صدري، ووجدتُ نفسي أبتسم من أعماقي. لم أعلم ما المفرح بالأمر، لكنّي لم أفرح اليوم بشيءٍ كما فرحتُ بهذا التعليق.

وردة الربيع! من هي تلك الفتاة بالضبط؟ منذ أشهرٍ وأنا أتابع كلّ ما تكتبه، ونادرًا ما أوجّه لها تعليقًا أو ردًّا، سيّما بعد تعليقي السخيف الذي ابتدأتُ به منذ أن كانت عضوةً جديدةً في المنتدى.

لذا لم أتوقّع أن تهنّئني بعيد ميلادي!

استعرضتُ مجدّدًا ملفّها الشخصيّ، هي من مواليد يناير 1986، وهي من دفعتنا من دون شكّ، لكن كيف لي أن أستدلّ عليها؟! ثمّ على ماذا تشكرني؟ لا أذكر أنّي تعاملتُ مع أيّ فتاةٍ في الدفعة. أعلم أنّي أقدّم

بعض التسهيلات والمعلومات فيما يتعلّق بتأمين المحاضرات، والعلامات، والمعلومات الهامّة في الدفعة، لعلّها تقصد ذلك؟ ربّما!

فتحتُ قائمةً بأسماء دفعتنا، وجعلتُ أخمّن: من هي "وردة الربيع" تلك؟!

هل في دفعتنا فتاةٌ مميّزةٌ كتلك الفتاة؟ فتاةٌ ذات فكرٍ ومنطق، وأدبٍ ومعرفة، مهذّبةٌ في كلامها، ولبقةٌ في تعاملها، رقيقةٌ كالنسمة، وواثقةٌ بنفسها كجبلٍ راسخ، فخورةٌ بدينها، وسعيدةٌ بانتمائها، لا تتذمّر، بل تنظر إلى الحياة بمنظورٍ جميل، تعبّر عن نفسها بحريّةٍ وطلاقةٍ وعفويّة، ولا تهتمّ لمديح الآخرين أو ذمّهم، وفي الوقت ذاته، تمنح الجميع اهتمامًا، لا تُزعج أحدًا، يُضفي تعليقها على أيّ موضوعٍ لمسةً خاصّة، تُسهب فتبدع، وتوجز فتفحم.

من هي تلك الفتاة؟

مررتُ على أسماء الفتيات في دفعتنا، فلم أشعر أنّ إحداهنّ أعطتني هذا الانطباع عنها! أنا حقًّا لم أتعامل معهنّ، ولم تلفت أيٌّ منهنّ نظري! هل في دفعتنا فتاةٌ مميّزةٌ بهذا الشكل؟

من هي يا فهد؟

أيقظته مجدّدًا، وسألته: كيف سأستدلّ عليها؟ لا توجد أيّ معلومةٍ في ملفّها الشخصيّ، سوى يوم ميلادها وصورةٍ لوردة، وتوقيعٍ كتبت فيه بيتًا من الشعر: "من يسر بالروض يستنشق عبير الياسمين".

تساءلتُ: أتكتب الشعر أيضًا؟ أم أنّه بيتُ شعرٍ مشهور؟

حملتُ فهد واستلقيتُ على سريري، فتذكّرتُ أنّي لم أردّ على تعليقها. نهضتُ مسرعًا، وعاودتُ الاتصال بالإنترنت، وحين وجدتُ اسمها ضمن قائمة المتّصلين، ارتبكتُ وخفق قلبي مجدّدًا، توجّهتُ نحو تعليقها وكتبتُ:

عمر: شكرًا لكِ وردة الربيع، على أمنياتك الطيبة، على الرحب والسعة.

جود يونيو 2005 – السنة الثانية

خرجتُ من امتحان مادة التحليل الرياضيّ ورحتُ أبحث عن جُمان إلى أن وجدتها تنتظرني عند باب إحدى القاعات، سألتني:

- كيف كان الوضع؟

تنهّدتُ وأنا أجيبها:

- ليتني أعلم ما علاقة التحليل الرياضيّ بالهندسة الطبيّة؟
- هل سنعيد هذا الموال مع كلّ مادة رياضيات؟
- نعم بالتأكيد، لقد أصبحنا في السنة الثانية وما تزال المواد تشبه مواد الثانوية العامّة: رياضيات وفيزياء ولغة إنكليزية.
- هذا طبيعيّ، فالرياضيات هي أساس الهندسة. والآن أخبريني كيف كتبتِ؟
- لا أعلم، سأراجع الأسئلة معك.

ورحتُ أتأكّد من الحلول مع جُمان صاحبة العقل الفذّ.

منذ نعومة أظافري وأنا أحبّ التفوّق، كنتُ أعتقد أنّ التفوّق هو التميّز، لذا سعيتُ جاهدةً لأتفوّق لكنّي لم أستطع. ومع ذلك فلديّ ميّزة جيّدة،

وهي أنّ إرادتي قويّة، وأنّي إذا عزمتُ حقّقتُ. دائمًا أحاول العمل بمبدأ "اعقلها وتوكّل"، فأبذل كلّ ما أستطيع بذله من جهد، ولكن أيضًا من غير الضغط على نفسي وإرهاقها حتّى الذروة.

مررنا على الأسئلة كلّها، ثمّ قلتُ لجُمان:

- هذا يعني أنّي سأحصل على علامة متدنيّة.
- ليس بالضرورة، فمن المحتمل أن يعطيك الأستاذ علامةً على الطريقة وليس على الجواب النهائي.
- أتمنّى ذلك.
- على أيّ حال، هذا هو اليوم الأخير، انتهت الامتحانات أخيرًا.
- صدقتِ، أتعلمين صعوبة الأسئلة أنستني ذلك، دعينا نحتفل بالخلاص!
- سأدعوكِ إذن إلى تناول طعام الغداء معًا.
- لا جُمان، لن أستطيع للأسف، تعلمين أحتاج لموافقة والدي، دعينا نجلس في المقهى ونحتسي كوبًا من القهوة.
- حسنًا، لا بأس، المهمّ أن نجلس معًا وبالنا غير مشغول بالامتحانات.
- شكرًا لتفهمكِ يا جُمان!
- لا عليكِ.

وبالفعل، جلسنا قرابة الساعتين نتبادل الأحاديث. بالفعل إنّ الصداقة طاقة لا يمكن للإنسان العيش من دونها، فبها يجد المرء راحته في التعبير عن رأيه بكلّ طلاقة، ومن غير أن يشعر بأنّه مقيّد.

أحبّ صديقتي جُمان، أتعلّم منها الكثير، وأتمنّى أن أكون مثالًا جيّدًا ونموذجًا يُحتذى به بالنسبة لها. يحزنني أنّها تفوّت الصلوات، وأشعر بالمسؤولية تجاهها، لكنّي مدركةٌ بأنّها لا تحبّ النصائح المباشرة. هي تراقب بصمتٍ ولا تتطرّق للأمور الخاصّة بالدين، سيّما الصلاة والحجاب. ولولا يقينها بأنّي أحترم تلك الخصوصية لما جعلتني صديقتها المقرّبة.

ستصلّي جُمان يومًا ما، أنا واثقة من ذلك، وحتّى ذلك اليوم، سأبقى بقربها، وأبني ثقةً فيما بيننا لبنةً لبنة، وأغرس محبّةً وأخوّةً في الله، وستثمر إن شاء الله.

وردة الربيع

في هذه الحياة، كثيرًا ما نرى الناس يسعون خلف أهدافهم، يبذلون جهدًا ويعملون بجدّ، لكن في أحيانٍ يتسرّب إلى نفوسهم شعور الإحباط عندما لا يرون نتائج سريعة أو ملموسة. يبدو الأمر وكأنّ كلّ الجهود قد ذهبت سُدىً، ولكن في الحقيقة، العمل والسعي لهما قيمة أكبر مما نتصوّر. الجدوى من العمل لا تتوقّف عند النتائج الفوريّة التي نطمح إليها، بل تمتدّ على مدى العمر بأكمله.

الحياة - كما أفهمها - ليست مجرّد سلسلة من الإنجازات اللحظيّة أو النجاح الذي يأتي بين ليلةٍ وضحاها. الحياة رحلةٌ مليئةٌ بالمحطّات والتجارب التي تُشكّلنا. العمل جزءٌ من هذه الرحلة، وهو ما يمنح حياتنا معنىً وقيمة. عندما نعمل، نحن نغرس بذورًا صغيرة، قد لا تظهر ثمارها اليوم أو غدًا، ولكن مع مرور الوقت، ستنمو وتزدهر.

أتذكّر دائمًا قول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [سورة النجم: 39-40]. فأزداد يقينًا بأنّ كلّ ما نحصل عليه في هذه الحياة هو نتاج سعيٍ وجهدٍ مع توفيق الله عزّ وجلّ، وأنّ نتائج هذا السعي سنراها أيضًا في الآخرة، فإنّ الله يعدنا بأنّ سعينا سوف يُرى، أي أنّ ثمرة جهدنا ستظهر يومًا ما، في الوقت الذي يقدّره

الله لنا، بإذنه تعالى. استعجال النتائج غالبًا ما يقودنا إلى الإحباط، لأنّنا نتوقّع أن نرى آمالنا تتحقّق بسرعة، ولكنّ السعي هو القيمة الحقيقيّة، وليس النتيجة الفوريّة.

"أن نسعى في مناكبها"، أن تمتلئ حياتنا بالتحدّيات التي تجعلنا نتطوّر ونتعلّم. فهذه الخطوات الصغيرة والمتتالية، مهما بدت بسيطة، هي التي تبني الطريق نحو النجاح. التفكير في الجدوى من العمل يذكّرني دائمًا بأنّ النتائج الحقيقية ليست تلك التي نراها فقط في الظاهر، بل تلك التي تحدث بداخلنا. كلّ جهدٍ نبذله يصقل شخصيّتنا، ويعزّز من صبرنا، ويزيد من إصرارنا.

عندما نفكّر في الحياة على المدى الطويل، ندرك أنّ كلّ شيءٍ يأتي في وقته المناسب. لذا لا حاجة للاستعجال أو القلق من عدم تحقيق النتائج بسرعة. فالحياة ليست سباقًا مع الزمن، بل رحلة نعيشها بتأنٍّ وصبر.

وكلّ جهدٍ نبذله اليوم هو خطوة نحو المستقبل الذي نحلم به، حتى لو لم نرَ أثره اليوم.

عمر أغسطس 2005 – العطلة الصيفيّة

ما يزال هذا السؤال يثقل كاهلي يومًا بعد يوم: هل أستحقّ منصب الإدارة بالفعل؟ ومع كلّ إخفاقٍ جديدٍ أشعر بعدم استحقاقي للمنصب، وأنّ هناك من هو أحقّ مني به.

لقد مرّت أربعةُ أشهرٍ وأنا مديرٌ لقسم الأيتام، وإلى الآن لم أستطع أن أقدّم شيئًا جديدًا، أو أخطو خطوةً إلى الأمام. أشعر بأنّ كلّ مخطّطاتي وطموحاتي بعيدة المنال، فأنا إلى الآن أرتكب أخطاءً فادحة، وأتعلّم الأساسيات في مجال الإدارة، كيف إذًا سأستطيع النهوض بالقسم، وكيف لي أن أنفّذ ما أحلم به!

في الأشهر السابقة، خاصّةً أثناء الامتحانات، لم أستطع حضور أيّ فعاليّةٍ ثقافيّةٍ أو اجتماعيّة، وأخطأت حين لم أعيّن من ينوب مكاني. غضب الأستاذ مالك منّي غضبًا شديدًا، واعتبر ذلك التصرّف تقصيرًا لا يُغتفر. أُصبتُ بإحباطٍ كبير، لكنّي منحتُ نفسي فرصةً أخيرة: حفل الصيف.

كنتُ أعوّل على ذلك الحفل لأُسعِد الأطفال وأُرمّم عثراتي، وكان أملي هو الحصول على تمويلٍ ضخم، فأُثبت لأنفسي أولًا، ثمّ للآخرين حولي، بأنّي جديرٌ بالثقة.

لكن للأسف، لم يحدث أيٌّ من ذلك، بل زاد ذلك الحفل الأمر سوءًا، إذ فشلتُ فشلًا ذريعًا رغم تحضيراتي المسبقة. هطلت الأمطار في ذلك اليوم، رغم أنّنا في شهر أغسطس، وحصلت فوضى عارمة، لأنّنا أقمنا الحفل في حديقةٍ مفتوحة. ونتيجةً لما حدث، ضاع أحد الأطفال، فأوقفنا كلّ الفعاليات لنبحث عنه، وظهرنا بمظهر المهملين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم أبدًا. وزاد الأمر سوءًا أنّني صببتُ جام غضبي على فريق العمل على مرأى ومسمع أعضاء مجلس إدارة الجمعية كلّهم، بما فيهم والدتي! وعندما عُثر على الطفل الضائع، لم أستطع احتواءه، سلّمته لوالدته وانسحبتُ من الحفل مباشرةً. فقد علمتُ أنّها النهاية.

وقبل أن أغادر المكان، لحقت بي والدتي ونادتني:

- عمر! يا عمر! إلى أين أنت ذاهب؟
- لا أرغب بالحديث مع أحد، اتركيني أرجوكِ!
- لماذا تهرب؟ تعال اسمعني!

- أنا لا أهرب! واعلمي أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي ستروننني فيها هنا معكم، لا أريد أن أعمل في الجمعية بعد الآن.
- عمر! ما بك؟
- أخبرتكم بأنّي لا أصلح لهذه المهمّة، دعوني وشأني.
- عمر! لستُ ملامًا على ما حصل، فشل الفعاليات أمرٌ محتمل، لا تحمّل نفسك كلّ المسؤولية!
- سأقدّم استقالتي غدًا، ولا فائدة من بقائي هنا لثانيةٍ أخرى.

انتشلتُ حقيبتي وعدتُ إلى المنزل غاضبًا للغاية. كنتُ في قمّة يأسي، شعرتُ بألمٍ يخترق قلبي، فجلستُ على أرض غرفتي بعدما أحكمتُ إغلاق الباب. لم أستطع منع دموعي من الانهيار، كانت أعصابي منهارة، وشعرتُ كما لو أنّ سقف الغرفة يطبق على صدري وأكاد أختنق. شعرتُ بوحشةٍ ووحدةٍ لم أشعر بها في حياتي! كنتُ بحاجةٍ إلى شخصٍ ذي قلبٍ دافئ، يسمعني فيفهمني ويحتوي مشاعري، أتوكّأ على كتفه وأضع رأسي المثقل على صدره، فيضمّني إليه ويخبرني أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

في تلك اللحظات لاح لي طيف اسمها، شعرتُ برغبةٍ بقراءة كلماتها، فوجدتُ نفسي أتّصل بشبكة الإنترنت وأستعرض ملفّها الشخصيّ، لكنّها للأسف لم تسجّل دخولها إلى المنتدى لليوم الرابع على التوالي.

أسندتُ رأسي بكلتا راحتيّ، ثمّ جعلتُ أتساءل:

أين هي؟ أين اختفت؟ ما الذي يشغلها؟

من هي؟ ما اسمها؟ أريد أن أعرف من تكون؟

أخذتُ نفسًا عميقًا، ثمّ رفعتُ رأسي مجدّدًا ورحتُ أبحث عن مواضيع ومشاركاتٍ سابقةٍ لها، وقرأتُ كلّ ما دوّنته خلال العام الماضي مرّةً واثنتين وثلاث مرّات، كنتُ بحاجةٍ ماسّة لأقرأ كلّ كلماتها.

يا لهذه الفتاة! من أين أتت بطريقة تفكيرها؟ كيف تكتب هذا الكلام؟ وكيف تقبض على المعاني والمشاعر بهذه البساطة؟ دافئةٌ، ومفعمةٌ بكلّ ما هو جميل.

يا لحظّ أصدقائها وعائلتها! ويا لحظّ من تغدق عليهم بمشاعرها!

الفصل الثاني

عمر

سبتمبر 2005 – السنة الثالثة

منذ يوم الحفل الفاشل، لم أعد إلى الجمعية، واكتفيت بإخبارهم برغبتي في ترك العمل، وتركْتُ الأمور معلّقةً لما يقارب الأسبوعين، وخلال هذه الفترة لم أتطرّق في المنزل لموضوع الجمعية إطلاقًا، ولم تضغط عليّ والدتي بخصوص ذلك. لكنّ البارحة فقط قالت لي بهدوء إنّ إبقاء الأمور معلّقةٌ بهذا الشكل لا يُعدّ تصرّفًا مهنيًّا. اقتنعتُ بكلامها، وقرّرت أخيرًا الذهاب لإنهاء الأمر وتقديم استقالتي بشكلٍ رسميّ، وجمع ما يخصّني من أغراض.

اتصلتُ بالسكرتيرة لأخبرها بقدومي ورغبتي في توديع فريق الجمعية. كتبتُ رسالةً أوضّح فيها أسباب استقالتي، وعند وصولي إلى الجمعية استقبلتني الآنسة سعاد، بابتسامةٍ لطيفة، وأخبرتني بأنّ السيد مالك بانتظاري.

دخلتُ إلى المكتب لأجد المفاجأة الكبرى! والدتي وجدّي عزمي باشا كانا يجلسان وينتظرانني مع السيد مالك!

تدافعت الأفكار في رأسي، وسألت نفسي: لماذا يجتمعون معًا؟ هل جاء جدّي خصيصًا ليوبّخني أمام السيد مالك؟ صحيح أنّ جدّي كان من

مؤسّسي الجمعية، لكن هذا لا يمنحه الحق في انتقادي والتقليل من شأني أمام الآخرين.

نعم، أعترف بأنّي فشلت في الوظيفة التي عُيّنتُ بها، لكنّهم هم من أصرّوا على تعييني منذ البداية، رغم رفضي المتكرّر وتأكيدي بأنّي لستُ الشخص المناسب لهذا المنصب.

كنتُ على وشك بدء الهجوم وسرد كلّ هذه الأفكار والانفجار أمامهم، كي لا أُوضع بموقف دفاعٍ عن النفس، لكنّ جدّي سبقني بالكلام، إذ بدأ حديثه بهدوءٍ وطمأنينة قائلًا:

- مرحبًا عمر!

رسمتُ بالكاد بسمةً على وجهي وأجبته:

- أهلًا جدّي، والدتي، والسيد مالك. ما هذه الصدفة؟

أجاب جدّي برويّة:

- اجتماعنا ليس صدفة. اتّصل بنا السيد مالك وأخبرنا بقدومك، لذا نحن هنا لنتحدّث معك.

نظرتُ إليه وقلت:

- هاتِ ما عندك جدّي، ولكن...

قاطعني جدّي وقال:

- قبل أن تكمل، دعنا بدايةً نشكرك على جهودك المبذولة في الجمعية منذ أن كنت شابًّا يافعًا إلى الآن. لقد قدّمتَ الكثير لهذه الجمعية رغم صغر سنّك.

أجبته بتواضع:

- العفو، ولا داعي لشكرٍ خاصّ، فأنا أحبّ العمل في الجمعية ويسعدني كثيرًا.

تساءل جدّي وهو يحرّك عصاه:

- إذًا لماذا غبتَ أسبوعين دون أن تأخذ إجازةً رسميّة، سيّما أنّك الآن موظّف ولم تعد متطوّعًا؟ بالأحرى لماذا ستقدّم استقالتك؟

تنهدتُ وأجبته:

- جدّي، هل تريدني أن أقولها بنفسي؟ جميعنا نعلم أنّني فشلت.

تدخّل السيد مالك قائلًا:

- ومن قال إنّك فشلت؟ هل لمّح أحدٌ بذلك؟ أنا، أو جدّك، أو والدتك؟

هززتُ رأسي وقلت:

- لا، لم يلمّح أحد، لكن مجرّد عدم قولكم عكس ذلك فهذا يعني أنّني فشلت.

نظر جدّي إليّ بثقة وقال:

- عمر! في عملنا لا يوجد "فشل" أو "نجاح" بشكلٍ مطلق. الأمور ليست بيضاء أو سوداء. الحقيقة أنّك اجتهدت، وأصبت أحيانًا، وأخطأت أحيانًا أخرى. لكنّ خطأك الأكبر كان في غيابك الأسبوعين الماضيين وقرار انسحابك الآن.

سألته بحدّة:

- وماذا عن الحفل الأخير؟ ألا تعتبرونه فشلًا؟ ألم يخبراك بما حدث؟

ردّت والدتي:

- عمر! جميعنا ارتكبنا الأخطاء. حتّى أنا، كان أوّل نشاطٍ نظّمته في الجمعية كارثيًّا، لكنّني تعلّمت وواجهتُ أخطائي وحاولتُ إصلاحها.
- كيف سأواجه أخطاءً لا أعرف ما هو مصدرها؟
- دعنا نتحدّث إذًا بالأمر. سأعطيك مثالًا عن إحدى المشكلات، لكن عدني بأن تكون صبورًا، وأن تتقبّل كلامي بصدرٍ رحب.

أومأتُ برأسي، وجعلتُ أصغي لكلامها، فأردفت:

- أنت يا عمر تميل إلى المثالية لدرجة تؤخّرك أحيانًا عن إنجاز المطلوب في الوقت المناسب، ونصيحتي أن تسلّم المطلوب منك بنسبة 80٪ في الموعد، أفضل من أن تسلّم 100٪ بعد فوات الأوان.

أكمل السيد مالك كلامها قائلًا:

- مشكلتك الثانية هي أنّك لا تميل إلى توزيع المهام. تتحمّل كلّ شيء على عاتقك وتحاول القيام به بنفسك، مما يؤخّرك أنت والآخرين. على سبيل المثال، علمتُ أنّك اشتريت الزينة بنفسك للحفل الأخير وشاركت في تركيبها، بينما كان لديك مهامّ أكثر

أهمية لإنجازها. وزّع العمل، دع الآخرين يتحمّلون المسؤولية، وأعطِ المساحة لغيرك كما أعطيناك المساحة عندما كنتَ متطوّعًا.

نظرتُ إلى جدّي وسألته:

- ألن تضيف شيئًا يا جدّي؟

ابتسم نصف ابتسامة ثم أجابني بنبرةٍ جدّية:

- مشكلتك الثالثة، هي أنّك لا تلجأ إلى من هم أعلى منك في الرتبة عند الحاجة. تتصرّف من تلقاء نفسك في مواقف تتطلّب العودة إلى المسؤولين. في بعض الأحيان أجدك تتصرّف كما لو أنّك الوحيد الذي يعمل في هذه الجمعية.

وعند هذه الجملة بالتحديد، تسلّل الغضب إليّ، فرفعت صوتي قليلًا وقلت لهم:

- لقد أتيت لتقديم استقالتي، وأجدُه الحلّ الأنسب لتلك المشكلات جميعها.

ردّ الثلاثة بصوتٍ واحد:

- لكنّنا لن نوافق!

استأنف السيد مالك قائلًا:

- عمر! نحن لا نسرد عليك هذه المشكلات لتقرّر الاستقالة، بل على العكس، نريدك أن تبقى معنا، أن تعمل على تطوير مهاراتك وتتجنّب أخطاء الماضي.

أكملت والدتي بلهجةٍ هادئة:

- وقد ترتكب الأخطاء مجددًا، فلا يوجد أحدٌ مثالي، المهم أن تتعلّم.

أنهى جدّي الحديث قائلًا:

- عمر! أعرف ما يدور في خلدك. أنتَ لا تزال تعتقد أنّ الواسطة هي من ساهمت في حصولك على هذه الوظيفة، لكن الحقيقة ليست كذلك. لو كانت الواسطة هي العامل الأساسي، لكان جميع أبناء خالك وخالتك موظفين هنا، أو حتّى أخوالك أنفسهم! لكن كما ترى، لا أحد منهم هنا. ببساطة لأنّهم لم يتطوّعوا مثلك، أو لأنّهم لم يكونوا شغوفين بالجمعية كما أنت. لذا أرجوك تخلَّ عن هذه الأفكار وركّز على عملك، ولا تقلّل من شأنك!

لم تعد لديّ طاقة لجدالهم، استأذنتُهم بعدما طلبتُ منهم إعطائي مهلة للتفكير، وأخبرتُ والدتي أنّني أرغب في العودة إلى المنزل وحدي، وانطلقتُ.

وفي الطريق سرتُ على قدميّ قرابة الساعة، كنتُ أحاول استجماع أفكاري وإعطاء نفسي مساحة لفهم تصرفاتي بشكلٍ أعمق. لأول مرّة لم أعد أُحمّل أحدًا المسؤولية، بل نفسي. لم أبحث عن أعذار أو ألقي باللوم على والديّ بسبب انفصالهما أو على جدّي لأنّه اقترحني لهذه الوظيفة. بدلًا من ذلك ركّزتُ على أخطائي وكيف يمكنني تصحيحها في المستقبل.

فعلًا، الحياة ليست إنجازات لحظيّة، بل هي تراكمات. أدركتُ أنّني كنتُ أطمح لتحقيق النجاح من المحاولة الأولى، لإبهار الجميع منذ الأيام الأولى لتعييني. دخلتُ الوظيفة مقتنعًا أنّ تعييني كان بسبب جدّي ووالدتي، ومتوهّمًا أنّني سأثبت جدارتي بإنجازٍ عظيم. وغاب عنّي أنّ الإنجازات الحقيقية تحتاج إلى الاستمرارية، وأنّه بسبب المهمّات السابقة التي نجحتُ بها وأنجزتها والتراكمات الصغيرة تمّ تعييني. عزمتُ أن أكمل المشوار الذي بدأتُ به وألا أتراجع، سأخطئ وأصيب، لكنّي سأعمل على بناء تراكماتٍ من الإنجازات البسيطة التي تشكّل هويّتي وتطوّري.

عدتُ إلى المنزل متعبًا، لكنّي لم أعتذر عن مشاركة العشاء مع والدتي التي وصلت قبلي إلى المنزل. تناولنا الطعام معًا، ثمّ توجّهتُ إلى غرفتي ونمتُ مبكرًا، واستغرقتُ في نومٍ عميق. استيقظتُ قبل صلاة الفجر، شعرتُ بطاقةٍ جديدة تدفعني للعمل، ودون أن أشعر رحتُ أبحث عن أدوات التخطيط الخاصّة بي، لأجدها مرميةً بإحدى الصناديق في المخزن.

فتحتُ الصندوق ورحتُ أتأمّلها. ياه! لقد مضى وقتٌ طويل لم أمسك بأقلامي ولم أُخطّط أيّ لوحة. سنتان، بل ربما أكثر!

تساءلتُ وأنا أحمل الصندوق متجهًا نحو غرفتي: هل ما تزال لديّ مهارة في التخطيط أم أنّي فقدتها؟!

أجريتُ بضع تجارب على ورقةٍ صغيرة، ثمّ سحبتُ ورقةً من الكرتون المقوّى، تلك ذات الحجم الكبير. لم أشعر بالوقت وأنا أكتب وأخطّط، إلّا حين أوشكت الشمس على الشروق، فأسرعتُ وأقمتُ صلاة الفجر.

أكتوبر 2005 – السنة الثالثة

عمر:

زملائي وزميلاتي الأعزاء، سيُقام الأسبوع المقبل معرض الكتاب في الجامعة، متضمّنًا مجموعة من الأنشطة والندوات التي يشارك فيها طلاب من مختلف الكليات والمعاهد. وسيكون لطلبة كليتنا حضورٌ فاعل من خلال المشاركة في عدد من الفعاليات. لذلك، يُرجى من كلّ من يرغب بالإعلان عن موعد محاضرته أو نشاطه تحديد الوقت ورقم القاعة وموضوع الفعالية ضمن هذه المساحة. تمنياتي بالتوفيق للجميع.

وردة الربيع:

أشارك في فعالية القصص القصيرة جدًّا، وذلك في القاعة رقم (16)، يوم الثلاثاء الساعة الواحدة ظهرًا.

أُسيد:

شكرًا عمر! القاعة رقم (17)، يوم الأربعاء، الساعة التاسعة صباحًا. ندوة: مراجعات للكتب الفكرية.

عمر أكتوبر 2005 – السنة الثالثة

هل سأقابلها بالفعل؟ هل سأعرف من هي تلك الفتاة؟

خفق قلبي حين رأيت تعليقها، فمنذ شهرٍ وأنا محتارٌ ومتلهّف، فقد نفد صبري، وأنا أحاول الوصول إلى معلومةٍ تدلّني عليها. كانت فكرةً جيدةً أن أشارك هذا الموضوع، فقد كنتُ على ثقةٍ بأنّ لديها مشاركة ضمن المعرض، ثمّ جاء الفرج وحدّدت وردة الربيع موعد ندوتها ورقم القاعة. لم تمرّ ساعة على سعادتي الغامرة تلك باقتراب لقائي معها، حتى انتابني فجأة ارتباكٌ شديد، أغلقت جهاز الحاسوب، وانقبض قلبي، وتساءلت: ما بي بالضبط؟ لماذا أنا مضطرب؟ ألم تكن تلك رغبتي منذ البداية، أن أعرف من هي تلك الفتاة؟ ألم يكن الفضول يدفعني دومًا لملاحقة أيّ إشارةٍ تشي ولو بشيءٍ عنها؟ ما بي الآن أشعر بالارتباك من فكرة التعرّف إليها!

ولعلّ السؤال الأكثر أهمية: لماذا أريد أن أعرف من تكون وردة الربيع؟ أيّ نوعٍ من الفضول أحمله تجاه تلك الفتاة؟ أهو الإعجاب؟! نعم بالتأكيد، أنا معجبٌ بأفكارها وطريقتها، وأسلوبها، وسلاسة منطقها.

لكن إلى أيّ حدٍّ أنا معجبٌ بها؟ لماذا أنتظر تعليقاتها، سيّما تلك التي توجّهها لي؟! لماذا ألاحق مواضيعها وأقرأها مرارًا وتكرارًا؟! أعلم أنّي أستقي التفاؤل والدعم من كلماتها وخواطرها، لكن مجددًا، ما هو شعوري الحقيقي تجاهها؟ ما المقلق في الأمر؟ لماذا أنا مضطرب؟ هل سيزعجني إن وجدتها فتاةً مرتبطة؟! مخطوبة؟! هل يوجد فتيات مخطوبات في دفعتنا؟! أنا لا أعلم بالفعل!

هل سيزعجني إن وجدتها فتاةً متواضعة الجمال؟ أو غريبة الأطوار؟ لماذا أنا خائف من رؤية فتاةٍ لا يعجبني شكلها؟ أو شخصيتها؟ ما لي وما لشكلها؟ وحياتها؟ وشخصيتها على أرض الواقع؟ ماذا أريد منها بالضبط؟

أهو شعورٌ طبيعيّ؟

لا بدّ أنّه شعورٌ طبيعيّ!

إنّه القلق من المجهول، لا أكثر.

كنتُ على ثقةٍ بأنّه لديه مشاركة ضمن المعرض، كتب عن ندوته وحدّد الوقت ورقم القاعة. اشتعلت حماستي، وتخيّلت حضور ندوته وأنا أتساءل: يا إلهي، كم سيكون لدينا أطفال مثقفون، والدهم ووالدتهم يشاركان في الندوات منذ العشرينات!

انقضت الأيام سريعًا، إلى أن حان اليوم الأول للمعرض. اتصلت بياسمين لترافقني. عند دخولنا المعرض، وجدت كثيرًا من الكتب التي تمنّيت اقتناءها، لكن ميزانيتي لم تسمح لي بشراء أكثر من أربعة كتب. اتفقت مع ياسمين على اختيار كتب مختلفة لنتبادلها لاحقًا، وربما لهذا السبب فضّلت المجيء معها بدلًا من جُمان.

مع جُمان، كنت سأشعر بالحرج بسبب ميزانيتي المحدودة، وأخشى أن يعجبني كتاب فتسارع لشرائه بحجّة أنّها ستقرأه ثمّ تعيرني إيّاه، بينما أعرف جيدًا أنّ لدينا اهتمامات مختلفة في القراءة. أنا أميل إلى الروايات والألغاز كوسيلةٍ للترويح عن نفسي، بينما تفضّل جُمان كتب تطوير الذات والكتب العلمية. لذلك، اخترت مرافقة ياسمين لرفع الحرج عنّي وعنها. وبينما كنّا نقف أنا وياسمين عند أحد الأكشاك، لمحته!

اضطربت دقّات قلبي ولم أعد أعي ما يجري حولي، حاولت أن أتمالك أعصابي، بينما نكزت ياسمين نكزةً ظلت المسكينة ساعاتٍ تتأوّه منها!

- ما بكِ؟ أوجعتني!
- ياسمين! ها هو أُسيد.

على الرغم من أنّ ياسمين تعلم كلّ تفاصيل مشاعري تجاه أُسيد، إلا أنّها إلى الآن لا تعرف شكله، ففي كلّ مرة تزورني فيها في الكلية لا يكون أُسيد حاضرًا.

التقطت أنفاسي، وأدرت وجهي إلى الجهة المقابلة وقلت لياسمين:

- ذو القميص الأبيض، يتصفّح الآن كتابًا غلافه برتقاليّ.
- رأيته، رأيته، اهدئي سيشعر بنا.
- ماذا يفعل الآن؟
- لا يفعل شيئًا.

نظرتُ إليها أنتظر سماع رأيها به، ففهمت ياسمين ما أرمي إليه، وقالت:

- يمشي الآن باتجاهنا، نتحدّث بالأمر فيما بعد.

وعندما أصبح بالقرب منّا، راح ينظر إلى بعض الكتب بجوارنا، بدا منهمكًا في الاختيار، وحين رفع رأسه من بين الكتب التقت أعيننا، فنظر إليّ كما لو أنّه يحاول أن يتذكّر "من هذه الفتاة"، ثمّ ابتسم ربما حين تذكّر أنّي في دفعته. كان لا بدّ من كسر هذه الحالة بالسلام، فبادر قائلًا:

- السلام عليكم!

"السلام عليكم!" هذه المرّة الأولى التي نتحدّث بها وجهًا لوجه! أجبته بوقار قدر الإمكان:

- وعليكم السلام.

وحين شعرت أنّه على وشك أن يكمل طريقه، لم أشأ أن ينهي كلامه ويمضي، أردفت كلامي قائلةً:

- المعرض رائع أليس كذلك؟

رفع حاجبيه كما لو أنّه تفاجأ من إكمال الحديث، وقال بهدوءٍ شديد:

- نعم، الحمد لله.
- اخترت أربعة كتب سمعت عنها كثيرًا، ماذا عنك؟ هل وجدت ما تبحث عنه؟

أدرك أنّي سأطيل الحديث، فعدّل من زاوية وقوفه أمامنا أنا وياسمين، وقال باقتضاب:

- نعم، بعض الكتب الجيدة.

رغم إجاباته المختصرة، إلا أنّني لم أستطع منع نفسي من استكمال الحديث معه، أضفت وقلبي يتلاطم كالأمواج في صدري:

- ستكون أنتَ أيضًا ضمن المشاركين في فعاليات المعرض، أليس كذلك؟

توقّف للحظة قبل أن يجيب، بنبرةٍ محايدة:

- نعم لديّ ندوة بعد غد.
- وأنا لديّ مشاركة غدًا.

ولأول مرّة ألاحظ أنّ له طريقةً خاصّة في غضّ البصر، هو ينظر نحو من يحادثها وفي الوقت ذاته لا يركّز بصره بشكلٍ مباشر، فبعض الشبّان ينظرون في اتجاهٍ مخالفٍ تمامًا، مما يجعل الحديث معهم صعبًا ومحرجًا. أمّا أُسيد فيبدو على طبيعته، وغير مرتبكٍ أبدًا، ولا يقطع التواصل البصري بشكل كامل، قال دون أن يطيل:

- ما شاء الله! بالتوفيق إن شاء الله.

وعند ذلك الحدّ، لم أشأ أن أطيل الحديث أكثر من ذلك، أومأت له بالشكر، فقال وهو يمضي:

- مع السلامة!

أجبته بهدوءٍ مصطنع:

- مع السلامة.

وبعد أن مضى وابتعد قليلًا، سحبتني ياسمين لنجلس قليلًا، إذ رأت أنّي لست بأفضل حالاتي. جلسنا، فبدأت ياسمين حديثها:

- هل أنتِ بخير؟
- لا أبدًا، أشعر بالضيق.
- لماذا؟
- يا ترى هل لاحظ حماسي الزائد؟ هل بدوت متلهّفةً أكثر مما ينبغي؟ ربما لاحظ أنّني أطلت الحديث دون داعٍ.
- لا أظنّ ذلك.
- هذه أوّل مرّةٍ نتحدّث بها معًا، لا بدّ أنّه لاحظ اهتمامي.

- الموقف عادي جدًّا، لا تفكّري بهذه الطريقة. وجنتاكِ أصبحتا حمراوين، لنذهب إلى الحمام لتغسلي وجهك، ثمّ نعود إلى المنزل.

حاولت أن أقتنع بكلام ياسمين، فشعرت أنّني أفضل حالًا، وحينها سألتها مباشرة:

- كيف وجدته؟

تغيّرت ملامح ياسمين من التعاطف معي إلى ملامح ساخرة، قالت لي وهي تضحك:

- شابّ عاديّ جدًّا، ظننته أوسم بكثير!
- بل هو وسيم جدًّا.
- لم تكن تلك المواصفات لتنال إعجابك أبدًا.
- أعلم، لقد خطف قلبي يا ياسمين.
- تمهّلي ولا تندفعي أرجوك، فالشابّ يبدو متعقّلًا ورزينًا للغاية.

وقبل أن تكمل ياسمين كلامها، قلت لها:

- أعلم، أساسًا هو غير مهتمّ بي على الإطلاق، ترى هل سيحضر الندوة التي سأشارك فيها؟ أتعلمين ياسمين؟ فكرة وجوده بين

الحضور تثير في داخلي شعورًا متناقضًا؛ توترًا ممزوجًا بحماسٍ غريب.

- يجب أن يكون ذلك الأُسيد ممتنًّا أنّه نال إعجاب الأميرة جود التي لم يكن يعجبها أحد.
- إعجاب! يا ليت الأمر مقتصرًا على الإعجاب فقط. بالمناسبة هل نحن من نقع في الحب؟ أم هو من يقع علينا؟
- سؤالٌ وجيه، حين أعيش التجربة سأجيبك، والآن يجب أن نعود إلى المنزل حالًا.

وعندما عدت إلى المنزل، رحت أبحث عن أي شيء يشغلني ويخفف ضجيج أفكاري ومشاعري؛ إذ كنت لا أزال مضطربة وأشعر بشيءٍ من الندم حول تسرّعي واندفاعي بالحديث إليه، قررت أن أضع رأسي تحت الماء، علّ صوت الماء يخفف من فوضى الأفكار في رأسي. يا إلهي! متى سأتمكّن من تجاوز هذا الشعور؟ مزيجٌ من الحماس والاضطراب والخجل، أعلم جيدًا أنّني لم أرتكب أي خطأ، لكن حماسي المفرط كان واضحًا جدًا.

صلّيت العشاء لاحقًا، ثمّ غرقت في نومٍ عميق، على أمل أن تمحو الساعات القادمة ذكريات اليوم، أو على الأقل تخفف من وطأتها في ذهني.

عمر — أكتوبر 2005 – السنة الثالثة

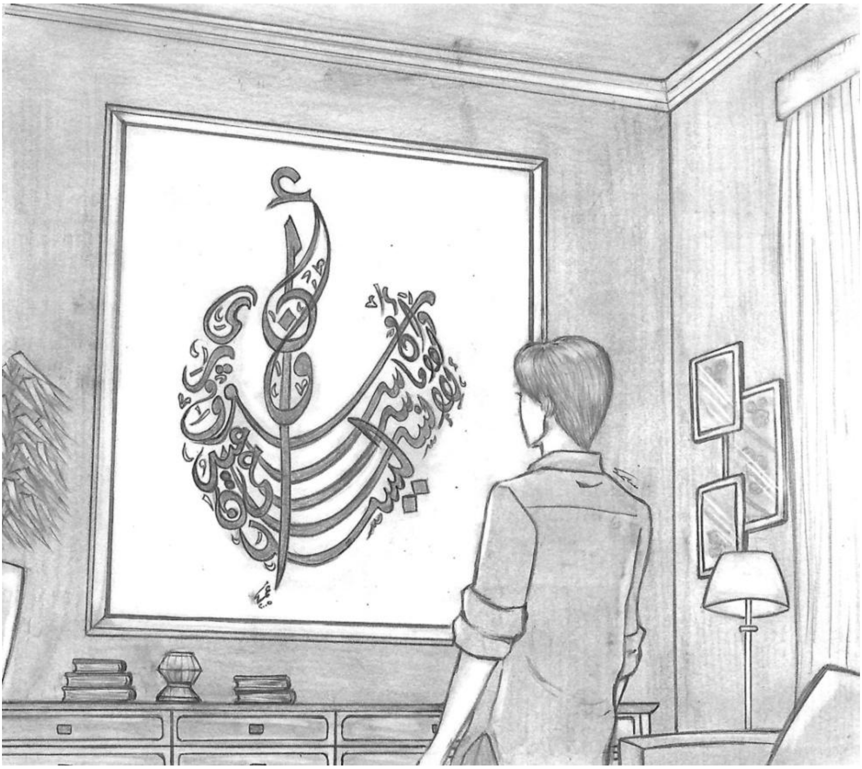

لم أتوقّع أن أستعيد مهاراتي في الكتابة والتخطيط بهذه السرعة، فبعد مرور أسابيع قليلة أنهيتُ لوحتي الأولى، والتي أسميتها "لوحة استعادة الشغف". كنتُ فخورًا بها للغاية، أتأمّلها فينتابني إحساسٌ جميلٌ وعميق.

قرّرت أن أعلّقها في مكانٍ واضح ومميّز، رحتُ أنظر في أرجاء غرفتي، فوقع نظري على لوحةٍ تجريديةٍ كئيبةٍ للغاية. عاينتُ المقاسات، ووجدتها مناسبة، فنزعتُ تلك اللوحة الكئيبة ووضعتُ بدلًا عنها لوحتي

الجديدة. وبينما كنتُ أتأمّلها: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنّ سعيه سوف يُرى".

نادتني غالية لأجهّز نفسي لموعد الليلة: حفل عشاء خيريّ لجمع التبرعات، بالإضافة إلى مزادٍ علنيّ.

كانت غالية قد جهّزت ملابسي بعنايةٍ فائقة، فهي تهتمّ بأدقّ التفاصيل، حتّى اختيار الجوارب بما يتناسب مع بقية الملابس. هذه الدقّة لم تكن وليدة اللحظة، بل هي نتيجة سنواتٍ من التوجيه المستمر من والدتي. ومع مرور الوقت وكثرة التعليمات التي تلقّتها من والدتي، وبحكم السنوات الطويلة التي قضتها معنا، أصبحت غالية جزءًا من العائلة. لقد صارت تشبه والدتي في كلّ شيء، ولكن بأسلوبٍ أقلّ حدّة. واليوم لم تعد والدتي بحاجةٍ إلى إرشادها، فقد تولّت غالية إدارة شؤون المنزل بالكامل دون الرجوع إليها، والاثنتان سعيدتان بهذا الوضع. والمضحك في الأمر أنّ والدتي، خلال شجاراتها المتكررة مع والدي في السابق، كانت تتهمه بأنّ غالية تفهمها وتراعيها أكثر منه!

اتصلتُ بوالدتي، فأخبرتني أنّها في القاعة وأنّ الأمور كلّها على أكمل وجه، فودّعتُ غالية وانطلقتُ إلى الحفل. حين دخلتُ القاعة استقبلتني أمي بحفاوة، وبدأت تعرّفني على أشخاصٍ لم ألتقِ بهم من قبل. سرعان

ما وجدنا أنفسنا في دوّامة الأسئلة المتكررة والسطحية المملّة. لا تعجبني هذه الفعاليّات، لكنّها طقوسٌ إجبارية من أجل التمويل. جلستُ مع المتطوعين ورحتُ أتبادل معهم أطراف الحديث، لكن والدتي أشارت إليّ بأن أتفاعل مع المدعوّين وكبار الشخصيات.

حاولتُ أن أستجمع صبري، ورحتُ أحادث بعض المدعوّين وأجاملهم قدر الإمكان. لا تعجبني أحاديثهم ولا تهمّني، ولا أشعر بأنّهم يشبهونني أبدًا. تتمحور اهتماماتهم حول المال والأعمال، والإنجازات، والعقود والصفقات، والألماس والمجوهرات، سيّما تلك التي يتبرعون بها خلال الحفل ثمّ يُعاد شراؤها في المزاد العلنيّ.

كم هي مملّة هذه الفقرة! يا إلهي ما هذا البروتوكول المزعج! لطالما تساءلت: لماذا لا يتبرعون مباشرةً بالمال الذي خصّصوه دون مزادات، ودون أسماء، وإعلانات، ومكبّرات صوت؟

كان الحفل على وشك الانتهاء حين أقبلت إحدى صديقات والدتي، والتي على ما يبدو أنّها تبرّعت بمبلغٍ كبير، إذ أشارت لي والدتي بطرف عينها أن أقدّم لها الشكر الجزيل، وهي تقدّمها لي قائلةً:

- السيدة ابتهال، سيدة أعمال رائدة في مجال استيراد الأقمشة. ابني عمر.

أومأتُ برأسي ورحّبتُ بها:

- أهلًا بكِ سيدتي، شكرًا لقدومك ودعمك لنا.

ابتسمت بلطفٍ وقالت لي:

- العفو، لقد كان حفلًا ممتازًا. سمعتُ أنّك رئيس كفالة الأيتام في الجمعية.

أجبتها:

- نعم سيدتي، هذا صحيح.
- وأنّك تدرس الهندسة الطبيّة.

أجبتها بتململ:

- نعم، هذا صحيح.

أشارت لي نحو ابنتها التي تقف بجانبها وقالت:

- لقد أنهت ابنتي الثانوية العامة، وهي تحاول الحصول على قبولٍ في كلية الهندسة، هلّا قدّمت لها النصيحة؟ فهي لا تزال محتارة في اختيار الاختصاص.

قلتُ في نفسي: ما هذا الموقف المزعج؟ توجّهتُ بنظري نحو الفتاة، فعرفت عن نفسها، ثمّ بدأتُ بسرد نصائحي حول اختيار الاختصاص، وما إن فرغتُ من تلك النصائح -التي لم أشعر بأنّ لها أي قيمة- حتى استأذنتُ منهنّ وبحثتُ عن مكانٍ أجلس فيه لأحتسي القهوة. نظرتُ من خلال نافذة القاعة إلى السماء، كان القمر بدرًا جميلًا، وما إن رأيته حتّى لاح لي اسمها.

وردة الربيع! لماذا أذكرك في كلّ مرّة أرى فيها شيئًا جميلًا؟ بل في كلّ مرّة أشعر فيها بضيق؟ بل في كلّ مرّة أشعر فيها بحماس؟

لا! أنا أفكر فيكِ طيلة الوقت، عليّ أن أعترف بذلك.

وفي تلك اللحظة غطّت سحابةٌ كبيرةٌ القمر، فعاد إليّ شعور الضيق مجددًا. ماذا سأفعل إن كانت مخطوبة؟ ماذا لو كان حديثها في الواقع مختلفًا عن كلماتها؟ كتاباتها تجعلني أتصوّر شخصًا يشبهها تمامًا، لكن ماذا لو كانت شخصيّتها لا تمتّ لكتاباتها بصلة؟ أحيانًا الكلمات تعبّر عمّا نريده نحن، وليس بالضرورة عمّن نكونه حقًّا.

وبينما كنتُ أفكر، ظهر القمر فجأةً من وراء تلك السحابة، فغمر قلبي بالمشاعر المختلطة، فوجدتُ نفسي أتجرّأ وأطرح هذا السؤال للمرّة الأولى: هل أنا واقعٌ في حبّكِ، وردة الربيع؟

عمر أكتوبر 2005 – السنة الثالثة

كم كانت الأيام الماضية بطيئة! كنتُ أعدّ الساعات في انتظار ندوتها، وتجاهلتُ السؤال الذي تراءى لي في الأيام الماضية، ولم أشأ أن أفكّر فيه أكثر. لكن ما أعرفه أنّني أودّ رؤية تلك الفتاة، التي اتخذتْ لها في قلبي مكانًا لم يصل إليه أحدٌ قبلها، مكانًا لم أكن أنا نفسي أعلم بوجوده.

أريد أن أفهم، لماذا هي بالذات؟ ما سرّها؟ وكيف استطاعت أن تكسر حواجزي بسهولة؟ كيف لها أن تؤثّر في وجداني، وتجعل من كلماتها لحنًا يطرب فؤادي؟ كيف فعلتْ كلّ هذا حتّى دون أن أعرفها؟ وردة الربيع، لا أعلم ما هي مشاعري تجاهك، لكنّي أحتاج إليك.

لا أعلم كيف هو شكلك، من أي عائلة أنتِ؟ كيف تتصرفين؟ كيف تتكلمين؟ لا أعلم شيئًا من هذا، لكنّك خطفتِ قلبي تمامًا، عليّ أن أعترف بذلك.

وفي الساعات الأخيرة قبل لقائها، تحوّل شعور الاضطراب إلى ثقةٍ، ورغم أنّ ندوتها في الساعة الواحدة مساءً، إلا أنّني قررتُ أن أذهب إلى

مقرّ الندوات من الصباح الباكر، كي لا يمنعني أيّ طارئ عن لقائي بها.

كنتُ في طريقي أفكّر بحزمٍ حول ردّة فعلي حين أراها، وأحاول أن أضبط انفعالاتي مع كلّ الاحتمالات. وبينما كنتُ أفكّر، رنّ هاتفي فإذا بها الآنسة سعاد من الجمعية.

- مرحبًا!
- أهلًا عمر. أعلم أنّ اليوم هو يوم إجازةٍ لك، لكن هل يمكنك القدوم إلى المقر لساعتين فقط؟ سيزورنا وفدٌ من الأمم المتحدة.
- ألم يكن الاتفاق معهم غدًا؟
- هذا صحيح، لكنّهم اتصلوا للتو وأخبرونا أنّ جدول أعمالهم تغيّر. نحن بحاجة إلى مهارتك في اللغة الإنجليزية.

أجبتها:

- سآتي، لكنّني لا أستطيع البقاء بعد الساعة الثانية عشرة والنصف، لديّ موعدٌ هامّ جدًّا.
- لا تقلق، سيحين موعد الغداء بعدها، ولن يمكثوا أكثر من ذلك.

وافقتُ، وغيّرتُ وجهتي إلى الجمعية. استقبلنا الوفد، وكان اللقاء مثمرًا؛ فقد وعدونا بتقديم مساعدات لبعض الحالات بعد دراستها. انتهى الاجتماع عند الساعة الواحدة إلا ربعًا.

خرجتُ مسرعًا محاولًا العثور على سيارة أجرة، لكنني بقيتُ حوالي خمس دقائق دون جدوى. لمتُ نفسي على عدم إحضار سيّارةٍ خاصّةٍ وعلى عنادي الذي لا أجد له معنى الآن. في تلك الأثناء خرج السيد مالك وعرض عليّ توصيلي بسيارته كعادته. هذه المرة لم أستطع رفض عرضه ووافقت.

ركبتُ معه، ولاحظتُ ابتسامته التي لم تفارق وجهه، ثمّ قال مازحًا:

- يبدو أنّ لديك أمرًا مهمًّا يشغلك بالفعل.
- هذا صحيح.
- جميل، جميل. من حسن حظّي أنّ هناك ما يهمّك إلى هذا الحدّ، لنكسب إيصالك عمر بيك!

اكتفيتُ بالابتسام دون تعليق. وعند وصولنا إلى مقرّ الندوات، شكرته على مساعدته لي ومضيتُ مسرعًا. وصلتُ إلى القاعة عند الساعة الواحدة وسبع دقائق تقريبًا. أخذتُ نفسًا طويلًا، قلت في سرّي: بسم الله، وفتحتُ باب القاعة.

وهناك كانت المفاجأة؛ رأيتُ شابًّا يعتلي المنصّة، لم أفهم ما كان يقوله بالضبط، إذ لمع في رأسي سؤالٌ جوهريٌّ لم يخطر ببالي ولا مرّة: هل يمكن أن تكون "وردة الربيع" شابًّا؟

لكن سرعان ما طردتُ الفكرة من رأسي؛ ما هذا الافتراض الغبيّ! لقد حدّدت بنفسها موعد ندوتها، لن تفعل ذلك لو أنّها شابّ وتنتحل شخصية فتاة. نظرتُ مجددًا نحو ذلك الشابّ، لا بدّ أنّه من يدير هذه الفعالية. حاولتُ أن أستجمع تركيزي، فسمعته ينهي جملته قائلًا: فلتتفضّلي يا آنسة.

وقفت إحداهنّ، وتوجّهت نحو المنصّة؛ فتاةٌ محجّبةٌ متوسطة الطول، لم أتمكّن من رؤية وجهها. كانت القاعة كبيرة وكنتُ أجلس بعيدًا عن المنصّة، وبسبب اضطرابي الشديد بدت الرؤية غير واضحة، حتّى إنّني لم أنتبه للعرض التقديميّ الذي يعرض اسمها واسم مجموعتها القصصية. وقفت الفتاة ورفعت رأسها في مواجهة الجميع وألقت السلام.

جود! إنّها جود! وردة الربيع، هي جود!

شعرتُ وكأنّ العالم توقّف لوهلة. تسارعت نبضات قلبي بشدّة. لم أصدّق أنّ "وردة الربيع" التي قرأتُ كلماتها وأحببتُ أسلوبها هي جود نفسها. شعرتُ بمزيجٍ غريبٍ من الدهشة والفرح. نظرتُ إليها وكأنّي في حلم.

لأوّل مرّة ألاحظ ملامحها؛ كان وجهها دائريًّا، بعينين واسعتين خضراوين تشعّان هدوءًا، وأضفى حجابها وقارًا جعلني أرتاح أكثر لفكرة أنّها هي. لا أعرف كثيرًا عنها، لكنّها كانت تبدو دائمًا مختلفةً ومميّزة بطريقة لا أستطيع وصفها.

في تلك الأثناء، بدأت جود بإلقاء القصص القصيرة، ولم أتمكّن من الإصغاء إليها، إذ كنتُ في عالمٍ آخر تمامًا.

وجدتُها، وجدتُ الروح التي كنتُ أبحث عنها منذ زمنٍ طويل. وجدتُ الفتاة التي جذبتني إليها بفكرها وكلماتها، ولطفها وجمالها. شعرتُ وكأنّ هذه اللحظة بدايةٌ لمرحلةٍ جديدةٍ في حياتي.

ما أجملكِ يا وردة الربيع! بل ما أجملكِ يا جود العلي!

جود أكتوبر 2005 – السنة الثالثة

كان آخر الراحلين، ودّعهم جميعًا ولم يودّعه أحد.

بهذه القصّة افتتحتُ مجموعتي القصصيّة القصيرة جدًا. كنتُ متوترةً للغاية؛ صحيح أنّني أكتب وأعبّر عن أفكاري في المنتديات، لكنّ الأمر هنا مختلفٌ تمامًا. لم أعد خلف شاشةٍ تخفي هويتي. الآن أنا جود العلي، بصوتي وصورتي، أقدّم قصصي وأفكاري أمام جمهورٍ حقيقيّ. رفعتُ نظري نحو الحاضرين للحظات، فالتقت عيناي بعيني جُمان، التي أشارت إليّ بابتسامةٍ طمأنتني بأنّ كل شيء على ما يرام. استجمعتُ شجاعتي وتابعتُ قراءة القصّة التالية.

حفلٌ تنكريّ

قبل أن يغادروا، شكرتُهم على حضورهم الحفل التنكريّ. رمقوني بنظرات استغراب، ثمّ قال أحدهم: هل كان الحفل تنكريًّا حقًّا؟ نحن لم نضع أقنعةً ولم نرتدِ أيّ أزياءٍ تنكّريّة!

يا للهول! أحقًّا لم أعد قادرةً على تمييز وجوههم الحقيقيّة؟!

أكملتُ القراءة وانتقلتُ إلى القصّة الثالثة، فالرابعة، فالخامسة. كنتُ ألتقط أنفاسي بين القصّة والتي تليها، أتفحّص الحضور مجددًا، لكن هذه المرّة لم يكن هدفي استجماع شجاعتي أو طمأنة جُمان. كنتُ أبحث عنه بين الجمهور.

ألقيتُ نظرةً سريعة على الحضور، ولم يكن بين الشباب القليلين الموجودين. أُسيد... لماذا لم تأتِ؟!

عدتُ بخيبة أمل لمتابعة إلقاء القصص المتبقيّة. وحين قلّبتُ الصفحات، توقفتُ عند قصةٍ لم أخطط لقراءتها، لم أستطع تجاوزها، فقررتُ أن ألقيها.

الكرسي الفارغ

تحت وهج المصباح الخافت، جلستْ تترقّب مجيئه كما فعلتْ لسنوات، متمسّكةً بوعدٍ آمنت به طويلًا. تسلّل الفجر بهدوء، ولا يزال الكرسيّ المقابل فارغًا، يشهد على غيابه.

آنذاك فقط، أدركت أنّها انتظرت وهمًا لم يكن له وجود.

تنهّدت قليلًا، ثمّ ختمتُ بقصةٍ عن الصداقة، أهديتها للفتيات اللواتي قدمن لدعمي، وخاصّةً ياسمين وجُمان.

مرآة الصداقة

كانت تمرّ بفترةٍ صعبة، تشعر خلالها بالعجز والتردد، وكأنّ كلّ ما تفعله لا يترك أثرًا. في لقائهما، لم تكثر صديقتها من الكلام، بل أشارت بهدوءٍ إلى لحظات قوتها التي اعتادت نسيانها. شيئًا فشيئًا، بدأت ترى في نفسها ما لم تكن تراه من قبل. أدركتْ حينها أنّ الصداقة ليست مجرّد حضورٍ في الأوقات الصعبة، بل مرآة تعكس لنا أفضل ما فينا حين يغيب عن أعيننا.

انتهيتُ، فارتفع صوت التشجيع والتصفيق، ورغم خيبة أملي من غياب أُسيد، إلا أنّني شعرتُ بالفرح؛ كانت تجربةً جديدة من نوعها.

سبقتني جُمان وياسمين وخرجتا من القاعة، بينما كانت بعض الفتيات من كلية الأدب العربي يتحدثن إليّ ويقدّمن نقدًا موضوعيًّا وبنّاءً. شكرتهنّ ومضت كلّ واحدةٍ منّا. وبينما كنتُ في طريقي إلى باب القاعة، والذي يقع في مؤخّرة القاعة، وجدتُ زميلنا عمر ما يزال في مكانه رغم انتهاء الندوة. حين رآني تظاهر بأنّه يدوّن شيئًا في دفتره، فتساءلتُ: لماذا يتجاهلني بهذه الطريقة؟! أكانت الندوة سيئةً إلى هذا الحدّ؟ أيشعر بالإحراج من فكرة حضوره لها؟ لكنّه ما لبث أن رفع رأسه وبادرني بالسلام:

- السلام عليكم، مباركٌ على هذه الندوة الرائعة.
- وعليكم السلام، شكرًا لحضورك.

مضيتُ، وحمدتُ الله أنّه لم يتمادى في تجاهلي، وإلا لاعتقدتُ أنّ قصصي مخيّبةٌ للآمال، وأنّ حضور الندوة مضيعةٌ للوقت.

يناير 2006 – السنة الثالثة

 وردة الربيع:

ها هو عيد الأضحى يقترب كنسمةٍ عذبةٍ بعد موسم الطاعة والخشوع، بعد دعوات الحجيج في عرفات، ودموعهم الصادقة.

يا عيدنا، كن دفئًا للقلوب، وبهجةً لا تزول!

كن وعدًا بأنّ هناك صباحًا من نور، وعيدًا من سلام، ونفوسًا تعرف كيف تفرح رغم كلّ شيء.

عمر:

كلّ عام وأنتِ بألف خير وردة الربيع، أعاده الله علينا بالخير واليُمن والبركات.

عمر　　　　يناير 2006 – السنة الثالثة

كان مختار ينتظرني في السيارة حينما أنهيتُ توزيع آخر حصّة من الأضاحي لهذه السنة. صعدتُ إلى السيارة فقال لي:

- هاتفك كان يرنّ منذ قليل.

بحثتُ عن هاتفي بين الأوراق والقوائم المتناثرة في السيارة، وحينما وجدته اتصلتُ بوالدتي.

- أهلًا يا أمّي، انتهينا الآن، سأمرّ على المنزل أولًا كي أستحمّ، سأحاول ألا أتأخّر.

وبالفعل، حاولتُ أن أسرع قدر الإمكان، وصلتُ إلى منزل جدّي عند الساعة الثالثة ظهرًا.

اعتدنا أن يكون الاجتماع في اليوم الأول من عيد الأضحى في منزل جدّي، حتّى قبل انفصال والديّ، لذا بقي الحال على ما هو عليه بعد انفصالهما، وأصبحتُ أقضي اليوم الثاني من العيد مع والدي وأعمامي. دخلتُ إلى غرفة الطعام الواسعة، هناك حيث كان الجميع جالسًا بانتظاري. ألقيتُ التحية وبحثتُ عن مكاني بجانب والدتي، وما إن

جلستُ حتّى أعطى جدّي الإشارة بالبدء. وكما هو دومًا، كان الطعام والترتيب والتنسيق على أعلى مستوى.

حين فرغنا من طعام الغداء، جلسنا نحن الأحفاد في إحدى الصالات الكبيرة. انتهزتُ الفرصة وقصدتُ غرفة المكتب، والتي فيها جهاز الحاسوب، فأنا منذ البارحة أنتظر ردًّا من جود على تعليقي ومباركتي للعيد، ولم يتسنَّ لي طيلة الليلة الماضية أن أحصل على فرصة لفتح الموقع ورؤية المستجدات. دخلتُ الغرفة فلم أجد جهاز الحاسوب، فسألتُ الخادمة فقالت لي إنّه في الصيانة. شعرتُ بالإستياء الشديد، فأنا أرغب بشدّة أن أقرأ أي ردٍّ من جود في يوم العيد، فمباركتها تعني لي الكثير.

لا يوجد في منزل جدّي سوى جهازين: ذاك الذي في غرفة المكتب ويستطيع الجميع استخدامه، والآخر الخاصّ بجدّي، والذي يضعه في غرفة مكتبه الخاصّ في الطابق العلوي، والذي لا يجرؤ أحد على المرور أمامها فضلًا عن اقتحامها واستخدام أدواته وأجهزته الخاصّة!

استسلمتُ للأمر، وعدتُ إلى حيث يجلس أبناء أخوالي وخالاتي، وبعد أن أخذ جدّي استراحته القصيرة أقبل ليجلس معنا، وبالتأكيد لا يمكن أن يتخلّى عن إعطائنا "العيدية" مهما كبرنا. جلس على كرسيّه الخاصّ وبدأ حديثه. كنّا خمسة عشر حفيدًا، وحين يبارك لنا جدّي بالعيد يخصّ

كلّ واحدٍ منّا بكلمةٍ صغيرة تتضمن إطراءً ونصيحةً ودعاءً، ثمّ يسلّمه ظرفًا فيه مبلغٌ لا بأس به من المال. وبالطبع يبدأ بالأصغر سنًّا، والذين يحصلون أيضًا على ألعاب وهدايا وحلويات إضافيّة.

كنتُ متعبًا للغاية وبالكاد أستطيع مشاركة الأجواء، فليلة البارحة كانت من أصعب الليالي، إذ قضينا يوم عرفة بأكمله في الجمعية، فاضطررنا ككلّ سنة أن نفطر على عُجالة، وبعد الإفطار كان علينا أن نكمل القوائم وننسّق حركة السيارات. لم أنم إلا ساعتين، وبعد الفجر انطلقنا مباشرةً للإشراف على ذبح الأضاحي وبدء التوزيع، حتّى إنني لم أصلِّ العيد جماعة في المسجد.

كنتُ أغالب النوم في عينيّ حين أقبلت ابنة خالي الصغيرة وجلست في حجري، ورغم أنّ شعبيتي قليلة بين أطفال العائلة، إلا أنّ روان لا تكترث لذلك وتكنّ لي كلّ التقدير. وبينما أنا على هذه الحال سمعتُ اسمي، فأجلستُ روان مكاني وتوجّهتُ نحو جدّي، قبّلتُ يده وباركتُ له بالعيد، فردّ مبتسمًا:

- عمر! يا ذا العينين الناعستين، الذي يؤخرنا كلّ عام ويجعل العائلة كلّها تنتظره على مائدة غداء العيد.

نظرتُ إليه وأنا لا أفهم إلى ماذا يرمي! هل يلومني؟ قلتُ في نفسي: هل أبرّر أم أعتذر؟ هو يعلم بالتأكيد أين كنتُ ولماذا تأخّرتُ. فضّلتُ أن أظلّ صامتًا، لكنّي تأهّبتُ للدفاع عن نفسي. أردف جدّي وهو يربّت على كتفي:

- جدّك فخورٌ بك.

ابتسمتُ وأطرقتُ رأسي. لم يناولني أيّ ظرف، بل سألني:

- عمر باشا! اطلب وتمنَّ.

في كلّ عيد، يختار جدّي أحد الأحفاد ليمنحه "عيدية" مميّزةً ومختلفةً تقديرًا لشيءٍ مميّز أنجزه. أذكر أنّه أهدى ابنة خالتي العام الماضي قلادةً ذهبيّة لتفوقها في المدرسة، كما وهب ابن خالي الكبير بعضًا من تحفه الخاصّة لحصوله على المرتبة الأولى في نهائيات التنس. لكن لم أتوقع أن يقع الاختيار عليّ أنا! "اطلب وتمنَّ"! ما هذه العطية المفتوحة! ماذا سأطلب؟

في الواقع لم يخطر ببالي شيءٌ محدد، فسألتُ جدّي:

- سأفكر في الأمر، هل يمكنني ذلك؟
- بالطبع، تروَّ وخذ وقتك.

وقبل أن أنصرف انتهزتُ فرصة كوني مميّزًا لهذا العيد، وسألته:

- هل أستطيع أن أطلب طلبًا بسيطًا الآن؟
- بالطبع!
- هل تسمح لي أن أستخدم جهاز الحاسوب الذي في مكتبك؟
- لك ذلك بالطبع.
- شكرًا لك جدّي.

انتظرتُ حتّى انتهت جلستنا مع جدّي، ثمّ انطلقتُ مباشرة إلى مكتبه الخاصّ. وبالطبع لم أكن وحدي، إذ لحقت بي ألما التي كانت تمشي خلفي كما لو أنّها كلب حراسة. دخلتُ المكتب وأدرتُ جهاز الحاسوب، فقفزت ألما وجلست أمامي وفردت ذيلها على المكتب. تجاهلتُها وتجاهلتُ نظراتها المريبة وبدأتُ أبحث عن الموضوع الذي كتبته جود.

منذ أن اكتشفتُ جود وأنا أحاول استيعاب مشاعري لأقرر كيف سأتصرّف. كان أكثر سؤال يدور في خاطري: خلال السنتين الماضيتين كنتُ أراها وأعلم أنّ لها شعبية جيدة في الدفعة، لكنّها لم تلفت نظري ولم أكن من معجبيها. فهل سأنضم إلى قائمة المعجبين بجود الآن؟ هل سأصبح مثل بقيّة الشباب؟

وفي الوقت ذاته أجد نفسي أجلس خلف جهاز الحاسوب أنتظر قراءة أي كلمةٍ منها: موضوع، تعليق، خاطرة، أي شيء يصدر عن جود، جود التي لم أرَ كخلقها ولطفها. فتاةٌ خلوقةٌ ومهذّبةٌ، تتصرّف بأدبٍ ولطفٍ وتعامل الجميع بذوق عالٍ. إنها تصعّب الأمر عليّ كثيرًا، لا خيار لديّ سوى أن أكنّ لها الإعجاب والاحترام وكلّ الحبّ. لكن لا أريد لمشاعري أن تُفتضح أبدًا، إذ لا رغبة لي في الحديث معها الآن، أحتاج أن أرتّب أفكاري وأستوعب الأمر، يجب ألا أتسرّع وأنجرف وراء اندفاعي.

بحثتُ بين التعليقات، وخابت آمالي حين لم أجد أي تعليق أو ردّ أو معايدة. أغلقتُ جهاز الحاسوب وشعرتُ بالتعب ينساب إلى كلّ خلايا جسدي. كان المكتب هادئًا للغاية، في حين أنّ البيت يعجّ بالأصوات والأشخاص، ولم تكن لدي الطاقة للخروج مجددًا إلى الصالات في الطابق السفلي.

نهضتُ من الكرسي واضطجعتُ على الأريكة الفاخرة في إحدى زوايا المكتب، فلحقت بي ألما. قلتُ في نفسي: لا بدّ أنّها تنوي إزعاجي.

لم أشعر بما حولي، وخلدتُ في نومٍ عميق.

عمر يناير 2006 – السنة الثالثة

كنتُ أودّع والدي وزوجته حين أشار لي بأنّنا سننطلق معًا، وقال:

- سأزور جدّك عزمي لمعايدته.

سألته:

- هل لديك موعد معه؟
- بالطبع! وهل تتوقع منّي أن أزور عزمي باشا من غير موعد؟
- إذن دعنا ننطلق.

ودّعتُ فريال ومضينا أنا ووالدي. كان يدور في خلدي سؤالٌ مهمّ جدًا: أين والدتي الآن؟ قاطعني والدي وهو يسألني:

- لا تقلق، ستكون زيارتي سريعة، وسأقابل جدّك عزمي فقط!

سألته بجدّية:

- ألا ترى بأن علاقتك غريبة مع عائلة زوجتك السابقة؟
- لا أبدًا، عمر يا بني، ليس من الضروري أن نعادي من نختلف معهم. أكنّ لوالدتك وعائلتها كلّ الاحترام، سيّما عزمي باشا.

لا تنسَ أنّه كان أستاذي، أنتَ محظوظ لأنّه جدّك، قامةٌ كبيرةٌ وشخصيّةٌ استثنائيّة، تعلّمت منه الكثير، ليس فقط في المحاماة. لا أنسى فضله ما حييت.

نظرتُ إلى والدي باستغراب، إذ أجد تناقضًا في كلامه؛ كيف له أن يؤذي هذا الشخص الذي يمتدحه؟ قاطع والدي تساؤلاتي قائلًا:

- عمر! عليك أن تفصل بين الأمور. أكنّ للسيد عزمي كلّ الودّ، ويسعدني أن أزوره وأتواصل معه، وأنا متأكّد أنّه يرحّب برؤيتي، وأظنّك الوحيد الذي لا يحبّذ ذلك.
- لا يا أبي، لم أقصد ذلك، لكنّ الأمر مربك.
- لا عليك، لا تفكّر كثيرًا، وصلنا.

بحثتُ سريعًا عن سيارة والدتي، وبالفعل وكما توقّعت، لم تكن والدتي أصلًا في منزل جدّي، مما أراح قلبي بعض الشيء. استقبلنا جدّي بحفاوةٍ جعلتني طوال الزيارة أراقب كيف يتعاملان مع بعضهما بودٍّ حقيقي.

يا إلهي، ما أصعب أن تكون رجلًا بحقّ!

وقبل أن يغادر والدي، سألني إن كنتُ أودّ الرحيل، فأجبته أنّي سأظلّ في منزل جدّي حاليًا، فانطلق. كان رأسي مثقلًا بالأسئلة، إلا أنّني فضّلت الاحتفاظ بها لنفسي. ناداني جدّي وطلب مني أن أجلس معه في غرفة المكتب. سألني وهو يعدّل جلسته:

- كيف حالك يا عمر؟ هل ارتحت؟ كنتَ متعبًا للغاية البارحة، حتّى أنّك نمت في المكتب.
- اعذرني يا جدّي.
- نومًا هانئًا. وهل فكّرت في طلبك؟
- في الحقيقة ليس بعد.
- لا بأس، فكّر بهدوء.
- شكرًا، لكن لديّ سؤالٌ يا جدّي.
- تفضّل.
- منذ أعوامٍ طويلة وأنا أعمل في الجمعية وأقضي يوم العيد على هذا النحو، ما الذي تغيّر هذا العام ليقع الاختيار عليّ؟
- هذا صحيح، أنتَ تنجز في الجمعية منذ عدّة سنوات، وظاهر الأمر لم يتغيّر كثيرًا.
- إذن؟
- "شيم الرجال" بدأت أرى بوادرها.

- ماذا تقصد؟ لم أفهم.
- خلال الأشهر الماضية طرأ تغيير على بعض طباعك؛ باتت ردود أفعالك أقل حدّة، وأصبحت أكثر ليونة في التعامل معنا جميعًا، وخاصّة مع والدتك. لم تعد تعترض على كلّ ما نقوله أو نفعله، ولم تعد تعامل من حولك كأنّك الإنسان المثاليّ الذي يدرك حقائق الأمور وبواطنها ولا يخطئ.
- هل كنتُ بهذا السوء؟
- لم تكن سيئًا، كلّ ما في الأمر أنّك بدأت تنضج، وتصبح رجلًا مسؤولًا عن تصرفاته. ألم تلاحظ ذلك في نفسك؟ بالأحرى، ألم تتعمّد التغيير وتسعَ وتخطّط وتحاول لتصل إلى هذه النتائج؟
- في الحقيقة لا.
- إذن مصدر التغيير ليس ذاتيًّا، إنّما مكتسبًا بغير قصد.
- وماذا يعني هذا؟
- لا أعلم، ربما أنت محاطٌ بأناس أثّروا بك، فبتَّ تتبنّى طباعهم دون تخطيط مسبقٍ منك.

تنهّدت، وخطر ببالي معظم أصدقائي، آدم، والآخرين، ومن ثمّ لاح اسمها أمامي، فتوردت وجنتيّ. وحين طال صمتي، أردف جدّي قائلًا:

- هناك أسبابٌ أخرى قد تغيّر مزاج الشخص، فتجعله هيّنًا وليّنًا ومنفتحًا على الحياة، وأكثر تسامحًا مع الآخرين.

صمت جدّي قليلًا، ثمّ ابتسم وسألني بصوتٍ منخفض:

- هل أخبرك سرًّا؟
- تفضّل جدّي.
- حين كنتُ شابًّا كنتُ صعب المراس ومنعزلًا، لا أجيد التعامل مع الآخرين. لم تتغيّر طباعي إلا حين انخرطتُ في العمل التطوعي. حبّ الناس ومساعدتهم في تحسين أوضاعهم

وأحوالهم جعلني أتخلّى عن قسوتي وغطرستي، وبتُّ أكثر انفتاحًا على الآخرين. لم أكن أخطّط لكلّ ذلك، أحببتُ العمل التطوعي، وباتت حياتي متمركزةً حوله. الحبّ يا عمر يصنع المعجزات في النفس.

توقف جدّي عن الكلام ثمّ نظر نحوي وهو يحاول استقراء ردّة فعلي. سألتُ نفسي: هل عرف جدّي بأمر جود؟ هل هناك من يراقبني في الجامعة؟ أجبته بارتباك:

- نعم، لعلّه صديقي آدم، هو شابٌّ متفائلٌ ويأخذ الأمور ببساطة، ربما تأثّرتُ به.

نظر إليّ نظرةً مغزاها أنّه لم يقتنع بشكلٍ كامل، وابتسم ابتسامةً بالكاد تُرى، فقلت له:

- ما سرّ هذه الابتسامة يا جدّي؟ هل لي أن أعرف؟

وما إن سألته هذا السؤال حتّى ضحك ضحكةً مرتفعة، نادرًا ما أسمعها، وأجابني:

- تغيّرت يا عمر، تغيّرت. ألم أقل لك؟ أنتَ تلاحظ أمورًا لم تكن تلقي لها بالًا قبل عدّة أشهر. تلك الابتسامة الصغيرة لم تكن تعبأ بها سابقًا حين أُظهرها لك.

قلتُ له مبتسمًا:

- جدّي، لم أكن أتوقع أنّك تتابع وتلاحظ أمورًا كهذه.
- يا عمر، لتكون رجلًا ناجحًا، يجب أن تكون دقيق الملاحظة وشديد الانتباه. وعلى كلّ حال، هل عرفتَ سرّ تغيّرك أم ليس بعد؟ بالمناسبة لستَ مضطرًا لإجابتي، لكن جلّ ما أتمناه أن تطمح دائمًا إلى الأفضل، وتخطط له، ولا تكتفي من الاستزادة منه. جميلٌ أن نتأثّر بمن حولنا، لكن علينا أيضًا أن ندرك النقص الذي لدينا ونسعى ونجتهد لتجاوزه وترميمه، للوصول إلى الإحسان في كلّ شأننا.

أنهى كلامه وراح يقلّب في الأوراق التي أمامه. تنحنحتُ وأنا أقول له:

- لن أشغلك جدّي، هل تحتاج شيئًا آخر منّي؟
- لا يا عمر.
- إذن أستأذنك، أودّ الجلوس مع جدّتي قليلًا في الحديقة.

أومأ لي، فنهضتُ وكنتُ على وشك الخروج من المكتب حين قال لي:

- يا لهناءِ من تشغل بالك يا عمر!

تسمّرتُ في مكاني، وأبديتُ له وجهًا مندهشًا، أمّا هو فقبض على عكّازه وخرج من المكتب قبلي، وتركني في صدمتي.

جود　　　　فبراير 2006 – السنة الثالثة

أتى يوم الخميس، اليوم المفضّل لديّ، فهو يبشّر بنهاية الأسبوع وبيوميّ الراحة اللذين أنتظرهما بشوق. استيقظتُ في الساعة السابعة صباحًا، فوجدتُ والدتي مستيقظة. أعددتُ القهوة، وشربناها معًا. بعد ذلك، أعدّت لي والدتي شطيرة وكأسًا من الشاي. كان هذا الصباح بالفعل مميّزًا ببدئه معها.

انطلقتُ إلى الكلية، وحين وصلتُ، توجّهتُ نحو القاعة مباشرة، فوجدتُ جُمان قد أخذت مكانها في الصفوف الأخيرة، وحجزت لي مكانًا بجانبها. حين رأيتُ جُمان أخبرتها بحماس أنّ شيئًا جميلًا سيحدث معي اليوم، فأجابتني باستغراب:

- لم أكن أعلم أنّك تؤمنين بالأبراج!
- لا أؤمن بها بالطبع! ولا أحبّ حتّى المزاح حولها، لكنّني متفائلة اليوم.

وصلت المحاضِرة قبل أن نتمكّن من إكمال حديثنا. وبينما كنّا في منتصف المحاضرة، أعلنت المحاضِرة أنّه علينا العمل على مشروعٍ عمليّ

للمادة خلال هذا الفصل ضمن مجموعات، بحيث تتكوّن كل مجموعة من ثلاثة أشخاص على الأكثر.

نظرتُ إلى جُمان وكتبتُ لها على إحدى صفحات دفتري:

- أتت البشائر

نظرتْ إليّ جُمان ولم تفهم، فأضفتُ:

- المشروع.. ثلاثة أشخاص

لم تُظهر جُمان أي تفاعل، بل بقيت تنتظر مزيدًا من المعلومات لتفسير سعادتي غير المبررة. قطبتُ حاجبيّ وكتبتُ لها:

- ج، ج، وأُسيد

رفعت جُمان حاجبيها وكتبت بسرعة:

- تمزحين؟

كتبتُ بخطٍّ كبير:

- لا

وضعت راحة كفّها على خدّها وكأنّها ستلطم نفسها، فكتبتُ:

- فرصتي، أرجوكِ!

نظرتْ إليّ وملامح الاستياء باديةً عليها، ثمّ كتبت:

- مستحيل!

رسمتُ لها قلبًا مكسورًا وأوقفتُ الكتابة، وشعرتُ بخيبة أمل لا يمكن وصفها، يبدو أنّها لن تقبل بالاقتراح.

وحين انتهت المحاضرة، لم أتحرّك من مكاني، بإشارةٍ منّي أنّي لا أرغب في مرافقتها اليوم. كانت القاعة قد فرغت تمامًا، بينما بقيت جُمان بجانبي. وبعد عشر دقائق من الصمت قالت:

- أنا آسفة، لا مشكلة لديّ في العمل معه، لكنّي أرفض ذلك لمصلحتك.
- مصلحتي؟
- نعم، ما هو السبب الذي يجعلنا نختار شخصًا لا نتحدّث معه أصلًا؟ قد يشعر أنّك تتقرّبين منه، هل تريدين أن تضعي نفسك في هذا الموقف؟

- الأمر بسيط يا جُمان، المشروع يحتاج إلى بعض التجهيزات والقطع الإلكترونية، ونحن فتاتان، وقد نجد صعوبةً في الذهاب إلى تلك المحال. لم يكن ليفكر بأيّ سببٍ آخر.
- من قال إنّ هناك صعوبة؟
- جُمان، أعلم بأنّنا نستطيع الذهاب وإحضار ما نريد. ثمّ لا تنسي أنّ أُسيد يتمتع بمهاراتٍ علميّةٍ متميّزة، ونحن نريد الاستزادة من العلم والخبرة، أنا متأكدة بأنّنا سنتعلم منه الكثير.
- نتعلّم! هل أصبح العلم هو الشمّاعة؟
- ليس شمّاعة، لكنّي أوضح لكِ أنّ الأمر ليس فجًّا كما تظنين.
- على أي حال، أنتِ حرّة، تستطيعين فعل ما تريدين، أمّا أنا فلا أرغب في المشاركة بهذا الأمر.
- كما تشائين.
- والآن ما بك؟ لم أنتِ حزينة؟
- تسألينني وكأنّك لا تعلمين السبب.
- لكن يا جود...

احتدّ الكلام بيننا كثيرًا، حين دخل أحدهم إلى القاعة، فاضطررنا إلى إيقاف الجدال.

عمر فبراير 2006 – السنة الثالثة

استيقظتُ متأخرًا عن العادة، نظرتُ إلى الساعة فوجدتها الثامنة والنصف، بينما محاضرتي تبدأ في التاسعة والنصف. لم يكن هناك وقتٌ لفعل أيّ شيءٍ من روتينيّ الصباحيّ المعتاد؛ لا قهوة، لا فطور، ولا حتّى لحظة استرخاء قبل الانطلاق. كلّ ما فعلته هو تغيير ملابسي بسرعة والخروج من الغرفة، فصادفتُ والدتي التي سألتني عن سبب استعجالي.

- أمي، كيف لم توقظيني؟ لدي محاضرة صباحًا، ألم تحفظي جدول محاضراتي؟
- اشرب قهوتك الآن، وسأوصلك، لن تتأخّر.
- لا أريد أن توصليني، ربما سأتأخّر أكثر وأنا أنتظركِ.
- إذن خذ السيارة.
- لا أريد، قد أضيع وقتًا أطول في البحث عن مكان لركنها، لماذا لم يوقظني أحد؟ لا أنتِ ولا غالية؟
- لم يخطر ببالنا.
- لم يخطر ببالكما؟!
- عمر! اذهب بدلًا من أن تضيع وقتك في الجدال وتتأخّر أكثر.

ودّعتها وخرجتُ من المنزل ووقفت أكثر من عشر دقائق أنتظر سيارة أجرة، حينها فكرتُ كم أنّ عنادي يجعلني أخسر دائمًا في مواقف لا تستحق. لو كنتُ قد وافقتُ على عرض أمي لما تأخرتُ الآن، ولشربتُ قهوتي على الأقل.

وصلتُ إلى قاعة المحاضرة متأخّرًا بخمس عشرة دقيقة، جلستُ في المقاعد الخلفية. فتحتُ حقيبتي لإخراج دفتري، لكنّني تفاجأت بأنّ قلمي قد انفجر، تاركًا بقعًا من الحبر على كلّ ما كان بداخلها. شعرتُ بالانزعاج، ولم أتمكّن من تدوين أيّ شيء، فاكتفيتُ بالإصغاء طوال المحاضرة.

وحين انتهت المحاضرة، أسرعتُ إلى المرافق العامّة لغسل يدي من آثار الحبر، ثمّ عدتُ إلى القاعة لأخذ حقيبتي. فوجدتُ جود وجُمان لا تزالان جالستين في المقعد المقابل لحقيبتي، كانتا تتحدّثان بحدّة، لكنّهما أوقفتا حديثهما حين دخلتُ إلى القاعة. التقطتُ حقيبتي، ولأكسر الأجواء المريبة ألقيتُ عليهما التحية:

- صباح الخير، كيف الحال؟

أجابتني جُمان بلطف:

- أهلًا، الحمد لله.

بينما بدا على جود الغضب الشديد. أصابني الفضول لمعرفة ما يزعجها، فحاولتُ أن أطيل الحديث لأطمئنّ عليها وأسمع صوتها على الأقل.

- عفوًا، هل يمكنني استعارة محاضرة اليوم؟ جئت متأخّرًا ولم أتمكّن من الكتابة، لقد انفجر قلمي.

ابتسمت جُمان وقالت:

- تكتب جود جميع المحاضرات بشكل مرتّب وواضح!

لم تكن الفتاتان بأفضل حال، إذ ابتسمت جود ابتسامةً مصطنعةً ثمّ قالت وهي تحاول أن تتظاهر بأنّها على ما يرام:

- نعم، بالطبع، يمكنك استعارة دفتري.

شعرتُ بالارتياح بعض الشيء لسماع صوتها، وخمّنت أنّه شجارٌ بسيطٌ بين الصديقتين لا أكثر، فأجبتها:

- شكرًا جزيلًا لكِ، سأقوم بنسخ المحاضرة وأعيد الدفتر لك حالًا.

أخذتُ حقيبتي ودفترها ومضيتُ. فتحتُ الدفتر على المحاضرة المطلوبة وذهبتُ لنسخها، وحين عدتُ إلى القاعة لم أجدهما، بحثتُ عنهما في الكلية ومع ذلك لم أجد لهما أثرًا. اضطررتُ أن أحتفظ بدفترها معي، وضعته بين أغراضي وانطلقتُ إلى الجمعية. وهناك انشغلتُ لعدّة ساعات في العمل، وحين شعرتُ بالتعب قررتُ أن أحظى باستراحة قصيرة. ودون شعورٍ مني بحثتُ عن دفتر جود، وجلستُ أتصفّحه بهدوء.

خطّها جميلٌ ومرتّبٌ ويتناسق مع شخصيّتها تمامًا. رحت أتساءل: لماذا هي رائعةٌ إلى هذا الحدّ؟ كان قلبي يخفق بشدّة وأنا أقلّب الصفحات وأقرأ الأشعار المتناثرة في دفترها. شعرتُ بأنّ بين يديّ كنزًا ثمينًا. كنتُ في أفضل أحوالي، لكن فجأةً لفتت انتباهي بضع كلماتٍ في الصفحة الأخيرة من دفترها، فأربكتني وقلبت حالي.

عمر　　　　　　　　　　فبراير 2006 – السنة الثالثة

منذ أن اكتشفت أنّ "وردة الربيع" هي جود نفسها، بدأت أراقبها، أبحث عنها في القاعات، وأجلس في المحاضرات خلف مقعدها لأراها.

كانت متألقة في كلّ حالاتها؛ حين تضحك، حين تحاول فهم نقطة صعبة في المحاضرة، حتّى حين تكون في حيرة. جميع تصرفاتها كانت تزيد تعلّقي بها. إنّ معرفة وجودها في الكلية كانت كفيلةً بأن تمنحني شعورًا بالارتياح والطمأنينة، عدا أمرًا واحدًا كان ينغّص تلك السكينة، إذ كنت ألاحظ ارتباكها الشديد والواضح حين يتعلّق الأمر بأُسيد! حتّى ردودها على مواضيعه وتعليقاته في المنتدى، كنت أرى فيها نوعًا خاصًّا من الارتباك الخفيّ. لكنّي رغم هذا وذاك، نجحتُ في إقناع نفسي بأنّها مجرد ظنون، أمّا الآن فأنا أمام الحقيقة الواضحة.

لم أقصد أن أفتّش في دفترها، كنتُ أرغب فقط بأن أقرأ تلك الملاحظات والكتابات التي تتناثر فيه، واعتقدتُ أنّها وبموافقتها على إعارتي الدفتر، فهي لا تمانع أن يطّلع أحدهم على كتاباتها الخاصّة. ويبدو أنّها، ومن

شدّة غضبها في ذلك اليوم، لم تتنبّه إلى أنّها أعارتني دفترًا كتبت فيه تلك المحادثة، والتي يظهر فيها اسمه صراحةً.

إذن يا جود، هناك من تأتين كلّ صباح لترين وجهه، تمامًا كما أفعل أنا. وهناك من تشعرين بالدفء حين تسمعين اسمه، تمامًا كما أفعل أنا.

وهناك من تتوقين لافتعال الأحاديث معه والالتقاء به، تمامًا كما أفعل أنا. وهناك من تحفظين تفاصيله، وتهتمين بها، وتكنّين له كلّ ما هو جميل، تمامًا كما أفعل أنا.

هناك من خطف قلبك يا جود، وسبقني إليه.

أكلّ هذا الحزن لأنّك لم تحظي بفرصة العمل معه؟ وكلّ هذا الغضب من صديقتك، لأجله؟ يا لخيبة الأمل! لماذا الآن، وبهذا التوقيت، أكتشف كلّ تلك الأمور معًا؟ كم هو مؤلمٌ أن أخسرك حتّى قبل المواجهة، وأن أغلق قلبي فقط حين فتحته، وأن تنتهي قصتي معك دون فصلٍ للبداية.

ضربتُ الطاولة بكفّي فتألمتُ من شدّة الضربة. تسلّل غضبٌ عارمٌ إلى قلبي، وتحوّلت مشاعري تجاهها إلى خذلانٍ وخيبة أمل وألمٍ شديد.

لا، لم أُخذل كما خُذلت اليوم من قِبَلك يا جود! حتّى والداي لم يخذلاني إلى هذا الحدّ! لماذا أنتِ بالذات؟ لماذا اقتحمتِ حياتي؟ لماذا سمحتِ لكلماتك أن تفعل ما فعلته بي؟ ألا تعلمين أنّ التعامل مع قلبي صعبٌ جدًا؟ ألا تعلمين كم هو عنيد؟ تبًّا، مالي ومالِلحبّ، لماذا وقعت فيه؟

جعلتُ أتساءل: والآن كيف سأحلّ هذه المشكلة؟ أنا متورطٌ في حبّ فتاةٍ قلبها ينتمي لغيري، لذلك الذي يبدو مثاليًّا ورائعًا. أهذه هي مواصفات فتى أحلامك يا جود؟ هل ستضعينني في منافسة؟ هل تظنين أنّي سأرضى بهذا الدور؟ لا، لن يكون ذلك.

جود! أحبّيه، أحبّيه أكثر. سأنساكِ، لا بدّ أن تكون مشاعري ضحلة، والسيطرة عليها ممكنة، أنا واثق من ذلك. ولعلّ اضطرابي واستيائي نابعان من غيرةٍ عادية لا ترقى إلى مستوى الحبّ أصلًا.

من قال إنّي أحبّ جود؟ ومن قال إنّي متعلّقٌ بها؟ ومن أين أتت فكرة رغبتي بالارتباط بها؟ أنا أحبّ طريقة تفكيرها وأسلوب كتاباتها فقط لا غير.

أنا لم أرغب يومًا بالارتباط والزواج وتكوين عائلة! لم أرغب أبدًا.

جود فبراير 2006 – السنة الثالثة

رنّ الهاتف، وحين أجبت سألتني مباشرةً:

- جود، هل ما تزالين غاضبة؟
- أهلًا جُمان، لا.
- حقًّا؟
- نعم.
- إذن لماذا عدتِ إلى المنزل فورًا؟
- كنتُ متعبة يا جُمان.
- حسنًا، كما تشائين، جود، أرجوكِ افهميني، أنا أفعل ذلك لمصلحتك.
- أرجوكِ يا جُمان، لا أرغب في الخوض في هذا الحديث مجددًا.
- هل نلتقي اليوم بعد المحاضرات؟ أم أنّك ستكونين متعبة؟

ضحكتُ وأجبتها:

- حسنًا، إن شاء الله.

قد تكون جُمان محقّة، لكن مع ذلك أشعر بالاستياء الشديد تجاه موقفها. لا أعلم لماذا تكره أُسيد، ما الذي اقترفه بحقّها حتّى تكنّ له كلّ هذا الحقد؟ ربما لا تستهوِيها فكرة التزامه؟ أنا حقًّا لا أفهمها. ترى صديقتها وهي تعاني ولا تساعدها، سامحها الله.

ارتديتُ ملابسي وانطلقتُ إلى الكلية. وصلتُ قبل موعد المحاضرة بقليل، فانتظرتُ جُمان في المكان الذي نلتقي فيه في العادة حين تصل إحدانا قبل الأخرى. مرّت عشر دقائق ولم تأتِ جُمان، فقررتُ أن أصعد مجددًا إلى القاعة، لكنّي سمعتُ أحدهم ينادي باسمي. التفتُّ فإذا هو عمر يحمل دفتري.

- آنسة جود.
- أهلًا عمر، تستطيع مناداتي بجود.

ابتسم ابتسامةً مصطنعة، وأبدى ملامح غريبةً وغير مألوفة. فمن عادة عمر أن يكون لطيفًا ومبتسمًا. ناولني الدفتر وهو يقول:

- شكرًا لكِ، بحثتُ عنكِ في ذلك اليوم ولم أجدكِ، أعتذر على التأخير.
- لا عليك.

قطّب حاجبيه وهو يقول:

- أخّرتُ الدفتر عنكِ دون جدوى، فقد أعطاني آدم نسخةً إضافيّة كانت لديه من المحاضرة.
- لا عليك!

وضعتُ الدفتر بين أغراضي وانطلقتُ إلى القاعة، هناك حيث استقبلتني جُمان بابتسامةٍ صادقةٍ ولطيفةٍ مليئةٍ بالودّ، أنستني ما كان بيننا من خلاف.

عمر فبراير 2006 – السنة الثالثة

كنتُ غاضبًا، وصلتُ إلى الكلية، فقادتني قدماي إلى حيث تلتقي الفتاتان في العادة قبل المحاضرات. أعرف المكان جيدًا، وأعرف متى تصل جود، وأين تقف تمامًا، بل والزاوية التي تفضّلها.

رأيتُها، كانت تقف وتخفي الشمس عن وجهها.

أما تزالين تشعرين بالضيق لأجله؟ أتبحثين عنه؟ مهما كان، لم يعد أيّ من ذلك مهمًّا بالنسبة لي، منذ الآن أنتِ كأيّ فتاة في هذه الدنيا، لا يميّزكِ لديّ شيء، صدّقيني.

ناديتُها، فطلبت مني أن أزيل كلمة "آنسة". كان قلبي مضطربًا للغاية، ولا أعلم كيف تحدّثتُ معها. كنتُ أرغب في إنهاء الحديث بأسرع وقت.

- شكرًا لكِ، بحثتُ عنكِ في ذلك اليوم ولم أجدكِ، أعتذر على التأخير.

نظرت إليّ بعينين حائرتين، ثمّ قالت:

- لا عليك.

لم أستطع أن أمضي، خشيتُ أن أسبّب لها أي قلق، فربما ستلاحظ لاحقًا أنّها تركت فيه ما لا يجب أن يراه أحد. فقررت أن أمنحها شعور الأمان، وأردفتُ قائلًا:

- أخّرتُ الدفتر عنكِ دون جدوى، فقد أعطاني آدم نسخةً إضافية كانت لديه من المحاضرة.

فعاودت عليّ الإجابة ذاتها: "لا عليك"، ثمّ أخذت دفترها ومضت، وتركتني حائرًا بخليطٍ من المشاعر. تذكّرتُ جدّي في هذه اللحظات، وشعرتُ أنّي لا أستحق حسن ظنّه بي؛ فالتلصّص على أسرار الآخرين ليس من شيم الرجال، وإضمار المشاعر السيئة ليس من شيم الرجال، والكذب ليس من شيم الرجال. سامحني يا جدّي!

- عمر! عمر!
- ماذا يا آدم؟ لماذا تصرخ؟
- أناديك منذ دقيقة، ألا تسمعني؟
- عفوًا، كنتُ شاردًا.
- عمر، ما بك؟ هل من خطب؟
- لا أبدًا يا آدم، أفكّر ببعض فعاليات الجمعية.
- هل يوجد ضغط هذه الأيام؟
- ربما.
- ربما؟ ما بك يا عمر؟ لا تبدو على نحوٍ جيد.
- حقًّا؟

نظر إليّ بارتباك ثمّ قال:

- إن كنت بحاجةٍ للمساعدة في أمرٍ ما، فأنا حاضر، اتفقنا!

ابتسمتُ وأومأتُ له بالإيجاب. يبدو أنّ آدم يشعر بالتغييرات التي تعتريني خلال الأشهر الماضية؛ فالسبب نفسه الذي جعلني مفعمًا

بالحياة، هو الذي أطاح بي في هذه الحال السيئة. حقًّا، مصدر سعادتك هو ذاته مصدر حزنك.

حاولتُ تغيير الموضوع فسألته، بينما كان يعبث بالأوراق والكتب التي فردها أمامه على طاولة الكافيتيريا:

- كيف حال الدراسة؟
- مزعجة، أحاول أن أدرس المحاضرات مباشرةً وألا أراكمها، لكنّها مملّةٌ للغاية. أفهم المحاضرة لكنّي أنسى ما فهمت بسرعة البرق. أنا أعاني يا صديقي، يومًا ما سأخترع جهازًا نوصله بالدماغ لنستطيع تخزين كلّ ما نحتاجه فيه، كوسيط الذاكرة هذا.

وأشار إلى وحدة التخزين التي بين أغراضه، ثمّ أردف قائلًا:

- بالمناسبة، متى سنبدأ بترتيب أفكار فعاليات الأطفال لكرة القدم؟
- آه صحيح، دعنا نلتقي غدًا بعد المحاضرة.
- اتفقنا.

سألته:

- ما رأيك أن نتناول الغداء معًا ثمّ نبدأ بالعمل؟ سأدعوك إلى أحد المطاعم المفضّلة لديّ.
- أهي رشوة؟!
- رشوة؟ وهل تقدّم معروفًا لي أنا شخصيًّا؟

ضحك وقال لي:

- أمازحك، أردت أن أرى وجهك المنفعل مجددًا.

تنهّدتُ، فعلم آدم أنّ لا رغبة لي في فتح الحديث مجددًا حول برودة ردود أفعالي هذه الفترة، فقال لي:

- لقاؤنا غدًا.
- إن شاء الله، عليّ أن أنطلق الآن إلى الجمعية، لدينا فعالية صغيرة.

ودّعته وتوجهتُ إلى الجمعية. أعلم أنّ آدم قلق ويرغب في المساعدة، لكن لا شيء تستطيع مساعدتي به يا آدم! صديقك يحاول أن ينسى، وما أصعب النسيان.

ليت الأمر بهذه السهولة يا آدم، أن تخزّن وتحتفظ بما تشاء في روحك ثمّ تتخلّى عنه متى تشاء. أريد أن أنسى، أن أتجاوز. أنا في بداية الطريق، ويجب ألّا أطاردها بعد الآن. هذا هو القرار الذي اتخذته بعد تفكيرٍ

طويل. لا يتعيّن عليّ أن ألاحقها، ويجب أن أتجاهل ما عرفته، حفاظًا على شهامتي.

ابتسمتْ، وقفتْ، فرحتْ، ضحكتْ، كتبتْ، قصدتْ ذلك أو لم تقصد...

فلتفعل ما تشاء، ولتحبّ من تشاء، وتميل إلى من تشاء، ما لي ولها؟!

كنتُ ألقّن نفسي تلك الكلمات، حين وصلتُ إلى الجمعية. وهناك كان عليّ أن أجهّز بعض الملفات والأدوات لنشاطٍ ميدانيّ سينجزه بعض المتطوعين في قسمي، حيث سنقدّم ملفًا لإصلاح بعض الغرف التي لم تعد صالحة للمعيشة في منازل الأطفال الذين نشرف عليهم.

اجتمعتُ بالمتطوعين، وزوّدتهم بالمعلومات اللازمة، وناولتُ أحدهم كاميرا التصوير ليلتقط صورًا للأجزاء المتضرّرة من المنزل جرّاء الرطوبة وقلّة التهوية. سألني فاضل -أحد المتطوعين- وهو يحاول تشغيل الكاميرا:

- عمر! كيف تعمل هذه الكاميرا؟

قطّبتُ حاجبيّ وأجبته:

- ليست معقّدة، اضغط على زر التشغيل، هل رأيته؟

- ضغطتُ عليه ولم تعمل، لعلّ بطاريتها فارغة؟
- أعدت شحنها ليلة البارحة، أعطني إيّاها من فضلك!

أمسكتُها ورحتُ أحاول عبثًا تشغيلها. يبدو أنّها لا تعمل وستحتاج إلى صيانة. تطوّع أحدهم باستخدام كاميرته الخاصّة، والتي كانت -لحسن الحظ- بحوزته، وانطلقوا إلى الجولة الميدانية.

عمر مارس 2006 – السنة الثالثة

استيقظتُ عند الساعة التاسعة على صوت المنبّه. لم يكن لديّ سوى محاضرةٍ واحدةٍ، شعرتُ بعدم الرغبة في حضورها، لا أريد أن أرى جود، في كلّ مرّةٍ ألتقيها، أشعر بغضبٍ عارمٍ يملأ قلبي، بالإضافة إلى أنّي أشعر بالانزعاج من مقابلة أُسيد، لطالما نعتُه بأفضل الصفات، فهو ذاك الشابّ الأنيق بأخلاقه، المرتفع بثقافته، الجميل بتواضعه، لم أملك سابقًا إلّا أن أشعر بالارتياح بصحبته، تستطيع من خلال حديثٍ واحدٍ معه أن تُدرك مدى تعمّقه في فهم كلّ شيء، لديه أسلوبٌ منفردٌ بالنقاش وفنٌّ خاصّ حين يتحدّث بموضوعٍ ما.

يجب ألّا يتغيّر شيء! وألّا أُغيّر نظرتي تجاهه، ويتوجّب عليّ أن أكون حياديًّا وموضوعيًّا، وأتعامل معه بشكلٍ طبيعيّ، لكنّي، ورغم إدراكي لذلك، أتجنّبه منذ ذلك اليوم!

كنتُ على وشك إكمال غفوتي، لكنّي تذكّرتُ موعدي مع آدم لتناول الغداء معًا، ومن ثمّ مناقشة الأمور المتعلّقة بتدريب الأطفال في فريق كرة القدم الذي يُشرف عليه.

نهضت، وذهبت، وحضرتُ المحاضرة. لم يأتِ آدم، فشعرتُ بالغضب وبدأتُ ألومه في داخلي: لا يحترم مواعيده، ولا يفي بوعده، كم هو مهمل! لكن، وبعد انتهاء المحاضرة، وجدته ينتظرني عند باب القاعة. سألته باستغراب:

- آدم! ما الذي جاء بك؟
- هل نسيتَ الموعد؟ أم أنّك توقّعتَ أنّي لن أحضر؟

بقيتُ ممتعضًا ولم أُجبه، فأردف:

- لا علاقة لهذه بتلك! صحيحٌ أنّني لم أحضر المحاضرة، لكن بالتأكيد لن أُفوّت موعدنا. لا بدّ أنّك التمستَ لي الأعذار حين لم ترني.
- لم ألتمس لك أيّ عذر. بل شتمتُك في سرّي لأنّك لم تُرسل حتّى رسالةً للاعتذار.

ضحك من أعماقه وردّ قائلًا:

- حسناتٌ بالمجّان! ماذا أريد أفضل من ذلك؟

سحبته من سعادته المفرطة ومضينا إلى المطعم، وأثناء حديثنا حول الفعاليّات الرياضيّة، أخبرته عن تنظيم الجمعيّة لعدّة فعاليّاتٍ هذا العام، وعرضتُ عليه حضور أيٍّ منها. لكنّه اعتذر قائلًا:

- هذه ليست أجوائي!

ثمّ أضاف مستغربًا:

- لا أفهم كيف تستطيع أن تكون عفويًّا معي، وفي نفس الوقت متقنًا للإتيكيت مع الطبقة الأرستقراطيّة التي تحيط بك في الجمعيّة.
- لكلّ مقامٍ مقال. معهم أُظهر عمر الذي تربّى على قواعدهم واستفاد من علاقاتهم، أمّا معك، فأنا عمر بكلّ بساطة.

أنهينا حديثنا، وتوجّهنا إلى الجمعيّة، هناك حيث كان علينا أن نُنسّق بعض الأمور، ودّعني آدم ومضى حين أنهى مهامه، أمّا أنا فبقيتُ لدراسة بعض الملفّات، وبينما كنتُ منهمكًا، وردني اتصالٌ من محلّ صيانة الأجهزة الإلكترونيّة، أخبرني الموظّف المسؤول بأن أنسى أمر الكاميرا، فهي معطّلة، وتكلفة إصلاحها تعادل تكلفة شراء كاميرا جديدة من فئتها.

فتحتُ جهاز الحاسوب لأبحث عن أحدث الكاميرات التي بها مزايا جيّدة ومفيدة لنشاطاتنا وفعاليّات الجمعيّة. فأعجبتني إحدى الكاميرات اليابانيّة، لكنّ سعرها كان مرتفعًا، ناهيك عن عدم توافرها هنا في البلد. ولشرائها، أحتاج إلى ميزانيّةٍ كبيرةٍ، والأهمّ من ذلك، تأمينها وإيصالها إلينا. راجعتُ ملفّات القسم الماليّ وتحدّثتُ مع المدير أحمد حول الأمر، فأخبرني أنّ الميزانيّة ضعيفة خلال هذه الفترة، ولا يوجد لدينا فائضٌ لهذه الرفاهيّة، ورغم أنّي أوضحتُ له أهميّة الأمر، وأنّ الكاميرا ليست أمرًا كماليًّا، لكنّه نصحني بعدم رفع أيّ طلبٍ من هذا القبيل في الوقت الراهن.

شعرتُ بخيبة أمل، التجهيزات الإلكترونيّة لا تقلّ أهميّةً عن أيّ شيءٍ آخر في الجمعيّة! لا أعرف أحدًا في اليابان، ولا أعلم كيف أؤمّنها؟ ولا أملك هذه الميزانيّة حاليًّا، ماذا أفعل؟

وبينما كنتُ في حيرتي، خطر ببالي حلٌّ رائعٌ، فاتّصلتُ بجدّي:

- مرحبًا جدّي، كيف حالك؟ عرفتُ ماذا سأطلب.

عمر — مايو 2006 – السنة الثالثة

أنجزتُ فصلًا كاملًا من إحدى المواد، وحين شعرتُ بالتعب والإرهاق من الدراسة، أخبرتُ والدتي بأنّني جاهزٌ للانطلاق معها إلى منزل جدّي.

مرّت سنةٌ كاملةٌ على نبضة القلب الأولى، والشعور الممتلئ بالحنين، والاضطراب الخفيّ الجميل الذي أدركتُ فيما بعد أنّه الحبّ! كان يوم ميلادي حين اكتشفتُ أنّ تعليق "وردة الربيع" لي ليس كغيره، وتأثيرها لا يمكن تجاوزه، ووجودها في أيّامي ليس كعدمه.

وفي المقابل، ها هو قد مرّ شهران، وأنا أُصارع كلّ تلك المشاعر، وأُقاومها، فأُبعدكِ، يا جود، عن تفكيري، رغم الراحة التي تغمرني حين يمرّ اسمكِ ببالي وخاطري، وأطرد أيّ فكرةٍ تتعلّق بكِ من عقلي وقلبي، وأتخطّى الأسئلة التي تُراودني حول: أين أنتِ؟ وماذا تفعلين؟ والأهمّ: بمن تفكّرين؟!

لكنّي اليوم لا أستطيع ألّا أفكّر بالأمر، وأنا أشعر بتضاربٍ في مشاعري، فأنا أتوق لقراءة تهنئةٍ خاصّةٍ لي من قبلكِ في يوم ميلادي، وفي الوقت نفسه لا أرغب أن أقرأ مجاملةً عابرةً تكتبينها وأنتِ غير مكترثة.

قاطعتني والدتي وأنا غارقٌ في أفكاري:

- عمر! وصلنا
- آه، حسنًا.

نزلتُ من السيارة مثقلًا بشعوري السيّئ، وفي بيت جدّي تصنّعتُ البهجة رغمًا عنّي، وحين انتهينا من طعام العشاء معًا، ناداني جدّي واصطحبني إلى غرفة مكتبه، وهناك قدّم لي صندوقين، وقال:

- هذا طلبك، وهذه هديّة عيد ميلادك.
- شكرًا لك، جدّي!

فتحتُ الصندوق الأوّل فوجدتُ الكاميرا التي طلبتها، مع مجموعة أدواتٍ مساعدةٍ للتصوير، نظر نحوي جدّي وقال:

- لم أكن أعلم أنّك تحبّ التصوير إلى هذا الحدّ.

ابتسمتُ وأومأتُ لجدّي شاكرًا، ومن ثمّ فتحتُ الصندوق الآخر، فإذا به يحوي مجموعة كتبٍ منتقاةٍ، قلتُ في نفسي: يبدو أنّ جدّي يعوّل عليّ الكثير، إذ انتقى كتبًا رياديّةً وتجاربَ ذاتيّةً ملهمةً، وكتبًا تُعنى بالقيم الإنسانيّة العالية. قبّلتُ يد جدّي وشكرته مجدّدًا، فمسح على رأسي وقال لي:

- أسأل الله أن يُلهمك رشدك، أرى أمامي رجلًا بدأ يشتدّ عوده، ويرتقي بأخلاقه، يحمل قلبًا قويًّا كقلب الأسد، وأسأل الله أن يجعله ليّنًا هيّنًا لأحبّائه وأهله.

نظرتُ إليه والحزن بادٍ على عينيّ، فسألني:

- ما بكَ يا عمر؟ هل أنت بخير؟

تنهدتُ ولم أجد إجابةً لسؤاله: هل أنا بخير؟ لا! أنا لستُ بخير، أكبتُ مشاعري حتّى أمام نفسي. أردف كلامه وسألني بلطفٍ:

- هل فقد القلب عزيزًا؟ أم أنّه ما يزال ينتظر؟
- لا أعلم، يا جدّي.
- هل تحتاج إلى أيّ نوعٍ من أنواع الدعم؟ إن كنتَ مستعدًّا لخطوةٍ رسميّةٍ، فجدّك سيدعمك.
- لا، يا جدّي، أنا بعيدٌ كلّ البعد عن أيّ خطوةٍ رسميّة.

قال جدّي:

- تأكّد، يا عمر، أنّ ما كُتب لك سيجد طريقه إليك ولو بعد حين، وما لم يُكتب فلن يصلك ولو صارعتَ عنان السماء لأجله.

أومأتُ له برأسي، ولم تكن لديّ أيّ إجابةٍ أو ردّ، فنظر إليّ بحنانٍ وقال:

- كن قويًّا وشجاعًا، وشامخًا كالجبل، كما عهدتك.

أطرقتُ رأسي إلى الأرض، وآثرتُ إنهاء الحديث عند هذا الحدّ، أنا بالفعل عاجزٌ عن التفكير، لكنّي واثقٌ بأنّي لن أستسلم، وسأنساها عاجلًا أم آجلًا. لا رغبةَ لديّ بالتفكير بها أبدًا، فتاةٌ رقيقةٌ وفيّاضةٌ بالمشاعر، أسأل الله أن يكتب لها الخير ويغمر قلبها بالسعادة. سأكفّ عن مراقبة نظراتها ومشاعرها، ليس لديّ الحقّ بأن أُحاسبها أو أظنّ بها ظنونًا سيّئةً، لا يخصّني شأنها، وعليّ أن أتحلّى بشيم الرجال.

سأنسحب حالًا، وسأجد فتاةً تدخل قلبي وروحي فتملؤه بكلّ ما هو جميل، تمامًا كما فعلتِ.. يا جود.

عمر يوليو 2006 – العطلة الصيفيّة

حين يأتي الصيف، أعوّض كلّ التقصير في مهمّات الجمعيّة، وأنجز قدرَ الإمكان، فأعمل في الجمعيّة لساعاتٍ طويلة، كما لو أنّ لديّ دوامًا يوميًّا.

اتّصلت بي سلام وأخبرتني برغبتها في زيارة الجمعيّة، والدة سلام، الخالة حسناء، هي ابنة خالة والدتي، كانتا صديقتين منذ الطفولة، وحين تزوّجت الخالة حسناء، سافرت إلى كندا، تزور البلد كلّ بضعِ سنوات. تصغرني سلام بستّة أعوام، فتاةٌ منطلقة، ونشيطة، ومتهوّرة بعض الشيء، مشاغبة ولا تكترث بقواعد الإتيكيت كثيرًا، لكنّها محبوبة.

وصلت سلام إلى الجمعيّة، وكالعادة، أحدثت فوضى في المكان، فراحت تتحدّث مع الموظّفين، وتُلقي التحيّة والسلام بلكنَتها الخاصّة. على أيّ حال، هي مشهورة بين أفراد الجمعيّة، منذ أن كانت طفلةً صغيرة.

- أهلًا سلومة، هل تشربين شيئًا؟
- كأسًا من الماء.
- حسنًا، اجلسي في مكتبي الآن، لديّ اجتماع مع الأستاذ مالك، ولن أتأخّر عليك.

- حاضر!
- التزمي الهدوء، أرجوك، ولا تُحدِثي جلبةً.
- لستُ طفلةً، تتحدّث إليّ كما لو أنّي سأدمّر مكتبك.
- بالمناسبة، لماذا أردتِ القدوم إلى هنا؟
- أريد أن أفعل شيئًا مفيدًا خلال إجازة الصيف.
- انتظريني لأنهي اجتماعي ولن أتأخّر.

ذهبتُ إلى غرفة السيّد مالك، وهناك كان السيّد مالك ينتظرني وهو يمسك ببعض الأوراق، قال لي وهو مقطّبٌ لحاجبيه:

- عمر! هل عدنا إلى التصرّفات غير المحسوبة؟

تلعثمتُ وأجبته:

- عفوًا، ماذا تقصد؟
- كيف تشتري المحروقات وتوزّعها على الأهالي دون الرجوع إليّ؟
- تلقّيتُ مبلغًا كبيرًا مخصّصًا للتدفئة في الشتاء الشهر الماضي، فاشتريتُ الوقود ووزّعته على الأهالي، أليس المبلغ مخصّصًا لهذا الغرض؟ أردتُ تسريع العمليّة، واعتقدتُ أنّ هذا سيكون مفيدًا للأهالي.

نظر إليّ بحدّة، وقال:

- ومن قال لك إنّنا نرغب في تسريع الأمور؟ هل فكّرتَ في العواقب؟ عندما يحصل الأهالي على المحروقات مبكّرًا، سيستخدمونها سريعًا، وبحلول منتصف الشتاء سيعودون إلينا يشتكون من نفادها، رغم أنّنا قدّمناها لهم. كيف سنساعدهم عندها، عندما تكون الحاجة إلى التدفئة في ذروتها؟

حاولتُ الاعتراض، فسألته:

- لكن، ألا يُفترض أن يديروا استهلاكهم بحكمة ويحتفظوا ببعض الوقود للأيّام الباردة؟

ابتسم السيّد مالك وقال:

- هذا ما تتصوّره أنت، لكنّ الواقع مختلف. مسؤوليّتنا هنا هي أن نتحلّى بالحكمة، ونضمن حصولهم على ما يحتاجونه في الوقت الذي يكونون بأمسّ الحاجة إليه، لا قبله.
- أنا أعتذر عمّا بدر منّي، هل ترى أنّ هناك وسيلةً لإصلاح الأمر؟
- لا أعتقد، لكن آمل ألّا يتكرّر هذا الخطأ.

- حاضر!

خرجتُ من مكتبه وأنا أشعر بثقل الكلمات. لم يكن الأمر مجرّد خطأٍ إداريّ، بل كان درسًا في التخطيط، في فهم احتياجات الناس بطريقةٍ أعمق ممّا كنتُ أتصوّر. عدتُ إلى مكتبي حيث كانت سلام تنتظرني، جلستُ ووجهي مكفهرٌّ، فقالت لي:

- هل أنت متضايق؟
- لا.
- لكنّك متضايق.
- خطأ إداريّ جديد.
- هل وبّخك الأستاذ مالك؟
- لا، أعطاني ملاحظة.
- إن كنتَ تريد البقاء وحدك، سأمضي الآن ونتحدّث فيما بعد.
- لا، سلام، لستُ متضايقًا، أحتاج لعشر دقائق، لأرتّب أفكاري. اعتدتُ الأمر، هو لا ينتقدني بشكلٍ شخصيّ، أنا أتعلّم.

وضعت سلام ساعتها أمامها، وجعلت تنتظر العشر دقائق لتمرّ، كان منظرها مضحكًا، لم أستطع أن أُخفي ضحكتي، فقلتُ لها:

- لا تشغلي بالك، وأخبريني: هل تودّين الالتحاق بدوراتٍ ما؟ أم تستطيعين المساعدة في إنجاز مهمّاتٍ معيّنة؟
- لا أرغب بحضور أيّ دورات، ولكن في الوقت نفسه أشعر أنّي عديمة الفائدة.
- لستِ كذلك، سأجد لك مهمّةً قريبًا في الجمعيّة، لا تقلقي.

عمر يوليو 2006 – العطلة الصيفيّة

وصلتُ إلى الجمعيّة، ولم أكن قد أنهيتُ فنجان القهوة حتّى وردني اتصالٌ من فاضل، المسؤول عن الجولات الميدانيّة، يُخبرني أنّه حدث لديه أمرٌ طارئ ولن يتمكّن من الذهاب إلى الجولة الميدانيّة المخصّصة لتحضير ملفّات الأطفال المتفوّقين والمتميّزين، للحصول على منحٍ دراسيّةٍ لهم. هذا النوع من الجولات يُعتبر دقيقًا للغاية، في إبراز قدراتهم ومواهبهم وأهميّة الاعتناء بهم.

لا أعرف من يمكن أن يكون بديلًا لفاضل في هذا الأمر، لم أجد مناصًا من الذهاب بنفسي، لكنّي أحتاج لمن يذهب معي لمساعدتي في التدوين والتصوير. تذكّرتُ سلام ورغبتها في المساعدة، فاتّصلتُ بها:

- سلام، هل لديكِ أيّ التزام اليوم؟
- لا!
- إذن سترافقينني في الجولة الميدانيّة؟
- أنا؟
- نعم، أحتاج لمن يساعدني في التصوير على الأقلّ.
- أنا لا أُجيد التصوير، عمر.

- لا عليكِ، سأعلّمك في الطريق.
- هل تظنّ حقًّا أنّي سأكون مفيدة؟
- نعم، لا تقلقي، هيّا دعينا نستعدّ.

جمعتُ الأوراق والمستندات اللازمة، ووضعتُ الكاميرا في الحقيبة الخاصّة، ومن ثمّ انطلقتُ إلى منزل خالتي حسناء، اصطحبتُ سلام ومضينا. في الطريق كنتُ أُهيّئها نفسيًّا وأُعطيها بعض التعليمات، ثمّ سلّمتُها الكاميرا وقلتُ لها:

- ضعيها حول رقبتك، وأمسكيها جيّدًا، هي ثقيلة نوعًا ما، لأنّها احترافيّة، حاولي أن تُجرّبيها في السيّارة.

أجابتني وهي تحاول فكّ خصلات شعرها المجعّد الذي علِق بحبل الكاميرا:

- سأحاول، لكن أرجوك لا تستاء منّي إن كانت النتائج سيّئة.
- لن أستاء، لكن اجمعي شعرك.
- ما به شعري؟
- ألا ترين أنّه لافتٌ للانتباه؟ عليكِ أن تكوني مهنيّةً في الجولات الميدانيّة. بالمناسبة، هل سترتدين الحجاب؟
- أعتقد ذلك، لكنّي لم أقرّر بعد.

- وحتّى ذلك الحين، اعتادي على جمع شعرك.
- هل يزعجك شعري إلى هذا الحدّ؟
- لا يزعجني! كفى أسئلة، هيّا بنا الآن، سنتأخّر.

عمر يوليو 2006 – العطلة الصيفيّة

كانت تتبعني من غرفةٍ إلى غرفة، وهي تُلحّ وتُعيد وتُكرّر:

- أريد الذهاب معهم إلى الجولة الميدانيّة، أرجوك!
- سلام! الجولات الميدانيّة ليست رحلاتٍ ترفيهيّة.
- أعلم، أريد أن أُساعدهم بالتصوير، لقد أحببتُ الكاميرا جدًّا، إنّها مذهلةٌ للغاية.
- نحن نُوثّق معاناة الناس وظروفهم بدقّة، كي نحصل على أفضل تمويل، وليس لأخذ صورٍ احترافيّة، هل تفهمين؟
- أُقسم أنّي أفهم، وأنا أحببتُ هذا الجانب جدًّا، أريد أن أُساعد، لماذا لا تسمح لي؟ سأتحدّث مع جدّي عزمي بالأمر.
- بالمناسبة، هو ليس جدّك.
- بلى، هو كذلك.
- لا! أخبرتك مرارًا، هو ليس جدّك.
- لا علاقة لك بالأمر، سأناديه جدّي.
- نادِه ما شئتِ، لكنّي لن أسمح لكِ بالذهاب، تستطيعين مساعدتي في المكتب.

- لن أُزعجهم، أعدك! وسأُطيع أوامر ميسو فاضل تمامًا.
- لا يستطيع "الميسو فاضل" أن يكون مسؤولًا عن الأطفال، هو مشغولٌ جدًّا.
- أنا لستُ طفلة، وسأُساعده في التوثيق والتصوير.
- أعلم، سلام، انتظري للجولة المقبلة، لعلّي أستطيع الذهاب، وحينها أعدك أنّي سأصطحبك.
- حاضر! وحتّى ذلك الحين، هل تسمح لي أن أستعير الكاميرا؟
- لا! هذه الكاميرا للجمعيّة، إن أردتِ التقاط الصور بها، مرّي على الجمعيّة، واستعمليها بشيءٍ مفيدٍ لنا، عدا ذلك لن أسمح لكِ أبدًا، وإيّاكِ أن تلتقطي لي الصور دون أن أشعر كما فعلتِ المرّة السابقة، سأحرمك حينها من أن تطأ قدماكِ الجمعيّة.
- تتحدّث كما لو أنّها جمعيّتك.

لم أرد، فراحت تبحث عن حديثٍ آخر تُزعجني فيه، فقالت:

- بالمناسبة، متى ستلد الخالة فريال؟
- على ما أذكر، في شهر نوفمبر.
- وما هو شعورك؟
- ليس لديّ أيّ شعور، اجمعي شعرك، ولا تُكثري من الكلام.
- عدنا إلى الشعر، كم أنتَ مُزعجٌ، يا عمر!

الفصل الثالث

جود سبتمبر 2006 – السنة الرابعة

كنتُ أُشاور جُمان في خطّةٍ جديدةٍ رسمتُها لأكتشف مشاعر أُسيد، وحين أخبرتني بأنّ الخطة واضحةٌ وساذجةٌ جدًّا، أجبتُها بحزنٍ:

- أرجوكِ، جُمان، هذه المرّة محبوكةٌ بطريقةٍ رهيبةٍ، ثقي بي وساعديني.
- لا، يا جود، إنّكِ تستجدين مشاعره!
- حقًّا! أهي واضحةٌ فعلًا؟
- نعم.
- جُمان! لقد تعبتُ، ماذا بوسعي أن أفعل؟
- يجب أن تنسيه، جود! فقط لا غير. إن كان يكنّ لكِ مشاعر طيّبة فسيبوح لكِ بها يومًا ما، حينها أحبّيه كما تشائين.
- لا أستطيع، جُمان...
- بل تستطيعين، كفاكِ ضعفًا، يا جود.
- لا تلوميني، جُمان، فأنتِ لا تعلمين كيف يكون شعور الحبّ مسيطرًا على صاحبه.

تنحنحت جُمان ثمّ أجابتني بارتباكٍ:

- فلنقل إنّي بدأتُ بالتعرّف إليه بالفعل !

توقّفتُ عن البكاء، وسألتُها:

- ما هو الذي تعرّفتِ إليه؟
- ممم، ذاك المسيطر على المرء!
- الحبّ!؟
- نعم، ألستُ بشرًا؟
- ويحي، لم أقصد ذلك، من، وأين، وكيف، ومنذ متى؟
- سأخبركِ بكلّ شيءٍ، لكن بشرط أن تهدئي الآن وتستعيدي بهجتكِ، ودعينا نتحدّث في مكانٍ لطيفٍ وهادئٍ.

وافقتُها وتوجّهنا إلى كافيتريا صغيرة بجانب الكليّة، وفي الطريق رحتُ ألحّ عليها بالسؤال:

- هل أعرفه، جُمان؟ تحدّثي، لقد نفد صبري.
- نعم، تعرفينه. اصبري حتّى نجلس في الكافتيريا، سأحكي لكِ كلّ شيء.
- لا أستطيع، هيّا أخبريني.
- حسنًا، هو شابٌّ أسمرُ وطويل.

شهقتُ بصوتٍ مرتفعٍ ووضعتُ يدي على فمي وقلتُ بدهشةٍ:

- آدم؟

احمرّ وجه جُمان ونظرت إليّ نظرة اعترافٍ، ثمّ أومأت برأسها، فسألتُها:

- كيف لم تخبريني بذلك؟

شعرتُ بالاستياء بعض الشيء، فأنا أُخبرها بأسراري ومشاعري بشفافيّةٍ، فاستدركت الوضع وقالت:

- أنتِ أوّل شخصٍ أُخبره بالأمر، صدّقيني، جود.

أخفيتُ ملامح الانزعاج وابتهجتُ مجدّدًا، فراحت جُمان تحكي لي كيف لفت انتباهها، وسحرها بخفّة ظلّه وشخصيّته المرحة والعفويّة، فقلتُ لها بعد أن علمت أنّه لا يدري شيئًا عن مشاعرها، ولا يبادلها إيّاها:

- إن كنتِ سعيدةً بمشاعركِ تجاهه، فأنا سعيدةٌ لأجلكِ، لكن أرجوكِ، لا تتعلّقي به كثيرًا، حافظي على مسافة أمان.
- انقلبت الأدوار، يا جود، بالأمس كنتُ أنا من أكرّر عليكِ هذه الكلمات .
- بالضبط، كوني حذرةً.

- لا تقلقي، أنا مسيطرةٌ على زمام قلبي.
- لو ترين وجهكِ، يا جُمان، كم ازداد إشراقه وأنتِ تتحدّثين عن آدم، سبحان الله، حقًّا لا شيء كالحبّ !

ابتسمت جُمان خجلًا، ثمّ قالت وهي تضمّني إليها:

- شكرًا لكِ، جود، شكرًا لأنّكِ صديقتي التي أثق بها.

افترقنا بعدها ومضت كلٌّ منّا إلى بيتها، وفي الطريق كانت الأفكار تتدفّق إلى رأسي والمشاعر تتضارب في قلبي. ها هي جُمان قد انضمّت إذن إلى نادي الحبّ، وتعلّق قلبها بأحدهم. أتمنّى أن تكون أوفر حظًّا منّي، فأنا إلى الآن أعيش في حيرةٍ من أمري. اللهمّ إنّي أُشهدك أنّي أحببته فيك، فاكتب لي الخير، واجبر كسر قلبي، فما عدتُ أتحمّل الانتظار.

عمر سبتمبر 2006 – السنة الرابعة

مرّت العطلة الصيفيّة بلمح البصر، فقد انشغلتُ تمامًا في الجمعيّة، درّبنا فريقًا تطوّعيًّا يضمّ أكثر من عشرين متطوّعًا جديدًا، وكثّفنا هذا العام الأنشطة الخيريّة لدعم ميزانيّة الجمعيّة، وتكفّلنا بعشر عائلاتٍ جديدة. ناهيك عن الاجتماعات الدوريّة والطارئة، والجولات الميدانيّة. في المحصّلة، قابلتُ هذا الصيف ما يزيد عن مائة شخصٍ، أو أكثر، ما بين آباءٍ وأمّهات، وأطفال، ومدراء، وأساتذة، ومتطوّعين، وموظّفين، وعمّال، وزملاء وأصدقاء، وأقارب.

وعلى الرغم من كلّ تلك الوجوه، إلّا أنّ حضورها لم يغب عن مخيّلتي. ترنّ على مسامعي كلماتها في اللحظات التي أحتاج فيها إلى مؤازرةٍ ومساندة. وتُجدّد نصائحها الحماس في نفسي. لم أستطع أن أُلغي تأثيرها في حياتي، فأنا ما أزال بحاجةٍ إلى ذلك الدعم الخفيّ الذي لا تعلم هي شيئًا عنه، لكن في الوقت ذاته، أحاول جاهدًا أن أُجمّد مشاعري تجاهها، وأتناسى أمرها كفتاةٍ أشعلت في قلبي نبضًا خاصًّا، وأيقظت فيه شعورًا فريدًا.

بدأ الفصل الدراسيّ الجديد، وقبل أن تزدحم أوقاتنا بالمحاضرات، قرّرنا أن نقيم جلسةً لإجراء بعض التعديلات والصيانة للموقع الإلكترونيّ للكليّة. تحدّثنا حول توزيع المهمّات وشؤون الإشراف التقنيّ للموقع، وجدتُ نفسي متصالحًا معه، لم أستطع أن أبغض أُسيد، فلا ذنب له في كلّ ما يحصل.

أنهينا جلستنا وتوجّهنا مباشرةً إلى أوّل محاضرات هذا الفصل، جلستُ بجوار أُسيد لنتمّ بعض الأحاديث حول الموقع، وبينما كنّا نتحدّث، دخلت الفتاتان إلى القاعة، ثمّ جلستا خلفنا مباشرةً.

ظننتُ أنّي، وبعد العطلة الصيفيّة، سأُحرز تقدّمًا في تجاهلها، لكن يبدو أنّي عدتُ إلى نقطة الصفر! فطالما أنّني أُلاحظ متى أتت، وأعرف أين تقف، وأعلم متى غادرت، فهذا يعني أنّي لم أتحرّر منها، ولا تزال محطّ اهتمامي ومشاعري. ورغم أنّ تلك المشاعر تتحوّل من شكلٍ إلى آخر، لكنّها ما تزال موجودة، فأجدني تارةً غاضبًا منها، وتارةً مشتاقًا لرؤيتها ولقراءة كلماتها، وتارةً مشفقًا على حالها، فأنا أعلم كم هو مؤلمٌ ألّا يُبادلك الطرف الآخر مشاعرك، إذ أشعر أنّ أُسيد لا يكترث بها إطلاقًا، إلّا إذا كان يُجيد إخفاء مشاعره ببراعة.

عمر نوفمبر 2006 – السنة الرابعة

كنّا -أنا ووالدتي- نتناول طعام الفطور حين رنّ هاتفي. تردّدتُ في الردّ في البداية، لكن سؤالًا مباغتًا من والدتي قطع تردّدي:

- عمر، لماذا لا تُجيب على هاتفك؟
- لا شيء مهم.
- ولكنّه والدك من يتّصل بك، وقد ظهر اسمه على الشاشة. أيًّا كان الأمر، فهو مهمٌّ ما دام والدك هو المتّصل.

لم أكتم الأمر في نفسي هذه المرّة، وقرّرتُ أن أتحدّث معها بصراحة:

- أمّي، رغم أنّكِ منفصلة عن والدي، ورغم ما كان بينكما من مشكلات، إلّا أنّكِ دائمًا تحثّينني على برّه. كيف تستطيعين الحفاظ على هذا التوازن؟ أنا مذهولٌ بالفعل!
- عمر! علاقتي مع والدك كانت علاقة شخصين التقيا، ولم يتوافقا، فانفصلا، وانتهت العلاقة. أمّا علاقتك به، فهي علاقة ابنٍ بأبيه، وهذه من العلاقات التي لا تنتهي، ولا يمكن أن تُقطع إلى أبد الآبدين. علاقة الآباء بالأبناء هي العلاقة الوحيدة

المستمرّة في هذه الحياة، حتّى بعد موت أحد الطرفين. لا تُطل الحديث، أعد الاتصال به الآن.

اتّصلتُ بوالدي، ليخبرني بأنّ موعد ولادة زوجته قد تحدّد في يوم الغد، وستلد بعمليةٍ قيصريّة، أنهيتُ المكالمة، وأخبرتُ والدتي بالأمر، فأجابتني باقتضاب:

- أسأل الله لها وللمولود السلامة.

ثمّ ذهبت إلى غرفتها. حاولت والدتي إخفاء مشاعرها، إلّا أنّها لم تُفلح هذه المرّة. يكفيها ألمًا بأن يُكوّن والدي عائلةً جديدة بهذه السرعة بعد انفصاله عنها.

أتى اليوم التالي، وكان علينا أن نجتمع أنا ووالدتي مع جدّي عزمي لمناقشة بعض أمور الجمعيّة، وتناسيتُ موعد الولادة. في الآونة الأخيرة، بدأتُ أستمتع في تلك اللقاءات، ولم تعد عبئًا اجتماعيًّا وضرورةً حتميّةً وبروتوكولاتٍ مملّة، كما كنتُ أنظر إليها سابقًا. أن أحظى بجلسةٍ مع جدّي، هذه بحدّ ذاتها ميزةٌ أُحسد عليها.

لفترةٍ من الزمن توهّمتُ أنّي مثقّفًا وواعيًا وأستطيع خوض النقاشات لمجرّد قراءتي بعض الكتب والمقالات، لكنّي أدركتُ أنّ الثقافة ليست

مجرّد كمٍّ من المعرفة، بل هي أسلوب حياةٍ كامل. كانت طريقة جدّي في الحوار، وصوته الهادئ، وإصغاؤه للآخرين، ومتابعته المستمرّة للأخبار، وقراءته التي لا تنقطع، كلّها تعكس جوهر الثقافة الحقيقي.

شربنا الشاي معًا، بينما بقيتُ متجاهلًا موعد الولادة، وعندما أنهينا حديثنا مع جدّي، وبدأت والدتي تستعدّ للعودة إلى المنزل، رنّ هاتفي، وهذه المرّة أجبتُ والدي دون تردّد، توقّعتُ أن يعتب عليّ لأنّي لم أتّصل للاطمئنان على زوجته وابنته، ورحتُ أفكّر بالأعذار التي سأُلقيها، لكنّه قال ببساطة:

- مبارك لكَ يا عمر، أصبح لديك أختٌ. الحمد لله، هي ووالدتها بصحّةٍ جيدة، أتمنّى أن تأتي لرؤيتها اليوم.
- مباركٌ لك، أصبحتَ أبًا من جديد. قد لا أستطيع الحضور اليوم، فقد تأخّر الوقت، ولا تزال لديّ بعض الالتزامات، لا بدّ أن أراها يومًا ما، اتّصل بي وأعلمني حين تعودون إلى المنزل.
- لكنّنا سنمكث في المشفى عدّة أيّام، فهي ولادةٌ قيصريّة كما تعلم.
- الحمد لله على سلامتهما مجدّدًا.
- شكرًا عمر.

أغلقتُ الهاتف، فلم أجد والدتي في الغرفة، يبدو أنّها آثرت ألّا تسمع حديثي مع والدي، وخيرًا فعلت، إذ كنتُ أشعر بغيظٍ شديد، ولن أتحمّل كلماتها حول ضرورة الاهتمام بوالدي وزوجته وابنته. سألتُ نفسي: تُرى هل كان والدي سعيدًا بولادتي كما هو سعيدٌ الآن؟ وهل سينسحب من حياة هذه الطفلة كما انسحب من حياتي؟ أم أنّه سيكون أبًا مثاليًّا لها؟

قاطعني جدّي أفكاري وقال:

- مبارك يا عمر، فهمتُ من حديثك مع والدك أنّك رُزقت بأخت، هل هذا صحيح؟
- نعم، لقد أنجبت زوجة أبي بنتًا.
- تقصد أنّك رُزقت بأخت!

لم أُجبه، وبقيت ملامحي جامدةً تمامًا، فسألني:

- عمر! ما بك؟
- لا يهمّني هذا الأمر.
- هل تمزح؟
- لا!
- هذه ابنته، ما دخلي أنا؟

- هذه أختك! أم أنّك لن تعترف بها؟

لم أرد، فرأيت جدّي وقد تغيّرت ملامحه، واحمرّ وجهه، ثمّ قال لي بنبرةٍ هادئةٍ محاولًا ألّا يُبدي غضبه:

- هل تنوي أن تفتعل المشكلات؟ أم أنّك تتقمّص ما تراه في الأفلام والمسلسلات؟ ما هذه التصرّفات، عمر؟ هلّا شرحت لي!

بقيتُ صامتًا لا أُجيبه، فأردف حديثه:

- عمر! هذه الصغيرة هي أختك، هل تعلم ما معنى "أختك"؟
- لا يهمّني، أنا لستُ بحالٍ جيّدة، ومهما وصفتُ لك شعوري، فلن تستطيع أن تفهمه، جدّي.

أخذ جدّي نفسًا طويلًا، ثمّ قال:

- لا تنسَ أنّ هيام هي ابنتي الغالية، ومهما ادّعت أنّها غير متأثّرة، فأنا أشعر بها وباضطرابها، لكن هذا لا يعني أن تقاطع والدك، ولا تفرح بولادة أختك، هذه أختك وأنتَ مسؤولٌ عنها، هل تفهم؟

صمتَ جدّي قليلًا، ثمّ قال لي بحزم:

- عمر، كن رجلًا!

هزّت تلك الكلمة روحي مجدّدًا، "كن رجلًا"، لماذا يصرّ جدّي أن يضرب على هذا الوتر في كلّ مرّةٍ يراني فيها ضعيفًا؟ أومأتُ له برأسي على مضض، واستأذنتُ منه، وأخبرتُ والدتي أنّي ذاهبٌ إلى المستشفى.

في طريقي مررتُ بمحلّ ملابس الأطفال، ودخلتُ قسم الفتيات. كانت الألوان والتصاميم أجمل ممّا تخيّلت، وبين الأرفف لفت نظري فستانٌ بلون الفستق، فاخترته.

اتّصلتُ بوالدي لأخبره أنّي في طريقي إليهم. وعندما وصلتُ إلى المستشفى، وجدته ينتظرني عند الباب الرئيسي، تعلو وجهه ابتسامةٌ عريضة. بادرني بالكلام فورًا:

- عمر، كم أسعدني قدومك اليوم يا بنيّ! شكرًا لأنّك لم تُخذلني، أعلم أنّك متحمّسٌ لرؤية الصغيرة، لكن أرغب في الحديث معك أولًا.

جلسنا في الكافتيريا، ودار بيننا حديثٌ لم أعتد عليه من والدي، إذ قال لي:

- كما تعلم يا عمر، لم أعد شابًّا صغيرًا، إن حدث لي يومًا ما أيّ مكروه، اعتنِ بأختك الصغيرة، وكن لها سندًا وأبًا وأخًا، وإن تعذّر عليك أن تحمل لها مشاعر الأخوّة، فاعطف عليها، ولا بأس بأن تعتبرها فتاةً يتيمةً في دار الأيتام في الجمعيّة.

مجدّدًا، يضربون على الوتر الحسّاس! هل يُعقل أن أكون قاسيًا إلى هذا الحدّ؟ آلمتني تلك الجملة كثيرًا، وكادت الدموع أن تغالبني، فأمسكتُ بيد والدي وقلتُ له:

- لا تقل هذا أبي، أسأل الله أن يطيل بعمرك، وتراها وهي تكبر وتفرح بها وبأولادها.
- أفرح بكما وبأولادكما، أم أنّك ستحرمني من فرحتي بأولادك؟

ابتسمتُ إليه، فأشار إليّ بأن ننطلق، واصطحبني إلى غرفة فريال، وهناك رأيتُ أختي الصغيرة. لم أتوقّع أن يرقّ قلبي إلى هذه الدرجة، لم أتمالك نفسي، وابتسامةٌ عريضةٌ ارتسمت على وجهي. يا إلهي، ما أجمل الأطفال!

وبينما كنتُ أحملها بهدوء، التقط لي والدي صورةً معها، ومن ثمّ التقطنا صورًا لنا جميعًا. كان حجمها صغيرًا للغاية، بدت هادئةً كالنسمة

الرقيقة. أمسكتُ بيدها الصغيرة، فالتفتت أصابعها الصغيرة حول إصبعي، ثمّ أبدت انزعاجًا، فقالت لي فريال:

- لا بدّ أنّها جائعة

أعطيتها لفريال، وأنا أسألها:

- ما هو اسمها؟

أجابتني فريال بمودّة:

- لديّ قائمةٌ ببعض الأسماء التي جمعتها، وقرّرنا أن نختار اسمها معًا حين تصل.
- حقًّا؟ ما هي الأسماء؟
- سلمى، ماسة، وعلياء.

نظرتُ نحو والدي، فقال:

- أجدها جميعًا أسماء جميلة.

فكّرتُ قليلًا ثمّ قلتُ لها:

- ماسة، ماسة هو الأجمل.

فرحت فريال باقتراحي، وقالت:

- كنتُ أميل لهذا الاسم كثيرًا، إذن فهي ماسة.

خفق قلبي، إذ كانت بادرة تقديرٍ لا تُنسى، أن ينتظراني لاختيار اسم الصغيرة. قلتُ لهما وأنا أنظر إليها:

- اسمٌ على مسمّى، ما شاء الله.

قال لي أبي:

- أتعلم أنّها تشبهك عندما كنتَ صغيرًا، لديكما نفس شكل العيون.
- حقًّا، لا أستطيع أن أميّز ذلك أبدًا، فهي صغيرةٌ جدًّا.

ضحك والدي وقال لي:

- لكنّي أستطيع، كأنّي أراك أمامي حين ولدتَ للتو.

ابتسمتُ وأنا متفاجئٌ ممّا قاله والدي، إذن فهو يتذكّر كيف كان شكلي حينما كنتُ رضيعًا. أمضيتُ بعض الوقت، ومن ثمّ استأذنتُ، لم أشأ مفارقة ماسة الصغيرة، لكن الوقت تأخّر. ودّعتُهما، وتمنّيتُ لفريال السلامة، ووعدتها أنّني سأعود قريبًا لأرى ماسة، أختي الصغيرة.

جود	ديسمبر 2006 – السنة الرابعة

اقتربتِ الامتحانات، وبدأتُ بالتحضير لها بشكلٍ مكثّفٍ مع جُمان، إذ خصّصنا بضع سويعاتٍ يوميًّا لندرس معًا فنكسر الملل بعض الشيء، ومن ثمّ تكمل كلّ واحدةٍ منّا الدراسة في منزلها.

أنهينا دراسة بعض المحاضرات، وودّعتني جُمان ومضت كلّ واحدةٍ في طريقها، فجُمان تخرج من الباب الجنوبيّ للكلّيّة، وتستقلّ سيارة أجرة، أو تمرّ والدتها عليها في بعض الأحيان، أمّا أنا فأخرج من الباب الشماليّ، لأنتظر الميكروباص في موقفه المخصّص. كان الليل قد حلّ بالفعل، وبينما كنتُ أنتظر بتململٍ، لفت انتباهي شابٌّ يشبه أُسيد إلى حدٍّ كبير، ينتظر في الموقف ذاته، لكن ما إن وصل الميكروباص حتّى تأكّدتُ أنّه أُسيد بالفعل!

صعد أُسيد إلى الميكروباص، وحين صعدتُ انتبه لوجودي، فأفسح لي مكانًا في الزاوية إلى جانب امرأةٍ مسنّة، وجلس في الطرف المقابل، فأصبح مواجهًا لي تمامًا.

شعرتُ بالإحراج الشديد، ولم أستطع أن أُلقي السلام عليه، وحاولتُ أن أركّز نظري في حقيبتي، ورحتُ أبحث فيها عن محفظتي الصغيرة

التي أضع فيها العملات المعدنية. بحثتُ وبحثتُ، ولم أجدها، لماذا تتحوّل الحقيبة أحيانًا إلى ثقبٍ أسود، تبتلع ما فيها، فيختفي اختفاءً مريبًا؟!

دفعتُ الأجرة بورقةٍ نقديّةٍ مرتفعة، فغضب السائق وأعادها لي وهو يقول:

- أعطني "فكّة"، أنا لست بنكًا.

أخذتُ نفسًا طويلًا، وأعدتُ محاولة البحث عن تلك المحفظة الصغيرة، وأنا مرتبكةٌ للغاية، وبينما كنتُ أغوص في حقيبتي، سمعتُ صوته وهو يقول:

- جود! ما المشكلة؟

جود! يا إلهي لقد قال "جود" ولم يقل "أختي"، أجبته وأنا أُلملم مشاعري المتناثرة في الأرجاء:

- لا أجد العملات المعدنية الصغيرة.
- آه، لا عليكِ.

وأخرج محفظته ودفع عنّي، فازداد إحراجي منه، فقلتُ له وأنا مضطربةٌ:

- شكرًا لك، أعتذر على إزعاجك.
- لا، أبدًا، لا تفكّري بالأمر.

لم يُكمل جملته حتّى ورده اتصالٌ، فردّ ببضع كلماتٍ، وحينما أنهى محادثته سألني:

- كم نحتاج من الوقت كي نصل إلى موقف الحديقة الكبيرة؟
- ثلث ساعة تقريبًا.
- أوه، سأتأخّر على الأطفال، ينتظرونني منذ أكثر من نصف ساعة.

الأطفال؟ أيّ أطفال؟ ودون أن أشعر، سألته بغباءٍ منقطع النظير:

- أطفال! هل لديك أطفال؟

ضحك ضحكةً طويلةً، وأجابني:

- بالطبع لا، كنتُ أقصد أطفال حلقة القرآن، صديقي يعلّم الأطفال القرآن في المسجد المقابل للحديقة، هذا الأسبوع سافر

لسببٍ عاجل، فطلب منّي أن أحلّ مكانه مؤقّتًا في الإشراف على الأطفال وتعليمهم.

- هل تُعلّم الأطفال القرآن؟
- نعم، لديّ عدّة حلقاتٍ لتعليم التجويد وتحفيظ القرآن.

التمعت عيناه حين ذكر لي هذه الجملة، سبحان الله، يبدو أنّ لديه شغفًا كبيرًا فيما يتعلّق بالتعليم، فحتّى الأشخاص الهادئون لديهم لحظاتهم الخاصّة، وحماسهم الذي يظهر فجأة حين يتحدّثون عن شيءٍ يحبّونه.

تنفّستُ الصعداء، وأجبته:

- آه، فهمت، ما شاء الله!

مضت بعدها عشرون دقيقةً بصمتٍ وهدوء، كنتُ أراقبه بطرف عيني، فوجدتُه قد فتح كتابًا وراح يقرأ فيه، وحين اقترب إلى وجهته، أغلق كتابه ودسّه بين أغراضه، وأومأ لي، ومضى دون حتّى أن يقول لي: السلام عليكم. ورغم ذلك، فقد كانت تلك الكلمات القليلة التي حادثني بها كفيلةً بأن تملأ قلبي بدفءٍ لم أشعر به منذ مدّةٍ طويلة.

جود يناير 2007 – السنة الرابعة

منذ ذلك اليوم، وأنا أسأل نفسي: تُرى هل سيبدأ الحبّ؟ هل من الممكن أن يكون حديثنا في ذلك اليوم لحظةً لقدح الإعجاب في قلبه؟

كنتُ أُمنّي نفسي بأنّ الجواب: نعم! وعلى مدى عدّة أسابيع، رأيتُ بوادر الاهتمام من قبل أُسيد، لاحظتُ أنّه ما عاد يتجاهلني كما كان سابقًا، ينتبه لوجودي، وربّما يخطف نظره بشكلٍ سريعٍ نحوي. وبدلًا من أن أشعر بالتفاؤل والتحسّن، غدت حالي أسوأ ممّا ذي قبل، فبتُّ ألاحقه أكثر، لعلّي أرصد أيّ إشارةٍ تؤكّد لي مزاعمي. في المقابل، أصرّت جُمان على أنّي أتوهم، ولا شيء يدلّ على اهتمامه بي إطلاقًا. كانت جُمان تُشفق عليّ، ولاحظت أنّ مشاعري تجاه أُسيد خرجت عن السيطرة، وباتت متعبةً لي، أكثر من كونها مشاعر جميلة.

انتهيتُ من الامتحان، وودّعتُ جُمان وعدتُ مباشرةً إلى المنزل، لم يكن لديّ أيّ طاقةٍ لإطالة الأحاديث، فأنا أشعر بالإرهاق النفسي، اخترتُ أن أعود سيرًا على الأقدام، رغم بُعد المسافة، فقط لأُصفّي ذهني.

بماذا يفكّر؟ لماذا لا يُبدي أيّ ردّة فعل؟ بماذا يُخطّط؟ كيف سأجد إجاباتٍ على هذه الأسئلة المستعصية؟ لِمَ أتعامل مع مشاعري تجاه أُسيد بهذه السلبية؟!

أنا لم أُعجب بشخصٍ مشهورٍ من وراء الشاشات، ولم أُحبّه لمظهره أو لعضلاته. أحببته لأنّه يُصلّي، لأنّه مجتهد، لأنّه حافظٌ لكتاب الله. أحببته لشخصه، لا لشكله. تحاول جُمان أن تُقنعني بأنّ ما رأيته ليس حقيقته الكاملة، وبأنّنا لا نختار شريك حياتنا فقط بسبب ما أنجزه، بل لأنّنا نجد سعادتنا معه. هناك فرق، كما تقول، بين الفخر بإنجازات شخص، وبين السعادة بالبقاء معه.

حين وصلتُ إلى المنزل، كنتُ مُرهقةً جسديًا وفكريًا. كان الطريق طويلًا، وقرار المشي لم يكن حكيمًا. أمّا الأفكار التي اجتاحتني فقد أنهكتني. لم يكن أحدٌ في المنزل؛ والدتي وريم في السوق، وكرم في معهدٍ يحضر دروسًا للتقوية في بعض المواد. بدا البيت فارغًا، فزادت وحشة أفكاري. كانت والدتي قد تركت لي الغداء على الطاولة، لكنني أعدتُه إلى الثلاجة، إذ لم تكن لديّ شهيةٌ لتناول أيّ شيء. ذهبتُ إلى غرفتي، كانت الساعة السادسة تقريبًا.

أدرتُ جهاز الحاسوب، رغبتُ في كتابة موضوعٍ ما على المنتدى، لعلّي أُخفّف من وطأة ما أشعر به، لكن حين فتحتُ صفحة الكتابة، لم أعد أعلم عمّ سأكتب، هل أكتب عن أملٍ كاذب؟ أم عن السذاجة لدى الفتيات؟ هل أفضح نفسي بيدي؟

أغلقتُ جهاز الحاسوب، وعدتُ إلى أفكاري، فبدأت معدتي تُصدر أصواتًا. وحينها عادت والدتي ومعها ريم، وبعدها عاد والدي وكرم، وبدأت "ورشة العشاء".

يا إلهي، ما أجمل العائلة! وجودهم يُخرجنا من فقاعة "الأنا"، ويضعنا في جوّ العائلة، يجعلنا نُفكّر بالجميع، لا بأنفسنا فقط.

عمر مارس 2007 – السنة الرابعة

كم تمضي الأيام بسرعة! ها نحن على مشارف السنة الأخيرة، وفي هذا الفصل بالتحديد علينا أن نبحث عن فكرةٍ لمشروع التخرّج. وفي العادة يسعى كلّ طالبٍ لإيجاد فكرةٍ ما، ويعمل عليها مع زميلٍ أو زميلين، لكن ما حدث معنا كان مختلفًا، إذ كان أسلوب رئيس قسمنا الجديد –الدكتور قيصر– مبتكرًا.

ففي المحاضرة الأولى له، وضّح لنا مخطَّطه لمشاريع التخرّج للسنة المقبلة، فسرد لنا الخطوات الأساسية للمنهجيّة العلميّة، ومن ثمّ شرح بعض الأمثلة عن المشكلات التي يمكننا العمل عليها في مجال اختصاصنا، وخطّته بأنّه يشرف على حلقات البحث بنفسه، فيعدّل ويصحّح ويصوّب، لنكون مستعدّين تمامًا لبدء مشاريع التخرّج في السنة القادمة.

وحين طلب منّا تكوين مجموعاتٍ صغيرةٍ للعمل، سارع يزن وتحدّث إليّ كي أنضمّ إلى مجموعته، بعدما عرض عليّ فكرة المشروع الذي سيختاره، وأخبرني أنّه بصدد ضمّ طلابٍ آخرين ممّن لديهم نقاط قوّةٍ مفيدة.

وافقته، وبدأ هو بالتنسيق، ولم يخطر ببالي أبدًا أن ينتهي بي المطاف بمجموعةٍ تتكوّن من سبعة طلاب، من بينهم جود، وأُسيد!

ويا مرحبًا بالمعاناة!

عندما اتّصل بي آدم يُعلمني بأنّه انضمّ إلى المجموعة أخيرًا، سألني:

- ما هذه التشكيلة العجيبة؟ هل كنت تعلم بأنّ المجموعة ستصبح بهذه الضخامة؟
- لا!
- لماذا يرغب يزن في العمل بهذه الطريقة؟
- فكرة المشروع ممتازة، وأخبرني أنّه يحتاج إلى قدراتٍ وميزاتٍ متنوّعة.
- هل نحن ببرنامج مواهب؟ هي حلقة بحثٍ ومشروع تخرّجٍ فقط!
- لدى يزن عقليّة متميّزة ورائدة، يريد أن يتعلّم كيف يُشكّل فريق عملٍ متميّزًا، ليضمن به أفضل أداءٍ أكاديميٍّ وعمليٍّ وإداريٍّ، بل واجتماعيٍّ.
- وما هي المواهب التي يتمتّع بها كلٌّ منّا؟ هلّا أتحفتني؟

- ضمّ أُسيد لأنّه من المتمرّسين في البحث العلميّ، ولديه خبرةٌ في الأوراق البحثيّة والكتابة الأكاديميّة، ولا تنسَ أنّهما صديقان منذ أيام المدرسة، لذا فهو قريبٌ إليه ولا يجد صعوبةً في التعامل معه.
- وماذا عن الفتاتين؟
- يبدو أنّ يزن يرغب بضمّ خبرات جُمان العلميّة إلى مجموعته، سيّما أنّ والديها طبيبان، وقد نحتاج بعض المعلومات الطبيّة.
- وأنت؟

ضحكت وقلت له:

- صرّح لي يزن أنّه بحاجةٍ إلى من يُدير هذه المجموعة الكبيرة، مديرٍ دقيقٍ في مواعيده، ولطيفٍ في أسلوبه.
- وهل هذه المواصفات تنطبق عليك عمر أفندي؟
- على حدّ تعبيره.
- وماذا عنّي أنا؟ لستُ إداريًّا جيّدًا، ولا أكاديميًّا فذًّا، ولستُ مجتهدًا، بماذا أتميّز؟
- نحتاج إلى خفّة دمّك يا رجل، كي نتحمّل مشاقّ المشروع

ضحك آدم بصوتٍ مرتفع، فأردفتُ كلامي:

- نحتاج إلى مهاراتك البرمجيّة، لا أحد يُضاهي سرعتك في البرمجة، لا غِنى عنك.
- من الجيّد أنّني ذو نفع.

أنهينا الحديث دون المرور على مهارات ليلى أو جود، فجود لن تعمل إلّا مع جُمان، وليلى لن تعمل إلّا مع يزن.

جود مارس 2007 – السنة الرابعة

حين لاحظتُ رغبة جُمان بالعمل مع منافسها يزن في حلقة البحث هذه، وبعدها في مشروع التخرّج، لم أشأ أن أُفسد عليها الأمر. لا أعلم لماذا اقترح يزن ضمّنا إلى مجموعته! انتابتني مشاعر متضاربة حول فكرة العمل مع أُسيد؛ أشعر بالسعادة لفرصة لقائنا معًا، وفي الوقت ذاته لم أكن مرتاحةً للأمر، فوقع تجاهله لي وهو بالقرب منّي سيكون أشدّ من تجاهله لي وهو بعيد. وكما توقّعت، مضت الجلسات الأولى على نحوٍ مزعج.

أختي! أختي! كفى يناديني بها، صداها يُزعج قلبي، ويجعلني أفقد أعصابي. في كلّ مرّة نعمل فيها معًا في حلقة البحث، أشعر بأنّي كالبركان، بينما يبقى هو واثقًا من نفسه وهادئًا للغاية. يشرح ويلخّص الأفكار مع البقيّة، ثمّ يسأل ويناقش، بينما أبقى أنا صامتة، ليس لعدم قدرتي على مجاراتهم، بل بسبب تشتّت انتباهي وتركيزي.

كنتُ أنظر إلى الأوراق المتناثرة التي أمامي، حين سمعتُ صوته يسألني:

- جود، هل تسمعينني؟

قالها وهو ينظر نحوي مباشرةً، وكأنّ إعصارًا ضرب قلبي. حاولتُ أن أستعيد تركيزي، فأجبته بهدوءٍ مصطنع:

- عذرًا، لم أسمع السؤال، هل يمكنك إعادته؟
- سألتك هل عرفتِ ما هي مهمّتكِ بالضبط؟

عن أيّ مهمّةٍ يتحدّث؟! أنا لم أسمع شيئًا، نظرتُ نحو جُمان نظرةً خاطفة، التي بدورها غمزت لي بأنّها سمعت وفهمت المطلوب، ثمّ أجبته:

- نعم.
- إذن توزّعت المهمّات، أراكم الأسبوع المقبل، سامحوني، لديّ موعد وعليّ الانطلاق حالًا.

ما هذه النظرة التي وجّهها نحوي؟ ولماذا عليه أن يذهب الآن؟ لماذا يمضي ويتركني هكذا؟

مهلًا: هل قال جود، أم أختي جود؟

ويلاه! هل سأجنّ قريبًا؟

عمر — مارس 2007 – السنة الرابعة

هي ليست بخير، وهذا كلّ ما أعرفه! أين ابتسامتها التي لم تكن تفارق وجهها؟ وإشراقة عينيها وحماستها؟ وانطلاقتها وتفاؤلها؟ ما خطبها بالضبط؟ لماذا لا تُطبّق نصائحها؟

أشعر بالحزن لعدم قدرتي على مساعدتها، كما تفعل هي دومًا. أتمنّى أن تستعيد ذاتها سريعًا، فالحزن لا يليق بها أبدًا، وأيًّا كان ما يُخفّف عنها ويجلب لها السكينة، فلن يُحزنني ذلك.

جود — مارس 2007 – السنة الرابعة

عدتُ إلى المنزل باكرًا في ذلك اليوم، لم أكن بأفضل حالاتي، اعتكفتُ في غرفتي، ولم أخرج منها. كانت الساعة الخامسة مساءً، حين دخلت ريم إلى غرفتنا، فسألتني بصوتٍ مرتفع:

- جود! ألن تذهبي معنا؟ جود! ألا تسمعينني؟

أجبتُها بتذمّر:

- لا تصرخي.
- هلّا نزعتِ السمّاعات عن أذنيكِ وسمعتِني جيّدًا؟

أزلتُ السمّاعات وسألتُها:

- ماذا تريدين، ريم؟
- ألن تذهبي معنا للقاء نساء العائلة؟
- لا!
- جود! قلّما يوافق والدكِ على ذهابنا، لا تكسري بخاطر والدتكِ، فهي متحمّسة لأن نرافقها.
- اتركيني يا ريم، لستُ بحالٍ جيّدة.

- ما بكِ؟ ألن ننتهي من هذا الموضوع؟

لم أردّ، وأعدتُ السمّاعات إلى أذنيّ، ففصلت ريم الكهرباء عن جهاز الحاسوب، الذي انطفأ فجأةً، فاشتعلتُ غضبًا وقلتُ لها:

- لماذا فعلتِ ذلك؟
- كي تكفّي عن أحزانكِ التي تختلقينها بنفسكِ، توقّفي عن سماع تلك الأغاني حالًا. تكونين على ما يرام، وما إن تضعي هذه السمّاعات حتّى تنقلب حالكِ.
- من قال لكِ إنّي أكون على ما يرام؟ أنا أُعاني طيلة الوقت، والآن دعيني وشأني.
- أنا أعرف كيف سأجد لكِ حلًّا.
- هل تُهدّدين؟
- لا! لا يهمّني أمركِ، اغرقي في أحزانكِ.

قالتها وهي ترمي عليّ إحدى الوسائد، ومضت خارج الغرفة. وبعد نصف ساعة غادرت هي ووالدتي إلى زيارتها، فأصبح البيت فارغًا، فكرم عند صديقه يدرسان الرياضيات، ووالدي في دوامه المسائي في المكتب العقاريّ.

قلتُ في نفسي: وأخيرًا سأحصل على بعض الهدوء!

أعدتُ تشغيل الأغنية للمرّة العشرين، بل ربما الخمسين، وفي كلّ مرّةٍ كنتُ أشعر بأنّ قلبي يطير إلى السماء ثمّ يهوي إلى الأرض. لم أستطع أن أتحمّل فيض مشاعري أكثر من ذلك، وبدون أي تخطيطٍ مسبق، وجدتُ نفسي أكتب على لوحة المفاتيح.

أُسيد! قد تُفاجئك رسالتي اليوم، وأنا في الواقع لا أعرف من أين سأبدأ، وكأنّني لوهلةٍ فقدتُ كلّ قدراتي على التعبير. أكتم مشاعرَ أثقلت كاهلي منذ سنوات، ولم أعد قادرةً على إخفائها أكثر من ذلك. ثمّة شخصٌ في هذه الدنيا يعني لي الكثير، يُبهج قلبي ويتعبه، ويجعلني في حيرةٍ من أمري. لا أعلم ما يدور في خلده، ولا أستطيع أن أُصارحه بما أحمل له من مشاعر.

أخبرني، ماذا أفعل؟

نسختُ الرسالة ولصقتها في صندوق الرسائل، كنتُ على وشك ضغط زرّ الإرسال، لكنّني قرّرتُ في آخر لحظة أن أُعيد قراءتها، وحين قرأتُها وجدتها ركيكةً ولا تعبّر عن مشاعري الحقيقيّة أبدًا. أهكذا سأعبّر عن شعوري؟

شعرتُ بالضيق الشديد، فأعدتُ تشغيل الأغنية، لتنفجر المشاعر مجدّدًا في كياني، شعرتُ أنّني لن أُجيد التعبير الكتابي، ومن الأفضل أن أُعبّر عن إحساسي تجاهه وجهًا لوجه، فكتبتُ:

أُسيد، دعنا نتحدّث بأسرع وقت، لديّ ما أقوله لك.

وقبل أن أضغط زرّ الإرسال، سألتُ نفسي: هل أستطيع بالفعل مواجهته؟ سيكون الأمر صعبًا للغاية.

الكتابة أسهل، ولا بدّ أن أُجيد التعبير إن حاولتُ مجدّدًا.

وبما أنّني تردّدتُ، تقطّعت سلسلة أفكاري، ولم أعرف ماذا سأكتب. أعدتُ تشغيل الأغنية مرّةً واثنتين، لكنّها لم تعد مجدية، فعلمتُ أنّه حان الوقت لمجلد الأغاني الموجعة، تلك الأغاني التي لا تفشل في كسر قلبي بهدوء، ورغم ذلك الكسر المؤلم، إلّا أنّها تغمرني بدفءٍ وحنينٍ لا يُشبه أيّ شعورٍ آخر.

سمعتُها مرّةً بعد مرّة، وكلّ كلمةٍ فيها كانت تمرّ على قلبي كيدٍ خفيّة تعصره بهدوء. وحين خفت الصوت أخيرًا، كان قلبي قد تهشّم بصمت. عندها فقط، فتحتُ ملفًا جديدًا، وبدأت أكتب...

أُسيد، أحببتُكِ بصمتٍ طويل، وبصبرٍ موجع. في كلّ مرّة أراك فيها، أطير فرحًا، ثمّ أنطفئ قلقًا وحزنًا. اليوم فقط وجدتُ في نفسي شجاعةً بين أنقاض مشاعري لأقول لك: إنّي أحبّك، أحبّك بطريقةٍ موجعة، بطريقة لا تشبه أيّ قصة حبّ. أحبّك، ويا ليتك تعلم كم من الدموع اختبأت خلف هذه الكلمات.

عزمتُ أن أرسلها دون إعادة قراءة أو مراجعة. هي كلماتٌ خرجت من قلبي، ويجب أن تصله كما هي.

هذه المشاعر تخصّه، ويجب أن يعلم بها.

لكن ما إن وضعتُ المؤشر على زرّ الإرسال، حتّى أفزعني صوت جرس الباب. يا إلهي! من الطارق الآن؟!

هرعتُ إلى الباب، لأجد ياسمين أمامي. فتحتُ لها وأنا أبدي استغرابي، فقالت:

- مرحبًا جود، أعتذر، قد جئت بلا موعد.
- أهلًا بكِ ياسمين، تفضّلي.

لا تأتي ياسمين عادةً دون موعد. أهذا هو الحلّ الذي هددتني به ريم؟ تنهدتُ وأنا أستقبلها، فشعرت ياسمين أنّ هناك أمرًا غير طبيعي، وقالت:

- إن كنتِ مشغولة، فلا بأس، سأمضي.
- لا، لكن انتظريني قليلًا في غرفة الجلوس، سآتي حالًا.

حاولت ألا ألتقي بعينيها، لكنّها أمسكت بيدي:

- جود! أخبريني، ما الأمر؟

لم أجد مفرًّا من التخلّي عن فكرة إرسال الرسالة الآن. لكنّي لم أشأ أن أصارحها بشيء، فأجبتها:

- هل تشربين قهوة؟
- لا يا جود، لم آتِ لأشرب القهوة، أريد أن أفهم ماذا يحدث معك!
- لا شيء.
- هل عدنا إلى تأجيج المشاعر؟

نظرتُ إليها بحدّة:

- هل تحدّثتِ مع ريم؟
- نعم، أخبرتني أنكِ تغرقين في تلك الأغاني وتضخّمين مشاعرك، وكأنكِ تعيشين قصة فيلم.
- توقفي عن السخرية، أرجوكِ!
- أنا لا أسخر، لكنّكِ تتصرّفين بغرابة.

صرختُ فجأة:

- لا أحد يفهمني! لا أحد يشعر بي !

قاطعتني بهدوء:

- هل حدث شيء؟
- لا... وهذا ما يتعبني.

ثمّ رفعتُ رأسي، وقلت لها:

- لقد قررت. سأخبره بكل شيء.

حاولت ياسمين ألا تنفعل وقالت لي:

- هل قلتِ له شيئًا؟
- ليس بعد.

- إياكِ أن تفعلي إذًا!
- لماذا؟ ما الخطأ في ذلك؟ لن أتجاوز أي حدّ، فقط سأخبره أنّي لم أعد أحتمل هذه المشاعر في قلبي، لن أطالبه بأيّ شيء، أريده فقط أن يعلم بها، أن يدرك كم أعاني بسبب هذا الحبّ.
- جود! عن أي حبٍّ تتحدثين؟ أنتِ تبالغين كثيرًا، تتصرفين كما لو أنّ لديك قصّة حبٍّ بفصولٍ كثيرة، ومعاناة وتحديات، أنتِ بالكاد تحدثتِ إليه مرّات معدودة، لا ذكريات بينكما، ولا مواقف، ولا كلام، ولا مشاعر متبادلة، لا أفهم لماذا تفعلين ذلك بنفسك، وتستميتين لتعيشي هذا الدور؟ في البداية كانت الأمور مقبولة وطبيعية، لكنّك تجاوزتِ الحدود، لا جود، هذه ليست شخصيتك، ولا أسلوبك، صدقيني أنتِ واقعة تحت تأثير عواطف تشعلينها بنفسك، تستخدمين الأغاني كوقودٍ لتحافظي على انفعالاتك الشديدة.

لم أرد، فأردفت كلامها وهي تتوجّه إلى غرفتي:

- سأحذفها جميعًا.

لحقت بها بتخاذل، وحين جلست ياسمين أمام الحاسوب، قلت لها:

- لا تنظري إلى الشاشة، هناك أشياء خاصّة.

نظرت نحوي وكأنّها تطلب شرحًا لما قلته للتو، فأردفت كلامي:

- رسالة الاعتراف.
- هل أرسلتِها؟
- قلت لكِ لم أخبره بشيء بعد.
- دعيني أقرأها.

أجبتها بعدم اكتراث:

- افعلي ما تشائين.

وخرجت من الغرفة، فقد شعرت بالحياء من رؤية ردّة فعلها وهي تقرأها، وفي الوقت ذاته، أردت أن تقرأها، فأنا مدركة بأنّي لست على ما يرام وأحتاجها لمساعدتي. جلستُ في غرفة المعيشة أنتظرها، فأقبلت بعد بضع دقائق، وجلست بجواري، فسألتها وأنا أبكي وأمسح دموعي:

- هل حذفتِ الرسالة؟
- لا، لم أفعل، لكنّي حذفت كلّ مجلدات الأغاني، سيما تلك التي تضعينها بمجلد: خاصّة.
- لماذا فعلتِ ذلك؟ تعلمين بأنّي بذلت جهدًا كبيرًا لتحميلها؟
- أهو إدمان؟ أم ماذا بالضبط؟

- ليس كذلك، لكنّها المنفذ الوحيد، حين تعجزون جميعًا عن فهمي.
- بل هي المؤجِّج والمضخّم لكلّ هذه المشاعر السيئة التي تسيطر عليك، واليوم اكتشفتُ أنّها كالمُسكِر، تغطّي العقل وتدفع الشخص لارتكاب الحماقات بينما هو واقع تحت تأثيرها.
- لا تبالغي.
- ستعودين إلى رشدك بعد قليل، وستدركين كم كان تصرّفك أحمق لو أنّك أرسلتِ له تلك الرسالة.

كانت كلّ واحدةٍ منّا تتحدث بهدوءٍ من غير أن تنظر إلى الأخرى، صمتنا قليلًا ثمّ سألتها بتحدٍّ:

- وهل تعتقدين أني سأنساه الآن؟ أنتِ تتوهمين.
- لن تنسيه، لكن على الأقل لن تتصرّفي بتهور.
- أي تهور؟ ما الضير إن أخبرته بمشاعري؟
- وماذا لو رفض مشاعرك؟ وصرّح لكِ بوضوح بأنّه لا يبادلك الشعور ذاته، وعليكِ أن تتركيه وشأنه، ماذا ستفعلين حينها؟

فكّرت ولم أرغب بإيجاد أي إجابة، لكنّي قلت لها:

- لا يهمّني ماذا سيقول، لكنّي على الأقل سأتخلّص من هذا العبء.
- لا يا جود، ستزيدين الأمر سوءًا، وسيغدو العبء عبئًا مضاعفًا، لا تخاطري بكرامتك، لا تظنّي أنّ الأمر بهذه السهولة. جود! أنتِ تعيشين في فقاعة مشاعر، تحتاجين إلى الخروج منها لبعض الوقت لترين الأمور بوضوح.
- ياسمين! لماذا لا يحبّني أُسيد؟ لماذا؟
- لا تفكري بالأمر على هذا النحو، سؤالك غير منطقيّ بالأساس.
- لا شيء يجعل حياتي مشرقة، إن لم يكن أُسيد فيها.
- أنتِ تضخمين الأمر مجددًا.

نظرت إليها بطرف عيني، وابتسمت نصف ابتسامةٍ، ومن ثمّ استدرت إلى الناحية المقابلة وأنا أتمتم بصوتٍ مرتفع كما لو أنّي أحدّث نفسي:

- يا للروعة! كنتُ بجُمان واحدة، صرتُ باثنتين!

تجاهلت تعليقي، وسألتني:

- هل ما تزالين مصرّة على إرسال الرسالة؟

- كنت سأرتاح لو أرسلتها، لقد قضيتِ على تلك الرغبة، وتسببتِ بكسر قلبي أكثر، أليس هذا ما جئتِ لأجله؟
- لا جود، أنا هنا لأساعدك.
- لا بدّ أن أجد حلًّا آخر، لكنّي الآن متعبة.
- وأنا أعدك أنّي سأساعدك، دعينا نفكّر فيما بعد بخطّةٍ جديدة.

أومأتُ لها بالإيجاب، ومن ثمّ استلقيت على الأريكة وأنا خائرة القوى. فقالت:

- سأمضي الآن يا جود، وعديني ألا تحمّلي تلك الأغاني مجددًا.

أجبتها كي أنهي الجدال معها:

- لن أفعل.

ومن ثمّ أغمضت عينيّ، فربّتت ياسمين على رأسي وودّعتني ومضت.

جود — أبريل 2007 – السنة الرابعة

اتصلت بي جُمان لتُخبرني بموعد تسليم حلقة البحث، فاعتبرت المكالمة فرصةً لأُحدّثها عن خطّتي الأخيرة، كي لا تفاجأ حين تنفيذها، أعلم أنّها تعارض كلّ تلك الأفكار، لكن في الوقت ذاته لم يكن لديَّ خيار سوى أن أُطلعها على الأمر، هي جادّة وعقلانية، لكنّها في الوقت ذاته تتفهّم مشاعري قدر استطاعتها، وبعد حديثٍ مطوّل عن الدراسة، بادرتُ بالسؤال:

- جُمان، كما أخبرتك، غدًا ستأتي ياسمين لننفّذ الخطّة.
- أيّ خطة، جود؟ هذه ليست خطة، هذا لعب أطفال!
- اقترحي طريقةً أفضل.
- جود، لو كان مهتمًّا، لرأيتِ ذلك بوضوح.
- وماذا لو كان يعتقد أنّني صعبة المنال؟ أو يظنّ أنّني لن أنتظره؟ أو ربما ظروفه صعبة؟ أو أنّ عائلتي تطلب الكثير؟
- ببساطة، كان عليه أن يتحدّث معكِ، ويُصارحكِ بما يمرّ به.
- ربما لا يملك الجرأة.

- لا أظنّ أنّ شخصًا مثل أُسيد يفتقر للجرأة، وإن كان كذلك، فهو ليس الشخص المناسب لكِ.
- لكنّه، أُسيد، في النهاية.

استمرّت جُمان في الحديث معي وتأنيبي نحو عشر دقائق، شعرت بالندم على إخبارها بتفاصيل الخطّة، إذ اعتقدت أنّها ستتفاعل معي بعض الشيء، لم أقتنع بردّة فعلها، ورفضها لمساعدتي، ربما هي غلطتي أنّي أحادثها بكلّ شفافية حول هذا الأمر، لكنّي اعتقدت أنّها وبعد وقوعها في حبّ آدم، ربما ستصبح أكثر تفهّمًا وتعاطفًا، إلا أنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، لم تغيّر جُمان وجهة نظرها أبدًا فيما يتعلق بمشاعري تجاه أُسيد، رغم أنّني أتعاطف معها إلى أقصى حدّ، أحتوي مشاعرها حين أشعر أنّها في حالة ارتباك، وأزوّدها بالمعلومات التي تحتاجها حول آدم حين تكون قلقة، وأتفاعل مع تقلّباتها واضطراباتها.

غريب! ألا تشعر ببعض الامتنان؟ وأنّ عليها -على الأقل- أن تعاملني بالمثل؟ وأن تصغي إليّ في لحظات توتّري وحين يفقد قلبي توازنه؟! على أيّ حال، من حسن حظّ جُمان أنّ لديّ ياسمين، والتي تملأ هذا الفراغ وتنوب عنها فيه، مما يخفّف شعور اللوم تجاهها، فلا شيء يبرّر تقصيرها معي في هذا الجانب.

اتصلتُ بياسمين، لأتأكّد أنّها ما تزال عند وعدها لي، وراجعنا طريقة تنفيذ الخطة معًا، واقترحت ياسمين بعض التعديلات النهائية لجعل الخطّة أكثر واقعية، واتفقنا على كلّ شيءٍ بدقّة.

جود أبريل 2007 – السنة الرابعة

أتى اليوم المنتظر، أخيرًا. كنتُ أنا، وأُسيد، وجُمان، في موعد عملٍ لنا في المختبر، ضمن إطار حلقة البحث، التي على وشك الانتهاء. شعرتُ بشيءٍ من التوتر، لكنّني بذلتُ جهدًا لأبدو طبيعيةً قدر الإمكان. مرّت الدقائق بهدوء، أنجزنا الترتيبات الأخيرة، بلا أيّ حديثٍ خارج إطار العمل. كانت جُمان تُلقي إليّ نظراتٍ سريعة مليئةً بالامتعاض بين الحين والآخر، ثمّ تعود إلى عملها بصمت.

وأخيرًا، دخلت ياسمين في الموعد المحدّد إلى المختبر، وقالت:

- أهلًا، جود. كيف حالكِ؟

ابتسمتُ وقلت لها بترحيب:

- أهلًا ياسمين، مرحبًا بكِ، تفضّلي.

سألتني وفقًا لنصّ "الخطّة"، وقالت:

- هل ستتأخّرين؟ علينا الذهاب، فموعدنا بعد نصف ساعة.

- لن أتأخّر، لم يبقَ إلا بعض الرتوشات وستنهيها جُمان، أليس كذلك؟

والتفتُ إلى جُمان، فأومأت جُمان بالموافقة وهي ممتعضة من هذه المسرحية التي لا تودّ أن تشارك فيها ولا حتّى بإيماءة. وبينما كان أُسيد يكتب بعض الملاحظات، قلتُ لياسمين:

- اجلسي هنا، وسننطلق معًا بعد قليل.
- لا أريد أن أعطّلك عن العمل.
- لا عليكِ، أنهيتُ مهماتي، أنتظر بعض الملفات من جُمان لأضعها في وحدة التخزين، تفضّلي ياسمين.

وجلست ياسمين إلى جانبي، وراحت تتحدّث بشكلٍ عام كي يبدو الأمر طبيعيًا، ومن ثمّ أشارت لي بأنّها ستبدأ بأهمّ جزءٍ من الخطّة، فأومأتُ لها بأنّي مستعدّة. قالت بغموض:

- بالمناسبة، ماذا حدث بخصوص الموضوع؟ هل من جديد؟ هل تمّ تحديد الموعد؟

سألتها وأنا أتصنّع عدم فهمي لما تقصده:

- عن أيّ موضوعٍ تتحدّثين؟

ثمّ استدركتُ وقلت لها:

- آه، تقصدين "الموضوع نفسه". لا جديد حتّى الآن، لم يُحدَّد الموعد، هناك أحاديث، لكن لا شيء رسميّ بعد، ربما الأسبوع المقبل.
- جيد، يبدو أنّ الأمور تمشي بيسر. الأهم أن تكوني مرتاحة، وأن تُفكّري جيدًا.

كنتُ أنظر إليه وأنا أجيبها، لأرصد ردود أفعاله، وإن كان يسمع ما نقوله أم لا، أجبتها وأنا مضطربة:

- هو كذلك، لكن لا أستطيع الموافقة الآن.
- لماذا؟ ستتخرجين بعد سنة، هذا التوقيت مناسب للارتباط.

اضطرب قلبي أكثر فأكثر، ورحت أراقبه، وأنا أجيب ياسمين:

- لا، الموضوع ليس كذلك، هناك أمور أخرى تشغل تفكيري، لدينا تسليم مشاريع وحلقات بحث، والامتحانات على الأبواب.
- أدعو الله أن يكتب لكِ الخير.
- شكرًا لكِ ياسمين.

قلتُها، وأعطيتها الإشارة بأن نتوقف عند هذا الحدّ. فلا بدّ أن أُسيد قد سمع ما أردته أن يسمع.

لم يُبدِ أُسيد أيّ ردّة فعل، لم يرفع رأسه، ولم يتوقّف عن الكتابة، ولم تظهر على ملامحه أيّ إشارة تدلّ على استغراب، أو اهتمام، أو حتّى انتباه، كان حاضرًا بجسده فقط، وكأنّ ما يُقال لا يعنيه. قلتُ في نفسي: لعلّه يتظاهر بعدم الاهتمام الآن، بسبب وجود جُمان وياسمين، ورغم تلك الأمنية التي منّيتُ بها نفسي، إلا إنّي كنت على وشك الانهيار. نظرتُ إلى ياسمين، محاوِلةً أن أبدو متماسكةً، أمّا جُمان فالتزمت الصمت، وكأنّها تنتظر منّي أن أعي الحقيقة التي لم أزل حتّى تلك اللحظة أنكرها.

وفجأة وبينما أنا في حيرةٍ من أمري، رفع أُسيد رأسه، وقال:

- قد نحتاج جلسةً نهائيّة أو اثنتين على الأكثر لتحضير العرض التقديمي.

ثمّ نظر نحوي نظرةً عابرة بجفاءٍ وبرود، وقال:

- تستطيعين التغيّب عن الجلسة إن كنتِ منشغلة، لا تقلقي.

نظرتُ إليه بعينين حائرتين، إذن قد فهم أُسيد الخطّة تمامًا، وتعمّد أن يوضح لي ذلك، ربما كي لا أعاود المحاولة. لم يكتفِ بذلك، بل أبى إلا أن يجهز عليّ، حين ختم كلامه قائلًا:

- أسأل الله أن يكتب لكِ التوفيق دومًا.

كانت تلك اللحظة قاسيةً إلى حدٍّ لا يمكن وصفه، وكأنّه يقول لي بكلّ وضوح: لا تعلّقي الآمال عليّ، ولا تجعليني فارس أحلامك، فأنتِ لستِ فتاة أحلامي.

قبضت ياسمين على يدي التي كانت تمسكها منذ أن جلست بجواري، أمّا أنا فابتسمتُ ابتسامةً باهتة، ولم أجد ما أقوله سوى:

- آمين، وإيّاك.

جمع أُسيد أغراضه، وكذلك فعلنا أنا وجُمان، واستأذن وسبقنا ومضى. حينها ساد الصمت بيننا نحن الثلاثة.

نظرتُ إلى ياسمين، فرأيت في عينيها ملامح تعاطفٍ وشفقةً حاولت أن تُخفيها. أما جُمان، فأدارت وجهها، وكأنّها تقول لي بصمت: "ألم أقل لكِ؟".

في تلك اللحظة، أدركتُ أنّ كلّ محاولاتي كانت عبثًا، وأنّني كنتُ أقاتل من أجل وهم، من أجل مشاعر كنتُ أنا الوحيدة التي تؤمن بها. أيقنتُ أخيرًا أنّ الصمت الذي انتظرته طويلًا، كان في حقيقته الجواب الكامل، وأنّ الأمنية الذي تلقيتها منه للتو، إنّما هي السطر الأخير التي ستُختتم فيها قصّة حبّي.

أجبته بعدما صدمني بما حدث معه:

- حمدًا لله على سلامتك، أخبرني كيف وضعك الصحيّ؟
- صدّقني لا أعلم كثيرًا عن التفاصيل، كُسِرَت ساقي وأحد أضلاعي، وجسمي مغطّىً باللفائف، أبدو مرعبًا كالمومياء، نعم فثمّة جروح في جسدي بسبب الزجاج الذي تناثر أمامي وقت الحادث.
- ألف سلامةٍ عليك يا صديقي، ألف سلامة، هل كنت في السيارة وحدك أثناء الحادث؟
- كنتُ مع والدتي في طريقنا إلى المنزل.
- وكيف هي الآن؟
- هي بخيرٍ، الحمد لله، ولم تكن بحاجةٍ إلى أن تبيت في المستشفى، وأُصيبت فقط ببضعة جروح في يديها.
- سلامتها!
- كانت المسكينة قبل وقوع الحادث ببضع دقائق تكرّر طلبها بأن أخفِض صوت المسجّل وأخفّف السرعة، كما لو أنّها كانت

تشعر بما سيحدث. للأسف لم أستجب لها، بعدها رنّ هاتفي الخلويّ وسارعتُ للردّ، ثمّ حصل ما حصل، ظهرت سيّارةٌ مسرعةٌ أمامنا، وعندما حاولت تفاديها انحرفت عن الطريق فاصطدمنا بحائطٍ كبير.

- حماكما الله، كم ستمكث في المستشفى؟
- لا أعلم بالضبط، قرّر الطبيب أنّه يتحتّم عليّ البقاء في المستشفى حتّى تلتئم جروحي وتستقرّ حالتي.
- أتمنى لكَ الشفاء العاجل، هل أستطيع زيارتك يا آدم؟
- بالطبع، سيسعدني الأمر، أهلًا وسهلًا بك متى شئت.
- لن أطيل عليك، ارتح الآن ونلتقي بعد قليل.
- مع السلامة.

أغلقت الهاتف وانطلقت مباشرةً إلى المستشفى، لقد كان وضع آدم الصحيّ سيئًا بالفعل، لكن مع ذلك استطعت أن أجلس معه نصف ساعة.

وبينما كان آدم منفعلًا وهو يشرح لي تفاصيل الحادث، اكتشفت أمرًا لفت انتباهي. ففي يوم الحادث، كان آدم بصحبة والدته من أجل مشوارهما الأسبوعيّ، فهو يخصّص أسبوعيًا من ثلاث إلى أربع ساعاتٍ لوالدته فقط. يتسوّق معها، ومن ثمّ يذهبان للعشاء معًا في أحد

المطاعم. شعرت أنّ علاقة آدم بأمّه أقرب ما تكون إلى علاقته بصديقٍ من أصدقائه. صحيحٌ أنّها تغضب منه كثيرًا بسبب تصرّفاته الطائشة، ولكنّه يعرف كيف يرضيها. هي تغضب منه خوفًا عليه وعلى مستقبله لا أكثر، لا لأنّه فعل شيئًا يغضبها، بل على العكس هو من أكثر الشباب إرضاءً لوالدته. يمزح معها ولا يعاملها بجفاءٍ أبدًا، ويخبرها بما يجول في فكره وقلبه. أمّا والدته فتتقبّل مزاحه بالضحك مرّةً، وبالصراخ عليه مرّاتٍ أخرى، ثمّة لمسة من الحميميّة في علاقتهما، تجعل من ينظر إليهما يبتهج من سماع حديثهما معًا، أيًّا كان نوعه.

في طريقي إلى المنزل، حاولت أن أرتّب أفكاري، إذ عليّ أن أعيد تنسيق مهمّات آدم في حلقة البحث وتوزيعها على البقيّة، واكتشفت أنّ عليّ أولًا إخبار المجموعة بما استجدّ، لعلّ أحدهم يودّ زيارته في المستشفى والاطمئنان عليه. اتصلت بيزن الذي بدوره سيخبر ليلى، ومن ثمّ أرسلتُ لأُسيد، الذي اتصل بي وحصل على عنوان المستشفى حالًا، وبقي عليّ إخبار الفتاتين، احترت لمن أرسل؟ هل أرسل لجود أم لجُمان؟

في البداية، استبعدت جود، لم أرغب بمراسلتها، إلا أنّ عدم رغبتي تلك هي التي تدفعني لأن أرسل إليها، فعليّ أن أكسر هذا الحاجز، وأتعامل معها بشكلٍ طبيعيّ، وأعتاد الأمر. لا ينبغي أن أتعامل معها بشكلٍ مختلف، لا شيء يميّز جود، ولا داعي لتجنّبها، هي فتاة في دفعتي،

وتعمل معي في الوقت الراهن في مجموعة حلقة بحث واحدة، هذا كلّ ما في الأمر! لماذا عليّ أن أتفاداها أو أتهرّب من الحديث معها ضمن العمل؟ لا بدّ أنّ الحل الوحيد لتجاوزها هو معاملتها على نحوٍ عفويّ وطبيعي.

أمسكت بهاتفي وكتبت نصّ الرسالة، وحين اخترت اسمها للإرسال، تأمّلته بحنينٍ وسألت نفسي: أين أنتِ يا جود؟ منذ سبعة أيامٍ لم تأتِ إلى الكلية، ولم تنشري أيّ موضوعٍ على المنتدى، ولم تكتبي حتّى تعليقًا واحدًا!

جود　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　مايو 2007 – السنة الرابعة

إلى الحبّ الذي انتهى ولم يعد له مكانٌ في قلبي. أنظر إليك اليوم وكأنّني أراقب غريبًا يمرّ من حياتي، ويرحل بعيدًا. سأغلق قلبي، وأحفظه، ولن أسمح لأحدٍ أن يقترب إليه بعد الآن، وداعًا إلى الأبد.

أغلقت دفتري، وأخذت نفسًا طويلًا، وبالمقارنة مع حالتي منذ أسبوعين، فأنا بالفعل أحرز تقدّمًا ملحوظًا، على الرغم من أنّي ما أزال ممتلئةً بكثيرٍ من المشاعر السيئة: الخيبة، الحزن، الغضب، والإحباط، والإرهاق النفسيّ. لقد كان درسًا قاسيًا، ذقتُ فيه لوعة الحبّ وألم التعلّق، ومرارة الحقيقة. توقفتُ عن سماع الأغاني بشكلٍ كامل، لا تأجيج للمشاعر بعد اليوم، وبدلًا من ذلك جعلت أكرّر هذا الدعاء: "اللهم أخرجه من قلبي" مرارًا ومع كلّ صلاة.

كان عليّ أن أضع خطّةً واضحة لأساعد نفسي على تجاوز هذه الأزمة التي أنهكت روحي وآلمت فؤادي، وأعيد التوازن لحياتي. لم تتركني كلٌّ من ياسمين وجُمان، فهذه تتصل وتلك تمرّ كلّما سنحت لها الفرصة، أمّا أختي ريم فتحاول باستماتةٍ الترويح عنّي حينما تتواجد في المنزل، ومع هذا وذاك، كان قلبي بحاجةٍ لوقتٍ أطول ممّا توقّعن كي يتعافى. أضربتُ

عن الذهاب إلى الكلية، وأشعتُ أنّي مريضة ولم أعد أتحرّك من المنزل، فأنا لا أرغب برؤيته، ولا إتمام العمل معه في حلقة البحث. دعمتني جُمان في قراري، وتكفّلت بمساعدتي وتزويدي بما قد يفوتني من المحاضرات والمعلومات اللازمة.

وقبل موعدنا الأخير مع مجموعة حلقة البحث، اتصلت بي جُمان لتسألني إن كنت أنوي المجيء إلى الاجتماع لننسّق النتائج ونحضّر للمناقشة، فأخبرتها أنّي لن أفعل. ومجددًا وعدتني جُمان أن تشرح لي المستجدّات، وتبرّر غيابي. لكن ما إن أنهيتُ مكالمتي مع جُمان، حتّى وصلتني رسالة من عمر على هاتفي المحمول:

مساء الخير جود، تعرّض آدم لحادثٍ أليم، نتج عنه كسورٌ وجروح، هو بخير لكنّه سيمكث في المستشفى لبضعة أيام.

اتّصلتُ بجُمان حالًا، التي أُصيبت بالفزع الشديد، وحين وجدت نفسي عاجزةً عن تهدئتها، وعدتُها أن أتصل بعمر وأسأله عن حالة آدم بالتفصيل، لعلّها تطمئن، فلم يكن لديها المقدرة على التحدّث إلى عمر وسؤاله.

- مرحبًا عمر، كيف حالك؟
- أهلًا جود، أنا بخير، الحمد لله.

- ما الذي حصل مع آدم؟ هل هو بخير فعلًا؟
- حادثٌ أليمٌ في السيّارة، كما أخبرتك، هو بخير، وسيمكث في المستشفى لتلقّي العلاج المطلوب، هناك بضع كسور، وجروح كثيرة، حالته ليست مستقرةً كثيرًا، ولا بدّ من إبقائه تحت العناية والإشراف الطبيّ.
- هل عائلته بخير؟
- كان هو من يقود السيارة، ولم يكن بصحبته إلا والدته، وهي بصحةٍ جيدة، الحمد لله.
- حمدًا لله.
- سأزوره اليوم إن شاء الله.
- حسنًا، إذن أرسل له أمنياتنا بالشفاء العاجل.
- إن شاء الله.

عمر مايو 2007 – السنة الرابعة

أبعد كلّ هذا الاختفاء، يظهر لي اسمها على شاشة هاتفي؟!

فاجأني اتصالها، ومع كلّ سؤالٍ كانت تطرحه حول حادث آدم، كنتُ أسحب نفسًا طويلًا لأحافظ على هدوئي، لم يكن صوتها على ما يرام، لكنّي توقعت أنّها لربما أنهت أخيرًا حالة الاختفاء هذه، وستستأنف مجيئها إلى الكلية مجددًا.

وصلتُ إلى الكلية، وتوجّهت نحو القاعة التي سنعقد فيها اجتماعنا الأخير قبل المناقشة، وحين دخلت وجدتُ ليلى وجُمان فقط، ألقيتُ السلام، وسألتهما:

- لن يأتي آدم كما تعلمان، هل من غائبٍ آخر؟

أجابتني جُمان بتحفّظ:

- نعم، جود متعبة ولن تستطيع الانضمام إلينا.
- سلامتها، أتمنّى لها الشفاء العاجل.
- لا تقلق، أيام قليلة وستكون بحالةٍ جيدة.

هنا سألت ليلى:

- ما مرضها بالضبط؟

تظاهرتُ بأنّي مشغولٌ بأوراقي، في حين أجابت جُمان بارتباكٍ واضح:

- إرهاقٌ عام، هي بحاجةٍ إلى الراحة بسبب ضغط الدراسة.

إرهاقٌ عام! إذن لا تزال في عزلتها. أيّ ضغط دراسة؟ لطالما كرّرت أنّها لا تضغط على نفسها بالدراسة، وأنّ لديها استراتيجية واضحة لعدم الوقوع في هذا الفخّ. ثمّة خطبٌ ما أكثر جدّية، وليس لديّ أي وسيلة لتخمينه.

في تلك الأثناء، دخل أُسيد إلى القاعة وألقى السلام، تساءلتُ في سرّي وأنا أردّ السلام: هل تُراك خلف ما يحدث؟

عمر

يونيو 2007 – السنة الرابعة

مرّ وقتٌ طويل لم أرها نشطةً على الماسنجر، لكنّها في ذلك الصباح ظهرت على التطبيق، فأرسلتُ إليها:

- صباح الخير جود، لديّ سؤال، هل عدّلتِ الشريحة رقم 5؟ أرسلتُ البارحة بريدًا إلكترونيًا للجميع وأرفقتُ فيه الملفّ الجديد، لم يصلني ردّ تأكيدٍ منك، هل حصلتِ على التعديلات كلّها؟

ردّت عليّ دون تأخير:

- أهلًا عمر، نعم، شكرًا لك.
- هذا جيد، نلتقي بعد قليل.
- إلى اللقاء.

وقبل أن تختفي مجددًا، مسحت جود الجملة التي تضعها كتوقيعٍ لها على الماسنجر، وكتبت جملةً جديدة بدلًا عنها:

كن موطنًا لنفسك، وابحث عن السلام في أعماقك، وازرع الطمأنينة في صدرك، وحين تشتدّ العواصف من حولك، اسمح للريح أن تمرّ دون أن تقتلع جذورك.

قرأت جملتها، فأثارت شكوكًا أكثر في نفسي حول التغيرات التي تعتريها. ما بها؟ وما مصدر تلك العواصف والرياح التي تجتاح حياتها؟

لم أُطل التفكير كثيرًا، ونهضتُ لأجهّز نفسي، وهناك في الكلية، أتت جود أخيرًا، دقّقت في ملامح وجهها، فوجدتها بحالٍ جيدة، إلا أنّها لم تكن بحماسها المعتاد، بل هادئة بعض الشيء. تحدّثتْ مع جُمان، ومن ثمّ طرحتْ بعض الأسئلة للتأكّد من أنّها مستعدّة للمناقشة.

وحين أتى دورها، كانت متوترة بعض الشيء، في العادة لا ترتبك جود في هذه المواقف، بل تقف بثبات، وتتحدّث بطلاقةٍ وثقة، لم أستطع أن أطيل النظر إليها، شعرتُ بنخزاتٍ في قلبي، فآثرت أن أنشغل بأيّ شيء آخر. أمسكت قلمي، ورحت أكتب على دفتري، إلى أن انتهت جود، وعادت إلى مقعدها.

مضت المناقشة بعدها على أكمل وجه، وما إن انتهينا حتّى استأذنت جود وغادرت على الفور، بينما ظلّ الباقون لمناقشة سؤالٍ مهم: هل سنعتمد فكرة حلقة البحث لمشروع التخرج؟ وهل سنبقى كما نحن في

المجموعة؟ وكما هو متوقع، دعم يزن الفكرة، وصرّح بتأييده للأمر، وكذلك فعل آدم، وبعد مشاورات، وجّه يزن سؤاله إلى جُمان قائلًا:

- نحتاج إلى معرفة رأي جود بالأمر، هل تعتقدين أنّها ستمانع الأمر؟

أجابت جُمان:

- لا أستطيع أن أقرّر عنها، عليّ أن أسألها أولًا.

استأذنت جُمان وجلست في زاوية بعيدة عنّا لتتصل بجود، ويبدو أنّ الأمر أخذ وقتًا أطول ممّا نتوقّع، فقد ظلّت جُمان تتحدث إليها أكثر من خمس دقائق، وبعدها أقبلت نحونا مجددًا، والمفاجأة أنّها، وبعد كلّ هذا التشاور، لم تحصل على إجابةٍ واضحةٍ من جود.

ها هي ذي الفرصة تأتي للعمل معه لسنة كاملة، ألم يكن ذلك أقصى ما تتمنّاه؟ ما الذي حصل مؤخرًا ليجعلها تتجنّب الجميع؟ أو بالأحرى، تتجنّب أُسيد!

إن صدقت شكوكي، وكان أُسيد وراء حزنك يا جود، سأُجبر حينها على طرح سؤالٍ لطالما تجنّبته: يا ترى أيّهما أكثر إيلامًا، أن أراكِ سعيدةً معه؟ أم حزينةً بدونه؟

عمر

يونيو 2007 – السنة الرابعة

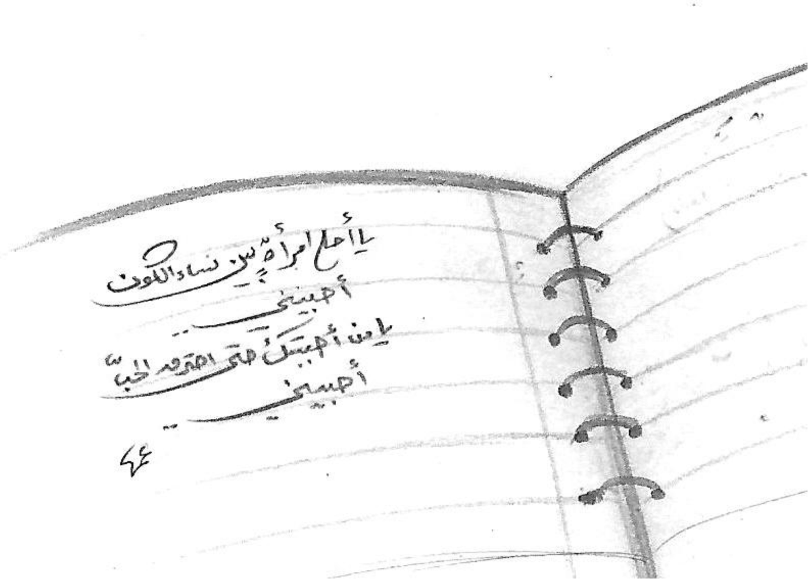

جود أغسطس 2007 – العطلة الصيفيّة

انتهينا أنا وريم من تنظيف المنزل مع والدتي، وبعدها انطلقت ريم إلى دروسها في معهد اللغة، في حين ذهبت والدتي لزيارة جارتنا واحتساء فنجان قهوة معها، فهي وجاراتها لا يتخلّين عن هذا الطقس الصباحي. أمّا أنا، فاخترت أن أُعدّ لنفسي طبقًا من الآيس كريم لأروّح عن نفسي أثناء قراءتي لرواية: "الأبله"، التي استعرتها من جُمان. أخبرتني جُمان أنّ هذه الرواية تعود لوالدتها، فهي من عشّاق الأدب الروسي وقارئة نهمة، على عكس جُمان نفسها التي لا تهوى قراءة الروايات.

اخترت لنفسي مقعدًا مريحًا، وبدأت الغوص في عالم القراءة، مستمتعةً بأجواء الاسترخاء والهدوء، واندمجت تمامًا في الأحداث، حتّى رنّ جرس الهاتف. في البداية، لم أرغب في الردّ وفضّلت أن يترك المتصل رسالةً على المجيب الآلي، لكن سرعان ما بدأت أفكّر في حجم اللوم والانتقادات التي ستنهال عليّ إذا لم أرد: أين كنتِ؟ لماذا تجاهلتِ المكالمة؟ ألا تسمعين؟

أدركت أنّه لا خيار لي سوى أن أقطع القراءة وأردّ على الهاتف، رفعت السماعة، فإذا هي جُمان:

- أهلًا جُمان.
- كيف حالكِ جود؟
- أنا بخير، شكرًا.
- سنجتمع غدًا الساعة الخامسة عصرًا في الكلية، لمناقشة بعض الأمور من أجل مشروع التخرج.
- أتدرين جُمان؟ لا أشعر بالارتياح من فكرة الانضمام إلى المجموعة، أفكّر في سحب اسمي، والعمل في مشروعٍ فرديّ.
- هل ستتخلّين عنّي؟
- أنتِ تعلمين السبب.
- جود! كوني أكثر صلابة، وتجاوزيه.
- صدّقيني، لم يعد يهمّني الأمر، لكنّي لا أفضّل العمل معه في المجموعة ذاتها.
- لن تعملي معه بشكل مباشر، ألم تسمعي الاقتراحات في المرّة السابقة؟ سيعمل أُسيد بشكلٍ فرديّ تقريبًا، نرسل إليه النتائج والمعلومات، وهو ينسّقها بشكلٍ أكاديميّ.
- سأفكّر مرّةً أخرى بالأمر.

- هل ستأتين غدًا؟
- متى سيكون الموعد؟ هلّا ذكّرتِني!
- الساعة الخامسة عصرًا.
- ممم، سيزورنا ضيوف.
- هل من الضروري أن تكوني حاضرةً بوجودهم؟
- نعم، فهنّ خاطبات، كما تعلمين، ينشطن في الصيف.
- فهمت، سأنوب عنكِ.
- شكرًا جُمان.
- وما هي مواصفات العريس؟
- لا أعلم بالضبط، وعلى ما يبدو أنّه مناسبٌ من وجهة نظر والدتي، التي لديها شروطٌ معيّنة لتستقبل أهل العريس، وإن لم تتحقّق شروطها الأساسية، فهي تعتذر منذ البداية. على أي حال، سواءٌ أتحقّقت شروطها أم لم تتحقّق، في كلّ الأحوال، أنا لستُ مهتمّةً الآن بالارتباط.
- إذًا لماذا تستقبلينهنّ؟
- لأنّ استقبالهنّ أمرٌ محتّم.
- لا أفهمكِ جود، طالما أنّكِ لا تفكّرين بالارتباط بشكلٍ جادّ، لماذا تضيّعين وقتك ووقتهنّ؟

- ليس من الصواب أن أشيع بعدم رغبتي باستقبال الخاطبات، سيُفهم الأمر على نحوٍ خاطئ.
- لم أقتنع! طالما أنّكِ على أبواب التخرج، فلا بأس من رفض استقبال الخاطبات بحجّة انشغالك بالدراسة.
- هذا لا ينفع في بيتنا، صدّقيني.
- على أي حال، سأحدّثكِ غدًا بعد الموعد وأخبركِ بمجريات الأمور.

أنهيتُ المكالمة، ورميت الرواية جانبًا، يصيبني الملل حين أسمع اسمه، وينعدم الشغف لديّ لمدّة نصف ساعة، ومن ثمّ أعود إلى طبيعتي، هذه هي الأعراض التي خلصتُ إليها، وما أجملها من أعراض، مقارنةً بالأشهر الماضية!

في كلّ مرّة أذكر ما حصل، أحمد الله أنّي لم أظلّ في هذه المتاهة والدوامة أكثر. كم هي معقّدة تركيبة العواطف عند الإنسان؟ كيف نجحتُ في خداع نفسي إلى هذا الحدّ، وإقناعها بأنّه أيقونة الحبّ في حياتي! يا لها من سذاجة!

عمر

سبتمبر 2007 – السنة الخامسة

بدأت السنة الأخيرة، فعلّقت مهمّاتي الرسميّة في الجمعية لسنةٍ كاملة، لأتفرّغ للدراسة ولمشروع التخرج، وعُيّن فاضل لينوب عنّي خلال فترة غيابي، على أن أكون متاحًا للدعم التطوعي، وللاستجابة إلى الحالات التي تتطلّب تدخّلي، بالذات حين يتعلّق الأمر بالتفاصيل المرتبطة بالعائلات التي عملتُ معهم لمدّة طويلة.

وفي يوم اجتماعنا الرسميّ الأول مع الدكتور قيصر، لم أكن واثقًا من حضور جود، بسبب تردّدها الواضح بالانضمام إلى المجموعة، وغيابها المتكرّر عن الاجتماعات الأوليّة التي أقمناها خلال الصيف، إلا أنّها في نهاية المطاف استقرّت في مجموعتنا، فقد حضرت الاجتماع الرسميّ وبدت مستعدّةً تمامًا ومتحمّسةً للمشاركة والنقاش في تفاصيل المشروع.

كان اجتماعًا مثمرًا، تحدّث فيه الدكتور قيصر بخصوص فكرة مشروع التخرّج، ومدى إعجابه بها، وشرح لنا أنّها تحتاج إلى أسسٍ نظريّةٍ، وخبرة عمليّة في مجال برمجة الشرائح الإلكترونية، كما اقترح أن نفكّر بنشر النتائج وما نخلص إليه في إحدى المجلات العلمية المحكّمة.

قسّمنا العمل والمهمّات بشكلٍ دقيق، إذ سيعمل يزن مع ليلى وجود في تصميم الخوارزميات، بينما سيتولّى آدم ومعه جُمان القسم العملي بما فيه البرمجة. أمّا أنا فقد أوكل إليّ مهمة فحص الأكواد البرمجية وتشغيل التجارب بمعطياتٍ مختلفةٍ، إضافةً إلى مهمّاتٍ إداريّةٍ مثل تنسيق المواعيد، وتأمين المستلزمات. أمّا أُسيد فأوضح منذ البداية أنّه سيكون مسؤولًا عن دراسة الحلول السابقة ومشكلاتها ونقاط الضعف فيها، بالإضافة إلى تدوين ملاحظاتنا التي نزوّده بها بنسقٍ أكاديميٍّ.

لم أشعر باضطرابٍ أو ارتباكٍ أو فرحٍ أو غبطةٍ من وجودي معها في مشروعٍ واحد، لكن لفت انتباهي أمرٌ غريب، إذ كانت نظرات جود لأُسيد منزوعة المشاعر، باردة وجافّة، لم ترتبك، لم تنفعل، ولم تكن حزينة كما كانت في الآونة الأخيرة، هي غير مباليةٍ به، لا أحتاج إلى دليلٍ أوضح من هدوئها وتصرفاتها الطبيعية، فقد كانت تسأل وتناقش وتتحدّث بهدوء وطمأنينة وسكينة طيلة الجلسة.

تساءلت: هل تخطّته بالفعل؟ كيف حدث ذلك؟ ولماذا؟ وإن حدث ذلك بالفعل، لماذا لم أستطع أن أحقّق ما حققته رغم كونها فتاة، وعواطفها جيّاشة؟ لماذا لم أقدر أنا أيضًا على تجاوزها؟

ارتحتُ لفكرة أنّها تخطّته، ووجدتها فرصةً لأن أقتدي بها، وأمشي على خطاها، وأفعل الأمر ذاته. وودت لو أنّها تكتب تجربتها وتنشرها، لعلّي أتعلّم منها: كيف ينزع أحدنا شخصًا يحبّه من قلبه وروحه وتفكيره؟

جود! علّميني، وقولي لي: كيف أستطيع ألا أهتمّ بكِ؟ أريد أن أصل إلى السلام الداخلي الذي وصلتِ إليه، وأتحرّر، نعم يجب أن أتحرّر، فلا رغبة لديّ بأن أبقى أسيرًا لهذا الشعور، ولا أريد أن يشتعل الأمل في قلبي، فتخيب تطلّعاتي مرّةً أخرى.

هذه فرصتي، أن أصدّق افتراضي ذلك، وأنساكِ.

جود سبتمبر 2007 – السنة الخامسة

جلستُ في القاعة التي اجتمعنا بها كي نناقش مع الدكتور قيصر فكرة مشروع التخرج، لم أكن أتابع ما يقولون، ولا ما يقترحون، فقد كان لديّ مهمّة خاصّة جدًّا، وعزمتُ على أن أتمّها بنجاح.

بدأتُ بالاختبار الأوّل، ورحتُ أنظر نحوه بطرف عيني، وفي كلّ مرّة ينبض فيها قلبي بشكلٍ طبيعيّ، كنتُ أضع علامة صح، وأكرّر الاختبار...

صح، صح، صح...

وحين وجدتُ أنّي نجحتُ بجدارةٍ في الاختبار الأول، انتقلتُ إلى الثاني، والذي يقتضي مشاركتي بالكلام خلال حضوره. حاولتُ أن أركّز قليلًا في حديثهم، ومن ثمّ رفعتُ يدي وطرحتُ سؤالًا، لم أُبالِ بردّة فعله، ولا نظراته، وتحدّثتُ بطريقةٍ عفوية دون تكلّفٍ أو اضطراب، فوضعتُ علامة صح، ومن ثمّ رحتُ أكرّر الاختبار، تارةً أضيف تعليقًا، وتارةً أقترح فكرةً.

صح، صح، صح...

وحين وجدتُ أنّي نجحتُ بجدارةٍ في الاختبار الثاني، انتقلتُ إلى الاختبار الأخير، وبينما كان أُسيد يتحدّث حول آفاق المشروع وما يمكننا أن نقدّمه، وجّهتُ له سؤالًا بشكلٍ مباشر، حين نظر نحوي ليصغي إلى سؤالي، شعرتُ بنخزةٍ صغيرة في صدري، ما لبثت أن اختفت بسرعة، ومن ثمّ عدتُ إلى طبيعتي. لم أعتبرها فشلًا، وغفرتُ لقلبي الذي استطاع أن يحقّق كلّ هذه النجاحات خلال فترة قياسية.

لم أشارك جُمان تلك الاختبارات، واحتفظتُ بها لنفسي، ودّعتُ جُمان وعدتُ إلى المنزل وأنا أشعر بالفخر الشديد بنفسي، فقد قطعتُ شوطًا كبيرًا في التخلّص من مشاعري واهتمامي به.

حقًّا، ما أجمل الحرية!

وردة الربيع

أحبّ زيارة عمّتي، تلك المحبّةُ للتنظيف، في بادئ الأمر كنتُ أستغرب بشدّة، وأتساءل: لِمَ تقضي عمّتي كلّ هذا الوقت في التنظيف؟ لأجد الإجابة في إحدى المرّات حين زرتها في بيتها، وكانت قد انتهت من تنظيفه للتو، فجلسنا معًا نحتسي القهوة، رأيتها وهي تتأمّل نظافة البيت وترتيبه بسعادةٍ نابعةٍ من قلبها وباديةٍ على وجهها، سألت نفسي حينها: هل يحقّ لي لوم عمّتي على هوسها هذا، وعلى قضائها كلّ هذا الوقت في شيءٍ أرى أنّه لا يعود عليها بالنفع؟ ماذا إن كان العكس؟ ماذا إن كانت عمّتي ترى أنّ قضاء أربع أو ساعاتٍ على رواية قد لا تعود عليّ بأيّ نفع؟

إنّه وقتها، وهو وقتي!

هي أوقات فراغنا، فلنقضِها كيفما نشاء، وحيثما نشاء، مع من نحبّ، أو حتّى وحيدين. فقد أرى أنّ ولع أخي بألعاب الفيديو هو شيءٌ فارغٌ وغير مفيد، ولكن يكفي أنّه قضى هذا الوقت وهو مستمتعٌ به. ثمّ من أنا لأملي عليه كيف يقضي وقته، وأقرّر إن كان ما يفعله يعود عليه بفائدة أم لا؟!

دائمًا ما ينتقد أبي أمّي لقضائها وقتًا طويلًا في المطبخ في تزيين وإعداد المأكولات، ولكنّه لا يعلم كمّيّة المتعة التي تشعر بها أمّي في إعداد هذا الطبق أو ذاك وتزيينه. وتنتقد أمّي أبي لحبّه لعبة الشطرنج، ولكن كمّيّة الحماسة التي ينتهي بها أبي من كلّ منافسة تكون هائلةً جدًّا.

ألوم أختي وصديقاتها على قضائهنّ ساعاتٍ في المناقشات وتبادل الأفكار، ولكنّني في الحقيقة لا أعلم مقدار الراحة التي تشعر بها أختي بعد هذا الوقت، فهي ترتاح بتفريغ همومها وأفكارها بالحديث مع صديقاتها.

وفي الختام، فإنّ القاعدة سهلة وبسيطة: ما دام المرء غير مقصّرٍ في واجباته وفروضه، وما دام لا يفعل شيئًا يغضب ربّ العالمين، فلندعه وشأنه، وليقضِ كلّ منّا وقت فراغه وهو يمارس نشاطاته التي يحبّها، من غير إفراطٍ في وقته أو تفريطٍ في واجباته.

عمر نوفمبر 2007 – السنة الخامسة

أنهيتُ قراءة الموضوع، وقلتُ وأنا أحدّث نفسي: أحسنتِ يا وردة الربيع! موضوعٌ جميل. من الجيد أنّكِ عدتِ لنشر مواضيعك المتنوعة، واستعدتِ نشاطك المعتاد بشكلٍ كامل. وكعادتك تحكين عن مشاعر أعجز عن التعبير عنها، وتضربين على الوتر.

منذ صغري وأنا أهوى الرسم التجريديّ مع تداخل الخطوط، لستُ فنّانًا لكنّني هاوٍ، لم أحتَرِف الرسم كما لم أتعلّم أصوله وفنونه، بل اعتمدتُ على إحساسي فقط. فأنا لا أريد الاحتراف، بل أودّ أن أُبقي هوايتي لي فقط. لكن كان أغلب من حولي يستنكر ذلك، فإمّا الاحتراف أو الكفّ عن تضييع وقتي على حدّ تعبيرهم!

كنتُ على وشك البدء بلوحةٍ جديدة، لكن لم يكن لدي متّسعٌ من الوقت، جهّزتُ نفسي وانطلقتُ إلى منزل والدي، للاحتفال بعيد ميلاد ماسة الأول. لقد مضى الوقت بسرعة، كم يكبر الأطفال سريعًا!

وصلتُ في الوقت المحدّد، وحين رأتني ماسة، حبَتْ باتجاهي، تحبّني ماسة، رغم زياراتي القليلة لهم، بسبب انشغالي بالدراسة وبسنة التخرج. حملتُها وأعطيتها هديتها التي رمتها جانبًا، وهي تنتظر منّي أن ألاعبها،

وبما أنّي لستُ جيدًا في ملاعبة الأطفال، فإنّها ستسأم منّي وتبدأ بالعبث في أغراضي ومفاتيحي.

لم تمضِ ساعةٌ على حفل عيد الميلاد ذلك، حتّى انهالت عليّ الاتصالات مجددًا من الجمعية، لاستشارتي حول أمورٍ متعددة تخصّ فعالية السوق الخيريّ الذي سيقام الشهر المقبل. فمنذ عدّة أيام وهم يخططون في الجمعية لهذه الفعالية، وبعد مضيّ أكثر من نصف ساعةٍ من النقاش عبر الهاتف، قرّرتُ أن أنضمّ إليهم في اجتماعهم حالًا، لأساعدهم في تنسيق هذه الفعالية الضخمة، فهي الأولى من نوعها، وعلينا أن نوظّف كلّ خبراتنا وإمكانياتنا لإنجاحها.

استأذنتُ من والدي بالرحيل، وودّعتُ فريال والصغيرة وانطلقتُ إلى الجمعية، حيث أمضينا بضع ساعاتٍ واستكملنا الحديث حول التفاصيل كلّها. شعرتُ هناك أنّ روحي انتعشت من جديد، وقلبي تراقص من الفرحة، فقد كان الجميع متحمّسًا للغاية.

جود نوفمبر 2007 – السنة الخامسة

- انضممتُ إلى المشروع خصيصًا كي أعمل معكِ، لكن انتهى بي الأمر أن أصبح عزولًا بين حبيبين!
- لستِ كذلك، نحن نعمل معًا أغلب الوقت.
- أتعلمين؟ يزن شابّ جادّ للغاية، يعرف ماذا يريد، ويفعل كلّ ما بوسعه ليحقّق هدفه، أمّا ليلى، فهدفها الوحيد هو ملازمة يزن.
- لا تتحدّثي عنها بهذه الطريقة.
- جُمان! ليس من السهل التعامل معهما، تأخذ اجتماعاتنا أشكالًا مختلفة، فتارةً تكون ليلى غاضبة، وتارةً متعبة ولا تريد أن تعمل، وفي المقابل قد لا يبالي يزن بتعليقات ليلى وشكواها، وفي بعض الأحيان ينتفض فجأةً ويأخذ أي كلمة منها على محمل الجدّ.

أدارت جُمان رأسها لتعبّر عن استيائها من كلامي، لكنّي تجاهلت ذلك وأردفت:

- لا أزال حتّى الآن لا أفهم علاقتهما أبدًا، لكن من الواضح أنّ الحال بينهما ليس على ما يرام، وأنّ الاستقرار بعيد كلّ البعد عن قصّتهما.

- جود، ما لنا وما لهما؟ أرجوكِ، لا تخوضي في الحديث عنهما.
- لكنّهما غريبان جدًّا.
- أولًا: لا تنعتي كلّ شخص لا يشبهك بأنّه غريب! هو مختلفٌ فقط، قد نكون نحن الغرباء بالنسبة لهم. ثانيًا: ما دخلنا نحن؟!
- ولكنّي أعمل معهما في المشروع، وأحيانًا تقصّر ليلى فيغطّي عنها يزن، وهذا ما يزعجني، هي تعتمد على الآخرين لينجزوا عملها.
- جود لستِ الأستاذ المشرف عليها، وليس من مهمّاتك تقييم علاماتها، ولا علاقة لكِ بمن يقوم بالعمل إن تمّ إنجازه.
- ولكن هذا ليس عدلًا ليزن!
- جود أرجوكِ كفى! دعيهما وشأنهما!

تكره جُمان الغيبة، وتتجنّبها بطريقةٍ استثنائية، لم أقابل في حياتي أحدًا يستطيع ضبط لسانه كما تفعل جُمان، أغبطها على هذه القدرة التي تتمتّع بها، فأنا مهما حاولت، أجد نفسي في بعض الأحيان منخرطة في وحل الغيبة، ولديّ القدرة على إسكات ضميري وتنويمه بشكلٍ مؤقّت إلى أن أنهي "وليمة اللحوم البشرية"، هكذا كما باتت تصفها جُمان في الآونة الأخيرة، مستخدمةً الأسلوب الذي يشعرني بالاشمئزاز من فعلتي، على حدّ تعبيرها.

فقد تدّرجت جُمان معي بشتى الأساليب، كانت في البداية تكرر عليّ مقولتها المفضّلة: "العقول العظيمة تناقش الأفكار، والعقول المتوسطة تناقش الأحداث، والعقول الصغيرة تناقش الأشخاص"، والتي أجدت نفعًا بنسبةٍ ضئيلة، فاضطرت جُمان بعدها إلى استخدام أسلوب المحاكاة، فكانت تكرر عليّ أسئلة كـ: هل تحبّين أن يتحدّث الناس عنكِ كما تتحدثين عنهم؟ ما هو شعورك لو أنّ الناس تحدّثوا عنكِ بغيابك؟

وبما أنّي كنتُ أجيبها وأصرّح بأنّي "لا أبالي"، اضطرت جُمان إلى أن تستخدم تعبير "وليمة اللحوم" ذاك، والذي كان له التأثير الأقوى عليّ. ذكية هي جُمان، تغيّر أسلوبها عند اللزوم، وتصيب الوتر الصحيح والمناسب عند الشخص، فلا تقتصر على استخدام ما يؤثّر بها هي شخصيًّا، بل تتبع أسلوبًا مرنًا لتقنع من أمامها.

وكالعادة، نجحت جُمان بأن تصيبني بالمغص بعد سماعي لتلك الجملة، وبعدم رغبتي في تناول أي حديث آخر، فضلًا عن تناول الطعام بحدّ ذاته. وضعت يدي على فمي وقلت لها بصوتٍ مكتوم:

- سأصمت، بشرط أن تتحدّثي عن شيءٍ آخر، أتوسّل إليكِ، أشعر بالغثيان.

ضحكت جُمان، ثمّ قالت:

- بالمناسبة، سيقام سوقٌ خيريٌّ ضخم الأسبوع المقبل، الجميع يتحدّث عنه، ما رأيك أن نمرّ ونتسوّق؟

تنهّدت وأجبتها وأنا أحمد الله أنّها غيّرت الموضوع:

- لا أحبّ هذه الفعاليات، أفضّل أن أتبرّع بشكلٍ مباشر للجمعية.
- هذه لا تلغي تلك، تستطيعين وضع مبلغٍ في صندوق التبرعات، بالإضافة إلى حضورك لتلك الفعاليات ودعمها.
- أشعر أنّها مضيعة للوقت والجهد.
- لا أبدًا جود، هذه الفعاليات تساعد على إشهار الجمعيات وفعالياتها، وتشجّع كثيرًا من المتبرعين على تقديم الدعم المادي، ناهيك عن الاطلاع على نشاطات الجمعية، والحديث مع الإدارة والفرق التطوعية عن كثب.
- لا بأس، سنمرّ مرورًا سريعًا.
- اتفقنا!

جود   ديسمبر 2007 – السنة الخامسة

وصلتُ باكرًا إلى الموعد، فانتظرتُ جُمان أمام مدخل السوق الخيريّ، بدت الأجواء صاخبة في الداخل، وقفتُ أنتظرها بتململ، والشك لا يزال يساورني بجدوى قدومي، إلى أن وصلت جُمان في الموعد المحدّد، ودخلنا معًا إلى السوق.

كانت الأكشاك تملأ الساحة، توجّهنا أولًا إلى مركز السوق، هناك حيث سيلقي مدير الجمعية المنظِّمة لهذه الفعالية كلمته، سألتُ جُمان بينما كنّا نبحث عن مكانٍ نجلس فيه:

- ما اسم هذه الجمعية؟
- سنابل الخير! كما ترين فإنّ الاسم مطبوعٌ في كلّ مكان.
- هل هي مشهورة؟
- لا أعلم، لكنّها الجمعية التي يعمل فيها عمر، وانضمّ إليها آدم بصفة متطوّع، وهو من أعطاني بطاقة الإعلان عن هذا السوق الخيريّ، أنا أيضًا لم أكن أعلم بها.
- وهل يعمل عمر في جمعية؟

- نعم، هذا ما أخبرني به آدم الشهر الماضي، بينما كان ينشر الإعلان.
- فهمت! إذن أنتِ هنا لرؤية آدم.
- لا يا جود! لا تظنّي بي ظنّ السوء، لا أعتقد أنّ آدم سيأتي بالأساس.
- حسنًا، يبدو أنّ رئيس الجمعية سيتحدّث الآن.

التزمنا الصمت، ومن ثمّ افتتح رئيس الجمعية السوق الخيريّ بكلمةٍ موجزة، خلالها رحتُ أنظر في الأرجاء، فرأيت عمر يقف مع منسّقي الحفل، يرتدي سترةً مطبوعًا عليها اسم الجمعية وشعارها، كان منشغلًا للغاية، يبدو أنّه عضوٌ هامّ في هذه الجمعية.

اختتم رئيس الجمعية كلمته، ومن ثمّ انتشرنا بين الأكشاك لنستطلع ونشتري ما نراه مناسبًا. لم تكن الأسعار مرتفعة، ويستطيع المشتري أن يضيف ما يشاء حين يشتري سلعةً ما، وقفنا عند كشك لبيع الحقائب المصنوعة يدويًا، فأعجبتني إحدى الحقائب، لونها سكّريّ، ومطرّزة بخرزٍ ذهبيّ اللون، ضحكت جُمان وهي تراني أكبح نفسي عن المساومة وأنا أشتريها. مضينا إلى الكشك التالي الذي استوقف جُمان، إذ كان يبيع سجّاد للصلاة، اشترت جُمان عشرًا منها، مما أثار استغرابي، سألتها وهي تختار الألوان بعناية:

- ماذا ستفعلين بهذه الكمية؟
- سأضعها في مسجد الكلية، السجّاد القديم سيّئ للغاية.
- فكرةٌ ممتازة، لكن كيف سنحملها؟
- سأبقيها عنده وآخذها عند المغادرة.

أنهينا صفقة شراء السجّاد، وعند تلك اللحظة شعرتُ بالحماس، فيبدو أنّ جُمان تختار ما تشتريه بطريقةٍ مبتكرة، قررتُ أن أقلّدها وأن أبدع في اختياراتي، لكن لم تكن ميزانيتي تتيح لي هذا القدر من الإبداع.

استأنفنا سيرنا، فوصلنا إلى أكشاك الأطعمة الخفيفة والمشروبات الساخنة، فجلسنا قليلًا لنرتاح ونستمتع بالمأكولات اللذيذة. كنتُ ألمح عمر بين الفينة والأخرى يتحدّث مع هذا، ويوجّه تلك، ويسلّم على الناس، سألتُ جُمان:

- هل رأيتِه؟ يبدو أنّ له مكانةً رفيعةً هنا.
- نعم، سمعتُ أنّ جدّه كان من مؤسسي هذه الجمعية.
- واو!

نظرتُ حولي ثمّ سألتها:

- يجب أن نلقي عليه السلام، أليس كذلك؟

- بالطبع، حالما نجده قريبًا منّا.

ضحكتُ وقلتُ لها:

- قد لا يعترف بنا، أشعر أنّه شخصٌ مختلفٌ عن عمر الذي نعرفه.

أنهت جُمان كوبها، ومن ثمّ وقفنا حائرتين، ورحنا نتساءل: أي قسمٍ سنزور؟ وبينما كنّا ننظر حولنا، وجدتُ قسمًا يبدو أنّه للأطفال، إذ يقف على أكشاكه أطفالٌ صغارٌ ويافعون، قلتُ لجُمان وأنا أشير إليهم:

- سأذهب إلى ذلك القسم.

أجابتني جُمان:

- سنلقي نظرة ثمّ ننطلق إلى قسم الحياكة، أريد أن أتفقّد المفارش المطرّزة.

أومأتُ لها بالإيجاب وتوجّهنا نحو قسم الأطفال، لأجد هناك ما أذهلني: أعمال يدوية جميلة للغاية، وأنشطة ممتعة، وألعاب مميّزة، وزاوية للرسم على الوجه، ورسم الحنّاء.

كانت تجربة الشراء من الأطفال رائعة، لم أشترِ وأمضِ فورًا بل استمتعتُ بالحديث إليهم، وحين شعرتُ أنّ مكوثي معهم سيطول، طلبتُ من جُمان أن تسبقني إلى قسم الحياكة.

وبالفعل مضت جُمان، فتابعتُ تنقّلي بين أكشاك الأطفال، وجدتُ إحدى الفتيات تصنع القلائد وتبيعها، فطلبتُ منها أن تصنع لي قلادةً ذهبية، وبينما كنتُ أنتظرها لتنتهي من ضمّها، لاحظتُ أنّ عدد الزوار لقسم الأطفال قليلٌ للغاية، وهنا خطرت ببالي فكرة: أن أساعدهم في الحصول على زبائن، وبدأنا التسويق معًا، تمرّ الأم مع أبنائها وبناتها فنستعرض بلطفٍ القلائد والمنتجات الفنية والحليّ والحقائب واللوحات، ونشجّعهم على اقتنائها، وما أسهل إقناع الأطفال! فيكفي أن أنعت الفتاة بالأميرة حتى تُقبِل وتشتري قرطًا أو إسوارة، ويكفي أن أصف الصبي بالبطل حتّى يشعر برغبةٍ عارمةٍ في تجربة إحدى الألعاب والفوز بها.

مضى الوقت دون أن أشعر به، وبينما كنتُ منغمسةً مع الأطفال، عادت جُمان مجددًا إلى قسم الأطفال، وقالت لي:

- ألم تنتهِ بعد؟ علينا أن نمضي.

أجاب الأطفال عوضًا عنّي وقالوا:

- لا! ابقي معنا رجاءً.

فقلتُ لجُمان:

- سأبقى معهم قليلًا ومن ثمّ سأغادر.
- إذن اعذريني سأمضي الآن، فوالدتي ستمرّ عليّ بعد عشر دقائق.
- لا عليك، نلتقي غدًا في الكلية.

حملت جُمان أغراضها ومضت، بينما بقيتُ مع الأطفال نصف ساعة أخرى، وقبل أن أمضي لفت انتباهي أنّ الفتاة التي تجلس في زاوية "الرسم على الوجوه" لم تستقبل إلا بضع زبائن، فقررتُ أن أقدّم لها بعض الدعم، توجّهتُ إليها وسألتُها:

- ما اسمكِ يا حلوة؟

ابتسمت الفتاة بلطف وأجابت:

- غدير.
- هل تحبّين الرسم؟
- نعم كثيرًا.
- في أي صف أنتِ؟
- أنا في الصف الثامن.

كنتُ أتحدّث إليها وأفكّر بطريقةٍ لجعل الفتيات في السوق يقبلن إلى ركنها، فسألتُها:

- أخبريني، ماذا سترسمين لي على وجهي؟
- هل ترغبين حقًّا بأن أرسم لكِ؟
- طبعًا! واختاري ما تريدين.

كان ذلك الطلب هو السبيل الوحيد لتشجيع البقية على تجربة الرسم على الوجه، فرحت الفتاة بشدّة، وأجلستني في المكان المخصّص، ثمّ قالت:

- سنبدأ الآن، إن شئتِ أغمضي عينيكِ كي لا أزعجكِ بحركة يدي.
- حسنًا، سأغمضهما.
- إن آذيتكِ فأخبريني، سأكون حذرة، بسم الله...

أغمضتُ عينيّ، وبدأت غدير بالرسم على وجهي بلطفٍ شديد، كانت متحمّسة للغاية، فقد استطعتُ أن أسمع فرحتها من أنفاسها المتلاحقة.

عمر ديسمبر 2007 – السنة الخامسة

لمحتُها وهي تتسوّق مع جُمان بين الأكشاك، لم أتوقّع أبدًا أن أراها هنا. سألتُ نفسي: من أين علمتِ بالسوق الخيريّ؟

مضى وقتٌ لا بأس به من الفعالية بينما بقيتُ أتحاشى لقائها، جهّزتُ بعض الوجبات الخفيفة للأطفال المسؤولين عن الأكشاك، وحين توجّهتُ إليهم رأيتها تقف معهم، انتظرتها قليلًا، وحين طال انتظاري أرسلتُ أحد الشبان ليعطيهم بعض الشطائر والعصائر فيستعيدوا نشاطهم، فلا بدّ أنّهم أصيبوا بالإرهاق والتعب.

كنتُ أرغب في التحدّث مع الأطفال عن كثب، وأتفقّد إن كانوا بحاجةٍ إلى مساعدةٍ ما، لكنّ جود بقيت معهم لمدّة طويلة، تساعدهم وتضحك معهم وتجلب لهم الزبائن، وحين جلست جود أمام غدير لترسم لها على وجهها، وجدتها فرصةً جيدةً لأتفقّد بقية الأطفال.

أقبلتُ نحوهم أستفسر عن أحوالهم، فراحوا يحدّثونني بحماسٍ عن تجربتهم وماذا باعوا، وما هي المواقف التي تعرّضوا لها خلال اليوم. وبينما كنتُ أتنقّل بين الأطفال، استدرتُ فجأةً لأجدها أمامي، ارتبكت

جود، فسحبت بخفّة طرف الشال الذي تضعه على رأسها كي تخفي به جزءًا من وجهها، ثمّ ألقت السلام:

- السلام عليكم عمر.
- وعليكم السلام! أهلًا بكِ جود.
- كيف حالك؟
- الحمد لله بخير، كيف وجدتِ السوق؟

أجابتني:

- جميل جدًا، لم أتوقّع أن أستمتع لهذه الدرجة.
- هل أنتِ بخير؟

سألتُها وأنا أبدي استغرابي من تغطيتها لوجهها، فأجابت وهي تضحك:

- نعم! نعم!

تظاهرتُ باستنتاجي للأمر للتو وقلتُ لها:

- آه فهمت، يبدو بأنّكِ زرتِ ركن غدير.
- هل تعرفها؟

- طبعًا، أعرف كلّ الأطفال هنا!
- لم أكن أعلم أنّك تعمل في جمعية، يبدو الأمر مذهلًا، أقف مع الأطفال منذ أكثر من ساعتين، إنّهم رائعون حقًّا.
- هل قضيتِ كلّ هذا الوقت مع الأطفال؟
- نعم، كانوا بحاجةٍ إلى بعض الدعم والتشجيع.
- شكرًا لكِ جود.

أومأت برأسها وهي تعدّل شالها يمينًا ويسارًا لتغطي الرسوم التي عليه قدر الإمكان، فسألتُها:

- هل لديكِ خبرة سابقة في التعامل مع الأطفال أو العمل الخيري؟
- لا أبدًا عمر!
- فهمت، على أي حال نحن نرحّب دومًا بالمتطوّعين.
- للأسف في الوقت الراهن لا أستطيع أن أتطوّع في شيء.
- بسبب سنة التخرج أليس كذلك؟
- ليست الدراسة هي المانع الوحيد.
- لا عليكِ! بالمناسبة، غدير حسّاسةٌ للغاية، وهي تنظر نحوكِ الآن، ستحزن إن أبقيتِ رسوماتها مخفيّة.
- آه! معك حق!

أدرتُ وجهي إلى ناحيةٍ أخرى، وتظاهرتُ بأنّي منشغلٌ مع الأطفال كي لا أحرجها، بينما أرخت جود طرف شالها. كنتُ أنوي أن أودّعها باقتضاب وأمضي، لكنّها أكملت حديثها وسألتني:

- لديّ سؤال عمر.

استدرتُ مجددًا نحوها، فوقع نظري على وجهها، فأفلتت منّي كلمة "جميلة" بصوتٍ خافت، ورغم الضجيج الذي كان حولنا إلا أنّ جود سمعتها، فاحمرّت وجنتاها، تداركتُ الأمر وأردفت:

- أقصد رسومات غدير، هذه الفتاة فنانة بالفعل.

سألتني لتخفّف من ارتباكها:

- هل غدير متطوّعة؟
- لا!
- إذن هي من الأطفال الذين تشرفون عليهم.
- نعم! هذا صحيح، الأطفال الذين يعملون اليوم في هذا القسم ليسوا متطوّعين.
- آه، فهمت.

أبدت جود وجهًا حزينًا بعض الشيء، لكنّها لم تفصح عمّا يدور في خلدها، في تلك الأثناء نادتني غدير بعدما أنهت لوحتها الفنية على وجه إحدى الفتيات، وقالت:

- عمر!

نظرتُ نحوها وأنا أعلم ماذا ستقول، وفعلًا لم تُخيب ظنّي أبدًا، فقالت:

- دعني أرسم لكَ وجه قطة!

حركتُ رأسي يمينًا ويسارًا وقلتُ لها وأنا أرفع حاجبيّ:

- مستحيل!

- أرجوك! لمرّةٍ واحدةٍ وأعدك أنّي لن أكرر الطلب ما حييت.
- لن يحدث ذلك أبدًا، هيّا اهتمّي بزبائنك ولا تضيّعي الوقت.

سألتنا جود وهي تتابع حديثي مع غدير:

- ما قصة وجه القطة؟

نظرتُ إلى جود مجددًا، لكن هذه المرّة تهتُ تمامًا، فتركتُ مهمة الإجابة لغدير، سمعتها وهي تقول لغدير:

- لا تلحّي عليه، لا يحبّ الشبان أن يضعوا مساحيق على وجوههم.

ثم وجّهت كلامها لي وسألتني:

- إذن فصورة القطة التي تضعها في المنتدى، هي لفهد!

هل حكت غدير لها عن فهد للتو؟! لم أسمع شيئًا! بقيتُ متسمّرًا في مكاني وأنا أوافقهما على ما تقولان دون أن أضيف أي كلمة. إنها المرّة الأولى التي أقابلها خارج الكلية، كانت عفويّة للغاية، وقريبة إلى قلوب الجميع.

لا يا جود، هذا كثيرٌ للغاية... كم بابًا ستطرقين في قلبي؟

الفصل الرابع

عمر يناير 2008 – السنة الخامسة

أتى شهر الامتحانات والدراسة المكثّفة، كنّا نجلس في مكتبة الكلية أنا وآدم ندرس معًا، علّنا نفلح في المكوث لمدّة أطول دون تضييع للوقت. سحب آدم دفتري وراح يقلّب بين صفحاته، وهو يبحث عن إحدى المسائل، بحث وبحث، ويبدو أنّه لم يجد ضالّته، لكنّه سألني بشكلٍ مباغت:

- هيييي! عمر، هل هذا دفتر لشخصٍ يدرس الهندسة أم ديوان شعر؟

رفعتُ رأسي ونظرتُ إليه باستهتار، وأجبته:

- ألا تعلم أنّي أتدرّب على التخطيط؟

أمسك آدم بالدفتر كما لو أنّه سيلقي خطبة، وقال بأداءٍ ساخر:

- عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السَّحَر، أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر. يا للجمال، لمن هذه القصيدة؟
- لبدر شاكر السيّاب، أيّها الجاهل!
- هل أخبرك بشيء؟

- لا!

ضحك ولم يهتمّ بإجابتي، ثمّ قال:

- هل ترى الشمس كم تبدو واضحةً في كبد السماء؟
- نعم أراها، ما بها؟
- هناك قاسمٌ مشتركٌ بينك أنتَ والشمس.

تجاهلته، فأردف كلامه:

- ألن تسألني ما هو؟
- لستُ مهتمًّا لمعرفته.

عاد آدم إلى دراسته وعلى وجهه ابتسامة خفيّة. نظرتُ نحوه وأنا أتساءل: ترى ماذا يقصد؟ هل كشفني آدم؟

على أي حال، لستُ قلقًا بهذا الشأن، فأنا لم أعد أرغب في التظاهر بعدم اهتمامي بجود، ولا أجد أنّي مضطرّ للمكابرة وتجاهل مشاعري تجاهها، فعليّ أن أكون مستعدًّا لمصارحتها بما في قلبي قريبًا، لا أعلم متى سيحين الأوان، لكنّي سأكون موجودًا كي تراني وتشعر بي، لذا يجب أن أمهّد الطريق لذلك. ورغم أنّي، وفي العادة، لا أطيل حساباتي بلا مبرّر، ولا

أخشى العواقب حين أرى الصواب، لكنّي بالمقابل لا أرغب بأن أكون أداةً فقط لتتخطّى فيها حبًّا قديمًا.

ولعلّ السؤال الأهمّ: هل تراها تخطّته بالفعل؟

عمر فبراير 2008 – السنة الخامسة

لم يسبق أن تملّكني الذعر إلى هذا الحدّ، أو أُصبتُ بهذا القدر من القلق، كنت في طريق العودة إلى المنزل حين تغيّر الطقس فجأة، وهبّت العواصف بشكلٍ مباغت، رافقها دويّ الرعد المرعب، وضوء البرق الذي أحال الليل نهارًا.

وصلت إلى المنزل بسلام، لكن ما إن دخلت حتّى تذكّرت أنّ فهد خرج منذ الصباح، سألت غالية عنه، لتجيبني أنّه ما يزال في الخارج.

كيف ينسونه؟ أعلم أنّ غالية لن تستطيع إعادته بمفردها إلى المنزل، لكن كان عليها أن تتصل بي حين بدأت العاصفة لتعلمني أنّ فهد لم يعد، فأُتولّى أنا الأمر!

لم أُضِع الوقت في الشجار أو اللوم، وخرجت أبحث عن فهد، فالمسكين يصاب بالذعر من صوت الرعد، وأخاف أن يؤذي نفسه إن اختبأ في مكانٍ غير آمن، أو أن يتصرّف بطيشٍ فتدهسه سيارةٌ وسط هذه الفوضى.

بحثت عنه في كلّ الأماكن التي يرتادها، وتحت السيارات في حارتنا والحارات المجاورة، لكنّي لم أجده!

جعلتُ أنظر في مسار السيارات بقلبٍ مرتجف، وفي كلّ مرّة ألمح فيها شيئًا أسود على الأرض ترتعد أطرافي خشية أن يكون قد أصابه مكروه.

أين أنت يا فهد؟! حاولت أن أعصر ذاكرتي، أين يمكن أن يختبئ؟

كنتُ مبلّلًا تمامًا، من رأسي إلى أخمص قدميّ، فالأمطار تهطل بشدّة وغزارة أكثر فأكثر، والرعد والبرق لا يتوقفان، شعرت فجأة أنّ قواي قد خارت بالفعل. رنّ هاتفي فإذا هي والدتي، سألتها:

- هل عاد إلى المنزل؟
- ليس بعد.
- أين يمكن أن أجده يا أمّي؟ بحثت عنه في كلّ مكان.
- اتصلتُ بجدّك كي يبحثوا عنه في حديقتهم، كما تعلم هو يحبّ اللعب حول البركة التي تتوسّط الحديقة، وقد يصل إلى هناك لسببٍ أو لآخر، لكن مع الأسف، لم يجدوا له أثرًا.
- أين هو؟!
- عد إلى المنزل الآن، ستصاب بالبرد.
- سأكمل البحث.

- كما تشاء، وإن حدث أي جديد سأتصل بك.

أنهيت المحادثة وفكّرت مجدّدًا، ما هي الأماكن التي يحبّها فهد؟!

وهنا خطر ببالي شرفة جارتنا الخالة أم توفيق، التي تسكن في الطابق الأوّل، تلك الشرفة التي يقفز إليها فهد في بعض الأحيان ليلعب على أرجوحة أحفادها، فأُوبّخه دومًا لأنّه يربك جارتنا حين تخرج إلى شرفتها وتراه أمامها.

جريتُ مسرعًا نحو المنزل، وطرقت باب الخالة أم توفيق، ومن حسن الحظ أنّها كانت في المنزل، فتحت لي الباب فأفزعها مظهري، وسألتني بلطف:

- ما بك يا بنيّ؟
- فهد! يا خالة، لم يعد إلى المنزل، أبحث عنه منذ ساعات، هل أستطيع أن أتفقّده في شرفتك، لعلّه قفز إليها؟
- بالطبع! تفضّل.

خلعتُ حذائي المُمرَّغ بالطين، وهرعت إلى الشرفة، وما إن فتحت الباب حتّى لمحتُ ذيله تحت أحد الكراسي، انفرجت أساريري بعد أن كدتُ أفقد الأمل بالعثور عليه، وشعرتُ أنّ الدنيا لن تسعني من

الفرحة، ها هو ذا بخيرٍ، اقتربتُ منه بهدوءٍ كي لا أفزعه، وناديته بصوت خافت:

- فهد! تعال، أنا هنا، تعال إليّ.

سمع فهد صوتي فنظر باتجاهي لكنّه لم يتحرّك، اقتربتُ إليه أكثر، ووعدته أنّي لن أوبّخه، ورحتُ أتحدّث إليه وأنا أحثّه على الخروج من تحت الكرسي بمفرده، لأنّي إن سحبته بالقوة قد يتمرّد وأفقد السيطرة عليه.

ابتسمتُ إليه ومسحتُ له على رأسه الذي مدّه قليلاً، فهدأ بعض الشيء، ثمّ قفز واستقرّ بين ذراعيّ بحركةٍ خاطفة، كان قلبه ينبض بسرعةٍ شديدة، وأطرافه ترتعد، ضممته إلى صدري، ومن ثمّ نهضتُ، كانت الخالة أم توفيق تراقبنا من داخل الغرفة وتبتسم بلطف، ودّعتها واعتذرت لها عن الإزعاج المتكرّر، وعدتُ إلى المنزل.

بقيتُ مع فهد بملابسي المبتلّة، فقد تشبّث بي ولم يفلتني، فوضعتُ منشفةً على رأسي وجلستُ في أرض غرفتي إلى أن هدأ ونام. حينها أسرعتُ وأخذتُ حمّامًا دافئًا، كنتُ متعبًا للغاية، حضّرت لي غالية حساءً ساخنًا، ساعدني على استعادة نشاطي، إذ لديّ مهمّات كثيرة وعليّ إنهاؤها، فقد ضاع اليوم وأنا خارج المنزل.

فتحتُ جهاز الحاسوب لأتفقّد الملفات التي من المفترض أن يرسلها كلّ شخص في مجموعة المشروع إليّ، فوجدتُ رسالةً من جود عبر الماسنجر، كانت قد أرسلتها قبل خمس ساعات، كتبت فيها:

- مرحبًا عمر، أعلم أنّي تأخّرت في إرسال الملفات، لكن الأمر خارج عن سيطرتي، هناك بعض التعديلات التي يجب أن نجريها، سأسلّمك الملفات غدًا، أيّ ساعة تفضّل أن نلتقي؟ يجب أن أشرح بعض الأجزاء التي تحتاج إلى مراجعة واستكمال.

كتبتُ لها:

- أهلًا جود، آسف على التأخير في الردّ، لقد قرأتُ رسالتك للتوّ. لا عليكِ، اختاري التوقيت الذي يناسبك.

وبعد عشر دقائق، أرسلت جود تسألني:

- هل يناسبكَ الساعة الثانية بعد الظهر؟
- نعم! هل أخبر ليلى بالموعد؟ أم أنّك ستتولّين الأمر؟
- ليلى! حتّى وإن أخبرتها لن تأتي.

سألتُها:

- هل يوجد أيّ مشكلة؟
- كما تعلم، في الفترة الماضية كان يزن يحضّر لامتحان اللغة الإنكليزية، وسافر إلى العاصمة منذ يومين، ونحن المسؤولتان عن تتمّة هذا القسم، ومع الأسف لم تجرِ الأمور بسلاسة.
- لا بأس، فالعمل الجماعي ليس بالأمر الهيّن، لكنّه تجربة جيدة ليعتاد المرء على التنسيق والتعاون. على أيّ حال، نلتقي غدًا ونُتمّ العمل، لا تقلقي.
- شكرًا عمر!
- لا شكر على واجب، هذه مهمّتي، أن أُنسّق بين المجموعات، وأتأكّد من انتهاء كلّ مرحلة بشكلٍ كامل.
- حسنًا، إلى اللقاء.

جود فبراير 2008 – السنة الخامسة

"لا يمكنني أن ألغي موعدًا معكِ!".

تسمّرتُ في مكاني حين سمعتُ هذه الجملة، واعتقدتُ أنّي لم أسمع بشكلٍ صحيح، إلا أنّ نظراته لم توحِ بذلك، فقد كان يعني ما قاله للتوّ.

بدأ يومي بشكلٍ طبيعي، وصلتُ متأخرةً، وتوجّهتُ مباشرةً إلى مكتبة الكلية، هناك حيث تواعدتُ مع عمر لتسليمه بعض الملفات وشرح الأجزاء التي تحتاج إلى تعديلٍ وإتمام. نظرتُ في الأرجاء فلم أجده، تساءلتُ: أتراه غادر بسبب تأخري؟!

كنتُ على وشك الاتصال به، إلا أنّ شابًا يجلس في زاوية المكتبة، يضع رأسه بين ذراعيه، لفت انتباهي، إذ خمّنتُ أنّه عمر، اقتربتُ نحوه، فإذا هو عمر بالفعل. جلستُ بالقرب منه، فوجدته متعبًا للغاية، ووجنتاه حمراوان، يتنفس بصعوبة، كما لو أنّ حرارته مرتفعة. أصدرتُ صوتًا خفيفًا لتنبيهه على وجودي، فرفع رأسه، ثمّ مسح وجهه وقال لي:

- أهلًا جود، أعتذر، لم أنتبه لوجودك.

أجبته باستغراب:

- على ماذا تعتذر؟ أنا من يتوجب عليها الاعتذار. آسفة عمر، تأخّرتُ على الموعد.

شرب بعض الماء من الزجاجة التي أمامه، ثمّ أجابني:

- لا عليكِ.
- هل تعتقد أنّك بخير حقًّا؟ تبدو مريضًا للغاية.
- أنا بخير، دعينا نبدأ بالعمل.

لم أقتنع بجوابه، لكن لم أشأ أن أجادله، أعطيته الملفات وبدأنا بالعمل، لم يستطع عمر التركيز جيدًا، رغم محاولاته بأن يبدو طبيعيًّا. وبعد مرور عشر دقائق أغلقتُ الملف وقلتُ له بجدية:

- دعنا نكمل العمل حين تتحسّن حالتك، لماذا تضغط على نفسك؟ لا يزال لدينا متسعٌ من الوقت.

لم يكن لديه القدرة على الإصرار، فاستسلم وقال لي:

- أعتذر...

قاطعته بانفعال:

- على ماذا تعتذر؟! لماذا لم تتصل أو ترسل لي وتعلمني أنّك مريضٌ إلى هذا الحدّ؟ كان عليك أن تلغي الموعد بالأساس!

قطّب حاجبيه وفتح عينيه بصعوبة، وقال تلك الجملة: "لا يمكنني أن ألغي موعدًا معكِ!" وصمت بعدها طويلًا وهو ينظر نحوي.

صعقني ردّه، وفاجأني، فليس من عادة عمر أن يرمي بكلماتٍ في هذا السياق، لكن كان لا بدّ أن أكسر تلك الحالة بأي طريقة، لذا تجاهلتُ ما حدث وسألته:

- هل تناولتَ أي دواء؟ تحتاج إلى خافضٍ للحرارة.

هزّ رأسه دون أن يقول شيئًا، ولم أفهم ما كان جوابه بالضبط، رسمتُ بالكاد ابتسامةً مصطنعةً على وجهي وتمنّيتُ له الشفاء العاجل ومضيتُ.

ما كان ذلك بالضبط؟!!

عمر فبراير 2008 – السنة الخامسة

أعلم أنّي سبّبتُ لها الإحراج في آخر لقاءٍ لنا، لم أكن بوعيي الكامل، خرجت الكلمات منّي دون أن أشعر، ولحسن الحظ أنّها تظاهرت بعدم سماعها أو فهمها لما قلته، ولو أنّها استفسرت أو أبدت أيّ استغراب، لربما صرّحتُ لها بتهوّرٍ أكثر، بينما أنا في تلك الحالة المزرية. حمدتُ الله أنّي استطعتُ أن أضبط كلماتي عند هذا القدر، وإلا لهربت الفتاة من أمامي على الفور، وظنّت أنّ الجنون أصابني.

من حسن الحظ أنّ جود أبقت على طريقة تعاملها معي ولم تغيّرها، ففي اليوم الذي تلا ذلك الاعتراف الخفيّ بمشاعري الخاصّة تجاهها، سألتني جود عن حالتي بلطفٍ ولم أشعر باختلافٍ في لهجتها معي، إذ خشيتُ أن تتجنّب الحديث معي، فأنا لا أعلم ما هو رأيها بما سمعته منّي!

وحين تحسّنت حالتي، أرسلتُ إليها لنحدّد موعدًا جديدًا، وبالفعل التقينا، حاولتُ أن أكون شديد الحذر في تعاملي وكلماتي معها، فانتهى موعدنا على خير، وبدت جود مرتاحة وغير ممتعضة أبدًا.

أتراها لم تُبالِ أبدًا بما سمعته؟ أم أنّها تخفي شعورها بالامتعاض ريثما تنتهي من المشروع المشترك بيننا؟ هل يوجد احتمالٌ ولو ضئيل أن تستحسن جود مشاعري تجاهها؟

أنا لا أعلم أبدًا، لا أعلم!

عمر مارس 2008 – السنة الخامسة

- غريبٌ أمره، منذ متى وهو يكتم في قلبه كلّ هذه المشاعر؟

سألتني جُمان وهي ترفع حاجبيها وتلاعب خصلات شعرها، فأجبتُها بهدوء:

- صدّقيني لا أعرف، حاولتُ أن أربط المواقف القديمة ببعضها، ومع ذلك لم أستطع أن أخمّن أيّ شيء.
- وكيف لم تشعري أبدًا؟ ألم تشكّي ولو للحظةٍ واحدة؟
- لا! فهو لطيفٌ مع الجميع، يتحدّث ويناقش ولا يتجاهل أحدًا، أعلم أنّه لا يفوّت أيّ موضوعٍ لي في المنتدى إلا ويكتب تعليقًا حوله، ولطالما شعرتُ أنّ لي معزّةً خاصّةً عنده، لكن ليس إلى هذا الحدّ صدّقيني! كان الأمر صادمًا!
- وهل رمى بكلماتٍ أخرى؟
- لا أبدًا، بدا متحفظًا جدًّا حين التقينا الأسبوع الماضي، وهذا أفضل!
- وأنتِ؟
- أنا؟!

- ماذا تنوين أن تفعلي؟
- لا شيء، سأعامله بالطريقة التي كنتُ أعامله بها قبل هذه الجملة التي أتحفني بها.
- هل أزعجك اعترافه جود؟
- لم يعترف.
- أعلم، أقصد هل أزعجك كلامه؟
- لم يزعجني، فقد كان مهذبًا، ولم يبالغ، لكنّه أربكني، لم أتوقّع أن يحمل لي هذا النوع من المشاعر!

تنهّدت جُمان وقالت:

- أتعلمين جود؟ عمر شابٌّ لطيف...

قاطعتها ولم أدع لها المجال لسرد محاسنه وسألتها:

- وما دخلي أنا بلطفه؟
- أقصد...

قاطعتها مرّة أخرى وقلت لها بحزمٍ:

- لا يا جُمان! لا أرغب بالتفكير بأيّ شخص، أحتاج إلى استراحةٍ طويلةٍ من هذه المشاعر، ولا أرغب بخوض أيّ تجربةٍ عاطفيةٍ أيًّا كان بطلها.
- أفهمك جود، معك حق، وفي كلّ الأحوال هو لم يسأل أو يطلب أو يستفسر عن شيء، لذا فالكرة ليست في ملعبك في الأساس.
- تتحدثين بلغة الملاعب! أين أنتِ يا آدم لتسمع ما أسمعه!

ضحكت جُمان ولم تعلّق، لكنّي فكّرتُ بكلامها وتساءلت:

- ماذا لو فتح الموضوع بشكلٍ صريح؟ ماذا سأقول له؟
- هل تميلين إلى فكرة رفضه مباشرةً؟
- أنا لا أعلم أبدًا، لا أعلم!

جود يونيو 2008 – السنة الخامسة

أتى شهر الامتحانات، وانتهينا من المهمّات الأساسيّة للمشروع، ولم يبقَ سوى بعض التفاصيل الصغيرة وتحضير العرض التقديميّ النهائيّ. لقد مضت سنوات الدراسة سريعًا، وها نحن الآن على مشارف التخرج.

كنتُ أجلس على أحد الكراسي التي تحيط بالكلية أنتظر جُمان، فهي لا تسلّم ورقة الإجابة إلا بعد انقضاء الوقت كاملًا. ورغم حرارة الطقس، إلا أنّني كنتُ ممتنّة وأنا أتأمّل المكان.

وبينما كنتُ أنظر حولي، لمحتُ آدم، لا بدّ أنّه ينتظر جُمان مثلي، لقد اعترف لها بمشاعره الشهر الماضي، ومنذ ذلك الوقت وهو لا يوفّر فرصة للحديث معها إلا ويغتنمها. أخبرتها منذ البداية أنّه سيقع في حبّها عاجلًا أم آجلًا، لكنّها كانت تعاند. ودون أيّ مخططاتٍ مسبقةٍ أو استدراج، انبهر آدم بجُمان كما كان متوقّعًا، وعبّر لها عن مكنوناته، بينما ظلّت جُمان صامدة، ولم تظهر له أيّ إشارة. يا لها من فتاةٍ قويّة، لا أعلم ما هي مخطّطاتها، لا بدّ أنّها تدرس جدّيته ومدى صدق مشاعره.

التفتُ إلى اليمين، فرأيتُ ليلى، التي لوّحت لي، فبادلتُها التحيّة. ليلى فتاةٌ طيّبة القلب، لكنّها مزاجيّةٌ للغاية، ورغم أنّنا لم نكن على وفاقٍ أثناء عملنا المشترك، إلا أنّنا نجحنا في إيجاد لغة مشتركةٍ فيما بيننا، فتجاوزنا العقبات، واستطعنا أن نتعاون بشكلٍ مثمرٍ في الأسابيع الأخيرة من العمل. كانت تجربةً مفيدةً لي أن أتعامل مع أشخاصٍ بطباعٍ مختلفة، وأتعلّم المرونة، وأدرك ما لي وما عليّ، في حدود الزمالة والعمل المهنيّ.

حرّكتُ نظري قليلًا، فإذا به، أُسيد...

ابتسمتُ وتمتمتُ: الحمد لله الذي أخرجه من قلبي بأقلّ الخسائر، كانت أكبر مخاوفي خلال هذه السنة أن تراودني مشاعر سيئة إن اضطررت للتعامل مع أُسيد، وبفضل الله، لم يحدث أيٌّ من ذلك، فلا أنا عملتُ معه، ولم أعد أصلًا أكترث بأمره. سبحان الله كيف تتغيّر مشاعر الإنسان! ظننتُ أنّ طيفه سيلازمني لسنواتٍ طويلة، لأكتشف أنّي أقوى وأصلب وأكثر جدّية مما كنتُ أتصوّر.

نظرتُ إلى الساعة، ووجدتُ أنّ وقت الامتحان انتهى بالفعل، سألتُ نفسي: أين جُمان؟ التفتُ حولي مجددًا لأبحث عنها، فرأيتُ عمر، وحوّلتُ نظري مباشرةً إلى الجهة الأخرى.

إلى الآن، ما أزال في حيرةٍ من أمري تجاه تغيّر عمر، لهفته أصبحت واضحة أكثر، ولم يعد يخفيها. أمّا أنا فلا أملك تجاهه أيّ شعورٍ خاصّ، ولا رغبة لي في أن أشغل تفكيري وقلبي بأيّ أمر. أحتاج إلى الهدوء بكلّ معانيه، لأفكّر ماذا أريد أن أفعل بعد التخرج، وكيف سأكمل الطريق، فأنا إلى الآن لم أُخطّط ولم أقرّر بعد، لكن ما أعلمه وما أحمد الله عليه أنّي درستُ في كليةٍ أحبّها، وحاولتُ أن أُكوّن أجمل الذكريات فيها.

مضت خمس دقائق، فرأيتها أخيرًا تقبل نحوي، بابتسامتها اللطيفة.

اضطرب قلبي، وأدمعت عينيّ... وتساءلتُ:

ترى هل سنفترق قريبًا؟

عمر يوليو 2008 – السنة الخامسة

إنّه الاجتماع الأخير قبل مناقشة مشروع التخرّج، فقد انتهينا من الامتحانات الأسبوع الماضي، ثمّ عكفنا مباشرةً على تحضير العرض التقديميّ النهائيّ لمناقشة مشروع تخرّجنا. كانت لحظاتٌ مؤثّرة حين وقف يزن، وهو صاحب الفكرة الأساسيّة في المشروع، والشخص الذي جمعنا معًا للعمل فيه، وقال بامتنانٍ:

- أشكركم يا رفاق، لقد أبلينا حسنًا في هذا المشروع، وأنا فخورٌ بما أنجزناه.

فتبادل الجميع كلمات الشكر والتقدير على العمل الجادّ والمثمر، كنتُ أُصغي إلى كلماتهم جميعًا، إلى أن وجّه أُسيد كلامه لي قائلًا:

- دعوني هنا أشكر عمر بشكلٍ خاصٍّ، فقد كان يسدّ الثغرات كلّها بتفانيه وإخلاصه، عمر، جزاك الله كلّ الخير!

فاجأني قوله، فأجبته وأنا أشعر بالإحراج لما قاله للتوّ:

- من الجميل أنّني حظيتُ بفرصة العمل معكم جميعًا، أنا ممتنٌّ للغاية، لقد كان الأمر يسعدني كثيرًا.

نظرتُ إلى الأوراق التي أمامي وأردفتُ:

- سيكون موعدنا غدًا عند الساعة الثامنة صباحًا، سنلتقي في القاعة رقم خمسة، هناك حيث سنعرض مشروع التخرّج أمام بعض الأساتذة والمهندسين، وسأكون المسؤول عن التجهيزات الأساسيّة، أمّا أُسيد فسيجلب معه التجهيزات البديلة، لتفادي حدوث أيّ خطأ تقنيٍّ أو فنّيٍّ.

أومأ أُسيد لي بالإيجاب، ثمّ أبديتُ انشغالي مجدّدًا في الأوراق، ونظرتُ إليها بطرف عيني، فرأيتها تتهامس مع جُمان بصوتٍ منخفض، وددتُ لو أنّها تشارك بالحديث، أو تقول أيّ كلمة، إلا أنّها لم تفعل، واكتفت بالابتسام فقط.

من الواضح أنّها تحاول أن تتجاهلني ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، وتتعمّد ألّا تكترث بي، كما لو أنّها وضعت على أذنيها سدّادتين كي لا تصلها كلماتي، وعلى عينيها غشاءً حتّى لا ترى نظراتي، أعلم أنّني لم أُصارحها إلى الآن، لكنّ لهفتي واضحةٌ، وواضحةٌ جدًّا عند لقائي بها وعند حديثي معها. أشعر بحيرة، ولا أعلم ما هي الخطوة التي يجب أن أُقدِم عليها.

هل أعترف بصراحة؟ لكن، ماذا لو صدّتني؟! حينها سأخسر كلّ شيء.

جود سبتمبر 2008

أنهيتُ طعامي على عجالة، وقلتُ وأنا أجمع بعض الأطباق:

- لننُنْهِ غداءنا بسرعة حتّى لا نتأخّر على الحفل.

ضحك كرم وسألني:

- كم حفل تخرّجٍ أقمتِ حتّى الآن؟

تنهدتُ وأجبت:

- ألا يحقّ لي أن أفرح؟!

تدخّلت والدتي وقالت:

- يحقّ لكِ أن تفرحي بالتأكيد، لقد أصبحتِ مهندسة، والحمد لله، وهذا فخرٌ لنا.

نظرتُ إلى ريم وأردفتُ:

- وحين تنهي ريم المادتين المتبقّيتين وتتخرّج، سنحتفل بها أيضًا.

قاطعتها قائلةً:

- وحين يتخرّج كرم، سنقيم الأفراح والليالي الملاح!

ضحكت والدتي وقالت:

- لِمَ لا؟! أسأل الله أن يديم الأفراح.

أنهينا غداءنا مبكّرًا لنستعدّ للحفل جميعًا، أمّا أنا فكنتُ قد حضّرتُ بدلةً رسميّةً خصيصًا لهذه المناسبة، خاطتها لي صديقة والدتي التي تعمل في مجال تفصيل وخياطة الملابس: بنطال واسع، وقميص أبيض وجاكيت أنيق. وضعتُ قليلًا من مستحضرات التجميل لأبدو أكثر إشراقًا في هذا اليوم المميّز، وخرجتُ من غرفتي وأخبرتهم أنّي جاهزة.

وحين رآني والدي عند الباب أنتظر، قال لي:

- هيا يا جود، ارتدي معطفك، سنتأخّر!

وقفتُ حائرة، أيّ معطف؟! هل يتوقّع أن أرتدي معطفًا فوق هذه الملابس؟! لماذا بذلتُ كلّ هذا الجهد والوقت، ورحتُ مرارًا إلى الخيّاطة، إن كنتُ سأغطّيها في نهاية المطاف؟! ثمّ إنّنا في سبتمبر، والجو حارّ! أجبته:

- أبي، لقد جلبتُ هذه البدلة خصيصًا لحفل التخرّج، ولن أُخفيها بمعطف.

قال غاضبًا:

- ماذا تقصدين؟ ألا ترين طول السترة؟!

أجبته:

- لكن البنطال رسميٌّ وواسع!

قال بصرامة:

- جود، ارتدي معطفك، وإلّا فلن نذهب!

لم تتدخّل والدتي، فقد حذّرتني مسبقًا بأنّ والدي لن يوافق على هذا اللباس، لكنّني أصررتُ عليه، ووعدتها بإقناعه. التفتَ إليها والدي غاضبًا وقال:

- حين لا أتدخّل، تسير الأمور بلا نظام! لماذا سمحتِ لها بهذا الزيّ من الأساس؟

قلتُ:

- أنا من أصررتُ عليه، أعجبني، ولا أرى فيه ما يعيب، خاصّةً أنّي سأرتدي عباءة التخرّج فوقه.

كرّر بانفعال:

- إن لم تغيّري ملابسك، فلن نحضر الحفل.

في تلك اللحظة، أيقنتُ أنّ رفضي سيفجّر أزمةً عائلية. دخلتُ إلى غرفتي ودموعي تملأ عينيّ، فلحقت بي ريم وأمّي تُحاولان تهدئتي. قالت أمّي:

- لا عليكِ يا جود.

قلتُ بحرقة:

- لكنّه حفل تخرّجي.

نصحتني ريم:

- بدّلي ملابسك، ولا تكوني عنيدة!

قلتُ:

- بماذا؟ اقترحي شيئًا، لكن لا تطلبي منّي ارتداء معطفٍ فوق البدلة!

نهضت ريم، وجعلت تبحث في خزانتها على عجالة، ثمّ أخرجت لي تنورةً سوداء رسميّة، وأعطتني إيّاها. ارتديتها، وبالفعل بدت رائعةً مع القميص الأبيض. غسلتُ وجهي، ثمّ انطلقنا إلى الحفل.

جلستُ مع عائلتي أنتظر وصول جُمان. كنتُ حذرةً في حركاتي وسكناتي، فأيّ تصرّفٍ سيكون محسوبًا عليّ من قبل والدي: لماذا سلّمتِ على فلان؟ لماذا مشيتِ وحدك بين الشباب؟ لماذا قلتِ؟ لماذا وقفتِ؟ لماذا جلستِ؟ وأسئلة كثيرة لا يمكن توقّعها!

وحين وصلت جُمان، انطلقتُ معها نحو المنصّة. فراحت تلقي السلام على من حولنا، بينما اكتفيتُ بتوزيع الابتسامات، إذ كنتُ واثقةً أنّ عيني والدي ترصدني بدقّة. لم أكن وحدي من خصّصت لهذه المناسبة ملابس رسميّة وأنيقة، فالجميع كان مهتمًّا بمظهره، ممّا أضفى فخامةً على الحفل، إلا أنّ بعض الشبّان بدوا مرتبكين بمظهرهم الأنيق ذاك، فهذا الذي يعدّل ربطة عنقه، وذاك الذي يمشي بصعوبة بحذائه الرسميّ، أمّا عمر فقد كان لافتًا للانتباه، فقد كان ينسّق وينظّم ويعمل بجدّ ويتحرّك بخفّة، وهو مرتاحٌ للغاية، كما لو أنّ الزيّ الرسميّ جزءٌ من شخصيّته.

بدأ الحفل، ووصلنا إلى فقرة تكريم الخريجين، وعندما أُذيع اسمي، استلمت شهادة التكريم، ثمّ عدتُ وجلستُ بجانب عائلتي، باركوا لي وقبضت ريم على يدي وهي تشعر بالفخر. وبعدما جلستُ بين أهلي، جعلتُ أستمتع بردود أفعال أهالي زملائي، وأراقب سعادتهم وحماستهم. كنتُ أنظر في عيون الأمهات، فأجد سعادةً لا مثيل لها، ما أجمل سعادتهنّ! أمّا الآباء، فأغلبهم متحفّظون جدًّا، لا يبدون مشاعرهم، بينما تجد في المقابل آباءً متحمّسين أكثر من أبنائهم!

قلتُ في نفسي وأنا أراقب الأجواء حولي: يبدو أنّ والدي ليس الوحيد الذي يعاملني بصرامة، لكن مع هذا وذاك، كان عليه أن يكون أكثر تفهّمًا واحتواءً! أعلم أنّه محقٌّ في بعض الأمور، وأدرك اهتمامه بتوجيهنا إلى ما هو أفضل وأصوب، لكنّني أطمح بشيءٍ من المرونة! أنا متأكّدة أنّي كنتُ سأصغي إليه دون جدال لو أنّه تحدّث معي بهدوء، لماذا يغضب بسرعة؟! ويتحدّث بقسوة وحِدّة؟!

سرحتُ في أفكاري تلك، إلى أن نادوا اسم "عمر"، تتبّعتُ صوت الهتاف له، لأجدهنّ مجموعةً صغيرةً من النساء، وحينما أراد أن يجلس بين أهله، توجّه نحو رجلٍ يجلس في جهةٍ أخرى بعيدًا عن تلك النسوة، سلّم عليه وجلس بجانبه. لا بدّ أنّه والده، سمعتُ مرّةً أنّ والديه

منفصلان. وبعد نصف ساعة، كان عمر قد غيّر مكانه، وجلس مع السيّدات.

مضت فقرات الحفل على نحوٍ جيد، وقبل الختام التقطنا صورًا تذكاريّة، تزيّنت الصورة بباقات الورد التي حصل بعض الخريجين عليها من أهلهم وأحبّائهم، حتّى إنّ عمر حصل على باقتين، واحتار أيّ منهما يحمل. وددتُ لو أنّ أحدًا من عائلتي أحضر لي وردة! كم كنتُ سأسعد وأبتهج بهذه اللفتة! لكن مع الأسف يعتبرونها كماليّات غير مهمّة!

انتهى الحفل وعدنا إلى المنزل. كنّا جياعًا، ولا طاقة لنا بإعداد الطعام. ولحسن الحظّ اقترحت ريم أن نطلب بيتزا، وأصرّ كرم أن نشتري كعكةً لنحتفل بي. أمضينا سهرةً لا بأس بها، وحاولتُ أن أبتهج كرمى لجهود ريم وكرم. ومع ذلك، لم يكن هذا اليوم من أجمل أيّام العمر كما كنتُ آمل.

عمر سبتمبر 2008

استيقظتُ مبكّرًا، وتوجّهتُ إلى مكان الحفل برفقة المنسّقين المسؤولين عن ترتيب وتحضير القاعة. بدأنا بتجهيز المكان وتزيينه، حيث نُصبت أجهزة الصوت ووُضعت أجهزة العرض. تأكّدتُ من أنّ كلّ شيءٍ يعمل على أكمل وجه، ثمّ عدتُ إلى المنزل لتبديل ملابسي، وارتديتُ الزيّ الرسميّ الخاصّ بالمناسبة. انطلقتُ مجدّدًا إلى قاعة الحفل دون مرافقة والدتي، إذ لم تكن هناك ضرورة لحضورها باكرًا قبل بدء الحفل. وقبل مغادرتي المنزل، تأكّدتُ من حضور غالية، التي وعدتني بأن تأتي برفقة والدتي.

وصل معظم الطلاب قبل عائلاتهم، فاغتنمنا الفرصة لالتقاط بعض الصور التذكاريّة، ثمّ عدتُ لمساعدة فريق التنظيم. وفي خضمّ انشغالي، رأيتُ جُمان تتقدّم نحوي، ترافقها جود. ألقت جُمان السلام وسألتني:

- عمر، أين يجب أن نقف؟ وهل هناك ترتيب معيّن؟ ومن أين أحصل على عباءة التخرّج؟

أجبتُها عن أسئلتها، ثمّ ألقيتُ نظرةً سريعةً على جود، التي كانت ترتدي تنّورة سوداء وقميصًا أبيض مع حجابٍ باللون ذاته. كانت هذه المرّة

الأولى التي أراها بزيٍّ رسميٍّ وكلاسيكيٍّ، عكس أنوثتها بهدوءٍ واتزان، بدت أنيقةً ومرهفةً ولطيفةً للغاية، إلا أنّها تجنّبت الحديث معي، وألقت السلام عليّ بإيماءةٍ صغيرة فقط.

لم أستطع أن أفكّر بالأمر كثيرًا، بسبب انشغالي بالتنظيم، وحين اجتمع كلّ المدعوّين من الطلاب والأهالي والأساتذة والطاقم التدريسيّ والإداريّ، افتُتح الحفل. كان أبي قد وصل بالفعل، لكن للأسف لم أتمكّن من إلقاء التحية عليه، بسبب انشغالي مع الطلاب وتنسيق حركتهم وأماكن وقوفهم وراء الكواليس. كنتُ مجنّدًا أقف مع المنسّقين، إلى أن وصلنا بفقرات الحفل إلى تكريمنا نحن الخريجين من كلّ الدفعات، عبر إذاعة أسمائنا واحدًا تلو الآخر. وعندما نادوا على اسمي، سمعتُ صوت سلام وهي تهتف بحماسٍ شديد، فقد أتت بزيارةٍ إلى الوطن منذ يومين، ولحسن الحظّ أنّها حظيت بفرصة حضور حفل التخرّج، فهي تعشق هذه الأجواء. هتفت معها غالية وصفّقتا بحرارة حتّى شعرتُ بشيءٍ من الحرج.

وحين تسلّمتُ شهادتي، توجّهتُ نحو أهلي كما هو مخطّط لكلّ الطلاب، وبينما كنتُ أمشي باتجاههم، احتَرْتُ في أمري: فقد كان والدي يجلس في المدرّج اليساريّ للقاعة، وقد جهّز لي مقعدًا بجانبه، وكذلك والدتي التي تجلس في الطرف المقابل.

لوّح لي والدي، وكذلك فعلت سلام وغالية بجانب والدتي. في النهاية، قرّرتُ التوجّه نحو والدي، إذ كان جالسًا بمفرده. ألقيتُ السلام عليه، فرأيتُ فرحةً تملأ كيانه، قدّم لي هديتي: مفتاح سيارةٍ جديدة اشتراها لي خصيصًا بمناسبة التخرّج.

تلتزم عائلتي بدقّة المواعيد، حتّى في تقديم الهدايا. فهدية التخرّج، بحسب تقاليدنا، تُقدَّم في يوم حفل التخرّج الرسميّ، لا قبله ولا بعده. إلى جانب مفتاح السيارة، سلّمني والدي باقة وردٍ جميلة، وقال لي إنّها من فريال وأختي ماسة. شعرتُ بالحماس لرؤية السيارة، ومعرفة مواصفاتها، وحين رأى والدي حماسي وفضولي حول السيارة، حدّثني عنها قليلًا وأراني بعض الصور لها، ثمّ غيّر الموضوع وقال لي:

- رأيتُ صديقك الذي حضر زفافي.

سألته:

- هل تقصد آدم؟
- نعم.

تابع وهو يضحك:

- كلّ القاعة تعرّفت عليه، لقد هتف أهله باسمه بانفعالٍ وحماسٍ يشابه انفعال سلام وغالية.

ضحكتُ وقلتُ له:

- آه، سلام تلك المشاغبة!
- استدعِها، أرغب بالسلام عليها، لمحتُها من بعيد، لقد كبرت وأصبحت صبيّةً، ما شاء الله. بالمناسبة، لم أرَ جدّك اليوم، لم يعتد التغيّب عن مثل هذه المناسبات!

أجبته:

- معك حق، هو على سفرٍ مع جدّتي، كما تعلم، غدًا تحلّ الذكرى السنوية الخمسون لزواجهما، وقد قرّر جدّي الاحتفال بهذه المناسبة. وعد جدّتي مرارًا بأن يصطحبها إلى إسبانيا، وتحديدًا إلى الأندلس، فهي تعشق حضارة تلك البلاد، وقد حانت الفرصة أخيرًا. رافقهما خالي وعائلته، أمّا والدتي فلم تتمكّن من الذهاب بسبب حفل تخرّجي.

ابتسم والدي وقال:

- أراهن أنّ والدتك قالت إنّها لم تذهب بسبب الجمعية، وليس حفل التخرّج!
- نعم، كما تعلم، لا تريدني أن أشعر بأيّ ثقل أو امتنان. لديها هذا الطبع.

قلتُ في نفسي: إن كنتَ تعلم كم هي جميلة من الداخل، فلماذا لم تحتويها وتحتويني؟ وكالعادة آثرتُ الصمت، لكنّي لم أستطع منع نفسي من أن أسأله:

- أبي! ألا يوجد أيّ مجال لإلقاء السلام فقط؟

نظر والدي نحوي وقال باقتضابٍ:

- ليس بعد، عمر، ليس بعد.

لم أُجبه أو أردّ بشيء، فكسر والدي حالة الصمت تلك بلطفٍ وقال:

- هيا، اذهب ونادِ سلام.

فهمتُ مقصده، كان يريدني أن أذهب وأجلس بجوار والدتي التي تنتظرني. أمسكتُ بيده وقبّلتُها، وقلتُ:

- أبي، لقد غمرتني بهذه الهدية الرائعة، وبمساعدتك في تنظيم الحفل. لولا الشركة الراعية التي عرّفتني بها، لما أنجزنا شيئًا.

ربّت على رأسي، قبّلني، ثمّ قال:

- بالنسبة للهدية، فهي أقلّ ما يمكن أن أقدّمه لك. أمّا الشركة، فلم أكن سوى الوسيط، وأنت من أقنعت الإدارة برعاية الحفل، وهذا يعود لموهبتك في الإقناع.

تابع مبتسمًا:

- والآن، لا تُطِل، اذهب ونادِ سلام.

أومأتُ إليه، ونهضتُ متوجّهًا نحو والدتي. وما إن وصلتُ، حتّى قدّمت لي سلام باقة ورد، ومن ثمّ أصرّت أن تلتقط لي صورًا عديدة، اقتربتُ منها وهمستُ في أذنها:

- سلومة، يريد والدي أن يلقي السلام عليك، اذهبي إليه.
- هل عمو فتحي هنا؟
- طبعًا! من الطبيعي أن يحضر الأب حفل تخرّج ابنه، أليس كذلك؟!
- أين هو؟ آه، لقد رأيته...

وقفزتْ من مكانها متوجّهةً إليه، وضعتُ باقة الورد على الكرسي وجلستُ إلى جوار والدتي، فابتسمتْ، وقدّمت لي هديتها: ساعة أصلية من ماركة (روليكس)، بدا واضحًا أنّ والديّ يتنافسان حتّى في الهدايا! قبّلتُ يدها وشكرتها من قلبي، ثمّ جلستُ أراقب سلام ووالدي وهما يتحادثان بودّ، فسلام تحبّه كثيرًا وتكنّ له كلّ الاحترام.

وما إن انتهى الحفل، حتّى ذهبتُ لوداع والدي، الذي دعاني إلى تناول طعام العشاء معه بهذه المناسبة، لكنّني اعتذرتُ وطلبتُ تأجيل الموعد إلى الغد حتّى تنضمّ إلينا فريال وأختي الصغيرة. وحين عدتُ إلى حيث تجلس والدتي، قالت لي:

- هل ستبقى مع المنظّمين؟ أم ستغادر مع المدعوّين؟
- سأغادر معكِ.

أجبتُها وأنا أنظر في عينيها بعمق، ثمّ قلتُ لهنّ:

- سأدعوكنّ إلى العشاء.

نظرت سلام إلى ساعتها وقالت:

- لا أستطيع الانضمام، فبابا ينتظرني ووعدته أنّي لن أتأخّر.

فأردفت غالية وهي تسحب سلام معها:

- سأوصل هذه الأمانة إلى أهلها، وأعود إلى المنزل.

تذمّرت سلام وهي تقول:

- اسمي سلام وليس أمانة.
- أعلم أعلم، هيّا بنا يا صغيرتي.
- لستُ صغيرة.

مضت الاثنتان وهما تتراشقان الكلمات، تلك تشرح، والأخرى بالكاد تستوعب التراكيب العربية. نظرتُ مجدّدًا إلى والدتي، وقلتُ لها:

- هيّا بنا.

سحبتُ يدها وأسندتُها على ذراعي، ومشينا معًا إلى السيارة، هناك حيث طلبتُ منها أن تنتظرني إلى أن أقيم صلاة العشاء مع آدم والبقيّة في المسجد المجاور لقاعة الحفل، وحين فرغنا من الصلاة ودّعتُ آدم، فسألني:

- لماذا أنتَ مستعجل؟ دعنا نتسكّع قليلاً.
- لديّ موعدٌ مهمٌّ وخاصٌّ جدًّا، ولستُ متفرّغًا لأمثالك.

وقع آدم في فخّي، ونظر إليّ بخبثٍ، وهو يقول:

- موعدٌ مهمٌّ، وخاصٌّ؟

قلتُ بفخر:

- وهل تظنّ أنّكَ الوحيد الذي يخصّ والدته بالمواعيد والدعوات؟

ردّ آدم ضاحكًا:

- أفحمتني يا عمر باشا، سلامي للوالدة، وأتمنّى لكما وقتًا ممتعًا.

ضربته على كتفه، ثمّ ابتسمتُ له بامتنانٍ وقلتُ:

- لك بعض الفضل في ذلك أيّها المعتوه.
- إذًا فأنتَ محظوظٌ بوجود صديقٍ رائع مثلي، تقتدي به.

ضحكتُ وودّعته، ثمّ أسرعتُ إلى السيارة، اخترتُ مطعمًا فاخرًا في مكانٍ أثريٍّ تحبّه والدتي كثيرًا، وحظينا بعشاءٍ رائع، وسهرةٍ جميلة تختم هذا اليوم الذي سيبقى محفورًا في ذاكرتي إلى الأبد.

الفصل الخامس

عمر فبراير 2009

ناولني آدم بطاقة الدعوة، ومن ثمّ أكمل حديثه:

- سيقام حفل الخطبة في منزل جُمان، تجد العنوان مدوّنًا بالتفصيل، وسنتشرّف بحضور والدتك.
- شكرًا لك على الدعوة آدم، وأتمنّى لكما كلّ السعادة والتوفيق، على ما أذكر أنّ والدتي ستسافر إلى العاصمة في هذا التوقيت، لحضور اجتماعاتٍ هامّة، سأتأكّد من مواعيدها وأخبرك بالأمر.
- بالمناسبة، لديك بطاقة مفتوحة، ادعُ من شئت من قريباتك، أهلًا وسهلًا.

قلتُ في نفسي: سبحان الله، لو أنّ سلام في البلد لسعدتُ جدًّا بهذه الفرصة، ولتحمّستُ لمرافقة والدتي لحضور حفل الخطبة، فهي تعشق الاحتفالات والمناسبات، وتكرّر دومًا أنّها محرومةٌ من هذه الأجواء في كندا. شكرتُ آدم مجدّدًا، ومن ثمّ سألته:

- كيف حال الوظيفة الجديدة؟
- تجري الأمور على أفضل حال، الحمد لله. ما يهمّ في هذه المرحلة أنّي أعمل.

- إن احتجتَ لشيءٍ، فلا تتردّد.

نظر إليّ آدم وقال بامتنان:

- شكرًا لك يا صديقي.
- بالمناسبة، كيف تسير دورة الإدارة معك؟
- الدورة ممتازة، ولكنّها غير كافية لأتعمّق في الإدارة، فأغلب موضوعاتها مارستُها عمليًّا في الجمعيّة.
- لماذا لا تسجّل في برنامج ماجستير إدارةٍ متكامل؟
- لم تعجبني البرامج المتاحة في جامعتنا، وكما تعلم، لا رغبة لي في السفر حاليًّا، لديّ مستقبل واضحٌ هنا، وأرغب ببنائه لبنةً لبنة.
- هل تقصد في الجمعيّة؟
- هذا صحيح.
- ولكن ماذا عن مستقبلك المهنيّ؟ ألن تعمل في مجال الهندسة؟ لماذا لا تقبل بعرض الشركة الطبيّة الذي أخبرتني عنه أواخر العام الماضي؟
- أشعر أنّي أستغلّ وضع والدي فيها، فهو يمتلك بعض الأسهم في تلك الشركة.
- لكنّ والدك اشترى الأسهم بعد أن عرضوا العمل عليك، أليس كذلك؟

- نعم!
- عمر، لا تخلط الأمور ببعضها، توافر الحظّ من العلاقات العامّة الكثيرة لا يعني أنّك غير كفء. أنتَ كفء، وتملك الشهادات والمؤهّلات، وقد جاء توفيق الله لك بامتلاكك تلك العلاقات عبر والدك وجدّك.
- سأُعيد النظر في الأمر، لكنّي سأركّز الآن على دورات الإدارة، فهناك شهادات معتمدة الآن من عدّة جامعات وتُقدَّم أونلاين، أعتقد أنّي سأسجّل في إحداها.
- ممتاز! مجتهدٌ ومطّلعٌ وطموح، ولا تزال تشكّك في قدراتك إلى الآن!
- أتعلم آدم؟ ينقصني الكثير من الثقة.
- بالفعل! فعلى كفاءتك، ألف شركةٍ تتمنّاك، ليس هذا فقط، بل وألف فتاة أيضًا.

رمى تلك الكلمة ونظر إليّ بمكرٍ، فتجاهلته تمامًا، لا! أنا لستُ بجرأته وإقدامه. ليتني أعلم كيف استطاع أن يعترف لجُمان بمشاعره، ويتقدّم لخطبتها بهذه السرعة؟!

لقد مضى أكثر من شهرين لم ألمح فيهما وجهكِ يا جود! يا تُرى متى سأجد الشجاعة الكافية لأُخبركِ أنّ قلبي ينتمي إليكِ؟!

جود فبراير 2009

لم أكن أُقدّر قيمة الفراغ، حين كنتُ غارقةً في انشغالات الدراسة وضغوطها اليومية. لم يخطر ببالي يومًا أن أتساءل: كيف يمكنني استثمار أوقاتي؟ لكن الآن، بعد التخرّج، تغيّر كلّ شيء. بات لديّ متّسعٌ من الوقت لأفعل ما أريد. في البداية، امتلأ رأسي بالأفكار: سأتعلّم لغةً جديدة، سأمارس الرياضة بانتظام، سأبدأ بحفظ القرآن الكريم... والكثير من الخطط التي راودتني بحماس، وسرعان ما أدركتُ أنّ العمل لم يكن ضمنها!

أيقنتُ أيضًا أنّني لا أستطيع إنجاز كلّ شيء دفعةً واحدة، وأنّ القليل الدائم خيرٌ من الكثير المنقطع. والأهمّ من ذلك كلّه، أدركتُ أنّني لن أستطيع الاستمرار وحدي دون دعم: سواء عبر الالتحاق بدورة تدريبيّة، أو المتابعة مع مختصّ، أو حتّى وجود تشجيعٍ من صديقةٍ قريبة.

نجحتُ في إقناع والدي بالتسجيل في دورةٍ للكتابة الإبداعية، بعدما أطلعته على بعضٍ من كتاباتي. والعجيب أنّ إقناع والدي لم يكن هو التحدّي الأكبر، بل والدتي! فقد كانت تصرّ على أنّ الوقت قد حان للبحث عن عمل، وترك هذه الهوايات، والتركيز بدلًا من ذلك على

تقوية نفسي في مجالاتٍ أخرى مثل اللغة والبرمجة، لتعزيز سيرتي الذاتية وزيادة فرصي في إيجاد وظيفة بسرعة. تقريبًا، كان هذا موضوعها اليومي منذ أوّل أسبوعٍ بعد تخرّجي، وما زال مستمرًا حتّى الآن. لذلك، رضختُ أخيرًا وسجّلتُ في معهدٍ لتعلّم اللغة الإنجليزية، فقط لإرضائها.

في المقابل، التزمتُ مع جُمان بالمشي ثلاثة أيام في الأسبوع، لا نتخلّى عن موعدنا مهما كانت الظروف، رغم انشغالها مع آدم وخطبتها التي كانت أيسر ممّا كانت تتخيّل، فقد كان آدم جادًّا للغاية في تسريع ارتباطهما، ولم يكن إقناع والديها أمرًا مستحيلًا كما اعتقدت جُمان.

كانت ساعة المشي مع جُمان النبض الأجمل في يومي، كنتُ أظنّ أنّنا بعد التخرّج لن نجد ما نتحدّث عنه، لكنّ الأحاديث كانت لا تنتهي!

ومن جملة الكلام، كانت جُمان تكرر مرارًا الحديث عن "الفيسبوك"، وهو موقعٌ أُنشئ مؤخرًا، يستخدمه عددٌ كبيرٌ جدًّا من شباب جيلنا حول العالم! شيءٌ شبيهٌ بالمنتدى، من حيث وجود حساباتٍ شخصيّة، إلا إنّه ليس محصورًا بقالب المواضيع، والميزة الأهمّ أنّه يعتمد على مبدأ إنشاء صداقات وربط الحسابات ببعضها، أنا أعرف هذا الشخص، وذاك يعرف تلك، وهكذا دواليك...

أخبرتني جُمان أنّ معظم صور حفل التخرّج نُشرت على ذلك الموقع، والطلاب يكتبون التعليقات حولها، ويضعون الإعجابات! ممّا أثار فضولي لإلقاء نظرةٍ عن كثب، فقرّرتُ أخيرًا أن أدخل عالم الفيسبوك، سيما أنّني بدأتُ أشعر بالغربة في المنتدى بعد التخرّج، وبالفعل أنشأتُ حسابًا لي، واستطعتُ الوصول إلى حساب جُمان وإضافتها. لم أعتد عليه بسرعة، وكنتُ أستعرضه مرّةً في الأسبوع في بداية الأمر، لذا كنتُ حين ألقي نظرة، أتفاجأ دومًا بكثيرٍ من الإشعارات: رسائل ترحيبية، طلبات صداقة، ومواضيع أو منشورات أشارت جُمان إليّ بها. ومع الوقت، اكتشفتُ أنّ هذا الموقع يختلف كثيرًا عن المنتدى، فأغلب الأشخاص على الفيسبوك يستخدمون أسماءهم الحقيقية، ويعبّرون عن أنفسهم بشكلٍ حقيقيّ وواقعيّ، أو بالأحرى يروّجون الصورة التي يرغبون في تقديمها عن أنفسهم بعفويّة.

عمر مارس 2009

كنتُ على درايةٍ بأنّ أُسيد يتحضّر للسفر إلى إنجلترا، فقد قرّر هو ويزن أن يلتحقا بالجامعة في لندن، ويستكملا طريقهما في الدراسات العليا. وحين سافر يزن، لم يتسنَّ لنا حتّى وداعه. أمّا أُسيد، فقد أجّل التحاقه بالجامعة كي ينهي التزاماته برويّة، وعندما اقترب موعد سفره، اتّصل بنا واجتمعنا لوداعه. كنّا اثني عشر شابًّا، قضينا معًا أجمل أيّام العمر، لا أظنّ أنّ هناك أيّامًا تعادل أيّامنا في الجامعة، ولا أظنّ أنّنا سنُكوّن صداقاتٍ تُشبه صداقات تلك المرحلة.

تبادلنا الأخبار والمستجدّات، وكأنّ الحياة قد فتحت لنا أبوابها، فهذا من توظّف في القطاع الحكومي، وذاك من قرّر استكمال دراسته في البلد، والكثير ممّن اختاروا الغربة، للعمل أو الدراسة.

وخلال حديثنا، كان لا بدّ أن نتطرّق لتطوّرات آدم المفاجئة، الذي برز كنجمٍ لامع، وراح يلقي علينا نصائحه، بينما أمطرناه بوابلٍ من التعليقات الساخرة حول استعجاله بالارتباط، وحين علّق أُسيد على الأمر، تحدّث بجدّيةٍ وأثنى على إقدام آدم، وفي الوقت نفسه عبّر عن استغرابه قائلًا إنّه لا يتخيّل أن يرتبط بهذه السرعة، ثمّ أكمل حديثه

مؤكّدًا أنّ تركيزه منصبٌّ على تحصيله العلميّ فقط، وعندما يتخرّج وينتهي من كلّ مراحل دراسته، حينئذٍ لكلّ حادثٍ حديث. شعرتُ من نبرة كلامه أنّه لا نيّة لديه في الارتباط، وتيقّنتُ أنّ صفحة أُسيد قد طُويت تمامًا في حياة جود، فمن الواضح ألّا شيء يجمعهما معًا، فلو كان هناك أيّ احتمال لارتباطهما، لرأينا خطوةً واضحةً قبل سفره.

انتهى لقاؤنا مع أُسيد، لكن لم نودّعه إلا بعد ما ذهبنا للصلاة جماعةً معه، فطيلة السنوات السابقة، لم نكن نُصلّي جماعةً إلا حين وجوده، سواءً في المسجد أو في الكلية. وفي الحقيقة، فقد اضطربت مشاعري حين وداعه، وشعرتُ أنّي سأفتقده، فهو نِعم الشابّ الوقور والمتّزن. كنتُ فخورًا بأنّي أبقيتُ على مكانته في قلبي ولم أخلط الأمور ببعضها، واستطعتُ أن ألتزم موقفًا نبيلًا ورجوليًّا في تعاملي معه، رغم ما أصابني من خيبة أملٍ بسببه.

جود مايو 2009

كنتُ أتصفّح مواقع عديدة على شبكة الإنترنت، أبحث عن بعض الكتب الأدبيّة، وأقرأ عن دور النشر والمجلّات وكيفية الوصول إليهم، فلديّ رغبةٌ لمعرفة الخطوات اللازمة للتعاقد مع جهةٍ تُعنى بالنشر والإعلام، فأكتب في زاويةٍ ما، مهما كانت متواضعة. لم أصل إلى معلوماتٍ مفيدة، وقبل أن أغلق جهاز الحاسوب، عرّجتُ على الفيسبوك، لأتفقّد الموضوع الأخير الذي نشرته قبل سويعات، وكالعادة، كان عمر أوّل من قرأه وعلّق عليه، بل وأعاد نشره!

يقلقني وجود عمر حولي، فأنا لا أعلم متى يرمي كلمة تودّدٍ مفاجئة، ولا أعلم كم ستكون شدّتها، فهو يرمي جملةً عفويةً وبسيطةً ومهذّبة، فأجد نفسي غير قادرةٍ على صدّه. يربكني حين يرسل رسالةً ويسأل عنّي، وبات هذا الأمر يتكرّر كثيرًا في الآونة الأخيرة، فمنذ عدّة أسابيع وهو يحاول أن يتحدّث إليّ بسببٍ وبغير سبب، ثمّ يستفسر عن احتمال وجودي في الكلية، وحين أجيبه أنّي لا أتردّد على الكلية إلا نادرًا وبالصدفة، يصمت ولا يخبرني عن سبب سؤاله واستفساره!

إن كانت ظنوني في محلّها، فما الذي يمنعه من أن يتحدّث عن مشاعره بوضوح؟! لو كنتُ شابًّا لما أضعتُ دقيقةً واحدة، ولما تردّدتُ، ولأخبرتُ من اختارها قلبي بالأمر عند أوّل فرصة! ليتني أعلم لماذا لا يستغلّ الشبّان هذا الامتياز الذي يتمتّعون به: "القدرة على الاعتراف"؟!

ليته يعترف، وننتهي من هذه الحالة الهلاميّة، وحينها سأفكّر ماذا عليّ أن أردّ عليه، فهو شخصٌ محترمٌ ونبيل، ويجب أن أكون مستعدّةً للردّ عليه بشكلٍ لائقٍ ومهذّب، يتناسب مع أدبه ورُقيّه.

عمر

مايو 2009

على الرغم من أنّي عزمتُ أمري، وقرّرتُ مصارحتها، إلا أنّ العوائق عادت تتجمّع في طريقي، فلم نعد في الجامعة كما كنّا من قبل، هناك حيث كان بإمكاني رؤيتها كلّ يوم. الآن، لا أعرف كيف سألتقيها، والأهمّ من ذلك، أين سيكون اللقاء؟

جود فتاةٌ ملتزمة، ولا أظنّ أنّ لقاءً في مقهًى عام سيكون مناسبًا لها. فكّرتُ في دعوتها إلى كافيتريا الجامعة أو ساحتها، لكنّ مجتمعنا لا يرحم، وسنصبح حديث الطلاب الجدد حتّى لو كنّا قد تخرّجنا. لذلك، قرّرتُ دعوتها إلى مكتبي في الجمعية لأتحدّث معها، لكنّني كنتُ أتساءل: هل ستوافق؟ وبماذا سأتذرّع؟! ظلّ هذا السؤال يشغلني إلى أن أتت الفرصة الملائمة، كانت الساعة الرابعة عصرًا، حين أرسلتُ لجود رسالةً عبر الماسنجر، وسألتها:

- هل بإمكاني الاتصال بكِ؟ هناك أمرٌ مهمّ أودّ الحديث معك حوله.

أجابت على رسالتي بعد بضع دقائق:

- أهلًا عمر! نعم، تفضّل.

ألقيتُ السلام، ثمّ سألتها:

- جود، هل لديكِ أيّ ارتباط ظهر الخميس المقبل؟

فكّرت قليلًا ثمّ أجابتني:

- ليس لديّ مواعيد، ما الأمر عمر؟
- هل تذكرين غدير؟ الفتاة التي قابلتِها العام الماضي في السوق الخيريّ.
- نعم أذكرها، هل هي بخير؟ شغلت بالي!
- هي بخير الحمد لله، ستنتقل مع والدتها إلى العاصمة، هناك حيث سيعتني بهما خالها، وسيتكفّل بمصاريف دراستها. نخطّط أن نقيم لها حفلًا لوداعها، وبما أنّ غدير تكنّ لكِ مشاعر ودٍّ وامتنانٍ منذ ذلك اليوم الذي التقيتما به، لذا أعتقد بأنّ حضورك سيسعدها جدًّا.

سألتني باستغرابٍ:

- حقًّا؟

- نعم، فهي تسألني عنك دومًا، متى ستأتين لزيارة الجمعية، وفيما إن كنتِ ستشاركين في الفعاليات مجدّدًا أم لا...
- فاجأتني عمر، لماذا لم تخبرني بالأمر؟
- لم أشأ أن أضغط عليكِ، لكن مع هذا وذاك، ها أنا ذا أخبرك اليوم، لعلّك تستطيعين القدوم للحفل؟
- سأحاول، هلّا أرسلتَ لي العنوان؟
- سأرسله حالًا، سنقيم الحفل في فناء الجمعية.

صمتُّ قليلًا ثمّ قلتُ لها:

- جود، عديني أنّك ستأتين!
- سأحاول إن شاء الله.

اتّصلتُ بفاضل وأخبرته ألّا يرفع أيّ فاتورةٍ من حفل وداع غدير إلى مالية الجمعية، وأنّ هناك متبرّعًا سيسدّد التكاليف كلّها. كان لا بدّ من أن أتحمّل كلّ تكاليف حفل وداع غدير، كي أجنّب نفسي شبهة استغلال موارد الجمعية لمصالح شخصيّة.

عمر
مايو 2009

أتى يوم الخميس، واجتمع الأطفال، وبعضٌ من الأعضاء والمتطوّعين في فِناء الجمعية، الذي زُيّن بحبٍّ من قبل صديقات غدير. كنتُ أراقب الباب، أنتظر قدومها، إلى أن أتت بالفعل!

مرّت أسابيع طويلة لم أرها فيها، ورغم كلّ الضجيج حولي، إلا أنّ العالم بدا وكأنّه توقّف للحظة، لا حركة، لا صوت، ولا أحد، هي فقط! أقبلت جود نحوي تمشي بثباتٍ، وهي ترسم ابتسامةً لطيفةً على وجهها، هي تعرف بأنّ حضورها وحده يكفي ليبعثر قلبي، نظرتْ إليّ نظرةً عابرة، ومن ثمّ تظاهرت أنّها تبحث عن غدير، وحين لم تجدها أكملت خطواتها نحوي وألقت السلام، وبعدها تعمّدت أن تتجنّبني طيلة الحفل ووقفت بعيدًا مع الأطفال.

مضت الأمور على أكمل وجه، وسعدت غدير بالمفاجآت والأنشطة والهدايا التي جهّزناها لها، وحين شارف الحفل على الانتهاء، توجّهتُ نحو جود التي كانت تقف بين الأطفال وتلتقط صورةً تذكاريةً مع غدير، وقبل أن أناديها، وجدتها تهمّ بالمغادرة، لوّحت لي، لم تودّعني حتّى!

جود مايو 2009

ودّعتُ الأطفال، ومشيتُ بخطواتٍ سريعةٍ نحو موقف الحافلة الذي كان يبعد مسافةً لا بأس بها عن مقرّ الجمعية، وحين وصلتُ، حمدتُ الله أنّ الحافلة لم تصل بعد، فالموقف كان مزدحمًا.

لم تمضِ بعدها دقيقتان، حتّى سمعتُ أحدهم ينادي باسمي: "جود! انتظري". استدرتُ فإذا به عمر! سألتُ نفسي: يا ترى هل نسيتُ شيئًا في الجمعية؟

وقف أمامي، محاولًا أن يلتقط أنفاسه، ثمّ قال:

- أعتذر جود، لكن هناك شيءٌ مهمّ للغاية، يجب أن أخبركِ به.
- تفضّل عمر!

وفي تلك اللحظة وصلت الحافلة، وبدأ الناس بالصعود، نظر عمر نحوي وسألني بقلقٍ:

- هل ستغادرين الآن؟

نظرتُ إلى الحافلة، ثمّ حاولتُ أن أستقرئ ملامحه، فوجدته مرتبكًا، كما لو أنّه بحاجةٍ إلى مساعدةٍ ما. أجبته:

- لا بأس عمر، سأستقلّ الحافلة التالية، لكن أخبرني ما الأمر؟

تسمّر أمامي ولم يتحدّث، كما لو أنّه ينتظر أن يخفّ الزحام، وتهدأ الفوضى التي تحيط بالمكان، أربكتني نظراته الحازمة نحوي، سألتُ نفسي: يا تُرى هل الأمر متعلّقٌ بغدير؟ أم بالجمعية؟ بالدراسة؟ بالعمل؟ أم به هو شخصيًّا؟

قطع عمر أفكاري وشرع في الكلام قائلًا:

- جود! لستُ جيّدًا في انتقاء الكلمات، ولا أعتقد أنّ أسلوبي، أيًّا كان، سيُبهر كاتبةً حسّاسة ومرهفة مثلك، لذا سأتحدّث بعفويّة.

شعرتُ بالقلق إزاء هذه المقدّمة، وقلتُ له وأنا أتظاهر بالهدوء:

- تفضّل عمر!
- جود! طوال السنوات الماضية وأنا أحاول أن أحتفظ بمشاعري الحقيقية تجاهك. تظاهرتُ بأنّي مجرّد زميل، أُبقي أحاديثي معك عند حدود الضرورة، وأضبط ردود أفعالي، وأخفي إعجابي

بك. كنتُ أكبت رغبتي في رؤيتك، وأمنع نفسي من اختلاق الصدف فقط لأحادثك، أو حتّى لأراكِ من بعيد.

توقّف عمر قليلًا عن الكلام ونظر نحوي منتظرًا أيّ ردّ، وحين وجدني أصغي إليه، أردف كلامه:

- اليوم فقط، قرّرتُ أن أكسر هذا الجدار الذي خبّأتُ خلفه مشاعري طويلًا... جود! أنا أحبّك.

أصابني دوارٌ بسيط حين تلفّظ بتلك الكلمة، هذا ما كنتُ أخشاه طيلة الفترة الماضية، أن يباغتني باعترافٍ واضحٍ وصريح كهذا!

شعرتُ بأنّ شيئًا اهتزّ في داخلي، وأنّ مزيجًا من المشاعر المختلطة بدأ يتصادم في صدري: دهشة، ارتباك، وربما... شيئًا يشبه الفرح! أنا لا أعلم حقًّا. أمّا هو فلم يكتفِ بما قال، بل أكمل بصوتٍ هادئ:

- أتعبتِني يا جود!

نظرتُ إليه باستغرابٍ، فابتسم وقال:

- بل ربما عليّ أن أقول: يا وردة الربيع، الفتاة التي أحببتُها قبل أن أعرف من هي، والتي أصبحت كلماتها بلسمًا لقلبي، تُضفي على

أيّامي دفئًا وطمأنينةً وسكينةً، وأثرًا لا يمكن نسيانه، لأكتشف فيها بعد أنّ أرقّ فتاةٍ قابلتُها في حياتي، هي ذاتها التي أحببتُها دون أن أعرفها.

بقيتُ مذهولةً ممّا يقول، أمّا هو فتنهّد بعمق ثمّ سألني:

- جود! هل تشعرين بشيءٍ يشبه ما أشعر به؟

نظرتُ نحوه، لأجيبه بـ"لا"، فأنا بالفعل لا أبادله أيّ شعورٍ خاصٍّ، لكن شيئًا ما منعني من الإجابة، وبقيتُ صامتة.

عمر

مايو 2009

كانت عيناها تفيضان بالدهشة والحيرة، وحين لم تجبني على أيّ سؤال، جمعتُ ما تبقّى من جرأةٍ لديّ، وقلتُ لها:

- أودّ أن أتقدّم لخطبتكِ، فهل سترحبّين بالأمر؟

احمرّ وجهها، وأشاحت بنظرها نحو الجهة الأخرى، فقلتُ لها:

- جود! أجيبيني.

وهنا سمعتُ صوتها أخيرًا، أجابتني بهدوءٍ واتزانٍ:

- سأكون صريحةً معك عمر!

عدّلتْ حجابها محاولةً أن تخفي ارتباكها، ثمّ قالت:

- أنا لا أفكّر في الارتباط في الوقت الحالي.

سألتُها:

- أهو جوابٌ دبلوماسيٌّ بديلًا عن الرفض؟

فابتسمت ابتسامةً صغيرة وقالت:

- بل هي الحقيقة بالفعل، أرغب أن أفكّر برويّة في مستقبلي بعد التخرّج.

قطعتُ كلامها وقلتُ لها:

- لكن الارتباط لن يعيق أيّ مشاريع مستقبلية!
- أعلم، ولكن هذه هي رغبتي الآن.

وعند تلك اللحظة، شعرتُ بأنّي استنفدتُ صبرها، ولم يعد لديها الرغبة في استكمال الحديث، ابتعدتُ خطوة إلى الخلف، وقلتُ لها بخيبة أمل:

- لا عليكِ! أتفهّم رغبتكِ وأحترمها!

هممتُ أن أمضي، حين قالت لي بلطفٍ:

- اعذرني عمر! وفي كلّ الأحوال، شكرًا لك.

سألتُها بجديّة:

- على ماذا تشكرينني جود؟

فأجابت:

- على مشاعرك الجميلة والصادقة.
- المحبّ لا يطلب شكرًا، بل قلبًا يبادله الشعور.

لم تردّ على جملتي المباغتة تلك، فسألتُها:

- هل الأمر مستبعدٌ تمامًا؟
- لا أعلم عمر، أنا حقًّا لا أعلم، أرجوك لا تحاصرني بهذه الأسئلة!

نظرتْ نحو ساعتها، فسألتُها:

- متى ستصل الحافلة؟
- بعد عشر دقائق.
- اعتني بنفسك.
- إن شاء الله.

انسحبتُ من أمامها، ثمّ عدتُ مباشرةً إلى المنزل، فلم أكن قادرًا على التركيز في أيّ شيء...

جود! ماذا يعني أنّك لا تفكّرين بالارتباط الآن؟! هل تعلمين بأنّي لم أكن أفكّر بالارتباط إطلاقًا! لكنّك دخلتِ حياتي وقلبتِ موازيني كلّها.

هل كان عليّ أن أخبركِ كم قاومتُ مشاعري تجاهكِ؟ وكم حاولتُ أن أقنع نفسي أنّني معجبٌ فقط؟

لكن لا، لم يكن الأمر كذلك. فأنا أحببتُكِ أنتِ، وأنتِ فقط من أحلم أن أُكمل معها أيّامي القادمة.

كيف لي أن أُطفئ تلك المشاعر التي تراكمت في داخلي وأصبحت جزءًا منّي؟ لماذا تصعّبين الأمور عليّ؟ هل تدرين ما يعنيه أن أنتظر بلا أمل؟

جود مايو 2009

- أتعلمين ياسمين؟ تردّدتُ قبل أن أرسل له معايدةً بمناسبة يوم ميلاده، لكنّي لم أرغب أن أغيّر طريقة تعاملي معه، فمن الأفضل أن أبقي كلّ شيء على ما هو عليه، وكأنّ شيئًا لم يحدث.
- لكن يا جود، هذا لن يُجدي نفعًا، لِمَ لا تتخذين موقفًا واضحًا حيال الأمر وتُريحين نفسك وتُريحينه؟
- لكنّني أعطيته جوابًا واضحًا، أنا لا أفكّر بالارتباط!
- أخبريني بالله عليكِ: ماذا سيفعل بهذا الجواب؟
- لا أعلم، فليفعل ما يشاء.
- لماذا لم ترفضيْه مباشرةً، كما اعتدتِ أن تفعلي مع الشبّان الذين لا يروقون لكِ؟

فكّرتُ قليلًا وأجبتُها:

- صدّقيني كنتُ أنوي رفضه، لكن لا أعلم ما الذي أصابني في تلك اللحظة.
- لعلّكِ معجبةٌ به يا جود!
- ليس إلى الحدّ الذي يجعلني أختاره شريكًا لي.

- وما هي مواصفات شريكك؟
- وكأنّك لا تعرفينها!
- ذكّريني بها، لربما أجريتِ تعديلاتٍ عليها!
- أتعلمين؟ أنتِ محقّة فعلًا، لم تعد المواصفات هي ذاتها.
- أتحفيني بها إذن!
- أريده شهمًا، حنونًا، نبيلًا، كريمًا في كلّ شيء: في ماله وخلقه وطباعه، ذا ابتسامةٍ لطيفة. لم أعد أتطلّع لمواصفاتٍ شكليةٍ محدّدة، لكنّني أريده وسيمًا، والأهمّ من كلّ هذا وذاك أن يحبّني كثيرًا.
- لماذا لا تقولين أريد أن يكون عمرًا؟
- عدنا إلى عمر؟
- ألا تنطبق كلّ هذه المواصفات عليه، بشهادتك أنتِ؟ فأنا لا أعرفه وأنتِ من وصفته لي.
- أنا لم أقل إنّه حنون، كيف سأعرف أصلًا؟
- ألا يربّي قطًّا ويحنو عليه؟ هذا مؤشرٌ أنّ لديه هذه الخصلة.
- لا أعرف كيف تربطين الأمور ببعضها!
- على أي حال، لن يدوم هذا الحال طويلًا، وآمل أن يتقدّم لكِ عريسٌ يحقّق كلّ أمنياتك في القريب العاجل!

- لستُ مستعجلة، دعينا الآن من هذا الحديث، ألا يكفيني والدتي وضغطها المستمر حول الأمر!
- أما تزالين تستقبلين العرسان وترفضينهم؟
- وهل لديّ حلٌّ آخر؟ لقد طلبتُ منها أن تعطيني استراحةً من استقبال الخاطبات لمدّة سنةٍ على الأقل، لكنّها رفضت.
- وما هي الذرائع التي تستخدمينها للرفض؟
- أخترع سببًا جديدًا في كلّ مرّة، والأسوأ من ذلك حين يأتي العريس من الزيارة الأولى. ليس الأمر أنّي لا أرغب في الزواج، لكنّي فعلًا بحاجةٍ إلى استراحة.
- افعلي ما تشائين جود، لكنّك ستخطبين عاجلًا أم آجلًا، لذا كفّي عن التأجيل، وفكّري بكلّ عريسٍ يتقدّم إليكِ بجدّية.
- إن شاء الله.

عمر يونيو 2009

كنّا مجتمعين في منزل جدّي لتناول غداءٍ يوم السبت، وذلك بعدما بدّل والدي موعد لقائي معه، واحترامًا لهذا التغيير في جدولي الأسبوعيّ، غيّر معظم أخوالي موعد اجتماعهم العائليّ من الجمعة إلى السبت خصيصًا لأجلي. كانت هذه لفتةً لطيفةً منهم، لطالما اعتبرتهم جامدين لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم، لكنّني أدركت أنّ الأفعال أبلغ من الكلمات، وأنّ موافقتهم على تغيير موعد الاجتماع من أجل شخصٍ واحد -وهم أكثر من خمسة عشر شخصًا- أمرًا عظيمًا للغاية.

كان طعام الغداء لذيذًا جدًّا، وبعد الغداء اجتمع أخوالي وخالتي ووالدتي مع جدّي في مكتبه لمناقشة أمور العائلة، بينما جلسنا نحن الشباب مع جدّتي في الصالة نتبادل الأحاديث. وعندما انفضّ الجميع وعادوا إلى منازلهم، بقيت أنا ووالدتي بناءً على طلبها، إذ كان هناك بعض المواضيع التي تحتاج مناقشتها مع جدّي بخصوص الجمعية. تحدّثت والدتي عن الميزانية الجديدة، وعن الفعاليات المخططة للسنة القادمة، وبعض الأمور الأخرى، وجدت الوقت مناسبًا لأفتح الموضوع الذي يشغلني من فترة، فقلت لجدّي:

- جدّي، أحتاج إلى رأيك بخصوص أمرٍ متعلّقٍ بالجمعية.
- تفضّل عمر!
- كما تعلم يا جدّي، لم تعد المواقع الإلكترونيّة رفاهيةً، بل أمرًا ضروريًّا، تحدّثت مع فاضل الأسبوع الماضي حول ضرورة إطلاق موقعٍ إلكترونيٍّ للجمعية، وإنشاء صفحةٍ خاصّةٍ لنا على موقعٍ جديدٍ اسمه: الفيسبوك.
- جميل! جهّز اقتراحًا مرفقًا بالميزانية اللازمة، وقدّمه للسيد مالك ليعرضه على مجلس الإدارة، وابدأ باختيار فريق العمل الذي سيقوم بهذه المهمّة.

سألتني والدتي:

- أهو الموقع ذاته الذي تستخدمه سلام وتضع مشاريعها وصورها التي تلتقطها عليه؟
- نعم! يبدو أنّه أصبح شائعًا للغاية، وكثيرٌ من المؤسسات والشركات بدأت بإنشاء حساباتٍ لها للترويج لأنشطتها وفعالياتها ومنتجاتها.
- إذًا ما الذي يؤخّرنا؟ فلنكن من الأوائل الذين ينضمون إلى هذه المنصّات.
- لكن قبل أن نشرع بهذا الأمر، لديّ بعض التحفّظات.

- ما هي؟
- لا أريد أن يتحوّل الموقع أو صفحة الفيسبوك إلى منصّةٍ للمراءاة، فيضيع عملنا، ويصبح هباءً منثورًا.

ابتسم جدّي وقال وهو ينظر إليّ بحنانٍ:

- صُغ القوانين المناسبة والتي لا يُسمح بتجاوزها، وكن متأكّدًا من انضباط العاملين على هذا المشروع والتزامهم بها.
- هل تعتقد أنّ الأمر سينجح؟
- نعم! أقدم ولا تتردد، وكن متوازنًا، لا تُضِع أيّ فرصةٍ، وأوجد حلولًا حازمةً لكلّ مشكلةٍ قد تواجهك.

نظرت نحو والدتي التي بدت متفائلةً ومتأكّدةً من قدرتي على إدارة هذا المشروع الجديد، وحين عدنا إلى المنزل، قضيت الليلة كاملةً وأنا أفكّر وأدوّن كلّ ما يخطر ببالي حول القواعد التي يجب أن نتبعها في نشر أخبار وفعاليات الجمعية على المواقع الإلكترونيّة، لضمان خصوصية العائلات المستفيدة من خدمات الجمعية، واتخاذ الحيطة من الوقوع في الرياء، فيجب أن نحرص على ألّا تتحوّل صور المشاركين أثناء قيامهم بالأعمال الخيرية إلى مصدرٍ فرحٍ أو فخرٍ لهم، مما قد يفسد نيّاتهم، ويُفقد العمل روحه وثوابه وإخلاصه.

جود   سبتمبر 2009

ليس من عادة جُمان أن تتجاهل مكالماتي، وعلى مدار ثلاثة أيام، لم أتمكّن من التواصل معها، ورغم انشغال بالي إلا أنّني لم أشأ أن أضغط عليها، وقلت في نفسي لعلّها مشغولة مع آدم، لكنّها، وفي اليوم الرابع من اختفائها المريب، اتصلت بي، وقد بدا على صوتها الإرهاق، وطلبت لقائي حالًا، شعرت أنّها ليست على ما يرام، واقترحت أن نلتقي في منزلي.

حين وصلت جُمان، تفاجأت بما رأيته، كان وجهها متعبًا والأسى يكتسي ملامحها، وما إن دخلت حتّى انفجرتْ بالبكاء، وهي تقول لي:

- لقد فسخنا الخطبة يا جود.

ظننتُ أنّني لم أسمع جيدًا، فسألتها بانفعال:

- ماذا تقولين؟
- كما سمعت، حدثت بيننا مشكلة ولم يكن حلّها سوى الانفصال.
- ما هي بالضبط؟ ما الذي حدث؟

- لقد حصلت على قبولٍ لاستكمال دراستي في جامعة في فرنسا، وبدلًا من أن يفرح لذلك، جنّ جنونه، أنا لا أصدّق أنّ آدم أنانيٌّ إلى هذه الدرجة!
- عن أي قبولٍ وأي جامعة تتحدّثين جُمان؟
- منذ فترة أجريت مراسلاتٍ إلى جامعات أوروبية، ولم أتوقّع أن أحصل على قبولٍ من إحداها، جود هذه فرصة لا تُعوَّض، أمّا هو فكما دومًا، يرفض فكرة السفر رفضًا قاطعًا، ما هذا التحجّر! لا، لن أضحّي بمستقبلي من أجل عناده.
- ويحي! هل تمزحين جُمان؟
- أهذا موضوع أمزح فيه؟ ألا ترين حالي؟
- جُمان، من منكما ترك الآخر؟
- صدِّقيني لا أعلم، هذا لا يهمّ.
- بل يهم، دعينا نفكِّر كيف سنصلح الأمر.
- ومن قال لكِ أنّي أرغب في ذلك؟

صرختُ غاضبةً:

- إذًا ماذا تريدين بالضبط؟

فأجابتني باستغرابٍ:

- ما بكِ جود؟
- ما بي؟ اسألي نفسك هذا السؤال.
- ماذا تقصدين؟
- كيف طاوعتك نفسك لدفع الأمور إلى هذه النهاية؟
- لا أفهمك جود.
- ماذا تتوقّعين منّي أن أقول لكِ بالضبط؟ أنتِ مخطئة بما فعلتِ يا جُمان.
- جود! هل أنا المخطئة برأيك؟
- طبعًا، كيف تخطِّطين وترسلين أوراقك وأنتِ مرتبطة ولديك شريك.
- أخبرتك لم أتوقّع أنّني سأحصل على القبول.
- لنفرض جدلًا أنَّ حجّتك تلك مقبولة، مع أنّها ليست كذلك، لكن دعينا نتجاوزها للحظة، ماذا عن طريقتك بإخباره؟ كيف تتوقّعين منه أن يذعن وهو قد أكّد لكِ مرارًا عدم رغبته بالسفر واستكمال الدراسة منذ اللحظة الأولى.
- هل أنتِ ضدِّي أيضًا؟
- لستُ كذلك، لكنَّه ليس لعبةً بين يديكِ!

بقينا نتجادل لعدّة دقائق بلهجةٍ حادّة، أنا ألقي اللوم عليها وهي تدافع عن نفسها بمنطقٍ خاطئٍ وغير مترابط، لم تتوقّع جُمان أن أتّخذ هذا الموقف تجاهها، ولعلّها ظنّت أنّي سأؤيّدها، لكنّي كنت صريحة معها وكرّرتُ لها مرارًا ألّا تنتظر منّي مجاملتها فأنا لن ألقي على مسامعها ما تحبّه، لكنّها ظلّت تدافع عن نفسها، إلى أن وجدتُ نفسي مضطرةً لأن أكون أكثر صراحةً وحزمًا، فقلت لها بوضوح:

- ما فعلتِه بآدم ليس تصرّفًا نبيلًا على الإطلاق، أخبرتك منذ البداية أنَّ هذا الشابّ عاطفيٌّ، وقلتُ لكِ تمهَّلي ولا تنجرفي وراء مشاعرك ما لم تكوني متأكّدةً منها.

حدّقت بي بمكرٍ وهي تقول:

- تشكّكين مجدّدًا بمشاعري تجاهه، كما لو أنّك تعلمين ما في قلبي! ثمّ ماذا عنكِ أنتِ؟

لم أفهم ما دخلي أنا بالقصة، فسألتها:

- ماذا تقصدين؟
- هل تصرفاتك نبيلة دومًا؟ ألم تستقبلي الخاطبات وأنتِ تحبّين شابًّا ولا ترغبين بالارتباط إلا به؟ هل كان هذا تصرّفًا نبيلًا؟

يأتيك الشبّان واحدًا تلو الآخر ليعترفوا بحبّهم لكِ، فترفضيهم برقّةٍ ودون حزمٍ ليقعوا في حبِّك أكثر فأكثر، هل هذا تصرّفٌ نبيل؟ يلمِّح لكِ عمر مرارًا بمشاعره تجاهك فلا تعطينه أيّ جواب، لكي يبقى معلّقًا بكِ، هل هذا تصرّفٌ نبيل؟

نزلت كلماتها تلك كالخنجر في صدري، لم أتوقّع أن يصدر هذا الكلام من جُمان، وأن تستغلّ الأسرار التي ائتمنتها عليها لتطعنني بها في لحظةٍ كهذه!

فقدت قدرتي على التركيز في كلامها، وشعرت أنّي على وشك الانهيار، لاحظت جُمان التغيّر المفاجئ الذي طرأ عليّ، فتوقّفت عن كلامها الجارح، أمّا أنا فنظرت إليها نظرة عتابٍ وأنا أسألها:

- أهذا رأيك بي من البداية؟

لم أستطع كتم دموعي، غرست وجهي بين ذراعيّ، فوضعتْ جُمان يدها على ظهري وراحت تعتذر، وحين شعرت بأنّي على وشك الاختناق، رفعته، فوجدتها تنظر إليّ بحزنٍ وأسفٍ شديدين، وقالت:

- لم أقصد ما قلته للتوِّ، صدِّقيني.

لم أملك أي ردٍّ، وحين ساد الصمت، استأذنت جُمان منّي ومضت، لم ألحّ عليها بالبقاء، فالأفضل في هذه اللحظة عدم استكمال الحديث.

سامحكِ الله يا جُمان، جئتِ لأداوي جرحك، فآذيتني ومضيتِ.

عمر سبتمبر 2009

كنتُ أنتظر أن يطلع الصباح في كندا كي أتحدّث معها، وحين وجدت اسمها على تطبيق الماسنجر، أرسلت لها مباشرةً:

- عيد ميلاد سعيد سلّومة!

أرسلت لي وجوهًا تعبيريّةً كثيرةً لتعبّر عن حماسها، وكتبت:

- أهلًا عمر، شكرًا جزيلًا لك. لديّ مفاجأتان لك.
- ما هما؟

أرسلتْ سلام صورةً بدقّةٍ عاليةٍ جدًّا، وسألتني:

- ما رأيك؟
- انتظري، لا أزال أحمّل الصورة، أخفضي دقّة الصور حين ترسلينها، ليس لديّ إنترنت سريع كالذي في كندا.

وقبل أن أقرأ ما كانت تكتب وصلت الصورة أخيرًا، فكتبت لها:

- مباركٌ الحجاب!
- أهو جميل؟

- نعم، يناسبك كثيرًا.
- عمر! هل سأتحجّب منك في زيارتي المقبلة؟
- لا بالطبع! والآن أخبريني ما هي المفاجأة الثانية؟
- أصبحتُ طالبةً في قسم التصوير، في كلّيّة الفنون.
- جميلٌ جدًّا، لقد مللنا من الاختصاصات الشائعة، فليكسر أحدنا هذه الرتابة المملة في العائلة. أنا فخورٌ بكِ سلام، ها أنتِ تحققين وعودك وأحلامك.
- الحمد لله.
- أتعلم ماذا أجبتُ رئيس القسم حين سألني عن سبب اختياري لهذا المجال؟
- قلتِ له أنّكِ فنانة ومبدعة!
- لا! بل أخبرته عنك، وعن الجمعية، وكيف أنّي وقعت في غرام الكاميرا خلال الجولات الميدانيّة التي اصطحبتني بها الأعوام الماضية.
- ألم تخبريه أيضًا عن حياتك الشخصيّة كلّها؟
- لا تسخر منّي عمر!

- على أيّ حال، تليق بكِ مهنة التصوير، أنتِ فتاةٌ نشيطةٌ وحيويّةٌ، ولديك أفكارٌ إبداعيّةٌ، لكن تذكّري، لكلّ مهنةٍ ما لها وما عليها، اجعليها مهنةً هادفةً، اتفقنا؟
- إن شاء الله، بالمناسبة هل من جديدٍ فيما يتعلّق بجود؟
- لا جديد حاليًّا، أعتقد أنّها مشغولة مع صديقتها المقرّبة بسبب مشكلة، تمامًا مثلي، فأنا مشغولٌ أيضًا بدعم صديقي.
- ما الأمر؟ لم أفهم.
- لا تشغلي بالك، إنّها أمور الكبار.
- وهل أنا صغيرة؟
- نعم، أنتِ كذلك! كيف هي ليينز؟
- قطّةٌ مشاكسة، سأرسل لك صورةً جديدةً لها.
- أخفضي الدقّة!
- سأفعل، لا تتذمّر!

جود أكتوبر 2009

كما كان خبر ارتباط جُمان وآدم حديثَ الجميع قبل ستّة أشهر، فقد أصبح خبر انفصالهما محور الاهتمام والتخمين، اتخذتُ موقفًا صارمًا، وفي كلّ مرّةٍ تحاول إحداهنّ الاستفسار بفضول، كنت أجيب: "لِمَ لا تسألي صاحبة الشأن؟".

راقبتُ منشورات آدم في تلك الفترة، وتوقّعت أن يتحدّث إليّ من أجل جُمان، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، كان عمر متعاطفًا مع صديقه، وبدا ذلك جليًّا من خلال تعليقاته ودعمه له، لكنّه هو الآخر لم يتواصل أو يتحدّث بالأمر، فبالعادة قد يتدخّل أصدقاء الطرفين في حلّ هذا النوع من المشكلات، لكن يبدو بأنّ آدم وجُمان اتخذا قرارهما بشكلٍ نهائيّ، ولم يفسحا المجال إطلاقًا لتدخّل أيّ أحدٍ.

ما الذي حدث لهما بالضبط؟! يا للخسارة! كم كانت جُمان متحمّسة ومبتهجة بارتباطها بآدم، وكم أسعدني أنّها وجدت نصفها الثاني الذي يكمّلها، سبحان الله! كلّ شيءٍ في هذه الدنيا قسمة ونصيب.

أمّا عن شجارنا، فقد سامحتُ جُمان بالطبع! فجُمان كانت في أسوأ حالاتها، ورغم أنّ أسلوبها لم يكن مقبولًا، إلا أنّني قرّرت أن أتجاوز

الأمر، هي ليست صديقةً عابرةً في حياتي، ولم أجد أيّ ضيرٍ إن تجادلنا؟ هذا أمرٌ طبيعيّ، وخدشٌ صغير لا يؤثّر في صرحٍ كبير، بل ويلتئم بسرعةٍ. يحزنني أنّها أصرّت على رأيها، لكنّها في نهاية الأمر اختارت ما يناسبها، ولا يحقّ لي أن ألومها، لكن كان لا بدّ من توضيح الأمور، والوقوف مع الحقّ، هذا كلّ ما في الأمر. فأنا لم أكذب عليها يومًا لأرضيها، حين أمتدح أو أنتقد، أنا أعني ما أقول.

لم يمضِ كثيرًا من الوقت بعد شجارنا، حتّى التقينا وتجاوزنا المشكلة، إذ زرتها في منزلها وقدّمت لها مجموعة الهدايا التذكاريّة كي تصطحبها معها إلى فرنسا، وتذكرني كيفما تحرّكت وأينما ذهبت: دفتر، ألبوم صور، كوب، علاقة مفاتيح، ساعة خاصّة للأذان، وبعض الأشياء المكتبية الأخرى، ولعلّ أهم عنصر كان في تلك المجموعة هو حجابٌ وضعته في صندوق، وطلبتُ منها أن تفتحه حالما أغادر منزلها، كي تفكّر بمفردها، وتتّخذ قرارها برويّة.

لطالما انتظرت هذه اللحظة، ومهّدت لها، وأعتقد أنّ الأوان قد حان بالفعل.

جود نوفمبر 2009

توجّهت إلى المطار والحزن يخيّم على كياني. كنتُ أذرف الدموع طوال الطريق. تأمّلت في هذه الدنيا، لا شيء فيها ثابت! من كان يظنّ أنّنا سنفترق بهذه السرعة!

حين وصلتُ إلى الصالة الكبيرة في المطار، رحت أبحث عنها في الأرجاء، وفجأةً لمحتُ والدها، وبجانبه فتاةٌ طويلةٌ وأنيقةٌ، التفتت إليّ وابتسمت، ولوّحت لي وهي متحمّسة لردّة فعلي، جريتُ نحوها وأخذتها بين ذراعيّ، وأنا أقول لها:

- مباركٌ جُمان، مبارك! ما هذا الجمال؟
- أيليقُ بي حقًّا؟
- جدًّا، تبدين كالبدر.
- لا تبالغي!
- صدّقيني أنا لا أبالغ، ما شاء الله، أسأل الله أن يثبّتك عليه ويتقبّل طاعتك.
- شكرًا لكِ جود، الفضل لله ثمّ لكِ، أنتِ مدهشةٌ بالفعل! تشدّين الخيوط ومن ثمّ تضربين على الوتر الحساس.

- أتعلمين؟ سعادتي بحجابك ستخفّف عنّي حزن الفراق.

وما إن نطقتُ بتلك الجملة حتّى غمرت الدموع أعيننا، عانقتها بقوة، وكأنّني أحاول أن أوقف الوقت، إلى أن سمعنا صوت نداء رحلتها، مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت علبةً صغيرةً، وأعطتني إيّاها، فتحتُها فوجدتُ إسوارةً جميلةً تحتوي حبّاتٍ فضّيةً على شكل اللؤلؤ، ارتديتها وأنا أثني على جمالها، فقالت لي:

- أتدرين؟ هذا هو الجُمان.
- حقًّا؟! ما أحلاها، شكرًا لكِ يا جُمانتي الغالية.

كرّر المنادي اسم رحلتها، فودّعها والداها وعانقتها مجدّدًا، ثمّ مضتْ. بقيتُ واقفةً أتابعها بعيني وهي تمضي وسط الزحام وقلبي يلهج بالدعاء لها.

كنتُ مذهولةً لا أصدّق أنّها وبعد سويعات ستصبح في قارةٍ أخرى، وتبعد عنّي أكثر من ألف ميل!

وفي لحظةٍ، اختفت جُمان، ولم أعد أراها، شعرتُ بنخزةٍ في قلبي، وعدتُ أذرف الدموع مجدّدًا. ربتت والدتها على كتفي، وهي تحاول أن تتصنّع الهدوء، لمحتُ دمعةً في طرف عينها، لكن ما لبثت أن مسحتها بسرعة.

جُمان! مهما بعدت بيننا المسافات، ستظلّين توأم روحي. لن يفرّقنا غياب، ولن يُبدّلنا بُعد، فأنتِ الجزء الأعمق في قلبي، ذاك الذي لا يبهت مهما طال الفراق.

في كلّ همسة دعاء، وفي كلّ لحظة شوق، وفي كلّ التفاصيل الصغيرة، والأماكن التي شهدت ضحكاتنا وأحاديثنا وكلامنا ودموعنا! ستبقين حاضرةً يا جُمان، في وجداني وفي قلبي.

عمر نوفمبر 2009

وصلتُ إلى المطعم، وجلست أنتظرها، كان المطعم فاخرًا للغاية، واجهةٌ زجاجيّةٌ تعكس أضواء المساء بأناقة، وأرضيّاتٌ خشبيّةٌ لامعة، وأرائك مخمليّة داكنة، وجدرانٌ مزيّنة بلوحاتٍ تنسجم مع الجوّ العام. أمّا الإضاءة فكانت خافتةً ومدروسةً، تُوزّع الضوء بهدوء على كلّ طاولة، بينما يعزف أحدهم بيانو حيًّا كما هي العادة في أماكن كهذه.

جلستُ هناك وقلتُ لنفسي: مهما اعتقدتُ أنّني معتادٌ على مثل هذه الأجواء، هناك دائمًا شيءٌ صغير يفاجئني، لمسةٌ تجعل المكان لا يُنسى.

انتظرتُ والدتي، وما إن حضرت، حتّى جلست وبدأت حديثها:

- أعتذر عن التأخّر، فقد طرأ أمرٌ مهمّ مع خالك واضطررتُ لإحضار ابنته من دروس الفروسيّة، آمل ألا تكون رائحة الخيل قد انتقلت إليّ.

- لا عليكِ. رائحتك زكيّة، لا تقلقي!
- ممتاز، والآن دعنا نطلب العشاء.

ناديتُ النادل، الذي جعل يشرح لنا كلّ طبقٍ وكأنّه قصيدةٌ شعريّة. اخترنا أطباقنا، ومن ثمّ شرعت والدتي بالحديث وسألتني:

- ما الأخبار؟ هل وصلك ردّ تأكيدٍ من الشركة عن موعد توظيفك؟
- لا، كما أخبرتك المرّة الماضية، الموعد الحالي في بداية السنة المقبلة.
- وهل تشعر أنّك مستعدّ؟
- نعم!
- جميلٌ جدًّا...

وقبل أن تكمل حديثها، رنّ هاتفها، نظرت إليه وأغلقته، فقلت لها:

- لماذا لم تجيبي على المكالمة؟

حرّكت والدتي رأسها يمينًا ويسارًا، كما لو أنّها تقول: "لا شيء يهمّ الآن"، لم تكن ترغب في حدوث أيّ مقاطعاتٍ لجلستنا تلك، فقد أصبح عشاؤنا الشهري عادةً لا نستطيع الاستغناء عنها، نلتقي بمكانٍ عام، ونتناول العشاء معًا، ونطيل السهرة، ومع الوقت تعلّق كلانا بهذه العادة، وأصبحت كالمتنفّس لنا، التنزّه والتحدّث خارج المنزل له طابعٌ خاصّ، تخرج الكلمات بسهولة، وتلقى صدىً أعمق عند الطرف الآخر، بعيدًا عن روتين المنزل وأجوائه.

لطالما كانت علاقتي بأمّي جافّةً، ولطالما كنتُ ألومها في ذلك، ولكن منذ رأيتُ تعامل آدم مع والدته، انطبعت صورةٌ لن أنساها ما حييت، وبقيتُ أتساءل: ماذا عنّي؟ ماذا فعلتُ لأكسر هذا الجليد الذي يعتري علاقتنا؟ هل حاولتُ في يومٍ من الأيّام الإفصاح لها عن مشاعري؟ الإفصاح لها عمّا أحبّ أو عمّا أكره؟ طوال حياتي وأنا أعامل والدتي وكأنّها آلةٌ لإصدار الأوامر والأموال. أطيعها في كلّ ما تقوله، لكن لم أكن بارًّا بصدق. كانت تلك المبادرة بمثابة دفقة دفءٍ أذابت البرود الذي تسلّل إلى علاقتي بأمّي، وأحيت ما ذبل منها.

كنتُ أكمل طبقي، حين سألتني:

- وما أخبار الموقع؟ هل انتهيت من تشكيل الفريق؟
- نعم! سأقيم اجتماعًا مع أعضاء مجلس الإدارة عمّا قريب، كي أطلعكم على آخر مستجدّات المشروع.
- كم عدد الموظفين الجدد في الفريق؟
- اثنان، أحدهما مهندس، وسيكون مسؤولًا عن تصميم الموقع وإطلاقه وإدارته، والآخر كاتب، يدرس في كلّيّة الإعلام، سيتولّى كتابة المقالات والأخبار على موقع الفيسبوك.

ابتسمت والدتي وهي تقول:

- لقد تغيّرت الدنيا فعلًا. أتعلم؟ عليك أن تكون ممتنًّا بأنّ جدّك يواكب كلّ التطوّرات.
- نعم، أدرك ذلك، لقد وافق بسهولةٍ على الاقتراح، حين علم أنّ تلك الأدوات هي أدوات العصر الحالي، لم يسأل كثيرًا ولم يتدخّل.
- لطالما كان كذلك، لذا تجد بأنّ الجمعية متجدّدةٌ وسبّاقةٌ دومًا.
- هذا صحيح.

صمتنا قليلًا وعاد كلٌّ منّا إلى طبقه، فتذكّرتُ جود، كم تمنّيتُ لو أنّها تحصل على تلك الوظيفة، فهي تناسبها كثيرًا، لم يكن الصراع سهلًا بأن أبحث عن موظفٍ آخر يملأ هذا الشاغر، وأحمد الله أنّي استطعت مجاهدة رغبتي تلك، ولم أقع في الشبهات، فعلى الرغم من كفاءتها وملاءمتها لتلك المهمة، وشغفها وخبرتها في الكتابة والتدوين في تلك المواقع، إلا أنّ توظيفها واختيارها سيكون لأسبابٍ شخصيّةٍ بحتة، وهذا الأمر لا يمكن تجاوزه أبدًا. ابتسمتُ رغمًا عنّي حين مرّ طيفها أمام عيني، قاطعت والدتي أفكاري وسألتني:

- كيف حال صديقك؟
- آدم؟
- نعم!

- لا يزال بحالٍ سيّئة، دعوته الأسبوع الماضي ليزورنا في المنزل، فاعتذر، ثمّ طلبتُ منه أن يمرّ على الجمعية لمناقشة بعض الأمور، فاعتذر أيضًا، وحين ذهبتُ إلى مقرّ عمله، لم أجده.
- هل سافرت خطيبته؟
- لم تعد خطيبته!
- آه، فعلًا.
- على أيّ حال، نعم لقد سافرت، أنا محتار بالفعل، لا أعلم كيف أدعمه.
- دعه قليلًا، واتركه على راحته، لا تضغط عليه.
- حاضر.
- كبرتم وأصبحت لديكم مشكلاتٌ عاطفيّة...

قالت تلك الجملة ونظرت إليّ وهي تنتظر ردّة فعلي، فسألتها:

- إلى ماذا تشيرين؟
- هل أنت عالقٌ في مكانٍ ما؟

وضعتُ الشوكة على طرف الطبق، وعدّلت جلستي، ثمّ سألتها باهتمام:

- ماذا تقصدين أمّي؟ هلّا أوضحتِ!

لم تردّ مباشرةً، فرحتُ أخمّن من أين أتت بمعلوماتها، فسألتها:

- أهي سلام من أخبرتك؟
- إذًا فسلام تعلم بالأمر!
- نعم!
- لا! لم تخبرني سلام بأيّ شيء. على أي حال، أخبرني، هل تحتاج إلى شيء؟
- ليس بعد. ولو أنّ لديّ ما يسرّ، لأخبرتك بالتفاصيل.

قالت بهدوء:

- لا بأس، ولكن تأكّد أن تكون مناسبةً لعائلتنا.

أومأتُ لها برأسي وابتسمت، لو كنتُ عمر السابق الذي يُجادل ويناقش في كلّ شيء، لاعترضت وقلت: وما هو المناسب لعائلتنا؟ وما هي المعايير المطلوبة؟ لكن، بمعرفتي الآن لوالدتي، ورؤيتي لردّة فعلها الهادئة والراقية وعدم إلحاحها على معرفة الفتاة واحترامها لرغبتي، قرّرت أن أمتثل لسلوكها، لذا أجبتها بابتسامة:

- أنا متأكّدٌ من أنّها ستنال إعجابك، لندعُ أن تكون من نصيبي.
- أسأل الله أن يختار لكَ الخير، ويوفّقك دومًا.

في طريق العودة، ركب كلٌّ منّا سيارته، ومضيتُ خلفها، تذكّرتُ ذهابنا إلى المحكمة يوم الطلاق، حين أخبرتني أمّي أنّه بوسعي اختيار البقاء مع من أريد. اعتبرتُ ذلك قلّة حبٍّ واهتمام، لكن مع الأيّام اكتشفتُ طبعها الحقيقي: هي لا تحبّ استخدام أسلوب الضغط، ولا تحبّ اللعب على المشاعر، وتحترم قرارات الآخرين.

كم تختلف الرؤية حين ترى بعين المحبّ لا بعين الغاضب! يتحوّل ما نراه دافعًا سلبيًا إلى أمرٍ إيجابيّ، والعكس صحيح.

وبينما كنتُ أرتّب أفكاري، توقّفتُ عند إحدى الإشارات الضوئيّة التي تستغرق وقتًا طويلًا، كانت والدتي تقف بسيارتها على جهتي اليسرى. فتحت والدتي نافذة سيارتها وهي تشير إلى أحد محالّ الصاغة في الشارع، ثمّ قالت:

- لا يقف الرجل أمام هذا المحل ويتأمّل بضاعته، إلا إن كان عاشقًا.

تبدّل لون الإشارة في هذه اللحظة، وأصبحت خضراء. لوّحت لي والدتي، ومضت بسيارتها، أمّا أنا فبقيتُ ساكنًا في مكاني، يدي على المقود، وعيني على محلّ الصائغ...

هل وقفتُ هنا فعلًا؟ ماذا تأمّلتُ يا ترى؟ محابس الخطبة؟ متى كان ذلك؟! أنا لا أذكر بالفعل! هل لاحظت والدتي ما لم ألاحظه أنا؟!

ظللتُ أعصر ذاكرتي: متى حدث ذلك؟ وكيف رأتني والدتي؟! إلى أن أفزعني صوت زمّورٍ من خلفي، تلفّتُّ سريعًا، ثمّ ضغطت على البنزين وأشرتُ للسائق بيدي معتذرًا...

جود نوفمبر 2009

لم أنم إلا سويعات، نهضتُ من فراشي باكرًا، وبالكاد استطعت أن أرفع رأسي، فقد كنت أكتب بشراهةٍ ليلة البارحة، غسلتُ وجهي ومن ثمّ ذهبتُ إلى المطبخ كي أحضّر قهوتي، فسألتني والدتي:

- صباح الخير! ما الذي أيقظك باكرًا؟
- لدينا موعد اليوم مع الدكتور قيصر في الكلية، ألم أخبرك بالأمر؟
- آه، تذكّرت، من أجل إجراءات الورقة البحثيّة؟
- نعم، يحتاج بعض التواقيع منّا، بعدما قُبلت في إحدى المجلات العلمية. هل أحضّر لكِ كوبًا معي؟
- نعم! لِمَ لا؟! وهل يحظى المرء بسهولة بفرصة احتساء القهوة مع جود صباحًا؟

ضحكتُ واعتبرته مدحًا، رغم أنّه مبطّنٌ بشيءٍ من الانتقاد، وبعدما حضّرتُ القهوة، جلستُ أمام والدتي وأنا أفرك عينيّ وأحاول أن أطرد النعاس وأصحو قليلًا، فقالت لي:

- بالمناسبة جود، اتصلت والدة العريس للمرّة الثانية لتطلب موعدًا آخر مع ابنها، أخبريني متى تفضّلين الموعد؟

نظرتُ إليها نظرة استياء، ثمّ سألتها:

- ألن ننتهي من هذا الأمر؟!
- تستطيعين إنهاءه إن أخذتِ الأمر بجدّية وارتبطتِ فعلًا.
- حسنًا، لديّ ما أقوله لكِ أمّي.

كنتُ أودّ أن أحدّثها بأمر عمر، حتّى ولو لم أقرر بعد بشأنه، فكما قالت لي جُمان، عليّ أن أكون أكثر حزمًا، والموضوع لا يتحمّل التأجيل، إمّا أن أرفضه أو أفكّر به بجدّية. نظرتُ إلى الساعة، فوجدتُ أنّ الوقت ضيّق، ولم أرغب أن أفتح الموضوع على عجالة، فقلت لها:

- دعينا نتحدّث مساءً!

نظرت إليّ وقالت:

- لعلّي فهمتُ الأمر، نتحدّث مساءً.

ابتسمتُ وقلت لها:

- وحتّى ذلك الحين، لا تذهبي بخيالك بعيدًا، أرجوكِ.

- سأنتظر إلى أن تعود الأميرة جود، ونرى ما في جعبتها.

جهّزتُ نفسي، وانطلقت، كانت أقصى أمنيتي لهذا اليوم ألّا يباغتني عمر بأي سؤالٍ حين أقابله، فلا أزال لا أملك جوابًا. وصلتُ إلى الكلية، وما إن دخلتُ من الباب حتّى غمرتني كلّ الذكريات، إنّها المرّة الأولى التي آتي فيها إلى الكلية بعد سفر جُمان! نظرتُ إلى إسوارتي الفضّية، وقبضتُ عليها بألمٍ وشجن.

كم تبدو الكلية موحشة وغريبة من دون جُمان! حاولتُ أن أكبح شرود أفكاري وألّا أطلق العنان لأشجاني، وقلتُ في نفسي: سأحرّر مشاعري مساءً في رسالةٍ أو خاطرة.

وصلتُ إلى مكتب الدكتور قيصر، وطرقتُ الباب، كنتُ أول من وصل إلى الموعد، رحّب بي الدكتور قيصر وبينما كان يسألني عن أحوالي، وصل عمر، ألقى السلام وجلسنا جميعًا على طاولة الاجتماعات في غرفة الدكتور قيصر، لم تمضِ بضع دقائق حتّى أتت ليلى، التي كانت بمزاجٍ سيّئ، وألقت بالكاد السلام وجلست دون أن تتحدّث، هكذا هي منذ تركها يزن، لا ترغب بأن ترى أو تتحدّث مع أي أحدٍ منّا، عدا آدم.

كان الدكتور قيصر يحضّر الأوراق اللازمة، حين طُرق الباب، ودخل آدم، وهنا كانت المفاجأة.

شعرٌ مبعثر كأنّ المشط لم يمرّ عليه منذ أيّام، ولحيةٌ تنمو بلا ترتيب، موحية بإهمالٍ لم يكن من طبعه، وسخطٌ يكتسي ملامحه ونظراته، وحزنٌ يخيّم على حركاته وسكناته.

أدركُ أنّ آدم صادقٌ بشعوره، بل أنا متأكّدةٌ من ذلك، لكنّه يبالغ في إظهار ذلك الشعور، ويتقمّص دون أن يشعر الحالات الشائعة التي تُعرض في الدراما والمسلسلات، وكأنّ الحزن لا يُعبَّر عنه إلا بعينين زائغتين، وشعرٍ مبعثر، ووجهٍ عابس، وكأنّ شعوره لا يُصدَّق إلا إذا امتزج بالأسى. بدا لي أسير قوالب مسبقة، يحاول أن يُقنع نفسه والآخرين بها، في حين أنّ مشاعره الحقيقية لا تحتاج لكلّ هذا التمثيل لتكون صادقة وواضحة!

ألقى السلام على الجميع فردًا فردًا، جهّزتُ نفسي لردّ السلام عليه، لكنّه تعمّد تجاهلي، ولم ينظر حتّى باتجاهي! شعرتُ باضطرابٍ شديد، وفهمتُ أنّه ينوي أن ينتقم منّي، ويحاسبني على ما حدث بينه وبين جُمان.

لاحظ عمر الأمر، ونظر إليّ ليتأكّد أنّي بخير، فاضطررتُ أن أتجاهل ما حدث وأحافظ على هدوء ملامحي، رغم الغليان الذي كان يعتمل في صدري. شرح لنا الدكتور قيصر الإجراءات اللازمة، ووضع كلّ منّا توقيعه على الأوراق الرسميّة، وأخبرنا أنّه سيتولّى أمر توقيع الغائبين، أولئك الذين أبعدهم طلب العلم عنّا: يزن، أُسيد، وجُمان.

لم تطل جلستنا كثيرًا، ومع ذلك استطاع آدم أن يزعجني مرّاتٍ عديدة، لم أستطع أن أتحمّل الأمر أكثر من ذلك، فغياب جُمان وحده فجّر بركانًا من الغربة بداخلي، ومنذ وصلتُ إلى الكلية وأنا أضبط أعصابي ومشاعري بصعوبة، لتأتي تصرفات آدم الخرقاء وتُجهز عليّ تمامًا. كنتُ أعدّ الثواني منتظرةً اللحظة التي سنخرج بها من المكتب، وحين ودّعنا الدكتور قيصر، أسرعتُ مباشرةً لأمضي وأذهب بعيدًا عنهم، إلا أنّ عمر لحق بي وناداني، فلم أر بدًّا من الردّ عليه.

وقفنا في الممر المقابل لمكتب الدكتور قيصر، وحين خرج آدم ودّع عمر وتعمّد أن يتجاهلني للمرّة العاشرة، ثمّ مضى، ومضت خلفه ليلى دون أن تتحدّث إلينا. نظر إليّ عمر بقلق، فسألته والدمعة على وشك النزول من عيني:

- ما الذي يحدث؟

- لا عليكِ، أنتِ تعلمين أنّه ليس في حالٍ جيدة.
- لكن ما دخلي أنا؟
- لا علاقة لكِ بالموضوع طبعًا، لكنّك تعرفين آدم.
- هل يعتبرني وراء ما حدث؟
- لا بالطبع!
- لكنّ تصرفاته غير مقبولة!
- أرجوكِ لا تزعجي نفسك، تجاهليه فقط، ما حدث معه ليس بالهيّن.
- ليته يعلم كم دافعت عنه! وبأنّي تشاجرت مع جُمان وأنا أوضّح لها أنّها أخطأت بحقّه، ثمّ ماذا عنّي أنا؟ ألستُ أيضًا معنية بسفرها؟! لم يواسني أحدٌ بفراقها، لا يمكن أن تتخيّل صعوبة أن يفترق عنك شخصٌ اعتدت وجوده بجانبك ويصبح بعيدًا في مكانٍ آخر، كأنّ جزءًا من روحك انتُزع فجأةً، كلّ شيءٍ حولي هنا يذكّرني بها.

لم أتمالك نفسي عند هذه اللحظة، فانهمرت دموعي رغمًا عنّي، لم أشأ أن أبكي أمام عمر كي لا أضعه في موقفٍ محرج، وقفتُ بزاويةٍ بحيث لا أكون واضحة للمارّين، بعدما انهرتُ تمامًا، ارتبك عمر، فقال لي بحنان:

- جود! أخبريني ماذا أفعل؟

حرّكتُ رأسي يمينًا ويسارًا، وقلتُ له:

- لا شيء.
- لا تبكي أرجوك!

مسحتُ دموعي وحاولتُ أن أشدّ من عزيمتي، وقلتُ له:

- أعتذر عمر، حاولتُ أن أضبط أعصابي منذ وصولي، لكن خرج الأمر عن سيطرتي.
- لا تعتذري!

نظرتُ إليه، كان عاجزًا تمامًا عن التعبير، لا يدري ما يصنع. تصنّعتُ الابتسامة وسألته كي أغيّر الموضوع:

- كيف حال غدير؟
- هي بخير الحمد لله، تحدّثنا مع والدتها منذ فترة، تجري الأمور على أحسن حال في مدرستها الجديدة.
- الحمد لله.

شعرتُ أنّ عليّ الذهاب، فيكفي ما حدث، لكنّه حين شعر باستعدادي للرحيل هتف بحزمٍ:

- مهلًا جود!
- ما الأمر؟
- اسمعيني جود، أعلم أنّ الفراق صعب، وأدعو الله أن يجمع بينكما على خيرٍ قريبًا، احتسبي هذا الفراق كابتلاءٍ تؤجرين عليه إن صبرتِ، أفهم تمامًا طبيعة علاقتك مع جُمان، فهي أكثر من صداقة، شيءٌ له أبعاد أسمى وأعمق...

كان كمن يبحث عن كلمةٍ تصف تلك الصداقة، فقاطعته قائلةً:

- أتقصد: أخوّة في الله؟
- نعم هي تلك! ولذلك لا يجب أن تشعري بالحزن، أليس كذلك؟

ابتسمتُ وأومأتُ له بالإيجاب، فأردف كلامه:

- أتعلمين أي شعورٍ أصعب؟

حرّكتُ رأسي بالنفي، فقال:

- أن يقف أمامك أعزّ شخصٍ على قلبك، وبالقرب منك، ولكن تبقى الكلمات عاجزة عن التعبير له أو الوصول إليه، يبكي فلا تستطيعين مساعدته، يحزن فلا تستطيعين مواساته.

قال ذلك وبقينا صامتين لأكثر من دقيقة، ابتلعتُ ريقي وحاولتُ تغيير الموضوع مرّة أخرى، فسألته:

- كيف حال الجمعية؟
- بخير الحمد لله، بالمناسبة تذكّرت أمرًا.
- ما هو؟
- كنتِ تبحثين منذ فترة عن عملٍ في المجال الإعلاميّ والكتابة الإبداعيّة، أما يزال ذلك قائمًا؟
- نعم، لكنّي لم أخبر أحدًا، كيف عرفت؟
- ربما ذكرتِ ذلك في إحدى تعليقاتك.

نظرتُ إليه باستغرابٍ، أيقرأ عمر كلّ تعليقاتي؟! تجاهل نظرتي وأردف:

- منذ فترة أطلقنا مشروعًا لموقعٍ إلكترونيٍّ وصفحةٍ خاصّةٍ بالجمعية على الفيسبوك، وشكّلنا فريقًا لذلك، إحدى الجمعيات تواصلت معنا لتطبيق المشروع ذاته، وهم يرغبون بجمع فريق عملٍ لذلك، هل أقترح اسمك؟
- ما هو مجال عمل الجمعية؟
- مشابهٌ لجمعيتنا إلى حدٍّ كبير.
- لكن...

- أعلم أنّك لا ترغبين بالارتباط بعملٍ، وليس الأمر أنّ عليكِ أن تعملي، لكنّها فرصة جيدة تتناسب مع مهاراتك وشغفك، سيما أنّك لستِ مضطرة لأن تكوني حاضرة في الجمعية طيلة الوقت.

لم أكن أعي ما يقوله بالضبط، فقد كانت مشاعري مضطربة، لكنّي أجبته:

- سأفكّر بالأمر.
- لا بأس، وسأنتظر ردّك.

هممتُ بالمضي، لكنّه للمرّة الثانية أوقفني وقال لي:

- أتعلمين جود؟
- ماذا؟
- أحسد جُمان، بل أحسد كلّ من له نصيبٌ من وقتك وحياتك.
- عمر!

قلتها بتوسّلٍ كي يكفّ عن هذا الحديث، لكنّه تجاهلني وأكمل كلامه:

- أنتِ معطاءةٌ جدًا ومبادرةٌ دومًا، تمنحين وقتك ودعمك بلا حدود، تساندين الجميع، وتنشرين التفاؤل وتزرعين الأمل في

نفوسهم، وأنا واثقٌ بأنّ ما أراه هو مجرد جزءٍ بسيطٍ من كلّ ما تقدمينه.

خفق قلبي بشدّة، وحين وجدني أصغي لكلماته بتمعّنٍ وارتياح، أنهى جملته بما أراد أن يصل إليه:

- لكنّكِ في الوقت نفسه تبخلين بذلك الدفء على الشخص الذي يحبّك بصدق، تغفلين عنه عمدًا، ولا تمنحين قلبك فرصةً ليفتح له الباب...

أصابت كلماته شيئًا في وجداني، شيئًا لم أكن أرغب في الاعتراف به، حتّى أمام نفسي. صمت عمر فجأة، كان كمن استنفد طاقته، ولم يعد لديه القدرة على استئناف الكلام.

أدرتُ وجهي، وتظاهرتُ بالانشغال بهاتفي، كنتُ أبحث عن أي مهربٍ يبعد ملامحي عن مجال نظره، خشيتُ أن يقرأ في عينيّ أكثر مما ينبغي، أن يلمح ارتباكي وتأثّري، وأن يدرك أنّ كلماته قد وصلت إلى عمقٍ لم أسمح لأحدٍ بالاقتراب منه من قبل. لم أكن مستعدة بعد لمواجهته بما أشعر، فالكلمات التي قالها للتوّ لم تكن عابرةً، بل قريبة، قريبةً جدًا لحدٍّ مربك، شعرتُ وكأنّها تطوّقني من كلّ جانب، كانت

بسيطة، لكنّها حقيقية، وصداها في داخلي كان أقوى من أن أتجاهله. وكل ما استطعتُ فعله هو أن أتظاهر -كما دومًا- بأنّ شيئًا لم يحدث.

بينما في داخلي، كانت تلك هي دقّة القلب الأولى...

نغمةً جديدة، لم أسمعها من قبل...

وتوتّرًا غير مألوفٍ، لم أعتد عليه...

مربكًا، دافئًا، وحنونًا في آنٍ معًا.

جود نوفمبر 2009

إنّها الخاطرة الأولى، وقلبي يحدّثني بأنّها لن تكون الأخيرة، بل ستتبعها خواطر ومشاعر أعمق وأقوى.

لم يكن وقوفك أمامي اليوم وقوف معجبٍ أو محبٍّ اعتياديّ، بل كان وقوف شخصٍ يعرف تفاصيلي بدقّة، ويرى ما بين السطور، ويسمع السكون، ويفهمني إلى حدٍّ عميق جدًّا.

نلتَ مني يا عمر! وأوقعتني في حبّك!

حبٌّ أراه يلوح في الأفق كنسمةٍ رقيقة، توقظ شيئًا جديدًا بداخلي، مليئًا بالأمل، والتفاؤل والحماس، وترسم أحلامًا جميلة.

أشعر بتلك الشرارة الأولى التي تحمل معها أسئلةً كثيرة، والتي لا أملك لها أي إجابةٍ في الوقت الراهن، لكن كلّ ما أعرفه الآن، أنّي سأسمح لقلبي أن يخطو بحذرٍ نحو عالمك، الذي أصبحتُ فجأةً أتوق لأن أتعرّف عليه.

عمر ديسمبر 2009

هذا الصيف، لم تستطع خالتي حسناء زيارة الوطن بسبب انشغال سلام في أوراق تسجيلها في الجامعة، لذا أُجِّلَت زيارتهم إلى الشتاء في عطلة آخر السنة. ورغم قصر الإجازة مقارنةً بالصيف، إلا أنّ خالتي أصرّت على التحاق سلام بدورةٍ للغة العربية، فعلى حدّ تعبيرها، إنّ الدروس التي تحصل عليها سلام خلال الأسابيع القليلة في الوطن تعادل دروس باقي السنة برمّتها.

لسلام تركيبةٌ معقّدةٌ، ففي بعض الأمور تفاجئني ببساطتها وسذاجتها، وفي أمورٍ أخرى تفاجئني بخبرتها وحديثها الذي ينمّ عن ثقافةٍ واسعة، لذا فعنصر المفاجأة معها لا ينتهي. هي تبدي دهشتها من كلّ شيء، من كوب شاي في مقهى، أو من طعامٍ لذيذٍ تحاول وصفه وتخونها تعابير لغتنا. رغم أنّها تحاول وتبذل جهدها كي تتحدّث العربية بشكلٍ صحيح، إلا أنّ اللغات الأخرى التي تتقنها من الإنجليزية والفرنسية أثّرت على لغتها العربيّة.

كنتُ مشغولًا في اجتماعٍ دوريٍّ لفريق العمل في الجمعية حين اتصلت بي سلام، تلكّأتُ بالردّ، لكنّها عاودت الاتصال، فعلمتُ بأنّها بحاجةٍ إلى

المساعدة، فخرجتُ من الغرفة وأجبت على الهاتف لأسمع صوتها بين ضجيج السيارات وهي تقول:

- عُمر، ضعتُ مجددًا! تعال واعثر عليّ.
- أين أنتِ الآن يا سلام؟

أجابت بتردّد:

- سألتُ عن اسم الحيّ حيث أقف الآن، إنّه حيّ الزهور.
- وما الذي أوصلكِ إلى هناك الآن؟

قالت ضاحكةً:

- قصة طويلة سأحكيها لكَ عندما تأتي.
- أخبريني عن مكانٍ واضحٍ كي أستطيع الوصول إليك.
- أنا بجانب متجرٍ كبير هنا، لافتته صفراء، مكتوب عليه...

وبينما كانت تتهجّى الحروف، أجبتها مطمئنًا:

- عرفتُه، عرفتُه، أنا قادم، لا تتحرّكي من مكانك! مفهوم؟

أغلقتُ الهاتف، واعتذرتُ عن حضور ما تبقّى من الاجتماع، وأسرعتُ لنجدتها. وحين وصلتُ، وجدتها تنتظرني، وفي يدها اليمنى آيسكريم، وفي الأخرى أكياسٌ مملوءة برقائق البطاطس والشوكولاتة.

لا أفهم من أين تأتي بهذه الأعصاب الهادئة! هي تائهة وتنتظرني، ومع ذلك تملك الوقت لتتسوّق وتأكل المثلجات في عزّ البرد!

صعدت السيارة وهي تعلم أنني منزعجٌ منها، فهذه هي المرّة الثالثة أو الرابعة التي تضلّ فيها الطريق في غضون عشرة أيام. وقبل أن أتحدّث أو أقول شيئًا، بدأت سلام بالدفاع عن نفسها قائلةً:

- عُمر، أنتَ تعلم أنّ إحساسي بالاتجاهات ضعيفٌ جدًا، ولا ذنب لي في ذلك! ففي كندا لا أغادر المنزل إلا برفقة والدتي بالسيارة، وهذا يضعف إحساسي بالاتجاهات أكثر. الآن ستعاود سؤالي: لماذا لا تخبرين والدتك أو والدك ليوصلاكي إلى معهد اللغة العربية؟ سأعيد الإجابة نفسها: لأني أرغب بأن أشعر ببعض الحرية وأعتمد على نفسي، ولهذا أيضًا أتصل بكَ أنتَ بالتحديد في كلّ مرة أضيع فيها، لأنّي إن أخبرتُ والدتي بضياعي ستقلق عليّ ولن تسمح لي بالتجول بمفردي أبدًا.

بقيتُ صامتًا، فأضافت وهي تضحك:

- ثمّ ما بكَ؟! ألستَ بطلي!

قلتُ لها بلهجةٍ ساخرة:

- كفاكِ الآن يا فتاة، لا تحاولي استمالة مشاعري بهذه الكلمات.
- هذه الحقيقة!
- على أي حال، هل لي بسؤال بعد أن أنهيتِ مرافعتك؟
- نعم، تفضّل.
- كيف تضلّين الطريق نفسه في كلّ مرّة؟
- ركبتُ مرّةً في الباص الخاطئ، وفي إحدى المرّات قرّرتُ أخذ سيارة أجرة لكنّي في منتصف الطريق شعرتُ أنّي تسرّعت، فطلبتُ من السائق إنزالي واتصلتُ بكَ لأنني لا أعرف كيف أكمل الطريق. أمّا اليوم فقد قرّرتُ أن أمشي، ويبدو أنني مشيتُ في الاتجاه الخاطئ.
- والآن أخبريني: أين تودّين الذهاب؟
- اتصل أنتَ بوالدتي وأخبرها أنّني معكَ، وسنذهب إلى بيت والدكَ لرؤية ماسة، اشتقتُ إليها كثيرًا.
- كما ترغبين.

اتصلتُ بوالدي لأُعلمه بقدومنا، وانطلقنا إلى منزله. وطوال الطريق لم تهدأ سلام أبدًا، كانت تبدأ في حديثٍ وتنتهي بآخر. كنتُ أستمع لها وهي تحكي لي عن شغفها بقصص الفانتازيا والخيال، وأستغلّ الفرصة لأصحّح أخطاءها اللغوية. في النهاية شعرتُ بالإرهاق من هذه المهمّة الشاقّة، فأدرتُ مسجّل الصوت، لكنّ قائمة الموسيقى التي لديّ لم تنل إعجابها على الإطلاق، فراحت تقلّب الراديو بحثًا عن أغاني أجنبية تناسب ذوقها، مسبّبةً بذلك ضجّة أكبر، ولم تكتفِ بذلك، بل فتحت كاميرتها وراحت تلتقط الصور وتضحك وهي تضيف التعليقات عليها وتقرأ ما يكتبه الآخرون! يا للإحراج!

عمر ديسمبر 2009

بدأ يومي بشكله الاعتيادي، فتحت عينيّ، فوجدت فهد مستلقٍ بجانبي، حملته ووضعته على وسادته الخاصّة، وبدأتُ بتحضير نفسي للدوام. وحين وصلتُ عاينتُ جدول مهمّاتي المزدحم، وباشرتُ في العمل على الفور. لم أتحرّك من مكاني حتّى صارت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، حينها قرّرتُ أن أحصل على استراحةٍ قصيرة، خرجتُ إلى الفناء الخارجي لأتمشّى قليلًا، كان الطقس باردًا بالفعل، لكنّي أكملتُ دورةً كاملةً حول المبنى، ومن ثمّ دخلتُ إلى بناء الجمعية من خلال الباب الرئيسي. كانت غرفة الاستقبال الرئيسية مظلمةً بعض الشيء، نادتني الآنسة سعاد:

- سيد عمر! لديك زائر، وصلت الآنسة منذ عشر دقائق وسألت عنك.

وأشارت بيدها إلى إحدى الزوايا، وحين التفتُّ وجدتُ جود! فاجأني حضورها، ألقيتُ السلام عليها ودعوتُها مباشرةً إلى مكتبي.

تضايقتُ للغاية، وسألت نفسي: ما هذا التوقيت السيّئ؟! هل أتت اليوم كي تعطيني ردًّا على فرصة العمل! تبدو متحمّسة، لا بدّ أنّها وافقت بعد التفكير، لكنّها ومع الأسف أتت بعد فوات الأوان، يا للخسارة! لماذا تتأخّر دائمًا في ردودها! هل تظنّ أنّ الجميع سيتنظرها مثلي؟!

دخلنا إلى المكتب، فأشرتُ إليها بأن تجلس، بينما هممتُ بتحضير فنجان من القهوة لها، وسألتها:

- هل تحبّين القهوة مركّزة أم خفيفة؟
- لا داعي عمر! شربتُ القهوة قبل قليل مع والدتي.
- هل تشربين الشاي؟
- لا، شكرًا!

وضعتُ أمامها زجاجة ماء وجلستُ خلف مكتبي أفكّر كيف سأتصرّف في هذا الموقف، كنت أرغب بالفعل أن تحصل على فرصة العمل تلك، لكنّها أضاعتها بترددها وتأخيرها. تنهّدتُ وسألتُها:

- كيف حالك جود؟
- أنا بخير، ماذا عنك؟
- الحمد لله.

كانت تنظر إليّ ومن الواضح أنّها ترغب في أن تباشر في الكلام، فسألتُها:

- تفضّلي جود، أنا أسمعك.
- عمر! هل تذكر الموضوع الذي تحدّثتُ فيه مسبقًا؟ يبدو أنّ...

ابتسمتْ، وبدا على وجهها علامات الاستحسان، إذن فظنّي في محلّه، أتت لتخبرني بقبولها لعرض العمل، قاطعتها وأجبتُها بحزم:

- مع الأسف جود! انسي أمره، فهناك من يشغله الآن...

صمتت جود، كانت كمن تلقى صدمةً كبيرة، أعلم أنّها تعشق الكتابة وتبحث عن فرصةٍ مناسبة، لكن لم أتوقع أنّ الأمر يهمّها إلى هذا الحدّ. هكذا هنّ الفتيات، لا يمكن أن تخمّن متى يغضبن ومتى يمررن الأمر بسهولة. حاولتُ أن أبرّر ما حدث، فقلتُ لها:

- لقد تأخّرتِ جود! تأخّرتِ كثيرًا، يؤسفني ذلك.

ظلّت جود صامتة، تنظر إليّ بعينين حائرتين، شبّكتُ يديّ وأسندتُ ذقني عليهما محاولًا إيجاد حلٍّ أو قول شيءٍ يخفّف من وطأة الموقف.

- جود! لم أعتقد أنّ الأمر يهمّك إلى هذا الحدّ! ما بكِ؟ هلّا قلتِ شيئًا! هل لديكِ أي سؤالٍ أو استفسارٍ أو طلب؟ قولي لي وسأجد حلًّا، لا تقلقي!

استجمعتْ أنفاسها وعدّلت من جلستها ثمّ قالت:

- تدور في ذهني أسئلةٌ كثيرةٌ عمر! أكثر ممّا تتصور.
- ما هي؟ أنا أسمعك.

أجابت بتوتّرٍ ممزوجٍ بالغضب:

- أهيَ الفتاة التي تُدعى "سلام"؟

فاجأني سؤالها، ولم أفهم ما علاقة سلام بالموضوع، فسألتُها:

- سلام! هل تعرفين سلام؟ هل تحدّثتْ إليكِ؟
- وهل حكيتَ لها عنّي أيضًا؟

ارتبكتُ وأجبتُها:

- لأكون صريحًا معك، نعم! لكن آمل ألا تكون قد أزعجتك بشيء؟
- وهل يجب أن أتوقع إزعاجًا أكثر ممّا حدث؟!

- لا أفهمك جود! ما الذي حدث بينكما؟ أرجوكِ لا تأخذي كلامها على محمل الجد، فهي ما تزال صغيرة، ولا تدرك عواقب أفعالها أحيانًا.
- وتدافعُ عنها؟!
- أخبريني ماذا قالت لكِ؟
- لن أنتظر أن تقول لي شيئًا، اطمئن، سأختفي من حياتكما تمامًا، ولن أفسد التناغم والانسجام الذي بينكما!

لم أفهم عمّ كانت تتحدث بالضبط، شعرت أنّ هناك حلقة ناقصة، فسألتُها:

- جود، عمّ تتحدّثين بالضبط؟ ما دخل سلام؟ بعرض العمل؟ بالاختفاء من حياتنا؟

أجابتني بصوتٍ هادئٍ يشوبه العتاب:

- عن أي عرض عمل تتحدّث عمر؟

شعرتُ أنّ هناك سوء فهم، لكن لم أستطع أن أسترجع حديثنا، فسألتُها:

- ألم تأتِ لتخبريني برغبتك بقبول عرض العمل؟

حرّكت رأسها يمينًا ويسارًا وقالت بصوتٍ مرتجف:

- لا!

مسحتُ وجهي براحة كفّي وشعرتُ بأنّي ضيّعتُ فرصة كلامها، فقلتُ لها بكلماتٍ واضحة وبنبرةٍ جديّة وهادئة:

- جود، هناك عرضان تحدّثنا بشأنهما خلال الأشهر الماضية، عرض العمل وقد مُلئ الشاغر، وعرضٌ آخر، لا ينافسك عليه أحد، ولا يملؤه غيرك أنتِ، عرضٌ قائمٌ مدى الحياة.

حدّقتُ في عينيها، فوجدتُ ملامحها قد تغيّرت، وكأنّ ما قلته كان طوق النجاة لها. يبدو بالفعل أنّها أتت تحدّثني عن شيءٍ يخصّنا نحن الاثنين فقط. سألتها:

- هل تحتاجين إلى توضيحٍ أكثر؟

لم أحصل على أيّ رد. تذكّرتُ إشارتها لسلام، فتابعتُ كلامي:

- بالمناسبة، سلام هي أختي في الرضاعة، ومستشارتي الصغيرة في معظم شؤوني، وبالطبع أخبرتها عمّن تشغل قلبي وتفكيري، لم

يكن لديّ خيارٌ آخر، ويبدو أنّ الصور التي شاركتها في الفيسبوك في الآونة الأخيرة كانت مزعجة، كم هي طائشة!

بقيت صامتة لكنّها رسمت ابتسامةً خجولةً على شفتيها، كنت واثقًا بأنّها لن تتحدّث بشيء بعد الذي حدث. أسندتُ خدي على قبضة يدي وسألتُها بندمٍ:

- يبدو أنّي أضعتُ على نفسي فرصة بوحٍ لن تتكرّر، أليس كذلك؟

أومأتْ برأسها بالإيجاب، فسألتُها:

- ألن تقولي شيئًا؟

أجابتني بصوتٍ خجول:

- لا!

نهضتْ جود من مكانها، وقبل أن تمضي سألتُها ونحن نقف أمام الباب:

- إذن فقد حان الأوان أخيرًا؟
- أعتقد ذلك.

قالتها ومضت، وتركتني بحالٍ لا أُحسد عليها.

الفصل السادس

جود يناير 2010

لطالما احتجت إلى خططٍ دقيقة، أعدّها في مخيّلتي كما لو أني أرتّب مشهدًا مسرحيًّا، أختار كلماتي بدقّة، وأضبط نبرة صوتي، وأراقب تعابيري، وأحرص على ضبط المواقف لتبدو عفويّة، وهي في الحقيقة مدروسة بعناية. لكن تغيّر كل شيء، منذ دخلت حياتي يا عمر!

تلاشت تلك الحاجة المستمرّة للتخطيط والتفكير الزائد، وهدأت تلك اليقظة المتعبة التي كانت ترافقني في كلّ خطوة. لم أعد مضطرةً لارتداء الأقنعة، ولا إلى تزييف لحظاتي أو توجيهها نحو غاياتٍ خفيّة.

معك يا عمر، أكون كما أنا! دون حذر، أتحدّث كيفما أشاء، أتصرّف كما أشعر، وكأنّ قلبي وجد أخيرًا من يطمئن إليه، ويأمن جانبه.

لم أكن أظن أنّي سأكون بهذا الهدوء في يومٍ كهذا، يوم قُرئت فيه الفاتحة بنية التيسير وإعلان الخطوة الأولى لارتباطنا. أدركت أن كلّ الحسابات الدقيقة التي أرهقتني، وكلّ السيناريوهات المدبّرة التي كنت أرسمها بعناية، والخطط التي كنت أرتكز عليها لأشعر بالأمان، لم تكن سوى محطّاتٍ مؤقّتة، قادتني في نهاية المطاف نحو لحظةٍ كهذه، لحظةٍ أكون فيها

على سجيّتي، بلا تكلّفٍ ولا ارتباك، إلى جوارك، وأنا أكثر صدقًا، وهدوءًا، ويقينًا بأنّني وصلت إلى المكان الآمن،

وإلى بدايةٍ لا تشبه أيّ بداية.

فبسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين.

جود مارس 2010

الذهبيّ، ليس مجرد لونٍ يتلألأ على الأقمشة أو يزيّن التفاصيل، بل هو مزاجٌ كامل، وإحساسٌ يعلو فوق الكلمات. هو رمزٌ للسموّ، وللرفعة، وللوعد الذي لا يُخلف، وللتاج الذي لا يبهت مهما مرّ عليه الزمن. هو ضياءٌ لا يخفت، ولمعة فرحٍ تبقى في الذاكرة ككنزٍ ثمين وبرّاق.

حين اخترتُ اللون الذهبيّ، اخترت ما يليق ببريقكَ الهادئ، ودفئك الآسر، وحضورك المهيب، وما يليق باللمسة الملكيّة التي تعاملني بها.

تلك اللمسة التي لا تشبه سواها، والتي تأتي من قلبٍ يعرف كيف يحتوي، كيف يدُلّل، وكيف يجعلني أشعر أنّني الوحيدة، والمميزة لديه.

منذ شهرٍ ونيف، ونحن نعدّ تفاصيل الحفل بعناية، نحضّر ملابسنا، ونختار الزينة، ونراجع كلّ تفصيلة، كنتَ في بعض الأحيان تُشير إليه وتسمّيه "أصفر"، وأنا أُصرّ على تذكيرك بأنّه "الذهبيّ". الذهبيّ الذي لا يُقارن بأي لونٍ آخر، مضيءٌ، ولامع. يشبه دخولك إلى عالمي، ويشبه نظرة عينيك حين تراني.

تلك النظرة التي تقول لي: "أنتِ ملكة قلبي".

جود سبتمبر 2010

فهد! لي عندكَ رجاءٌ صغير! لا تزعجه هذا الصباح، لا تتسلّل إلى جواره ولا تتمدّد على صدره، دعْه ينام، فقد سهر ليلة البارحة بطولها، ولم يغمض له جفن. لم يكن مشغولًا معي، فنحن لم نلتقِ منذ عدّة أيام، ولم يكن يتحدّث إليّ، فأنا لا أُكثِرُ الحديث معه، أخشى أن تفلت منّي كلمةٌ تسبق أوانها، فلسنا بعد في حِلٍّ من الكلام، وأنا رغم قربي منه، إلا أنّني ما أزال غريبةً عنه. يربطني به وعدٌ ودعاء، وتفصلني عنه مسافةٌ من التقوى والحياء، تبدو محدودة، لكنّها شاسعة، ما لم تختصرها يدٌ في يد، وعقدٌ في كتاب.

دعْه ينام، لا تداعب خصلات شعره، ولا تختبئ بين ذراعيه، فقد أمضى ليلة البارحة ساهرًا بين الأوراق والرسائل وجدول المهمّات.

يعمل بصمتٍ، وبإحسانٍ، يسابق الزمن ليرسم الفرحة على وجوه الأطفال، والبهجة في قلوب أمّهاتهم.

دعْه ينام، وحين يستيقظ، بلّغه عنّي الحبّ والسلام.

جود نوفمبر 2010

يُقال إنّ "الانطباع الأوّل لا يُمحى"، وإنّه غالبًا ما يكون الأصدق، لكنّ هناك دومًا ما يكسر القاعدة.

لم يُكثر عمر الحديث عن عائلته، سمعت عن "سلام" ومزاجها الخاصّ، وعن "ماسة" الصغيرة التي تكبر بسرعة، وعن الجدّ "عزمي" وهيبته، لكن والدته؟ تُركتُ لأكتشفها وحدي!

في اللقاءات الأولى، رسمتُ عنها صورةً جامدة، سيدةً هادئةً أكثر مما يجب، في ملامحها قسوة غير مفسّرة، وفي حضورها نيّات لا أفهمها. ولأنّ الأفعال أصدق من الكلمات، وجدتني أراها شيئًا فشيئًا بعينٍ جديدة، تزيح كلّ ما رسمته مُسبقًا من ظلال.

"البيت بيتك" قالتها بصوتٍ دافئٍ وهي ترافقنا في محلّ المفروشات، لنختار أثاث منزلنا. لم تتدخّل، لم تُلقِ بالملاحظات، ولم تتقمّص دور الخبيرة. رافقتنا لا لتفرض، بل لتسند. وكلّما سألتها عن رأيها، أجابت باقتضاب، ثمّ كررت:

"البيت بيتك، ضعي لمستك كما تشائين".

وفي محلّ المجوهرات، ابتسمت وهي تقول بأناقة: "اختاري ما تحبّين، فأنتِ من سترتدينها"، لا توجيه، لا ضغط، بل دعمٌ ورفق.

لستُ محظوظةً بعمر فقط، بل بعائلةٍ تُشبهه، في النبل، وفي الخُلق، وفي الكرم. ورغم أنّي لا أعرف حتّى الآن سبب انفصال والديه، فإنّني على يقينٍ بأنّه ليس بالضرورة أن يكون هناك طرفٌ مخطئ؛ فبعضُ القصص، وإن جمعت بين شخصين طيبين، لا يُكتب لها أن تكتمل.

وأجملُ العناصر، مهما كانت نقيّة، لا تنسجم دائمًا.

جود سبتمبر 2011

سألني الشيخ وتجمّعت الأنفاس في لحظةٍ حاسمة.

"نعم أقبل!"، فهو الذي اخترته بعد أن تجوّلت روحي في دروب التردّد والترقّب، حتّى استقر بها الأمر على يقينٍ لا يهتز، بأنّه سيكون سندي وسكني وأمان قلبي، ورفيق دربي، إن شاء الله.

"نعم أقبل!"، قلتها بعدما سكن قلبي وامتلأ بالرضا. أمّا هو وحين رآني بغير حجابٍ للمرّة الأولى، لم يقل إلا كلمة واحدة: "جميلة!" بالنبرة نفسها التي أفلتت منه منذ سنوات، وبقيت محفورةً في ذاكرتي.

أمسك يدي برقّة، بعد انتظارٍ صبور، كانت لمسته الأولى أصدق شهادةٍ على حبٍّ طاهر، لكنّه سرعان ما قبض عليها بقوةٍ أكبر، كأنّه يقول:

"منذ هذه اللحظة سنكون معًا في كلّ الظروف، يدًا بيد، وقلبًا بقلب".

جود سبتمبر 2011

تمرّ في حياة الإنسان مشاهدُ لا تحدث حوله فقط، بل تنسحب إلى أعماقه، فتترسّخ في ذاكرته ولا تُمحى. ويوم الزفاف هو أحد أكثر تلك الأيام امتلاءً بتلك المشاهد: الحماس، الضحكات، والقلوب التي تخفق فرحًا.

"حياتي من دونك سلطة"، التقط كرم معي بعض الصور التذكارية، وهو يمسك بإحدى اللوحات التي نثرها في المنزل، وخطّ عليها عباراتٍ وداعيّة، كأنّه يحاول أن يسرق من الوداع شيئًا من المزاح، يخفّف عن القلب ثقل الفراق بخفّة ظله. على الجهة الأخرى، كانت ريم تبكي، دموعها تنهمر كأنّها تودّع سنواتٍ بأكملها. أمّا أنا فحاولت أن أقاوم، أبتلع غصّتي بصمت، حتّى لمحت تلك اللمعة في عيني والدي، لمعة لا تشبه الدموع، لكنّها تفصح بكلّ شيء. ذاك الرجل الصلب، صعب المراس، كاد أن ينكسر وهو يرى ابنته تغادر البيت. كلماته لعمر بقيت محفورةً في قلبي: "أُعطيك قطعةً من روحي، جوهرةً لا تُقدّر بثمن، فاحفظها وارعَها".

أمّا والدتي، فقد كانت أكثر تماسُكًا، لكن دمعة حزينة أفلتت منها، وهي تهديني قطعة من الذهب، حين همست: "هذه اللحظة، رغم فرحتها،

تظلّ من أصعب ما يمرّ به قلب الأب والأم، ستتركين فراغًا كبيرًا في البيت، لا يملؤه أحد غيركِ يا جود".

سأغادر البيت الذي احتضن أيام حياتي، ولن أعود أناديه "بيتي" بعد الآن، لكنّي سأحمل معي حقولًا من الذكريات وبذورًا من الحبّ، أزرعها في بيتي الجديد، لتكون العطر الذي يفوح في روحي، والنور الذي يضيء لي دروب حياتي المقبلة، مع الشخص الذي اختارني واخترته لنكمل المسير معًا.

جود سبتمبر 2011

في فيينا، حيث تتراقص النوافذ على نغمات موزارت، فهمتُ للمرّة الأولى سرّ "شهر العسل". لم يكن السرّ في الفنادق الأنيقة أو المقاهي العتيقة أو الرحلات الحالمة، بل في كونها المرّة الأولى التي نعيش فيها اليوم بطوله معًا، نهارًا وليلًا، دون توقّف، دون فواصل، ودون أقنعة.

شهر العسل يعرّفك إلى شريكك في ظرفٍ استثنائيّ، وفي بهجةٍ مستمرّة، وفي مواجهةٍ خفيفةٍ مع الاختلاف.

رأيته كما لم أره من قبل... حين يتعب، حين يخطئ الاتجاه، حين يتقلّب مزاجه، ما الذي يفرحه من تفاصيل يومه، وما الذي يجعله يضجر، كيف يسهو، وكيف يعتذر، أيّ الصور يحبّ أن يلتقط، وماذا يفعل حين يحتاج لمساحةٍ من الهدوء. رأيته كيف يرتّب ملابسه، وماذا يضع حوله قبل أن ينام، كيف يغفو، وكيف يتأمّل سقف الغرفة بعد استيقاظه لدقائق طويلة. والأجمل من ذلك، كيف يحاول أن يكون زوجًا مثاليًّا في أيامنا الأولى.

اندهشت تارة، وتبسّمت تارةً أخرى، واكتشفت فيه وفي نفسي ما لم يخطر لي سابقًا، وهذا طبيعيّ، فنحن لا نرى ملامح الآخر كاملةً إلا

عندما نشاركه كلّ لحظة، من ارتباك الصباح إلى صمت المساء. لكن ما فاجأني أكثر، هو كيف كانت العفوية تنساب بيننا، وكيف بدأنا نتآلف على إيقاعٍ جديد، يشبهنا وحدنا.

لم نخطّط لشهر عسلٍ طويل، فقد كان لديه مهمّات ضرورية في العمل، لكنّه وعدني بأن تكون هناك إجازة أخرى... قريبة، وربما أطول.

شهر العسل هو أوّل فصلٍ في كتابٍ حقيقيّ، يعود المرء منه بذكرياتٍ دافئة، وحماسٍ صادق لبداية عمرٍ يُبنى يومًا بيوم،ولحظةً بلحظة.

جود فبراير 2012

في إجازتنا الأولى معًا، لم يختر عمر باريس لأنّه يفضّلها، ولا لأنّها العاصمة التي تغري بمتاحفها وشرفاتها المضيئة، بل اختارها لأنّني قلت له يومًا، بنبرة شوقٍ وحنين:

"متى سأرى جُمان؟ اشتقتُ إليها حدًّا لا يُوصَف".

وفي تلك الزاوية من المقهى الباريسي، عند تقاطع الأحلام، التقيت بجُمان، وكأنّ الزمن لم يمضِ! لم تتغيّر جُمان، لم تتغيّر أبدًا، هي ذاتها الابتسامة، ونظرة العين، ونبرة الصوت .كانت اللحظات الأولى خجولةً بعض الشيء، لكن سرعان ما عدنا من غربة الفراق، إلى ضحكةٍ تشبهنا قبل أن تفرّقنا الأيام.

أمّا عمر فوقف صامتًا، يراقب من بعيد، وحين تأكّد أنّني بين أيادٍ آمنة، مضى ليمنحني الوقت كلّه، ولأعيش اللحظة التي انتظرتها برفقة صديقتي الغالية، علّي أعوّض شيئًا من ذلك الحرمان الطويل.

غمرتني السعادة، تلك التي تأتي على هيئة أشخاص:

صديقة ألتقيها بعد غياب.

ورفيق يقرأ أمنياتي من بين السطور، فيمضي ليُحقّقها دون أن أطلب.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد باريس بالنسبة إليّ مدينةً جميلةً فحسب، بل غدت حكايةً دافئةً أحتفظ بها في قلبي؛ حكايةً قدّمها لي من اختار أن يسعدني بحقّ.

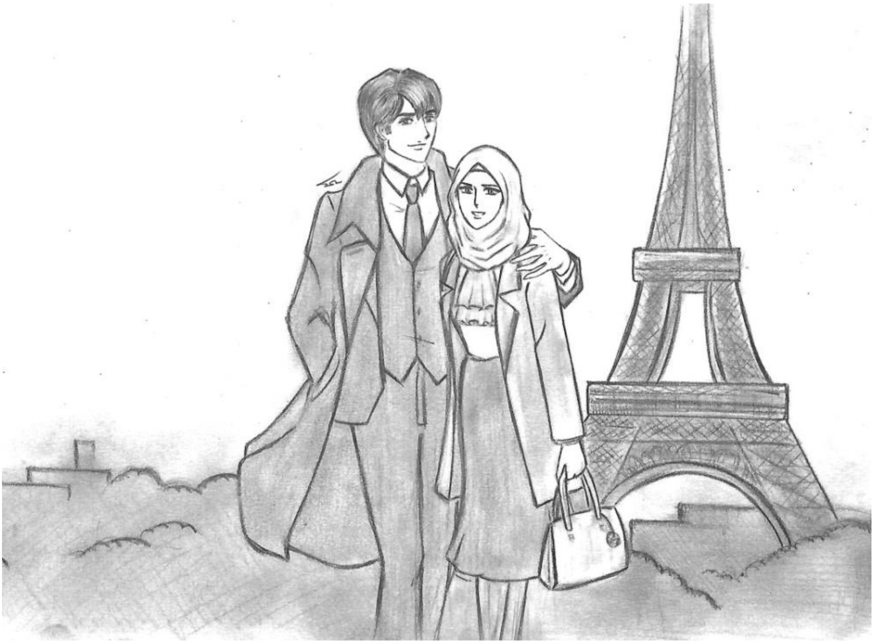

جود سبتمبر 2012

قالت الطبيبة: "إنّه صبيّ"، فتراءى لي ذاك الاسم على الفور، فحين يكون الأمر متعلّقًا بالأسماء، لا يخطر ببالي سواه. نظرت إلى عمر، وقلت: "ربيع"!

ضحك، وأومأ، وكأنّه يعرف ما يدور في خلدي.

لا أدري ما الذي يخبّئه الغد! قد تهبّ علينا رياح الخريف، وقد يُسدل الشتاء ستاره الثقيل، لكن الربيع سيعود دومًا، إن شاء الله.

يقولون إنّ الأب لا يشعر بولده حتّى يراه، لكنّ عمر ومنذ اللحظة الأولى كان يتحدّث إليه، يسمعه القرآن، ويختار ثيابه وأغراضه بعناية.

ربيعنا... ليس مجرد اسم، إنّه أمنية تكبر فينا، وتهمس كلّ مساء:

"سيأتي إن شاء الله... بخيرٍ، وسلامةٍ، وصحةٍ، وعافية".

اللهم تمّم علينا نعمك، وبلّغنا الربيع... بكلّ ما فيه.

الفصل السابع

عمر   يناير 2013

استيقظتُ بنشاطٍ وحيويّةٍ، وأنا أشعرُ بحماسٍ شديدٍ، فاليومُ لن يكونَ يومًا عاديًّا، وعلى الرّغم من مخاوفي وقلقي من قرار سلام وشعوري بتسرُّعها بالموافقة على الارتباط بآدم، إلّا أنّني أشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ لأجلهما، وأتمنّى لهما كلَّ التوفيق والسعادة. وعدتُ سلام أنّها ستحظى بحفل خطبةٍ لا مثيلَ له، حاول آدم مرارًا أن يعرض خدماته ويساعدني، إلّا أنّني أصررتُ على تولّي الأمر كلّه بنفسي. لم يكن لديّ كثيرٌ من الوقت، عشرُ أيّامٍ فقط، خلالها اصطحبتُ خالتي وسلام عدّة مرّاتٍ إلى صالة الأفراح، نسّقنا تفاصيل الحفل، واخترنا الزينة، وعلب حلويّات الضيافة، وكعكة الحفل، والمشروبات، والعصائر، وشراب اللوز. حاولتُ ألّا أنسى أيَّ تفصيلةٍ، سيّما أنّه لم يمضِ على حفل زفافي وقتٌ كثيرٌ.

كنتُ أغسلُ وجهي حين نادتني جود، لنتناول وجبة الفطور معًا:

- صباحُ الخير يا قمري.
- صباحُ النور! تأخّرتَ في النوم اليوم!

- تعمّدتُ ذلك، تعلمين سيكون اليوم طويلًا، علينا أن نحظى بقسطٍ جيّدٍ من الراحة.

طبعتُ قبلةً على كتفها، بينما كانت تُحضّر الشاي وتتحرّك بهدوءٍ في المطبخ، وسألتُها:

- كيف كانت ليلتكِ؟
- كالعادة، لم أنمْ جيّدًا، أتقلّبُ يمينًا ويسارًا، و...

رنَّ هاتفي في تلك الأثناء، فسألتني جود:

- أهي سلام؟
- نعم، دقائقُ وسأعود.

فرغتُ من مكالمتي، فسألتني جود:

- ما الأمر هذه المرّة؟
- اتصلتْ كي تتأكّد من موعد انطلاقها إلى الصالة.
- وهل أنتَ الذي سيوصلها؟
- طبعًا!
- ماذا عنّي أنا؟
- ستكونين معي أيضًا، ما الأمر يا جود؟

لم تردّ، فسألتُها:

- سننطلق عند الساعة السادسة مساءً، بالمناسبة، هل أعطيتِ عنوان الصالة لمحلّ الورد؟ لا أظنّ أنّنا سنمرّ إلى هناك.
- أيُّ محلّ؟
- باقة الورد؟ ألم تختاريها؟
- عن أيّ باقةٍ تتحدّث يا عمر؟
- التي سنرسلها إلى الصالة كتهنئةٍ باسمنا!

ردّت ببرود:

- آه، باقة الورد، لقد غاب الأمر عن ذهني يا عمر.
- هل أنتِ جادّة؟
- كنتُ مشغولةً جدًّا، ونسيتُ الأمر، تستطيع أن تمرّ على محلّ الورد وأنت ذاهبٌ إلى الشركة، وتختار الباقة بنفسك.

استفزّني ردُّها، فقلتُ بنبرةٍ غاضبةٍ:

- هل الأمر بهذه البساطة؟
- نعم، إن أردتَه بسيطًا، فهو كذلك، أمّا إن أردتَ افتعال مشكلةٍ، فلن يكون كذلك.

كتمتُ غضبي، وبدأت فكرةٌ تتسلّل إلى ذهني: "يبدو أنّ جود اختارت فريقها بالفعل". لم أُكمل طعام الفطور، وخرجتُ إلى المحلّ لاختيار الباقة، ولم أرغب حتّى في استشارتها حول ألوانها أو تنسيقها.

أمّا هي فقد اكتفت بمراقبتي وأنا أتحرّك بغضبٍ، دون أن تعقّب بأيّ كلمة.

جود يناير 2013

دخلتُ إلى القسم النسائي لصالون التجميل الذي بتُّ أرتاده بعد زواجي، فهو الأقرب إلى منزلي، بالإضافة إلى المعاملة المميّزة التي أحظى بها من قبل الموظّفات والمصفّفات، لكوني كنّة زبونتهنّ المفضّلة. وما إن لمحتني إحدى الموظّفات، حتّى نادتني وقالت بلطف:

- أهلًا مدام جود، تفضّلي، اجلسي على هذه الأريكة.
- شكرًا لكِ.
- هل ولادتكِ قريبة؟
- نعم، خلال أسابيع قليلة إن شاء الله.
- أتمنّى لكِ السلامة، لقد غادرت هيام هانم منذ قليل.
- نعم، أخبرتني أنّها ستأتي باكرًا مع سلام...
- تقصدين العروس، أليس كذلك؟ ويلاه، كم هي عنيدة، لم تقبل إلّا بتسريحةٍ بسيطةٍ جدًّا.
- تعلمين، لقد تربّت في كندا، على نمط الأجانب.
- أسأل الله أن يُسعدها، وألف مبارك مجدّدًا، هل تشربين القهوة، مدام؟

- لا، شكرًا، أُخفّف من المنبّهات هذه الأيّام.
- سأحضّر لكِ إذًا شاي الفواكه، ما رأيكِ؟
- شكرًا لكِ.

جلستُ، وقرّرتُ أن أُكمل قراءة مقالةٍ كنتُ قد بدأتُ بها إلى أن يأتي دوري، كانت المقالة عن الولادة، وكيف تهيّئ الأمّ نفسها لهذا اليوم. أخرجتُ المجلّة من حقيبتي، لكنّني لم أستطع التركيز أبدًا، إذ لاح لي وجه كرم، وقلتُ في نفسي: أهذا شابٌّ يُرفض مرّتين؟! المسكين، كم كانت سعادته غامرةً حين تخرّج وأصبح طبيبَ أسنانٍ، وعلم بعودتها إلى البلد، ظنّ أنّ سبب رفضه في المرّة الأولى أنّه كان طالبًا، لكنّه لم يتوقّع أن يتلقّى صفعةً ثانيةً برفضٍ قاطعٍ بلا سببٍ واضحٍ، لتأتي الصفعة الأخيرة لي بمعرفة أنّ عريس الهنا هو: آدم!

ليتني أعلم كيف سأخبر جُمان بالأمر! لا أفهم سرّ هذا السحر الذي يُلقيه آدم على الفتيات؛ فتلك ما تزال متعلّقةً به، وها هي الثانية تسقط في فخّه أيضًا. ليتني أعرف ما الذي يُعجبها به! شخصٌ عصبيٌّ ومزاجيٌّ، لا يمكن أن يُقارن بطبيبِ أسنانٍ، متّزنٍ، وملتزمٍ، وهادئٍ، ورزينٍ، ووسيمٍ، يقطر الحُسن من وجهه.

لعلّي كنتُ أتنهدُ بغضبٍ، إذ سألتني المرأة التي كانت تنتظر دورها بجانبي:

- الحمل صعبٌ، أليس كذلك؟ بالسلامة يا ربّ.
- نعم، "وهنًا على وهنٍ" كما وصفه الله تعالى.
- صبيٌّ أم بنت؟
- صبيٌّ إن شاء الله.
- ما شاء الله، ألف ألف مبارك.

ابتسمتُ وتظاهرتُ بأنّني أرغب في متابعة قراءة المقالة، وقلتُ في سرّي: نعم، الحمل صعب، طبعًا صعب، وها أنا الآن في شهري الأخير، وقد باتت حركتي ثقيلةً، والنوم أصبح نادرًا. أتقلّب من اليمين إلى اليسار، بلا فائدة. وحين يلامس النوم جفوني، أستفيق من حركة الطفل، أو لأسبابٍ أخرى، ومع ذلك يُحاسبني زوجي على باقة الورد التي لم أطلبها لخطبة ابنة خالة أمّه! يا للعجب! ألا يكفيني أنّني مضطرّةٌ لحضور هذا الحفل، في وقتٍ أتثاقل فيه عن تبديل ملابسي!

لم يتوقّف الأمر عند ذلك، ولتكتمل سعادتي في تلك اللحظات، رنّ هاتفي، فإذا بها جُمان، سألت نفسي: ما الذي يجعلها تتّصل بي الآن؟!

تجاهلتُ اتّصالاتها مرّةً واثنتين، فلا رغبة لي بالمواجهة وأنا بهذا الظرف، لكنّها أصرّت على المحاولة، لذا لم أجد مناصًا من الردّ عليها، وعزمتُ أن أُخفي عنها خبر الخطبة.

- أهلًا جُمان، آسفة، لم أستطع سماع رنّة هاتفي.

تنبّهتُ حالًا أنّ الكذبة الأولى قد أفلتت منّي بالفعل، استغفرتُ ربّي، وقرّرتُ أن أُناور قدر الإمكان، سألتني حين شعرتْ بأنّني لستُ على ما يُرام:

- أأنتِ مشغولة؟
- لا، لستُ مشغولة، أنا عند مصفِّفة الشعر، لذا فالجوّ صاخبٌ لا أكثر.
- أأتّصل بكِ فيما بعد؟
- لا عليكِ، أنتظر دوري، كيف حالكِ؟

تابعت جُمان كلامها، وراحت تسألني عن المناسبة التي أُصفّف من أجلها شعري، لم يكتفِها جواب: "حفل خطبة"، وأصرّت على معرفة إن كنتُ من أهل العروس أم العريس، أجبتُها حينها:

- العروس اسمها سلام، حدّثتكِ عنها حين التقينا، ربّما لا تذكرينها.

أجابتني بثقة:

- بلى، أذكرها جيّدًا، سلام أخت عمر، هل تمّ الأمر بنجاحٍ مع أخيكِ؟ مباركٌ إن شاء الله، لِمَ لَم تُخبريني مسبقًا؟
- نعم، هي سلام ذاتها، ولكن العريس ليس أخي.
- ألم تتحدّثي معها بالموضوع؟
- بلى، لكنّها لم توافق على أخي مع الأسف.
- أضاعته من يدها، لا تدري ماذا خسرت هذه الفتاة.

لم أدرِ ماذا أقول لها، فأردفت كلامها:

- إذن فأنتِ من طرف العروس، أخبريني، ومن هو سعيد الحظّ الذي رفضتْ أخاكِ من أجله؟ لا أعلم من أين لها أن تجد أفضل من كرم!
- لا أدري إن كان أفضل أم لا، القلب وما يهوى!

بقيتُ أُناور في الكلام، إلى أن أجبرتني على النطق بها، فقلتُ لها بكلّ وضوحٍ، أنّ العريس هو: آدم، آلمني أن أُخبرها بشيءٍ يُحزن قلبها، لكن ماذا أفعل؟ فمن بين الجميع، كان موقفي هو الأسوأ!

وما إن سمعت جُمان ذلك، حتّى بدأتْ برمي الكلام، خرجتُ حينها إلى الصالة الكبيرة لألّا تسمع موظّفات الصالون كلامي، وحاولتُ أن أكون حازمةً مع جُمان، كي لا تتهوّر وتتّصل بآدم، فهذا ما صرّحت به جُمان بالفعل، ذكّرتُها بأنّها هي من تخلّت عنه وسافرت وتركتْه خلف ظهرها، ومن الطبيعيّ جدًّا أن يخطب ويرتبط ويتزوّج! لكنّها انفجرت بالبكاء، حاولتُ أن أُخفّف عنها، وفي الوقت نفسه أُوضّح لها عدم منطقيّة كلامها، وخلال حديثي معها رجوتُها مرارًا ألّا تقوم بأيّ فعلٍ يتسبّب بأذيّةٍ لآدم أو لسلام، ثمّ قلتُ لها بهدوء:

- ساميحيني أرجوكِ، تعلمين أنّني مضطرّةٌ إلى حضور الحفل، ولا داعي لأن أُخبركِ أنّ لا يدَ لي في الموضوع بتاتًا!

أجابتني بصوتٍ مرتجف:

- أتفهّم موقفكِ يا جود.
- إن لم أذهب، سيعتقد الجميع أنّ الأمر متعلّقٌ بكرم، وهو ليس كذلك، أرجوكِ اعذريني.

- لن يُقدّم ذهابكِ شيئًا كما لن يُؤخّر. تخلّى عنّي وانتهى الأمر! لكن ما يُؤلمني أنّكِ أخفيتِ الأمر عنّي! لماذا لم تُخبريني؟
- سامحيني أرجوكِ، لم أكن أعلم بالتفاصيل، وتمّت إجراءات الخطبة بشكلٍ سريعٍ، لم أشأ أن أُزعجكِ بخبرٍ لستُ متأكّدةً منه.
- لا عليكِ.
- سأتّصل بكِ لاحقًا، اعتني بنفسكِ.

أنهيتُ المكالمة، وعدتُ إلى الصالة الداخليّة بحالٍ يُرثى لها، نادتني مصفِّفة الشعر كي أجلس على الكرسي وتبدأ بالعمل، ثمّ سألتني عن تسريحة الشعر التي أرغب بها، في تلك اللحظة لم أكن أعي شيئًا ممّا حولي، قلتُ في نفسي: عن أيّ تسريحةٍ تتحدّثين؟! صديقتي على بعد آلاف الأميال منهارةٌ الآن، وأمّي مكسورة الخاطر، وعليها أن تُلبّي الدعوة اليوم كي لا تضعني في موقفٍ محرجٍ مع أهل زوجي، وأنا بهذا الوضع، وهذه البطن التي تتقدّمني، سأختار تسريحة الشعر الذي أرغب بها! وددتُ لو أُجيبها: أنّني لا أرغب بشيءٍ، سوى أن أكون في بيتي لأبكي طويلًا!

تبًّا لكَ يا آدم على هذه الفعلة، ألم تجد سوى سلام لتخطبها؟!

منذ طلبه الزواج من سلام، والمشكلات تقع فوق رأسي، فحين لاحظ عمر أنّ سلام تميل إلى الموافقة، ارتبك وشعر بالمسؤوليّة تجاه الأمر، ورغم أنّه شرح لها ولوالدتها عن وضع آدم بالتفصيل، إلّا أنّه لا يزال قلقًا حيال هذه الخطبة.

هل سيكون آدم على قدر هذه المسؤوليّة؟ هل سيصونها؟ ويسعدها؟

لكن ما دخلي أنا؟ كي أسمع يوميًّا عن هذا الموضوع المملّ؟!

أجبتُ مصفِّفة الشعر:

- لا يوجد تسريحة محددة، المهمّ ألّا تُزعجني...
- مفهوم، مدام.

وبدأ الشدّ والجذب، وراح رأسي يتمايل يمينًا ويسارًا، وفجأةً أمسكت المصفِّفة بعبوة مثبّت الشعر ورشّت كمّيّةً كبيرةً على رأسي، فسألتني بقلقٍ حين رأتني أمسح عينيّ:

- أعتذر، هل دخل شيءٌ في عينيكِ؟

حرّكتُ رأسي مشيرةً لها بالنفي، لكنّها كانت فرصةً ممتازةً كي أذرف بعض الدموع التي كانت تقف على حافّة قلبي.

وحين أوشكتُ على الانتهاء، اتّصلتُ بعمر ليُقلّني إلى المنزل، فمنذ شهرٍ لم يعد يقبل عمر بأن أقود السيارة، ويكرّر: ماذا لو أتاكِ المخاض وأنتِ خلف المقود؟ لذا سايرتُه، وأصبحتُ أعتمد عليه اعتمادًا كلّيًا في تنقّلاتي، رغم أنّ مشاويري تقلّصت، فلم تعد لديّ طاقةٌ إلّا للالتزامات الاجتماعيّة الضروريّة، كهذا اليوم!

لحسن الحظّ، لم يتأخّر عمر، وحين صعدت إلى السيارة، حاولتُ أن أُخفي مشاعري وانفعالي، وعلى ما يبدو أنّني فشلت، إذ سألني عمر:

- ما بال هذا الوجه المتجهّم؟
- لا شيء! فقط أثقال الحمل.
- هل تشعرين بآلامٍ أو علاماتٍ مبكّرةٍ للمخاض؟
- لا.
- جود، أقلقتِني، لم تظهري بهذا الشكل طيلة الحمل. ما الذي يحدث؟
- لا تقلق، أنا بخير.
- إذًا هناك شيءٌ آخر يزعجكِ وتُخفينه.
- هذا صحيح، هناك ما يزعجني! ولن أُخبرك به. أرجوك، دعني بسلام الآن.
- على أي حال، أجّلي كلّ ما يزعجكِ إلى ما بعد هذا اليوم.

- حاضر، هل من أوامرٍ أخرى؟
- لا! لكنّني لا أفهم سبب نبرتك الهجوميّة، ويكفيني أنّكِ لم تُنفّذي طلبي الوحيد، باختيار الباقة.
- عمر، أظنّ أنّنا تجاوزنا هذا الموضوع. أرجوك، لا طاقة لي على الجدال.
- طبعًا سنتجاوزه، بأمرٍ من السيّدة جود!
- عمر، أرجوك... لنُنهِ هذا الحديث حالًا.
- سأنهيه، ولننطلق الآن حتّى لا نتأخّر.

وانطلق بالسيارة بعنفٍ، ليتني أعلم ما علاقة دواسة البنزين بغضبه؟! طوال طريق العودة، لم نتبادل أيّ حديثٍ، ولا حتّى النظرات، وفي البيت، ارتديتُ فستاني وجهّزتُ نفسي، ونزلتُ حالًا إلى السيارة، ولم ألتقط معه حتّى صورةً تذكاريّةً، وقبل أن نصل إلى بيت سلام، أرسلتُ رسالةً لريم كتبتُ لها فيها:

- سنذهب بعد قليلٍ إلى الصالة، أرجوكما لا تتأخّرا، تعلمين، سنكون اليوم تحت المراقبة.

رميتُ هاتفي في حقيبتي، وفكري مشغولٌ بجُمان.

عمر فبراير 2013

بعد ليلتين شاقّتين قضتهما جود وهي في المخاض، عانت فيهما ما عانته، أدركتُ جزءًا من معاناة الأمهات مع أطفالهنّ، وفهمتُ بعمقٍ معنى وصيّة رسول الله ﷺ: أمّك، ثمّ أمّك، ثمّ أمّك.

وأخيرًا، جاء ربيع، مُعلِنًا انتهاء شتاء المخاض وآلامه، وبداية فصلٍ جديدٍ من حياتنا، أنا وجود، معه. حين حملتُه بين يديّ للمرّة الأولى، أذّنتُ في أُذنه. بعدها، أعطيتُه لجدّتَيه كي تتولّيا مهمّة تحميمه وإلباسه والاهتمام به.

وبعد ساعة، وصل والدي برفقة ماسة، التي أحبّت ابن أخيها كثيرًا. بدا لها كأخٍ صغيرٍ، خاصّةً أنّ الفارق بينهما لا يتجاوز الخمس سنوات.

عرضت والدة جود المكوث معها في المستشفى، لكنّي رفضتُ، وأخبرتها أنّني أنا من سيبقى معها. وعندما حلّ وقت النوم، وبعد أن انتهينا من تأمّل ربيع، أخرجتْ جود دفترًا من حقيبة مستلزماتها. سألتُها بدهشةٍ وفضول:

- لماذا الدفتر الآن يا جود؟ لا تقولي لي إنّكِ ستدوّنين شيئًا بعد هذا اليوم الطويل!

ابتسمت وقالت:

- هذه المرّة، لن أدوّن أنا، بل أنت!
- أنا؟! ليس لديّ أيّ موهبةٍ في الكتابة.

فأجابت بثقة:

- هذا النوع من التدوين لا يحتاج إلى موهبة، بل إلى صبرٍ ومتابعة.
- لم أفهم.
- سندوّن مذكّرات ربيع حتّى يبلغ العاشرة من عمره، وبعدها سيكون قادرًا على استكمالها بنفسه.

أعجبتني الفكرة، كالعادة، لا أجمل من إبداعات جود، فسألتها:

- وماذا سأكتب؟
- اكتب عن ولادته وقدومه.

أمسكتُ القلم وبدأتُ أكتب:

اليوم هو يومك الأوّل في هذه الحياة، يا طفلي. أدعو الله أن يكون لك من اسمك نصيب، وأن تكون حياتك ربيعًا دائمًا.

قرأت جود العبارة، ثمّ قالت:

- عمر، ما رأيك أن نكتب المذكّرات كأنّها من حديثه هو؟

ثمّ بدأت تملي:

اليوم هو يومي الأوّل في هذه الحياة. عانينا أنا ووالدتي كثيرًا، لكنّنا الآن بخيرٍ، الحمد لله، وتمّت ولادتي بالسلامة. سمّوني ربيعًا، وها هما يدعوان الله أن تكون حياتي كالربيع. أذّن والدي وجدّي في أُذني، واحتفل الجميع بقدومي. آمل أن أكون مصدر سعادةٍ لهم دومًا، كما كنتُ اليوم.

أغلقت جود الدفتر، وفي عينيها دمعةُ فرحٍ، مسحتُها وطبعتُ قبلةً على رأسها، ثمّ غطّتْ في نومٍ عميقٍ.

جلستُ بالقرب من ربيع، وجعلتُ أتأمّله.

ربيع! سنكون لك نِعم الأب والأم، أنا أعدك بذلك.

جود مارس 2013

كنتُ في غرفتي، أحاول أن أغفو وأستغلّ وقت نوم ربيع، فأحصل على قسطٍ من الراحة، لكنّ الأمر ليس سهلًا، فالنعاس لا يأتي حين يكون الوضع ملائمًا للنوم. أمسكتُ بهاتفي، ورحتُ أقلّب صفحات التواصل الاجتماعي، فوجدتُ ما صدمني، وما هي إلّا دقائق قليلة حتّى وردني اتصالٌ من جُمان، يبدو أنّها تودّ أن تسألني عن الأمر ذاته.

يا لهول ما ينتظرني! ماذا يفعل هذا المعتوه؟!

- مرحبًا جود، هل رأيتِ الحالة التي حدّثها آدم قبل قليل؟
- أهلًا جُمان، نعم رأيتها.
- وما رأيك؟ ما صحّة هذا الكلام؟
- جُمان، أنتِ بعيدةٌ جدًّا عن الصورة الحقيقيّة لما يحدث هنا. منذ أربع سنوات وأنتِ في عالمٍ مختلفٍ وبعيدٍ جدًّا. دعيني أقولها بصراحة، أنتِ لم ترَيْ كيف ذاب هذا الشاب وما يزال يذوب.

كرّرتُ لها مرارًا أنّ سلام تخلّت عن كلّ شيء من أجله هو فقط، وأن أولويّة تلك الفتاة هي آدم، ويبدو أنّني قد أثرتُ غضبها، فقالت لي بحدّة:

- جود، أنتِ تتحيّزين للفتاة وتنحازين لطرفها نظرًا لقرابتها بك.
- سامحكِ الله يا جُمان، لا تظنّي بي سوءًا، اسمعيني، أنا لستُ في طرف أيٍّ منكما.
- أعلم أنّكِ لن تبوحي بأكثر ممّا قلته، لكن من الواضح أنّ آدم هو من تخلّى عنها، لذا سأنتظر حتّى تسأم وتستسلم وتدعه وشأنه...

أكملنا الحديث ذاته، وكالعادة اعتذرتْ عن قسوتها معي، فأكّدتُ لها أنّني أتفهّم وضعها، وما إن أنهيتُ المكالمة حتّى استيقظ ربيع، وذهبت فرصة الاستراحة. قضيتُ يومًا متعبًا للغاية، فوالدتي لم تستطع المرور عليّ وإعانتي، وكذلك حماتي، حتّى عمر كان لديه فعالية في الجمعية، وأخبرني بأنّه سيتأخّر، لذا حين انتهى اليوم ونام ربيع، استسلمتُ للنوم مباشرةً، وبينما كنتُ أغفو في نومٍ عميق، سمعتُ صوت أحدهم يوقظني، فتحتُ عينيّ فوجدتُ عمر، فسألته بفزع:

- خير؟ هل حدث شيء لربيع؟

فأجابني:

- لا، لم يحدث له شيء.
- إذن، ما الأمر؟
- هناك أمرٌ ضروريٌّ ومستعجل.
- ما هو؟
- صديقتكِ جُمان، ما وضعها؟

أجبته بدهشة:

- ماذا تقصد بوضعها؟
- أقصد وضعها الاجتماعي، هل هي متزوّجة، مخطوبة، أم ما تزال عزباء؟
- هل توقظني في منتصف الليل لتسألني هذا السؤال؟
- افهميني جيدًا، فجأةً وبدون سابق إنذار غيّر آدم وضع حالته الاجتماعية من "خاطب" إلى "علاقةٍ معقّدة" على الفيسبوك، هكذا أمام الجميع، دون حتّى أن يتحدّث مع سلام بالأمر، لا بدّ أنّ شيئًا ما حدث... لذلك أودّ أن أعرف ما الذي يجري بالضبط؟
- هل أنتَ جادّ بكلّ ما تقوله الآن؟!

- أخبريني جود: هل تعرف جُمان أنّ سلام خُطبت؟
- نعم، تعرف.
- إذن أنتِ التي أخبرتها؟
- نعم!

صرخ بصوتٍ مكتوم كي لا يوقظ ربيع:

- ولماذا أخبرتها؟
- سألَتْني، فأجبتها بكلّ بساطة، وهل الأمر سرّ؟

لم يردّ، لكنّه سأل بغضبٍ شديدٍ، وهو يكزّ على أسنانه:

- لماذا يتصرّف آدم بهذه الطريقة؟

قلتُ بحدّة:

- وما أدراني أنا؟ أخبرتكَ منذ البداية أن تُحذّر سلام منه، كرّرتُ ذلك مرارًا، لكنّك أريتني وجهًا غريبًا، كما لو أنّني أودّ منع هذا الارتباط من أجل أخي، لذا تراجعتُ ولم أتدخّل، ولن أفعل، لماذا لا تسأله بنفسك؟ لماذا لا تتصل به وتصبّ جام غضبك عليه؟ أليس هو سبب المشكلة؟ ما ذنبي أنا لتوقظني في منتصف الليل؟ أنا أمّ لطفلٍ صغير، وأعاني من قلّة النوم!

- لا تُضخّمي الأمور إلى هذا الحدّ.

أجبته بصرامة:

- إذن لا توقظني لأمرٍ تافهٍ كهذا، رجاءً!
- لا تستفزّيني جود، الأمر ليس تافهًا، أنتِ تعرفين أنّ كلّ ما يتعلّق بسلام هو خطٌّ أحمر...
- ماذا عنّي أنا؟ خطٌّ هلاميّ؟ هامش؟
- أشعر بأنّي أتحمّل مسؤولية ما يجري لها.
- لا يا حبيبي، لا علاقة لك بالأمر، ذهبتَ وشرحتَ لوالدتها الوضع، وتحدّثنا مع سلام مرارًا عن "حسن" أخلاق آدم، وعن قصّته وخطبته السابقة، لكنّها وافقت عليه رغم ذلك، فلتتحمّل إذن نتائج اختياراتها!

استلقيتُ مجدّدًا، وعدتُ إلى النوم، وفي الصباح، وكما هو متوقّع، استيقظتُ مع صداعٍ شديد. توجّهتُ إلى المطبخ حالًا، كي أحضّر قهوتي قبل استيقاظ ربيع، وهناك وجدتُ رسالةً على الطاولة:

أعتذر عمّا بدر منّي ليلة البارحة، أنتِ كلّ خطوط حياتي، وإشراقة عمري، وبكِ يكتمل كلّ شيء، سامحيني يا أغلى ما لديّ.

جود مايو 2013

انتهت أزمة سلام وآدم بتحديد موعد زفافهما. لم أتابع التفاصيل، ولم أعرف لماذا كان آدم يتصرّف بحماقة، ومتى عاد إلى صوابه، ولا يهمّني أن أعرف أصلًا، لكنّي في الوقت نفسه لم أخبر جُمان بشيء، فأنا مرهقة بكلّ معنى الكلمة، وسئمت من هذا الموضوع بكلّ حيثيّاته وتداعياته، لدرجة أنّني لم أعلّق على سرعة اتخاذ هذا القرار، ولم أسأل عمر أبدًا.

كان حفل الزفاف للنساء فقط، دخل العروسان، فلمحتُ ليلى تقف مع السيّدات والصبايا اللواتي وصلن معهما، يبدو أنّها كانت حاضرة في الزفّة خارج الصالة، وعند بيت أهل سلام. حمدًا لله أنّ حماتي أعفتني من الذهاب إلى هناك، فلم يكن بإمكاني تجهيز نفسي باكرًا، فلغاية اللحظات الأخيرة وأنا أؤمّن شؤون ربيع وما يحتاجه بغيابي.

أكمل العروسان طريقهما إلى المنصّة الأساسيّة، وهناك راحت المصوّرة تلتقط لهما الصور...

ويلاه، كم كان وجه آدم عابسًا! ما خطبه بالضبط؟ من يراه يعتقد أنّه مكرهٌ على هذا الزواج! ألم يطلبها بنفسه؟

كنتُ أجلس على الطاولة، لا طاقة لي أن أقف أو أهتف أو أصفّق، تنبّهتُ فجأةً بأنّ هاتفي يرنّ، فظننتُ أنّ الأمر متعلّقٌ بربيع، الذي أبقيته عند ابنة خالتي، فمن المستحيل أن أصطحبه معي، لم يكن لديّ حلٌّ آخر، فكلّ العائلة مشغولة، ووالدتي وريم مدعوتان إلى الحفل.

نظرتُ إلى اسم المتّصل، فإذا هي جُمان!

مجدّدًا، يا الله! ما هذه الورطة؟! من أين علمتِ بالأمر؟

وكما هو الحال دومًا، تجاهلتُ اتصالها لعلّها تكفّ عن المحاولة، لكنّها بقيت مصرّةً لأكثر من ربع ساعة، علمتُ أنّها لن تستسلم، فأجبتُها كي أرحمها ولا أزيد من عذابها، وقد كان ظنّي في محلّه، إذ علمتْ بأمر الزفاف وجُنّ جنونها، لكنّي لم أتوقّع منها أن تطلب منّي فتح الكاميرا. هدّدتني بأنّها قد تفعل بنفسها مكروهًا إن لم أحقّق لها طلبها، لذا لم أستطع إلّا أن أذعن لطلبها، خشيتُ عليها فعلًا، ففتحتُ الكاميرا رغم علمي بأنّه لا يحقّ لي فعل ذلك. كانت يدي حينها ترتجف بشدّة، تركتها مفتوحةً لدقائق معدودة، ومن ثمّ أدرتُها وأخبرتُ جُمان بأنّي سأغلق الكاميرا، وطلبتُ منّي ألّا أتّصل بها إلى أن تراسلني هي بنفسها. وقبل أن تُغلق المكالمة، قالت وصوتها يئنّ من الحزن: "باركي للعروسين".

شعرتُ بألمٍ شديدٍ وغصّةٍ كبيرة، لم أستطع أن أتحرّك من مكاني طيلة الحفل، كنتُ أتأمّل المشهد وأتخيّل كم تتمنّى جُمان أن تكون الآن هي العروس!

لكن مجددًا، من الذي أجبرها على تركه؟! لماذا فعلت بنفسها ذلك؟ إن كانت تحبّه إلى هذا الحدّ، لِمَ تخلّت عنه؟! كم أنتِ غبيّة يا صديقتي! كيف لي أن أساعدكِ وأنتِ لم تساعدي نفسكِ! ثمّ تأتي وتلومين الناس، تبًّا للحبّ!

وويلي إن علم عمر بما حدث.

عمر يوليو 2013

منذ زواجنا، أنا وجود، أصبح لدينا روتينٌ شهريٌّ في الزيارات والدعوات. نقضي يومًا مع والدي وفريال وماسة، ويومًا في منزل جدّي عزمي مع خالاتي وأخوالي، ونقضي بضعة أيّامٍ مع أسرة جود ووالدتي.

كنتُ في العمل حين اتّصل بي والدي ليؤكّد لي موعد العشاء في منزله، أخبرته أنّي سأحاول جاهدًا عدم التأخّر وسأفعل ما بوسعي لذلك. فمنذ عدّة أشهر تغيّرت نسبة عملي في الشركة والجمعيّة، فازدادت مهمّاتي في الشركة. في المقابل، اقتصرت مسؤولياتي في الجمعيّة على بعض الأمور الدقيقة، وعلى حضور الفعاليات الأساسيّة للجمعيّة، ومقابلة الشخصيّات المهمّة، سيّما الداعمين.

كنتُ أنظر إلى جدول أعمالي كي أرتّب المهمّات بكفاءة، فخطرت ببالي سلام، فاتّصلتُ بها لأطمئنّ عليها، فقد اجتمع عليها سفر والديها إلى كندا وبداية الحمل في الوقت ذاته، سبحان الله، بعدما أصرت خالتي حسناء على الاستقرار في الوطن، اشتدّ مرض زوجها، وها هي تعود إلى كندا من أجل العلاج، بينما تبقى سلام هنا في البلد مع آدم، وهي بأمسّ الحاجة إلى والدتها.

تحدّثتُ إليها، وبالفعل نجحت خطّتي، فحين سمعت سلام أنّي أخطّط لأكل "الشاورما" على الغداء، تحمّست للأمر، فمن عادتي أن أكتفي بتناول الشطائر أو طعامٍ سريعٍ حين أكون مدعوًّا إلى منزل والدي، بينما تتخطّى جود طعام الغداء بشكلٍ كامل، لذا كان من الجميل أن تشاركني سلام الغداء، وأقابلها وأطمئنّ عليها. حاولتُ أن أصل باكرًا، لكن مع الأسف اضطررتُ أن أبقى في الشركة بسبب اجتماعٍ طارئ، ولم أعد إلّا بعد الساعة الرابعة مساءً، وحين وصلتُ إلى المنزل وناديتُ لجود وسلام، أبدت الاثنتان عدم رغبتهما في تناول الطعام، وقلتُ في نفسي: لا بدّ أنّ سلام تناولت شيئًا. لكن مع ذلك لاحظتُ أنّ سلام لم تكن على طبيعتها أبدًا، وعلّلتُ ذلك بتقلّبات مزاج المرأة الحامل.

لم يطل مكوثها بعد وصولي، ودّعتني ومضت، أمّا أنا فأخذتُ قسطًا من الراحة، وحين استيقظتُ صلّينا المغرب وانطلقنا إلى منزل والدي.

استقبلتنا فريال بترحيبٍ شديد، هي دومًا مضيافة، وطعامها من ألذّ ما تذوّقت، وأظنّ أنّها وصلت إلى قلب والدي من معدته، كما أنّها سيّدة منزلٍ من الطراز الرفيع، تمارس التطريز وتضفي لمساتٍ جميلةً في أرجاء بيتها. طرزت لنا لوحةً باسمينا: أنا وجود، وأخبرتنا أنّها تعمل على تطريز غطاء سريرٍ لربيع. بالإضافة إلى ذلك، فهي تحبّ جود وتقدّرها. على أيّ حال، فإنّ جود محبوبةٌ من الجميع، وبارعةٌ في التعامل مع

الآخرين، وبإمكانها أن ترسم -منذ البداية- حدودًا واضحةً لأيّ علاقة. تحبّها والدتي، وكذلك زوجة والدي، ولم تؤثّر علاقتها بأيٍّ منهما سلبًا على الأخرى.

أمضينا سهرةً لطيفةً مع والدي وفريال وماسة الصغيرة، وحين عدنا إلى المنزل، وبينما كنّا ننتظر المصعد، التقينا بجارتنا السيّدة رجاء، فبادرتنا بالسلام وقالت:

- مرحبًا أستاذ عمر، مرحبًا جود، كيف حالكما؟

ردّت جود وسألتها عن أحوالها، فأجابتها السيّدة رجاء:

- الحمد لله، بالمناسبة، استمتعتُ كثيرًا بجمعتكنّ اليوم، صديقتكِ كانت لطيفةً جدًا. كما أنّي أحبّ تلك المشاكسة سلام، لكنّها لم تكن على طبيعتها اليوم، هل هناك ما يزعجها؟

ثمّ استدارت ناحيتي بسؤالها، فأجبتُها:

- هي بخير، على حدّ علمي!

أومأت لي السيّدة رجاء، ثمّ وجّهت حديثها مجددًا إلى جود:

- جود! لقد نالت صديقتكِ إعجابي كثيرًا، ابن قريبةٍ لي يبحث عن عروس، وهو يقيم في فرنسا أيضًا، هل بإمكاني الحصول على رقمها كي تتواصل قريبتي معها؟

ارتبكت جود بعض الشيء وقالت لها:

- سأطرح عليها الفكرة، لكن أعتقد أنّها لا تفكّر في الارتباط.
- أمن أجل دراستها؟

لا أعلم ماذا أجابتها جود، كنت أربط الأمور ببعضها: فرنسا، ارتباط، دراسة! وما إن دخلنا إلى المنزل حتّى سألت جود بنبرةٍ حادّة:

- من كانت تلك الصديقة التي تحدّثت عنها السيّدة رجاء؟ أهي جُمان؟

أجابت بثقة:

- نعم!
- وهل جُمان في البلد؟
- نعم!
- إذن كانت في منزلنا والتقت بسلام؟
- نعم!

- لماذا أخفيتِ عنّي الأمر؟
- لم أخفِ شيئًا، لم أرَ أنّ هناك داعيًا لتعرف.

ارتفع صوتي وقلتُ:

- كان من المفترض أن أعلم، ربما كنّا تجنّبنا وضع سلام في موقفٍ محرجٍ كهذا، أن تلتقي بخطيبة زوجها السابقة.
- ولِمَ لم تُعلمني أنتَ بمجيء سلام المفاجئ؟
- سلام في البلد، ولم أجد وقتًا مناسبًا لأخبرك. على كلّ حال، يبدو أنّكِ تحاولين تغيير الموضوع.
- ولِمَ أغيّر الموضوع؟ أنا لم أخطئ بشيء! سلام لم تُصب بأذى، ولم تأكلها جُمان، لِمَ تصرّ على تصويرها وكأنّها وحش؟!
- لستُ من يصوّرها كذلك، لكنّك تعلمين أنّ سلام هشّة وضعيفة، ولا تُحسن التعامل في مواقف كهذه.

قاطع صوت بكاء ربيع شجارنا، فأسرعت جود وحملته، أمّا أنا فقرّرتُ ألّا أواصل النقاش، لكنّي تذكّرتُ أمرًا هامًّا للغاية، أنّ لقاء الدفعة سيكون غدًا، ذلك الموعد الذي رُتّب منذ عدّة أشهر.

إذن ستحضر جُمان من كلّ بد!

عمر يوليو 2013

أنهيتُ عملي باكرًا، وتوجّهتُ إلى المنزل، وهناك وجدتُ سلام. أسعدني أنّ حالها أفضل مقارنةً بالبارحة، كما أنّ شهيّتها كانت جيّدة. حين فرغنا من طعام الغداء، سألتُها:

- ألن تعودي إلى منزلك لتتجهّزي للقاء اليوم؟
- لا، لن أذهب، لا أرغب بأن أكون ضيفًا ثقيلًا على أبناء الدفعة الواحدة.
- ومن أخبرك أنّكِ ضيف؟ أنتِ من أهل البيت ما دمتِ ارتبطتِ بأحد أبناء الدفعة، وكلّ من ارتبط سيصطحب شريكه معه إلى اللقاء.

هنا ردّت جود:

- عمر! دعها على راحتها!

رمقتها بنظرةٍ حادّةٍ، مفادها: "لا تتدخّلي"، هذا ما ينقصنا بالفعل! أتنوي جود المشاركة في تهيئة الأجواء بين الحبيبين؟!

ذهبت جود بعدها إلى غرفة ربيع الذي بدأ بالبكاء بعد قيلولة الظهر، وبقينا أنا وسلام وحدنا. تحدّثتُ معها طويلًا، وأقنعتها بالذهاب معنا إلى اللقاء، ثمّ ناديتُ جود:

- جود، هلّا ساعدتِ سلام باختيار ملابس مناسبة للذهاب إلى لقاء الدفعة معنا؟ أعتقد أنّ لكما المقاس ذاته، ولا داعي أن نضيع الوقت بذهابها مجددًا إلى منزلها.

أجابتني جود بلباقة:

- من دواعي سروري.

وانطلقنا بعدما أوصلنا ربيع إلى بيت والدتي. وما إن وصلنا إلى مكان اللقاء، حتّى اتّصلت والدتي بجود لتسأل عن كيفية تهدئة ربيع، الذي كان يبكي بشدّة. أشارت لنا جود بأن نسبقها، ريثما تتأكّد أنّ والدتي تدبّرت الأمر وأنّ ربيع على ما يرام.

دخلتُ أنا وسلام إلى الصالة المخصّصة للاجتماع، وهناك كانا أول من التقيتُ بهما، لم يُخيّب آدم ظنّي، وجدته يقف مع جُمان ويتحدّث إليها. قبضتُ على كتفه متعمّدًا إفزاعه، وحين استدار ورأى سلام معي، استغرب بشدّة وقال:

- سلام! ألم تنوي البقاء مع ربيع؟

نظرتْ سلام إليّ وكأنّها تستجديني، فأجبتُ:

- ولِمَ تبقى هي مع ربيع؟ هناك جدّته وأمّه وهما أولى به.

لم يعلم آدم ماذا يجيب، فاستدار وهو مندهشٌ من الموقف، وقال:

- دعوني إذن أعرّفكم إلى بعضكم: عمر، جُمان.

وضحك آدم ضحكةً سخيفةً في محاولةٍ منه لكسر حدّة توتّر الموقف. بعدها سلّمتُ على جُمان، فردّت بابتسامةٍ مصطنعة تعلو وجهها،

وسألتني عن جود، فأخبرتها أنّ لديها مكالمةً طارئة وستلحق بنا ريثما تنتهي منها.

نظرتُ إلى آدم بحدّة، وعلى ما يبدو أنّه فهم المغزى من تلك النظرة، فأضاف قائلًا:

- وهذه سلام، أخت عمر.

لم أتمالك نفسي، وودتُ لو ألكمه في وجهه، إلّا أنّه استدرك الأمر وقال وهو يضمّ سلام إليه:

- مهلًا، مهلًا، أنا أمزح فقط، يبدو أنّني لم أعد أجيد المزاح الجيّد. سلامي هذه جُمان زميلتنا في الجامعة، جُمان أعرّفكِ هذه زوجتي سلام!

شعرتُ حينها أنّه ردّ لسلام شيئًا من اعتبارها بعد كلّ هذا الاستهزاء، ولربما أوهمتُ نفسي بذلك كي لا أحقد عليه.

جلسنا على طاولةٍ معًا: أنا وسلام وآدم، وحين أتت جود انضمّت إلينا. حاولت جود طيلة اللقاء أن تحافظ على توازنها، وأبدت انتماءها الشديد لطرفنا، كما أنّها اعتنت بسلام بشكلٍ خاصّ، فلم تتركها لوحدها أبدًا. في المقابل لم تتحدّث إلى جُمان كثيرًا، رغم أنّي كنت أشعر برغبتها العارمة

بأن تجلس بقربها وتتحدّثان وتسترجعان ذكرياتهما الجميلة معًا وهما وسط الدفعة. لم أتمكّن من مراعاة شعور جود في هذه اللحظة، أو منحها تلك الحرّية بأن تترك سلام وتذهب إلى الضفّة الأخرى، هناك حيث صديقتها جُمان.

وبينما كانت جود تتأمّل المكان بعدم ارتياح، نظرتُ في عينيها نظرة امتنان، وأعتقد أنّها فهمت ما أرمي إليه، فابتسمت إليّ بحزنٍ بادٍ على قسمات وجهها. بقيتُ أتأمّلها، وعادت لي أنا أيضًا الذكريات القديمة، فوجودنا بين أبناء دفعتنا حرّك الأشواق القديمة لتلك السنوات التي أحببتُ فيها جود، واخترتُ فيها جود. وها هي جود الآن معي، ولي، فهل يعقل أن أتعامل معها بهذه القسوة في أمرٍ لا ذنب لها به؟

لا! لن أسمح لغضبي من مشكلات سلام وآدم أن ينصبّ على جود. فهي ليست المسؤولة، بل إنّ المسبّب الحقيقي لكلّ هذا هو من قيّد أختي بعلاقةٍ لا تليق بها، ولم يتّقِ الله في تعامله معها، ولم يُكرمها كما تستحق.

فما أكرمهنّ إلا كريم، وما أهانهنّ إلا لئيم.

جود أغسطس 2013

سافرت جُمان، دون أن أحظى بفرصة لقائها بشكلٍ جيد، فإجازتها كانت قصيرة، وظروفي صعبة، وازداد الأمر سوءًا بالتغيّر المفاجئ لموقف عمر تجاهها، إذ وضعني بين نارين، ولم أعد أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

فكّرتُ جدّيًا بأن أُخفّف تواصلي مع جُمان؟ فمهما حاولت ألّا أنقل إليها الكلام، إلّا أنّني المصدر الأساسي لأخبار آدم وسلام.

ثمّ فكّرتُ بمواجهة عمر، والتمرّد على موقفه؟! لكن لم تكن لديّ الرغبة في اختلاق المشكلات معه، ومن أجل أشياء لا تخصّني!

ظلّت تلك الأفكار تدور في رأسي دون أن أجد لها جوابًا شافيًا، إلّا أن أتى الموعد الشهريّ للقاء صديقات حماتي المقرّبات. إذ تلتقي حماتي شهريًا بعدّة مجموعاتٍ من السيّدات، يعقد اللقاء أحيانًا في النوادي، والنقابات، والجمعيّات، أو في المقاهي الفاخرة، لكنّه وفي معظم الأحيان يعقد في منازلهنّ وقصورهنّ الفاخرة، ورغم أنّ حماتي تدعوني دائمًا للذهاب معها، إلّا أنّني وبعد قدوم ربيع، أصبحت أنتقي بعض تلك الزيارات، ولم يعد لديّ الوقت والطاقة لحضور جلّها.

في ذلك اليوم، حاولت أن أنهي كلّ مهمّاتي في المنزل، فأنا إلى الآن أصرّ على تحمّل مسؤوليّة المنزل وحدي، ولا أحبّ الاستعانة بأحد، رغم إصرار عمر على توظيف عاملةٍ تمكث معنا في البيت، إلّا أنّني لا أحبّذ هذا الأمر، فيكفي أن تأتي من تساعدني في أعمال التنظيف مرّة واحدة في الأسبوع فقط.

حملتُ ربيع ومن ثمّ انطلقتُ إلى منزل حماتي، هناك حيث سيتمّ اللقاء. دخلتُ فاستقبلتني حماتي بحفاوة وأبدت إعجابها الشديد بأناقتي، وبمظهري، ولا بدّ من تلك النظرة السريعة للتأكّد أنّي قد تزيّنتُ بالمجوهرات التي جلبها لي ابنها، والتي تناسب مستوى صديقاتها. على أيّ حال، أنا أعلم أنّها لا تتعمّد إزعاجي، فهي تتصرّف على هذا النحو حتّى مع أقرب الناس إليها.

كان ربيع نائمًا، وضعته على سرير عمر في غرفة نومه، ووضعت بالقرب منه الجهاز اللاسلكي كي أسمع صوته إن استيقظ، ثمّ بحثتُ عن فهد لأتأكّد أنّه ليس بالغرفة، فوجدته يجلس أمام غرفة حماتي. اقتربتُ منه وقلتُ له:

- لا تُزعج ربيع، اتّفقنا؟

نظر إليّ بعينيه الجميلتين، ابتسمتُ له، وددتُ لو أمسح على رأسه، لكنّي إلى الآن لا أجرؤ على لمسه، لم يكن من السهل على عمر أن يتركه في منزل والدته بعد زواجنا، لكنّه أدرك أنّني من المستحيل أن أتعايش مع وجود قطٍ في المنزل، فأنا أخشى أن أقترب منه، كما أبدت حماتي رغبتها الشديدة بالاحتفاظ به، فرضخ عمر لرغبتنا وأبقاه في منزل والدته. يحبّ فهد عمر كثيرًا، ويبدو ذلك جليًّا حين يزور عمر والدته، إذ يجري فهد نحوه ويبقى في حجره طيلة الوقت دون أن يتزحزح. أمّا عمر فهناك ابتسامة خاصّة لا يُظهرها إلّا لفهد، لدرجة أنّي أغار منه في بعض الأحيان.

لوّحتُ لفهد وتوجّهتُ إلى الصالة الكبيرة، وهناك ألقيتُ السلام على سيّدات المجتمع والطبقة المخملية، جاملتهنّ قليلًا ثمّ ذهبتُ إلى المطبخ لأتفقّد الأوضاع، وكما توقّعت كانت الفوضى تعمّ المكان، والخادمة تعمل تحت إشراف غالية على قدمٍ وساق. رحّبتا بي، ثمّ سألتني غالية:

- هل يلزمكِ شيء مدام؟
- جُود... اسمي جود...
- حسنًا يا ابنتي، هل يلزمكِ شيء؟
- أنا هنا لأسألكما السؤال ذاته، هل يلزمكما شيء؟

- لا يا عزيزتي، كلّ شيء تحت السيطرة، سيصل الطعام بعد قليل، وستصل معه التعزيزات من منزل السيّد عزمي، اذهبي أنتِ إلى ضيوف حماتك...

نظرتُ حينها إلى غالية نظرةً، فهمتْ مغزاها، ومن ثمّ عدتُ إلى صالة الاستقبال الكبيرة، وجلستُ لكن هذه المرّة دون أن أتحدّث، بل رحتُ أراقبهنّ وأصغي إلى كلامهنّ.

أعلم أنّهنّ من علية القوم، مثقفات، متعلّمات، لديهنّ مشاريعهنّ الخاصّة وأثرهنّ الجميل، لكنّي لا أتمنّى يومًا أن أصبح مثلهنّ. لا أعلم لماذا تنتابني مشاعر الضيق حين أراقب تجمّعاتهنّ، ثمة شيءٌ مزعج، رغم أنّهنّ لطيفات ولبقات.

لعلّه التصنّع؟! التباهي؟! أم لأنّي أعرف مسبقًا أنّهنّ لسن على الوفاق الذي يتظاهرن به، تشتعل بينهنّ الغيرة على أتفه الأسباب، ويتبارين باستعراض أعمالهنّ ومنجزاتهنّ الخيريّة منها على وجه الخصوص. لطالما حدّثني عمر عن تحفّظه الشديد إزاء ذلك، ومنذ لقاءاتي الأولى معهنّ فهمتُ ما يقصده، فالتحدّث طيلة الوقت عن الأمور الماديّة مزعجٌ بالفعل. ناهيك عن اهتمامهنّ المبالغ بمظهرهنّ وملابسهنّ وحقائبهنّ. وحين زاد احتكاكي معهنّ، تفهّمتُ سبب تعلّق حماتي بابنة خالتها –

والدة سلام- فهي امرأة طيّبة، وودودة للغاية، ومختلفة عن نموذج صديقاتها، فقد أفلتت من حماتي كلماتٌ في مرّات عديدة، مفادها أنّها تعلم مدى غيرتهنّ منها، وأنهنّ يخفين وراء ابتساماتهنّ اللطيفة شيئًا من المنافسة المكتومة...

سألت نفسي: لكن من الذي يجبرها على مصاحبتهنّ؟!

ثمّ سخرت من نفسي من هذا الشطط في أفكاري؟ قد تكون حماتي مرتاحة وسعيدة برفقتهنّ، وأنا التي أتخيّل أمورًا لا وجود لها، ولا تخصّني بالأساس! يا لبشاعة تلك الأفكار!

تنهّدتُ وشعرتُ بمللٍ، ومن ثمّ بحنينٍ شديدٍ لجُمان...

كيف سأستغني عن جُمان؟! فحبّي لها ليس كحبّهم لبعضهم، إنّما هو حبٌّ في الله! حتّى عمر، وقبل أن نرتبط معًا، كان يدرك أنّ صداقتنا أنا وجُمان تنتمي لعالمٍ آخر، ما باله الآن ينسى أهمية جُمان بالنسبة لي؟!

اعذرني يا عمر، لن أبتعد عن جُمان، فهي بحاجةٍ لأن أبقى بجانبها، أطمئنها، وأشدّ من عزيمتها، وأنصحها، ثمّ أنصحها، ثمّ أنصحها. أيظنّني أقوم بدورٍ شريرٍ ضد سلام؟! ما الذي دهاه؟ حتّى لو لم تكن زوجة آدم هي أخته، هل سأرى صديقتي وهي تُقدم على ارتكاب الخطأ

وأقف مكتوفة الأيدي؟! وهل سأسمح لأفكارها أن تتحوّل إلى أفعال؟ وهل سأدعها تندفع خلف مشاعرها بتهوّر؟

كيف سأقول له أنّ جُمان ما تزال تحبّ آدم؟ وأشرح له ما الذي أفعله لمساعدتها على الخروج من هذه الحالة؟

أنا أتظاهر أنّ الأمور طبيعية، وهي ليست كذلك بالمرّة، وفي الوقت نفسه لا أرغب أن أزعج عمر، ولا أستطيع أن أترك جُمان وحدها في هذه المحنة. إن لم أقف بجانبها، فما فائدة صداقتنا بالأساس؟ هي بأمسّ الحاجة إليّ، ويجب ألّا أستسلم، وأن أتحمّل تبعات الأمر من الطرفين، وأسأل الله أن يكتب لي الأجر. فلا صديقة لجُمان غيري، وأنا أعلم ذلك.

سمعتُ صوت ربيع من الجهاز اللاسلكي، فاستأذنتُ وتوجّهتُ نحو غرفة عمر، جلستُ على الأرض أمام سرير عمر الفاخر، وبدأتُ بإرضاع ربيع، ويبدو أنّني نسيتُ طرف الباب مفتوحًا. فتسلّل فهد، واستلقى أمامي بهدوء.

قلتُ له:

- هل تبحث عن عمر؟ يؤسفني أنّه لن يأتي اليوم.

نظر نحوي وتجاهلني، فأردفتُ كلامي:

- أشعر بتأنيب الضمير، لقد حرمتُك منه أليس كذلك؟

أدار ظهره نحوي كما لو أنّه لا يرغب بسماع صوتي، ضحكتُ وقلتُ له:

- لا تكن طمّاعًا! أنت تراه مرّتين في الأسبوع على الأقل.

صمتُ قليلًا ثمّ أردفت:

- أمّا أنا فحُرمتُ من صديقتي، وقد تمرّ سنةٌ كاملةٌ لا أراها فيها.

تذكّرتُ مجددًا تلك الابتسامات المصطنعة التي رأيتها قبل قليل، فلاحَت لي ابتسامة جُمان الجميلة ونظرتها الحنونة، ثمّ سمعتُ نغمة صوتها حين تنادي باسمي. ابتسمتُ بحزنٍ، واختلطت مشاعري، ولعلّي أدركتُ حينها ما الذي ينقص علاقاتهنّ، ينقصها الكثير، بل ينقصها كلّ شيء. ودون شعورٍ منّي أفلتت منّي دموعي، حرّك فهد أذنيه، ثمّ نهض واقترب منّي، إلى أن لامس ذراعي بذيله متعمّدًا، بقيتُ هادئة، إذ شعرتُ بأنّه يواسيني بلطف.

سبحان الله، ما أجمل مخلوقاته!

عمر سبتمبر 2013

بدأ العام الدراسيّ الجديد، وككلّ سنة ننشغل في الجمعيّة، ويصبح تركيزنا منصبًّا على تأمين مستلزمات المدرسة لأطفال الجمعيّة. أحبّ سبتمبر، هو شهر البدايات، فذكرى زواجنا أنا وجود في سبتمبر، وحفل التخرّج في سبتمبر، كما أنّ عيد ميلاد سلام يأتي في هذا الشهر الجميل، بطقسه المعتدل وأجوائه الشاعرية. وبما أنّها السنة الأولى التي ستقضي فيها سلام عيد ميلادها مع زوجها، قرّرت أن أبتعد عن المشهد، وأتركهما دون تدخّل، لعلّ آدم يُرمِّم أفعاله السمجة معها.

حين استيقظتُ صباحًا، اتّصلتُ بسلام، وحرصتُ على التأكّد بأنّ لديها خطّة واضحة ليوم ميلادها. وفي طريقي إلى الشركة، مررتُ على مكان عملها، لم تكن سلام قد وصلت بعد إلى الأستوديو، فوجدتُ الموظّفة المساعدة تعمل على جهاز الحاسوب، وضعتُ هديةً وباقة ورد على مكتب سلام، ومضيت. أنهيتُ عملي في الشركة وعدتُ إلى المنزل، تناولت طعام الغداء، ثمّ استلقيتُ لأستريح قبل الانطلاق مجددًا إلى الجمعية، إذ كانت لديّ اجتماعٌ مسائيّ مع فاضل وبقية الفريق. أخبرتُ

جود بمواعيدي، وأنا أترقّب ردّة فعلها وشكواها بسبب انشغالي، لكنّها لم تبدِ أيّ استياء.

في تلك الأثناء رنّ الهاتف، فأجابت جود، وحين سمعتها تقول: "أهلًا آدم"، ظننتُ أنّه ينوي أن يُحضّر مفاجأة لسلام، قلتُ في نفسي: لعلّه يرغب بدعوتنا جميعًا كي نحتفل معًا، لكن لماذا لم يخبرني مسبقًا بذلك؟ على أيّ حال أستطيع أن أؤجّل موعدي مع فاضل. لكن سرعان ما تبدّدت كلّ هذه الأفكار حين سمعتُ جود تجيبه باضطراب:

- لم تتحدّث إليّ اليوم، ولا أعلم اسم أيّ صديقة من صديقاتها!

تسلّل القلق إلى قلبي، وسحبتُ السماعة من يد جود لأستفهم عن الأمر، إذ بدا من كلامها أنّ آدم يبحث عن سلام. وبدون أيّ مقدّمات سألته بصوتٍ محتدّ:

- أين سلام؟ كيف لا تعلم أين زوجتك؟

أجابني آدم متلعثمًا:

- لا بدّ أنّه سوء تفاهم.
- منذ متى فقدت التواصل معها؟
- منذ ساعتين تقريبًا.

- ولِمَ لم تتّصل بي حالًا، ألستُ أخاها؟
- لا تلمني الآن، وأخبرني ماذا علينا أن نفعل؟
- انطلق حالًا إلى منزل أهلها، وسأراك هناك.

أسرعتُ إلى منزل خالتي حسناء، وانتظرته عند البيت والقلق يكاد يقتلني، طرقتُ الباب مرارًا بلا ردّ. كنتُ أُمني نفسي بأنّ سلام ستفاجئني في أيّ لحظة وتفتح الباب. وحين وصل آدم لم أستطع حتّى النظر إليه ولا إلقاء السلام عليه، فتح الباب بنسخة المفاتيح التي معه، وللأسف لم نجدها. ركبنا سيارتي وتوجّهنا إلى الأستوديو، وفي الطريق حكى لي آدم ما حدث بينهما من سوء فهم. وحين لم نجدها في الأستوديو، راحت الأفكار السوداوية تحيط برأسي: ماذا إن خُطفت؟ أو ضاعت كعادتها؟ ماذا إن تعرّضت لحادث؟ أين هي الآن؟

انطلقنا وسألنا عنها في المستشفيات وتركنا أرقام هواتفنا، ومررنا على مراكز الشرطة، وفي أحد المراكز سأل الشرطي آدم عن لون الملابس التي كانت ترتديها ليعمّم مواصفاتها، فأجاب آدم ببساطة: "لا أعلم". نظرتُ إليه بغضبٍ شديد، وما إن خرجنا حتى لكمتُه على وجهه وصرختُ:

- أيُّها الأحمق! ألا تنظر إليها حتّى؟ وتستغرب لماذا هربت منك؟ تبًّا لك!

قبضتُ على صدره وجذبته من قميصه:

- هي أمانةٌ في أعناقنا، ألا تفهم؟

لم يجبني، فدفعته عنّي بكلّ قوتي. اتّصلتُ بجود، لم أكن قادرًا على استجماع أفكاري، فأجابت بقلق:

- ماذا حدث؟
- لم نجدها بعد.
- إهدأ أرجوك، سنجدها إن شاء الله، لا تتوتر، وكن واثقًا أنّها بخير، لن يحدث لها أي مكروه بإذن الله، أين ستبحثان الآن؟

- لا أعلم، صدّقيني.
- سنجدها، صدّقني، وأنا هنا لن أتوقف عن الدعاء، أسأل الله أن يحفظها ويحميها، ويلهمها أن تتصل بنا...
- بحثنا عنها في كلّ مكان.
- هل ذهبتما إلى بيت أهلها الريفي؟
- ذكّرتني به، لا، ليس بعد.

أغلقت الهاتف وانطلقنا إلى البيت الريفيّ، رغم أنّه على بعد ساعتين. قدتُ السيارة، وبقينا صامتين طيلة الطريق، لاحظتُ أنّ آدم بدا بحالٍ أسوأ مما كان عليه قبل ساعات، شحب لونه كثيرًا، لا بدّ أنّه فهم للتوّ معنى الأمانة!

وصلنا إلى البيت الريفي، ولم نجدها، أرسلتُ إلى جود رسالة نصيّة أعلمها بذلك، وجلسنا على الأرض بيأس. بدأ آدم يردّد مخاوفه عمّا يمكن أن تفعله سلام، كأن تؤذي نفسها مثلًا، لم أردّ على كلامه الفارغ ذلك؛ أيخيلها ضعيفة إلى درجة أن تؤذي نفسها؟ ما هذه الإهانة لها؟ هي ضعيفة وهشّة فقط لأنّها تحبّه، ولكنّه إلى الآن لم يعرف سلام الحقيقة التي أعرفها، ولم يعرف قيمتها. ليته يعلم أنّها أقوى منه! تعرّضت لمصاعب وتحديات في حياتها وكانت متماسكة، توفّي أخوها، وتغربت عن والديها، ومرض والداها، وما تزال ثابتة، أمّا هو، فإلى الآن لم يستطع أن يتعافى من فراق خطيبته السابقة له!

كنت أفكّر وحدي، وبعد صمتٍ ثقيل سألته:

- آدم، هل الأمر مرتبطٌ برؤيتك لجُمان؟

- لا أعرف بماذا تفكّر سلام، وما الذي أغضبها! وهل هو موقفٌ واحدٌ الذي أزعجها أم أنّها تكتم شيئًا في قلبها! أهو سوء تفاهم، أم أنّي ارتكبت خطأً من غير قصد؟ صدّقني لا أعلم!
- ولِمَ لم تصطحبها معك يوم لقاء الدفعة؟
- عمر، لا تتعامل معي مثل المحقّق الآن! أنا مرهق للغاية.
- أجبني، منذ ذلك اليوم وأنا أحتاج إلى إجابةٍ واضحة، وقد أتتني الفرصة الآن، فأجبني.
- لم تشأ هي الذهاب، اتصلت بي وأخبرتني برغبتها في المكوث مع ربيع، لِمَ عليّ أن أضغط على الفتاة في أمرٍ لا ترغب بفعله؟
- تريد إقناعي بما توهم به نفسك، أتراني غبيًّا إلى هذا الحدّ؟
- صدّقني، شعرت أنّه من الأفضل لها البقاء بعيدًا عن أيّ نظراتٍ أو كلمات، لا أعني نظرات حبٍّ أو كلمات غرام، لا. عمر افهمني، لم تعد جُمان تعني لي شيئًا.

أكمل كلامه ومبرراته، لم أقاطعه، وحين انتهى تنهّدت وسألته:

- أنتَ لم تحب سلام بعد، أليس كذلك؟
- للحبّ أشكالٌ عديدة، بلى أنا أحبّها!

قلت في نفسي: ليتني أعلم ما شكل هذا الحبّ الأخرق الذي يجعل زوجتك تهرب منك وهي حامل، ووالداها مسافران وبعيدان عنها! ما هذا الشكل العجيب والغريب للحبّ؟! سلام! الفتاة المدللة، والمحبوبة، والمشرقة، تُؤذى بهذه الطريقة؟ ومِن مَن؟ من زوجها الذي تركت كلّ ذكرياتها وأصدقائها في كندا من أجله؟!

أيّ شكلٍ بغيضٍ من أشكال الحبّ الذي يجعلك تتصرّف معها بهذا الاستهتار؟! كم أنتَ بغيضٌ ووقح يا آدم! هذا مسخ وليس حبًّا!

لم أتفوّه بكلمةٍ واحدة من تلك الهواجس، لكنّي رحت أسترجع ذكرياتي مع هذه الفتاة التي لا يقدّرها زوجها المعتوه. وبينما كنت أتذكّر أيام طفولتنا وفرحتنا حين تأتي سلام بالإجازة الصيفية، والأشياء والأماكن التي كانت تعشقها في البلد، تذكّرت منزل جدّنا الأكبر، وهو منزلٌ عربيٌّ قديمٌ ومهجورٌ تعود ملكيته لعائلة سلام. أخبرتُ آدم عنه، وانطلقنا حالًا، لكن هذه المرّة قاد آدم السيارة، كانت أطرافه ترتعد، رأيته يحاول السيطرة على نفسه قدر الإمكان، وشعرت بشيءٍ من الشماتة به وأنا أراه بهذه الهيئة، نعم يجب أن يتملّكه شعور الخوف، كفاه استهتارًا بها!

في الطريق اتصلتُ بجود، وأخبرتها بأنّنا عائدان ووجهتنا ستكون ذلك البيت القديم، ولا نعلم ماذا سنفعل إن لم نجدها هناك. طمأنتني جود مجددًا، وأوصتني ببعض الأذكار كي أردّدها خلال الطريق. لم أشعر بأنّ طريق العودة أخذ وقتًا طويلًا، وحين وصلنا وقفنا أمام البيت، وجدنا نورًا مضاءً من إحدى الغرف العلوية. طرقتُ الباب مرارًا، وحين لم يُفتح لنا، ابتعدنا عنه، وبقوّة رجلٍ واحدٍ كسرناه، وصعدنا إلى الغرف العلوية. طرقتُ باب الغرفة المضاءة بهدوء وأنا أناديها:

- سلام! هل أنتِ في الداخل؟ سلام! هل نستطيع الدخول؟

وحين لم نسمع أيّ ردّ، انهار آدم، في تلك اللحظة فقط أشفقت عليه، فقلت له وأنا أمسك بيده، وفتحت الباب بنفسي، فرأيتها نائمة على الأريكة، اقترب آدم منها وتأكّد من أنّها تتنفس بطريقةٍ طبيعيّة، وقال لي:

- سأنتظرها إلى أن تصحو.
- حسنًا، سأنتظركما في السيارة.

انسحبتُ وتركتهما معًا، لعلّه يصلح بعضًا من أفعاله معها. جلستُ في السيارة وسط الظلام الدامس، فاتصلتُ بجود لأبشّرها، لكنّ حديثنا طال أكثر ممّا توقعت، واستطاعت خلاله أن تسحب كلّ المشاعر السلبية التي اعترتني، قلت لها:

- أتعلمين من تذكّرت الآن؟
- من؟
- وردة الربيع!
- ولِمَ الآن بالتحديد؟
- لطالما كانت كلماتك المريحة، والجميلة كالبلسم لقلبي... أحبّك!

تنهّدت جود ولم ترد، لعلّها تفاجأت من لهجة الغزل المفاجئة تلك. فخطر ببالي سؤال، وطرحته عليها حالًا:

- جود! هل من المعقول أن تهربي منّي يومًا ما؟

كنت أنتظر جوابًا قاطعًا بـ"لا"، إلّا أنّها صمتت كأنّها تفكّر. سألتها:

- ما الأمر جود؟ أليس لديكِ جوابٌ واضح؟
- لا أعلم عمر!
- لكنّي لن أضيّعك!
- قد يبقى الشخص معك وأمامك، وأنتَ تضيّعه دون أن تشعر.

أثار كلامها شعورًا سيئًا في نفسي، وحين لاحظت جود اضطرابي، قالت:

- لا تقلق، ليس لدى أهلي إلا بيت واحد، لن تضطر أن تبحث عنّي من الشرق إلى الغرب.

بقيتُ صامتًا أفكّر، فقطعت جود صمتي وقالت بحبّ:

- عمر! لن أهرب منك إلا إليك.
- أهو كلامٌ أدبيّ فقط؟
- لا، صدّقني، وإن حدث يومًا وأضعتني، ثمة مكانٌ جميلٌ أحبّه للغاية، ابحث عنّي هناك وستجدني.
- أين؟
- هو مكانٌ مليء بالورود، وفيه شجيراتٌ جميلة، وكرسيٌّ خشبيٌّ لونه أبيض.
- أهي أحجية؟
- ليست كذلك.

في هذه اللحظة لمحتُ سلام وآدم وهما قادمان نحو السيارة، فقلت لها:

- لقد وصلا، ها هما الآن أمامي.
- حسنًا، سأغلق الخط، في أمان الله.

جود فبراير 2014

عندما اقترب عيد ميلاد ربيع الأوّل، أصرّ الجدّ عزمي على أن يُقام حفل عيد ميلاده الأولى في مزرعة العائلة، فهي أوسع وأجمل، كما أنّها مُهيّأة للمناسبات والاجتماعات الكبيرة للعائلة.

في ذلك اليوم بدت المزرعة نابضةً بالحياة؛ أشجار الزيتون تُظلّل المكان، فيما يضفي خرير الماء من النوافير بهجةً خاصّةً. كانت المائدة مُجهّزةً مسبقًا بعدما اتفقنا مع شركةٍ لتنظيم المناسبات على إعداد المكان والطعام، إذ لا تكتمل مثل هذه المناسبات من دون طبق المنسف الشهيّ.

دعونا أهلي، وحضرت سلام وآدم، وأخوال وخالات عمر، كما حضر والد عمر تلبيةً لإصرار عمر على دعوته مع ماسة. شاركنا والده الطعام ثمّ غادر باكرًا، فيما بقيت ماسة تلعب مع الأطفال بعدما أخبر عمر والده بأنّه سيتكفّل بإعادتها لاحقًا. وكما هو دومًا، أبهرني رُقيّ العلاقة بين عمّي وحماتي بعد انفصالهما؛ أن يحضر ويتحدّث مع والدها وإخوتها، وأن يهنّئ والدها في كل مناسبة ويزوره إذا مرض، في حين يستقبل أهل حماتي ابنته ماسة في مزرعتهم بترحاب. لو حُكي لي هذا لظننته ضربًا من الخيال، غير أنّي أراه بعيني.

في المقابل، لم تكن سلام في أحسن أحوالها، فقد اقترب موعد ولادتها، وهي لا تزال قلقةً من فكرة الولادة وحدها، فوالدتها لم تعد بعد من كندا، إذ لم تستقر حالة والدها الصحية. لكن، ولحسن الحظ، لم يتصرّف آدم بطفوليةٍ كما فعل المرّة السابقة حين اجتمع بكرم، وذلك في حفل العقيقة الذي أقمناه العام الماضي، أذكر يومها أنّ آدم لم يكن لبقًا مع أخي.

بعد الطعام، افترقنا إلى مجلسين؛ أحدهما للرجال، والآخر للنساء، الأمر الذي منح الجميع راحةً أكبر؛ فالنساء خلعن الحجاب لبعض الوقت، وأطلقن الموسيقى، ورقصن على أنغامها في جوٍّ من البهجة، بينما كان الأطفال يركضون ويضحكون ويملأون المكان حياةً. نظرت إلى ربيع وهو نائم، فتخيّلته يكبر، يركض ويلعب مع أبناء العائلة، فغمرتني سعادة أمٍّ تنتظر أن ترى صغيرها جزءًا من هذا العالم.

بعدها اجتمعنا مجددًا، وأشعلنا شمعة كعكة عيد الميلاد، ورحنا نغنّي. تولّت ماسة أمر نفخ الشمعة، فربيع لم يستوعب ما يجري حوله، وبالكاد استطعنا التقاط صورةٍ تذكاريةٍ، إذ كان يبكي أغلب الوقت بسبب الصخب الشديد.

دخلت إلى إحدى الغرف الهادئة، لعلّه يسكن قليلًا، وقلت له: "يبدو أنّنا بالغنا في الحفل هذا العام يا حبيبي، ولا بدّ أنّك ستستمتع به العام القادم إن شاء الله".

بقيت معه أكثر من نصف ساعة، إلى أن هدأ. وعندما انتهى الحفل، أوصلنا ماسة إلى منزلها وقد غفت في السيارة. استلمها عمي منّا وشكر عنايتنا بها. ثمّ عدنا إلى المنزل، وبعدما وضعنا ربيع في سريره. أمسك عمر دفتر المذكرات وكتب بلسان صغيرنا:

اليوم احتفل أهلي بعيد ميلادي الأوّل في مزرعة جدّي الغالي عزمي. حصلت على هدايا كثيرة، وعلى ما يبدو أنّ في هذه العائلة أفرادًا كثيرين، ويجب عليّ أن أتعرّف إليهم جميعًا... تبدو مهمّةً شاقّةً لي!

جود أبريل 2014

لم يكن صباحًا لطيفًا، فبعدما استيقظت وشرعت بتحضير طعام الفطور لي ولعمر، انكسر صحنٌ أثناء وضع الطعام. علمتُ أنّ كسر هذا الصحن لن يمرّ بهدوءٍ في المنزل، ليس لأجل قيمته، بل لأنّ ربيع حسّاسٌ تجاه الأصوات العالية والمفاجئة. ولم يخب ظنّي، إذ بدأ ربيع بالصراخ على الفور. لم يكن بكاؤه طبيعيًا، بل كان يصرخ بأعلى صوته، كما يفعل دائمًا في مثل هذه المواقف. أسرعتُ إليه لأهدّئه، لكن لم تفلح محاولاتي. عندها ناداني عمر قائلًا:

- ألم تتذكّري آخر مرة حاولتِ تهدئته هكذا ولم تنجحي؟ ابحثي عن طرائق أخرى.

في تلك اللحظة، لم أتمالك نفسي. فمنذ ولادة ربيع، وأنا أكرّس كلّ وقتي وجهدي له، خفّفت من زياراتي لأهلي، واختصرت الكثير من الواجبات الاجتماعيّة، حتّى سلام التي ولدت وحدها الشهر الماضي، لم أستطع أن أعينها بشيءٍ، لحسن الحظّ أنّ حماتها بجانبها، وسمعت أنّها ستسافر قريبًا إلى كندا، أمّا عمر، فعلى العكس تمامًا، زادت انشغالاته بعد أن أصبح شريكًا في الشركة التي يعمل بها، وصار يمتلك أسهمًا فيها

-تلك الأسهم التي اشتراها والده مسبقًا، وأهداها لعمر بعد ولادة ربيع- لدرجة إنّني لا أراه سوى دقائق قليلة في الصباح، فلم أعد أستيقظ معه لأتناول طعام الفطور أو أشرب القهوة، لأنّ طاقتي تُستنزف بالكامل مع ربيع. وفي المساء، بالكاد أراه ساعةً واحدةً، بعد عودته من عمله. نكون نحن الاثنان مُنهكين، فلا يسأل عن أحوالي، ولا يُبدي اهتمامًا بربيع كما يجب. أذكر أنّه كان متعاونًا في الأشهر الأولى بعد ولادة ربيع، يستيقظ معه، ويقرأ له القصص، لكن مع مرور الوقت، بدأ حماس عمر يخبو، لا أعلم ما السبب بالضبط؟! هل ينتظر من طفلٍ عمره سنة أن يتفاعل معه؟ عليه أن يصبر! أعلم أنّ عمر لا يريد سوى أن يكافئه ربيع بابتسامة، أو على الأقل ألا يصرخ حين يُقبّله.

أشعر بأنّي بدأت أفقد السيطرة، وبأنّ روتيننا اليوميّ أخذ منحًى سيئًا لم أكن أتخيّله يومًا، لذا وضعت نصب عيني محاولة ضبط الأمور، وهذا ما كنت أنوي إليه حين استيقظت خصيصًا قبل ربيع، لأحضّر هذا الفطور لنتناوله معًا، لعلّنا نستعيد شيئًا من تفاعلنا اليوميّ أنا وعمر. أمّا هو فيلومني ويطلب منّي بطريقةٍ تهكّميةٍ أن أجد طريقةً أخرى لتهدئة ربيع، كما لو أنّني السبب في صراخه، أو أنّني لا أفهم طفلي!

أجبته بصوتٍ مرتفع:

- لا تتشاطر عليّ! إن كنتَ تعرف طريقةً أخرى لتهدئته، جرّبها إذًا!
- ألم تحاولي فهم حالة طفلك؟

أجبته، والغضب يملؤني:

- لا أجد الوقت الكافي، فأنا أقضي معظم يومي وأنا أحاول تهدئته. وماذا عنك؟ أين دورك أنتَ أيضًا؟

ردّ محتدًّا:

- لا أجيد التعامل معه، حاولت مرارًا، وفشلت.
- حقًّا؟ تحنو وتعطف على كلّ أطفال الجمعية، لكن ابنك لا يعني لك شيئًا؟ ألا تحاول فهمه؟
- أرجوكِ، لا تزايدي على حبّي لربيع. لو احتاج عينيَّ لأعطيتُه إيّاهما دون تردّد، لكنّني لا أجيد التعامل مع صراخه. ماذا عنكِ؟ أنتِ التي خصّصتِ له كلّ وقتك، حتّى إنّكِ لا تجدي نصف ساعةٍ لنفطر معًا.

في تلك الأثناء، اشتدّ صراخ ربيع بين يديّ، يبدو أنّ أصواتنا قد أزعجته أكثر. صمت عمر، وأوقفنا الجدال. أشرتُ إلى عمر أن يحضر غطاء ربيع

ولعبته المفضّلة من على سريره، وبدأنا نهزّ ربيع بهدوءٍ قرابة نصف ساعة، حتّى هدأ وخفّ صراخه. نظر عمر إلى ساعته، فعرفت أنّه تأخّر عن عمله. قبّل رأسي قبل أن يغادر، وقال لي إنّنا سنتحدّث مساءً.

أمضيت يومًا مرهقًا ككلّ الأيام، التي لم أعد أجد فروقًا بينها، وبينما كنت أحاول ملاعبة ربيع، رحت أتأمّل ملامحه. وجهه مدوّرٌ وجميل، وخدوده ممتلئة، يقولون إنّه يشبهنا أنا وعمر في الآن ذاته، نظرت إلى عينيه، وناديته بلطفٍ شديدٍ محاولةً لفت انتباهه وبنفس الوقت عدم إزعاجه، حاولت مرارًا، ثمّ قلتُ له بحزنٍ: "لماذا لا تنظر إليّ يا حبيبي؟! لماذا؟".

عمر

مايو 2014

كنت أحتسي فنجان قهوتي قبل انطلاقي إلى العمل، وبينما كانت جود تتأمّل فنجانها، قاطعتُ تأمّلاتها وسألتها:

- هل تحدّد موعد زفاف ريم؟
- نعم، في شهر نوفمبر المقبل. أشعر بالقلق من فكرة سفر أختي.
- لكنّها لن تكون بعيدة، تفصلنا بضع ساعات فقط عن العاصمة.
- مع ذلك، وجودها هنا يشعرني بالأمان، حتّى لو كنّا لا نلتقي كثيرًا.

صمتت قليلًا ثمّ أدرفتْ:

- لماذا يسافر الجميع عمر؟
- هذه هي سنّة الحياة، لا يوجد شيء ثابت.

لم أعثر على كلامٍ يساعدها، فحاولت أن أغيّر الموضوع، وسألتها:

- بالمناسبة، ما رأيكِ أن أغيّر جرس الباب؟
- ما به الجرس؟

- أفكّر بتركيب جرسٍ جديد، يكون صوته منخفض وأقلّ حدّةً من الحرس الحالي، لعلّه لا يزعج ربيع.
- أرجوك يا عمر، لا تُبالغ. ربيع سيكبر، ولن تعود تلك الأصوات تزعجه.
- ولكن، هل ستتحمّلين صراخه في كلّ مرّة؟
- لقد نبّهتُ بالفعل أهلي، والجارة، بألّا يرنّوا الجرس حين يأتون. لم يبقَ سوى والديك، فتولَّ أنت أمر إبلاغهما وتنبيههما.
- وماذا إن أتى غيرهم؟
- عمر، من سيأتي غيرهم؟ حتّى سلام سافرت، أسأل الله أن يشفي والدها، وأن تعود بالسلامة. أتعلم؟ اشتقت إليها، رغم أنّنا في الفترة الأخيرة لم نعد نلتقي كثيرًا، كلانا مشغولتان بالأمومة!
- لا أصدق إلى الآن أنّ سلام أصبحت أمًّا ومسؤولةً عن طفلٍ صغيرٍ! على كل حال، كما تشائين.

انطلقتُ إلى العمل، وفي الطريق اتصلتُ بوالدتي.

- أهلًا عمر، كيف حالك؟ وكيف حال ربيع وجود؟
- لا جديد، ربيع طفلٌ متعبٌ جدًا، أشعر أنّه استنزف طاقة جود كلّها.

- عمر، أرجوك لا تُبالغ! كلّ الأطفال كذلك.

راودتني حينها رغبةٌ في الرد: لا، ليس كلّ الأطفال هكذا. تذكّرتُ ماسة في طفولتها المبكرة، كيف كانت تتفاعل وتُصدر أصواتًا وتُشير بيدها إلى الأشياء. لكنّني خشيت أن تتضايق والدتي، فاكتفيت بالقول: "نعم".

تابعت والدتي كلامها قائلة:

- على كل حال، أنوي الاتصال بجود لتذكيرها بموعد الجمعية غدًا. لقد تغيّبت عنّا بشكلٍ مستمرٍ منذ أكثر من ثلاثة أشهر، مع أنّنا لا نجتمع إلا مرّتين في الشهر.
- وهل تعتبرين مرّتين في الشهر قليلتين؟! جود تحتاج إلى ساعتين للاستعداد، ثمّ لقطع مشوارٍ طويلٍ، والآن لديها ربيع بطباعه الصعبة، صار من الصعب جدًا تركه.
- عمر، يجب أن تشجّعها على الخروج، لا تحبسها في المنزل مع ربيع.
- أنا لا أحبسها، بل أترك لها حرية القرار، اتصلي بها، وإن قالت لك إنّها لن تأتي، أرجوكِ لا تضغطي عليها.
- حسنًا.

- نسيت أن أخبرك: حين تزورينا، أرجوكِ لا تضغطي الجرس، بل اطرقي الباب. صوت الجرس يزعج ربيع ويدفعه إلى نوبات بكاءٍ وصراخٍ.
- إذًا، دعه يعتاد عليه. هل سنُخفي كلّ ما يزعجه من أجل راحته؟ سيصبح طفلًا مدلّلًا لا يعرف كيف يواجه الحياة.
- الأمر ليس كذلك يا أمّي، نحن لا نملك طاقةً للتعامل مع صراخه. بالتأكيد سنجد حلًّا لاحقًا.
- اعتنِ بنفسك.
- سلام!

أمضيت يومًا متعبًا بين الاجتماعات والأوراق والمستندات، وحين أنهيتُ عملي، قررتُ ألّا أذهب إلى الجمعية هذا اليوم، كي أقضي بعض الوقت مع جود وربيع. وحين وصلت إلى المنزل، كانت جود تجلس مع ربيع، تمسك بيدها بطاقاتٍ تحمل صور حيوانات، وتحاول تعليمه أسماءها، لكن ربيع كان يحدّق في ضوء السقف، دون أن يُبدي أي اهتمام. أشعلت الضوء وأطفأته مرارًا، لكنّه بقي ساكنًا.

استقبلتني جود بحفاوة، وبدت سعيدةً بوجودي المبكر. غير أنّ هذه الفرحة لم تدم طويلًا؛ فما إن بدّلتُ ملابسي، حتّى بدأت الاتصالات تنهال من الجمعية والشركة، يستفسرون عن بعض الإشكالات، بل

حتّى اتصلوا على الهاتف الأرضي، مما أثار حفيظة ربيع، وأزعجه الصوت المرتفع، خاصةً أنّه كان يحاول النوم. عندها، قررتُ أن أُخفض صوت الهاتف الأرضي إلى أدنى مستوى.

شعرتُ بالذنب لأنّ مشاغل الشركة والجمعية تسرّقتني منهما دومًا، اقترحتُ أن أكتب أنا في دفتر مذكّرات ربيع لهذا اليوم:

اليوم انتبه بابا إلى أنّ صوت الهاتف والباب يُزعجانني، فحاول إيجاد حلٍّ للمشكلة. وفي الصباح، قدّمت لي ماما طعامًا جديدًا اسمه أفوكادو، لكنّني لم أُحبّه أبدًا، سعدتُ بقدوم بابا المبكر، بالمناسبة، أحبّ ضوء السقف كثيرًا، أتأمّله لساعاتٍ طويلةٍ.

جود | يوليو 2014

- أهلًا كروم، ماذا تفعل؟
- لا شيء، على وشك مغادرة العيادة. ربما أعرّج عليكِ قبل العودة إلى المنزل، اشتقتُ لربيع.
- ألم تشتقّ لأختك؟
- رأيتك قبل يومين!
- وكان ربيع معي أيضًا.
- لا مجال للمقارنة.
- على كلّ حال، اتّصلتُ لأدعوك لتشاركنا طعام الغداء، لقد أنهيتُ تحضير طعامك المفضّل: الملوخية.
- شكرًا لكِ، نصف ساعة وسأكون عندكِ.

وبالفعل، وصل كرم في الوقت المحدد وتناولنا الغداء معًا. كان ربيع نائمًا حين أنهينا الطعام، فحضّرتُ القهوة وشربناها. وما إن استيقظ ربيع، حتّى أسرع كرم إلى حمله، فوجدتها فرصةً جيدةً لفتح الموضوع معه:

- كرم، طالما أنّك تحبّ الأطفال إلى هذه الدرجة، لِمَ لا تتزوج وتكوّن أسرةً؟
- لم يحن الوقت بعد.
- لكنّك وقبل أكثر من سنتين، رغبت في الارتباط بشدّة!
- كانت حالةً خاصّةً، أعجبتني الفتاة، ولم أرغب أن أفرّط بها، لكن كانت لها وجهة نظر أخرى، أسعدها الله هي وآدم.
- آمين، أدعو لها دائمًا بالسعادة، وإن كان وضعها الآن لا يُسعد.
- ماذا هناك؟
- هي الآن في كندا.
- أعلم ذلك، وإلا لما أكثرتُ زياراتي إليكِ. كنتُ أتجنّب التردّد إليكِ بكثرةٍ خوفًا من الحرج إذا التقيتُ بها، خصوصًا وأنّ زياراتها كانت مفاجئةً في كثيرٍ من الأحيان.
- نعم، هذا صحيح، فعمر وعائلته هم كلّ أهلها، وهي تعتبر بيتنا بمثابة بيت أهلها في الغربة التي تعيشها.
- أعانها الله. ولكن، ماذا حدث الآن؟ هل والدها بخير؟
- لا، حالته سيئة وهو الآن في المستشفى، وسلام على وشك الانهيار.
- شافاه الله وعافاه. وهل سافر آدم؟

- أنهى بعض الأمور هنا وسافر. لا يستطيع تركها وحدها في هذه الظروف.
- لا حول ولا قوّة إلا بالله.

كان ربيع يجلس على حجر كرم، هادئًا تمامًا دون أي حركةٍ أو صوتٍ، يمسك بلعبته المفضّلة، والتي أسميناها: "في في"، وهي لعبةٌ محشوةٌ بالفرو، على شكل قطةٍ سوداء تشبه فهد إلى حدٍّ كبيرٍ، جلبتها سلام لربيع العام الماضي. قال كرم:

- كم هو طفلٌ هادئٌ! ليس كخاله.
- إذن يجب أن تراه حين تأتيه نوبات الصراخ والبكاء!
- نعم، كنتُ حاضرًا مرّاتٍ عدّةً ورأيته كيف يبكي بحرقةٍ، المسكين!
- أشعر بأنّ قلبي يتمزّق حين يبكي بهذه الطريقة، وأنا أقف عاجزةً عن تهدئته! لا يقتصر الأمر على نوبات البكاء يا كرم، أشعر أن لديه تأخّرًا من نوعٍ ما، لا يستجيب لي حين أناديه، ومع ذلك فإنّ أمك وحماتي تطمئنانني دومًا. حماتي تقول إنّ عمر لم ينطق أي كلمةٍ حتّى بلغ سنتين ونصف، وأمّك تسرد لي قصصًا مشابهةً.

- قد يكون لديه مشكلةٌ في السمع! فيرفع صوته حين يبكي، ولا يتفاعل حين تنادينه.
- أذكر أنّ طبيبه أجرى له فحصًا للسمع منذ أيامه الأولى.
- ما الضير إذا كررتِ الفحص؟
- معك حق.

أنهى كرم قهوته، واقترح أن أذهب معه لزيارة أهلي، لكنّني تثاقلت بسبب حمل ربيع وأغراضه، خصوصًا أنّ عمر سيعود بعد ساعتين، فرفضت. كما أنّ أمي وريم ستزورانني غدًا قبل ذهابهما إلى السوق لشراء قماشٍ لحفل زفاف ريم.

غادر كرم، وبعد ساعتين عاد عمر من الشركة، حضّرت له الطعام، لكنّه لم يأكل سوى لقيماتٍ. يبدو أنّ ضغط العمل يؤثر عليه، وربما تسبّب له بقرحةٍ في المعدة. أعددت له خلطة أعشابٍ خاصّةً، فشكرني وقال:

- لا مثيل لكِ في الدنيا كلّها.

أسعدت كلماته قلبي، وأنستني تعب اليوم كلّه، نظرت إليه بودٍّ، وابتسمت، لم يكن لديّ القدرة على مجاراته في الكلام، فجلست إلى جانبه ووضعت ربيع في حضني، حاول عمر أن يلاعبه، ناداه مرارًا،

وحاول أن يلفت انتباهه، وحين لم يُبدِ ربيع أي تفاعلٍ معه، وجدتها فرصةً مناسبةً، فقلت له وأنا أتصنّع الهدوء:

- عمر! ما رأيك أن نعرضه على طبيبٍ؟
- طبيب؟ لماذا؟

أجبته وقلبي يرتجف:

- سلوكيات ربيع لا تشبه سلوكيات بقية الأطفال في عمره...

قطّب عمر حاجبيه وبدا عليه القلق، وقاطعني قائلًا:

- ماذا تقصدين بالضبط؟
- سيتمّ ربيع ثمانية عشر شهرًا بعد أسابيع، لكنّه إلى الآن لا يتجاوب مع الأصوات حوله.
- لكن يا جود، لكلّ طفلٍ طور نموٍّ خاصٌّ به.
- قد يكون لديه مشكلةٌ في السمع، أنا لا أعلم، علينا أن نستشير الطبيب.
- اتصلي غدًا بعيادة الدكتور فؤاد، واحصلي على موعدٍ.
- إذن أخبرني بالأوقات المتاحة حسب جدولك.
- لا عليكِ! خذي أقرب موعدٍ ممكنٍ، وسأفرّغ نفسي.

أخذ عمر ربيع من حضني وضمّه إليه، دون أن يعلّق بأي كلمةٍ، نظرت إليه، وقلت له:

- لم أشأ أن أثير مخاوفك، لا تقلق!

تنهّد ونظر إليّ باضطرابٍ، واكتفى بهزّ رأسه يمينًا ويسارًا، ثمّ نهض وهو يحمل ربيع بين ذراعيه، وراح يمشي في البيت إلى أن غفا ربيع على كتفه.

عمر أغسطس 2014

وصلنا إلى العيادة، وهناك رحّب بنا الدكتور فؤاد، وسألنا:

- كيف الحال؟ وكيف حال العائلة؟
- كلنا بخيرٍ الحمد لله.
- والآن أخبراني ما الأمر؟

نظرت إلى جود، فأشارت إليّ بأن أبدأ بالكلام، فقلت:

- كما تعلم يا دكتور، في المرّة الأخيرة حين أتينا من أجل لقاحات ربيع، كان عمره سنةً، ما حدث أنّنا وخلال الأشهر الماضية، توقّعنا زيادةً في تفاعله معنا، لكنّه ما يزال يبدي انعزالًا غريبًا، كما أنّه يبكي بشدّةٍ، فنعجز أحيانًا عن تهدئته، لذا قررنا أن نناقش هذه الأمور معك.
- دعوني أولًا أجري له بعض الفحوصات الروتينيّة.

حمله الدكتور فؤاد بلطف، ووضعه على طاولة الفحوصات، وهناك أخرج بعض الأدوات وبدأ بفحصه، ثمّ نادى الممرضة لتساعده في

فحوصات السمع، وبعدما أنهى إجراءاته، حملت جود ربيع وجلسنا معًا مجددًا، فتح الدكتور ملف ربيع، وقال:

- لا يبدو أنّ لديه مشكلةً واضحةً في السمع، مدام، لقد كانت ولادته طبيعيةً، ولم تواجهي أي مشكلاتٍ أثناء الحمل والولادة، أليس هذا صحيحًا؟

أجابته جود:

- نعم دكتور، هذا صحيح.

وجّه السؤال لكلينا، وقال:

- هل يوجد في العائلة من يعاني من مشكلاتٍ في التطور أو تأخّرٍ في الكلام؟

أجبنا معًا:

- لا!

أكمل أسئلته قائلًا:

- عندما تنادونه باسمه، هل يلتفت إليكما، أم يتجاهل؟

- لا يلتفت، في أغلب الأحيان.
- وهل ينظر في أعينكم عندما تتحدّثون معه؟ أو عندما تضحكون أمامه؟
- لا!
- هل يشير بيده إلى شيءٍ يريد أن يشارككما به، مثل لعبةٍ أو طعامٍ؟ أو يلوّح بيده للوداع؟

هنا أجابت جود:

- لا يفعل ذلك.
- هل يستخدم كلماتٍ واضحةً؟ هل لديه أكثر من خمس كلماتٍ مفهومةٍ؟
- لا، كلماته قليلةٌ جدًا وغير واضحةٍ.
- إذا صفّقتما أو قلّدتما صوت حيوانٍ ما، هل يقلّدكما؟

أجابت جود وقد بدا القلق واضحًا عليها:

- للأسف لا، لا يستجيب.
- وهل يشارك في لعبٍ بسيطٍ معكما، كأن يدفع سيارةً صغيرةً أو يخبّئ لعبةً ويعطيها لكما؟

أجابت جود:

- لا، لا يظهر هذا النوع من التفاعل.
- هل لاحظتما أنّه يكرر أفعالًا معيّنةً بعينها؟ مثل إدارة العجلة مرارًا أو التلويح بيده بطريقةٍ نمطيّةٍ أو التحديق في الأشياء الدوّارة؟
- لا، لا يفعل هذا عادةً.
- وهل يتأثّر بأصواتٍ محددةٍ؟ أو أنواعٍ معينة من الطعام، لدرجةٍ أن تنتابه نوبات غضبٍ؟

أجبته:

- نعم، يتأثّر جدًّا بالأصوات العالية وينفعل بسرعةٍ.
- هل فقد كلماتٍ أو مهاراتٍ كان قد اكتسبها سابقًا؟

أجابت جود:

- لا، فهو بالأصل لم يتطوّر كثيرًا.
- وماذا عن نومه وأكله؟ هل توجد مشكلاتٌ؟
- نومه غير منتظمٍ، أمّا أكله فيبدو طبيعيًا.
- هل يجلس أمام التلفاز؟

أجابت جود:

- قد ينظر إلى الشاشة نصف ساعةٍ، لغاية ساعةٍ على الأكثر.

مع كلّ سؤالٍ وجوابٍ كان القلق يزداد، اكتسى الشحوب وجهينا تمامًا، إذ بدا واضحًا أنّ هناك خطبًا ما، جلس الطبيب لحظةً يفكّر، ثمّ قال بهدوءٍ:

- أشكركما على صراحتكما في الإجابة. ما أراه من وصفكما يحتاج إلى متابعةٍ دقيقةٍ. بعض السلوكيات التي ذكرتماها لا تتماشى مع مراحل النمو المتوقعة لعمر ربيع.
- ماذا تقصد يا دكتور؟ هل الأمر خطيرٌ؟
- ليس بالضرورة أن يكون خطيرًا، لكن من المهم ألّا نهمل هذه المؤشرات. مثلًا: عدم الاستجابة عند النداء، ضعف التواصل البصري، قلّة الكلام، وردود فعله المبالغ فيها تجاه الأصوات، كلّها إشاراتٌ تحتاج إلى تقييمٍ دقيق.

لم تستطع جود أن تخفي دموعها، التي انهمرت بشكلٍ مفاجئٍ، كما لو أنّها كانت تحبسها منذ أن وصلنا، سألته بانفعالٍ شديدٍ:

- وهل هو مصابٌ بمرضٍ ما؟

- لا نستطيع أن نحكم الآن. الأطفال يختلفون في نموهم، لكن من واجبنا أن نتأكّد. قد يكون مجرد تأخّرٍ بسيطٍ يحتاج إلى متابعةٍ ودعمٍ، وقد يكون جزءًا من اضطرابٍ يحتاج إلى تدخّلٍ مبكرٍ. أنصحكما بألّا تضيّعا الوقت. من الأفضل أن تعرضا ربيع على طبيبٍ مختصٍّ في سلوك الأطفال وتطوّرهم. هؤلاء الأطباء لديهم أدوات تقييمٍ أدقّ، ويمكنهم تحديد إن كان يحتاج إلى علاجٍ نطقيٍّ أو دعمٍ سلوكيٍّ.
- وهل يمكنك أن ترشّح لنا أحد الأطباء؟
- نعم، هذه أسماء بعض الأطباء الموثوقين في هذا المجال. الأهم أن تحصلا على موعدٍ قريب، فالتدخّل المبكّر يحدث فرقًا كبيرًا.

شكرته وخرجنا من العيادة، وفي السيارة حاولت أن أبدو متماسكًا، وجعلت أردد "لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل" علّها تخفف عنّي ما يعتري صدري من ضيقٍ، أمّا جود فاحتضنت ربيع بقوّةٍ، بينما كان نائمًا في حضنها، كانت دموعها لا تتوقّف عن الانهمار، لم أتحدّث معها ولا هي حادثتني، إذ سيطر الرعب علينا، لدرجة أنّنا لم نسأل الطبيب عن اسم المرض الذي يشتبه به!

جود　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　أغسطس 2014

وكأنّ المصائب تأبى أن تأتي فرادى، بل تصرّ على أن تتزاحم دفعةً واحدةً. عدنا من عند طبيب الأطفال مثقلين بالهموم، لا أنا ولا عمر كنّا قادرين على الكلام. كان عمر يكرر "حسبنا الله ونعم الوكيل"، أمّا أنا فاتخذت من الصمت والبكاء وسيلةً أنفّس بها عن حزني وأشتّت بها أفكاري. كانت الساعة الرابعة عصرًا، كنت على وشك الاتصال بأخصائي السلوك والنمو الذي رشّحه لنا الطبيب. لكن اتصالًا آخر هزّنا قبل أن أرفع الهاتف. كان المتصل هذه المرّة آدم. وما إن سمعت اسمه حتّى تبادر إلى ذهني: "آخر ما ينقصني الآن مشكلاته مع سلام، هل هربت؟ هل ضاعت؟"

لكن صوت عمر قطع شرودي وهو يقول: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون". جلس عمر على الكرسي مثقلًا، فأحضرت له كأسًا من الماء. أخبرني أنّ والد سلام قد تُوفي. حزنت كثيرًا، رغم أنّي لم ألتقِ به سوى مرتين أو ثلاثًا، وحزني الأكبر كان على سلام.

لم أحصل على موعدٍ قريبٍ مع الطبيب المختصّ، وأجّلنا الموعد أسبوعًا كاملًا حتّى يتمكّن عمر من أداء واجب العزاء مع أهل العمّ حسان.

أمضيت أسبوعًا صعبًا للغاية، وعندما حان الموعد ذهبت وقلبي يرتجف رعبًا، في كلّ خطوةٍ كنت أحاول أن أُكذّب إحساسي، وأقنع نفسي أنّ ربيع طفلٌ طبيعيٌّ، وهو يمرّ بمرحلة نموٍّ مختلفةٍ فقط لا غير.

وفي الجلسة الأولى، كان ربيع يجلس في حجري، يمسك بلعبته الصغيرة. تابع الأخصائي حركاته للحظات، ثمّ التفت إلينا وقال:

- بدايةً، أقدّر قلقكما وحرصكما على المجيء مبكرًا. هذه خطوة مهمة. لكن أريد أن أوضح شيئًا: لا يمكن أن نحدد تشخيصًا نهائيًّا من الجلسة الأولى، بل نحتاج إلى فترة تقييم تمتد عدّة أشهر.
- عدّة أشهر؟ ولماذا كلّ هذا الوقت يا دكتور؟
- لأنّ الطفل في هذا العمر يكون في مرحلة نموٍّ حسّاسةٍ، وسلوكياته قد تتغيّر بالتدريب أو بفعل عوامل بسيطة. لا نريد التسرّع في إصدار حكمٍ قد يكون غير دقيقٍ. التشخيص يحتاج إلى ملاحظاتٍ متكررةٍ، واختباراتٍ قياسيةٍ، واستبياناتٍ منكما.

هنا تدخّل عمر وسأل:

- وما الذي سنفعله خلال هذه الفترة؟

- سنعمل على خطّةٍ مبدئيّةٍ مكوّنةٍ من ثلاث مراحل: شهران من الملاحظة والتقييم، أسجّل ملاحظاتكما اليومية عن ربيع: هل يستجيب لاسمه؟ هل ينظر في العيون؟ كيف يلعب؟ وأراقبه أنا في العيادة خلال عدة جلساتٍ قصيرةٍ، سأستخدم بعض الاستبيانات لقياس مؤشرات التوحّد المبكّر.

توحّد! شعرت أنّ الدنيا تدور بي، حاولت أن أتماسك، كان الطبيب يتابع شرح المراحل، فتنبّهت لضرورة فهم ما يقوله، فقاطعته قائلةً:

- عفوًا دكتور، اعذرني، ما هي تفاصيل المرحلة الثانية؟

عندها كرر الدكتور الشرح بهدوء:

- بعد شهرين، إن بقيت الأمور على ما هي عليه، سنبدأ بجلسات سلوكٍ مبسّطةٍ لتعزيز التواصل البصري وتشجيعه على الاستجابة لاسمه. سأدرّبكما على استراتيجياتٍ للتعامل معه في البيت: تقليل الشاشات، ألعابٍ تفاعليةٍ بسيطةٍ، كلماتٍ قصيرةٍ وواضحةٍ. إذا أظهر استجابةً لبعض هذه التدخلات، فذلك مؤشرٌ إيجابيٌّ. بعد ذلك، يكون عمر ربيع مناسبًا للتقييم الشامل، ونستطيع أن نجري اختباراتٍ أدقّ، عندها فقط يمكننا الاقتراب من التشخيص النهائيّ.

- هل هذا يعني: أنّه لا يوجد تشخيص اليوم؟
- بالضبط. لا يمكن أن نحصل على تشخيصٍ من جلسةٍ واحدةٍ، ولا حتّى من أسبوعٍ أو أسبوعين. نحن نتعامل مع نموٍّ إنسانيٍّ متغيّرٍ، لكن اطمئنّا، نحن لا ننتظر بلا فعلٍ، بل سنعمل مع ربيع طوال هذه الفترة، وأي تحسّنٍ نرصده سيكون خطوةً في صالحه.

التفت الطبيب إلى ربيع الذي كان يجلس في حجري، وقال له بابتسامةٍ دافئةٍ:

- أمامنا طريقٌ طويلٌ يا بطل.

لكن ربيع لم يتجاوب، وظل ممسكًا بلعبته، عدنا إلى المنزل مثقلين بالصمت. أردت أن أفتح حديثًا مع عمر لكن الكلمات خانتني، فيما كان هو يحاول أن يقوّيني ويطمئنني قائلًا: "كلّ أمرٍ يأتينا من الله هو خيرٌ، وهو اختبارٌ لإيماننا". أمّا عقلي، فكان غارقًا في كلمةٍ واحدةٍ لا تفارقني: توحّد!

عمر أغسطس 2014

وعدتُ ربيع منذ اللحظة الأولى لولادته أن أربيه أفضل تربيةٍ، أن أكون له السند والمعلّم والقدوة، أن أقدّم له كلّ ما حُرمت منه في طفولتي. كنت أراه مشروع عمري، ولم أتخيّل أن أسمع هذه الشكوك حول حالته، كنت أوهم نفسي أنّ الأمور طبيعية، لكن حين كرر الطبيب كلمة "توحّد"، أدركت أنّنا سنواجه واقعًا مختلفًا عمّا كنّا نرسمه في مخيلتنا.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، كنت أتساءل: هل ضاعت أحلامي؟ هل قصّرتُ في حقّه؟ هل فاتتني ملاحظة العلامات المبكرة؟ أيُّ أبٍ سأكون له إن لم أستطع أن أحميه؟

كنت أحلم أن أراه يكبر أمامي، يشاركني أحاديثه الصغيرة، يسألني عمّا يحيّره، ويقلّد خطواتي، لكنّي اليوم أشعر بأنّ الحلم يبتعد، ويغمرني خوفٌ لم أعرف مثله من قبل: ماذا لو كان مستقبله محفوفًا بالعزلة؟ ماذا لو لم يتمكّن من الاندماج في عالمٍ لا يرحم المختلف؟ ماذا لو عجزتُ عن إزالة الصعوبات من طريقه؟

تسللتُ من سريري، توضأتُ وصليتُ ركعتين، ثمّ جلستُ بين يدي ربّي، أناجيه، لم يكن لي ملجأٌ سواه. دعوت الله وأنا أنتحب، بقلبٍ مرتجفٍ وخائفٍ، وحين عدتُ إلى غرفة النوم، نظرتُ إلى ربيع وهو نائمٌ بين ذراعي والدته، التي كانت تتنفس بصعوبةٍ من كثرة البكاء، فانفطر قلبي عليهما.

مسحتُ على رأسها وأنا أقرأ لها المعوذات.

لا تقلقي يا جود، سأكون الدرع الذي تحتمين به، والسند والداعم بلا حدودٍ، لن أريكِ ضعفًا أبدًا، وسأحتوي ألمك بكلّ ما أوتيتُ من صبرٍ وعزمٍ وجلدٍ، ولن أسمح لكِ بالانهيار، مهما كانت الأسباب. سيكون الطريق أصعب ممّا توقّعتِ، وقد يتغيّر شكل الحلم الذي رسمته لحياتنا، لكن شيئًا واحدًا لن يتغيّر: لن أخذلكما أبدًا، أعدكما بذلك.

ضممتهما إليّ، وغفوتُ.

عمر سبتمبر 2014

مضى أسبوعٌ على بداية رحلة تشخيص ربيع، وما زالت جود غارقةً في الحزن، حاولتُ بكافة الطرائق أن أخفف عنها، لكنّها لم تستجب إطلاقًا. أعلم أنّ الحزن شعورٌ طبيعيٌّ لأيّ أمٍّ في حالتها، الغريب أنّ جود لم تكن يومًا بهذا الضعف؛ فهي دائمًا الإيجابيّة، صاحبة الإيمان الأقوى، وهي التي تمنحني جرعات القوة والأمل. أمّا الآن، فمزاجيتها حادّةٌ ودموعها لا تنقطع.

ورغم أنّي تقدّمت بطلب إجازةٍ من العمل لمدّة أسبوعٍ، إلا أنّ وجودي معها بدا وكأنّه غيابٌ، ومع ذلك لم أيأس من محاولاتي في إبهاجها ولو لثانيةٍ، لذا وفي اليوم الأخير لإجازتي، وحين استيقظنا صباحًا، أعددتُ القهوة لنشربها معًا، ثمّ اقترحتُ عليها أن نعدّ طعام الفطور معًا، وافقتني وبدأت بتحضير البيض، بينما شرعتُ بتقطيع الطماطم والخيار. لكن ما إن انتشرت روائح الطعام في المطبخ حتّى شعرت جود بالانزعاج الشديد، وبدت عليها أعراض غثيانٍ. نصحتها أن تذهب وتكمل نومها، رفضت في البداية لكنّها رضخت مع إصراري، إذ بدا التعب واضحًا عليها.

أمضت جود يومها بغير انتظامٍ، تنام، ثمّ تستيقظ، وتتعب، ثمّ تعيد الكرّة، وفي المساء اقترحتُ عليها زيارة أهلها، لعلّها تبتهج بعض الشيء. كنتُ قد أخبرتُ والدتي وأهل جود بما استجدّ معنا، وطلبتُ منهم ألّا يتحدثوا في الأمر كثيرًا أمام جود، كي تبقى زياراتنا لهم متنفّسًا لها.

وبينما نحن في منزل أهل جود، لاحظتُ مجددًا أنّها لم تأكل شيئًا. أثارت تصرفاتها شكوكي، لذا وحين عدنا إلى المنزل، سألتها بجديةٍ:

- جود، هل تخفين شيئًا عنّي؟
- ماذا سأخفي عنك؟
- هل أنتِ حاملٌ؟
- لا! ولِمَ سأخفي عنك الأمر؟ أجريتُ فحصًا قبل أسبوعٍ وكانت النتيجة سلبية.
- لا أظن ذلك يا جود، لم تكوني يومًا هكذا. أرجوكِ أعيدي الفحص مرةً أخرى.

أعادت الفحص المنزلي بالفعل، والنتيجة ذاتها سلبيةٌ. اتصلت بالعيادة، ورتّبت موعدًا لإجراء تحاليل شاملةٍ لجود، كي أطمئنّ على صحتها.

جود سبتمبر 2014

صادف يوم سحب الدم ذكرى زواجنا أنا وعمر، ذهبنا في الصباح إلى المختبر، وهناك أخبرتنا الممرضة أنّ النتيجة ستظهر في اليوم التالي، عدتُ إلى المنزل، وانطلق عمر إلى العمل. ورغم أنّني لم أكن بأفضل حالاتي، إلا أنّني قررت أن أصنع –على الأقل– كعكةً بمناسبة ذكرى زواجنا، لكنّي وحين أخرجتها من الفرن، ووضعتها على الطاولة، هبطت هبوطًا عجيبًا، وتكتّلت بشكلٍ مريبٍ.

تركتُ المطبخ غارقًا في الفوضى، وجلستُ مع ربيع، أمضينا ساعةً على هذه الحال، أنا أتأمّله وهو يتأمّل السقف. لم يكن لديّ حتّى القدرة على البكاء أو الحزن، شعرت بأنّ كلّ مشاعري مستنزفةٌ. وحين سمعتُ صوت مفتاح عمر، لم أستطع أن أنهض وأستقبله، كنت في حالةٍ يُرثى لها من الفوضى والخمول. سمعته يناديني:

- جود، جود، يا جودي!

نادى بحماسٍ، فأجبته:

- أنا هنا في غرفة الجلوس.

وتمتمتُ مع نفسي: لماذا تصرخ؟! ما هذا الإزعاج! أين سأكون مثلًا؟!

دخل عمر إلى الغرفة وهو يحمل باقةَ وردٍ كبيرةً، قلت في نفسي: إذن فهو لم ينسَ. ضمّني إليه، وأنا بتلك الحالة المزرية، فبكيتُ مجددًا، ثمّ قال لي وأنا بين ذراعيه:

- جود، أنتِ حاملٌ.

دفعته بقوّةٍ، وسألته:

- كيف ذلك؟ مستحيل! أجريتُ عدّة اختباراتٍ، وكانت سلبيةً!
- قد لا تكشف تلك الأجهزة الحمل في بعض الأحيان.
- لا بدّ أنّ هناك خطأً ما، ثمّ إنّ الممرضة قالت لي إنّ النتيجة لن تظهر قبل يوم الغد.
- هم يقولون ذلك، كي لا يزعجهم المراجعون بالاتصالات، ألف مبارك يا وردتي، سيأتي أخٌ أو أختٌ لربيع، الحمد لله.

حامل! أنا حامل؟! وهل هذا وقتٌ مناسبٌ للحمل؟! قطّبتُ حاجبيّ ورميتُ باقة الورد وقلت له:

- على ماذا تبارك لي؟ على مسؤوليةٍ جديدةٍ؟ ثمّ إنّ قدوم أخٍ أو أختٍ لربيع لن يحدث فرقًا في عالمه، بل سيؤثّر سلبًا، كيف سأستطيع الاعتناء بولدين! ربيع بحاجةٍ إلى رعايةٍ خاصّةٍ!
- ما بكِ يا جود؟ ما هذا الذي أسمعه؟
- أنتَ لا تعرف ما أمرّ به.
- جود، هذا الحمل الذي تشكين منه، وربيع الذي تخافين عليه، هما حسرةٌ في قلوب ملايين الأزواج الذين لا يستطيعون الإنجاب.

أجبته بصوتٍ مليءٍ بالغصّة:

- أعلم يا عمر، لكنّي لستُ مستعدةً الآن، ولم أخطط لطفلٍ جديدٍ.
- إذًا هذه خطّة الله لنا. أنتِ تريدين وأنا أريد، لكن الله يفعل ما يريد. لعلّه خيرٌ بإذن الله.

جلستُ على الأرض، وأسندتُ رأسي بيدي، وأنا أحاول فهم ما يحدث، فأمسك عمر يدي وسحبني وهو يقول لي:

- هيّا جهّزي نفسكِ أنتِ وربيع، سنحتفل معًا.
- نحتفل؟ وكأنّ الجو مناسبٌ للاحتفال.

- نعم، هناك الكثير مما يستحق. أولها حملكِ يا جود، ثانيهما عيد زواجنا، أم أنّكِ نسيتِ؟

تجاهلتُ سؤاله، وقلت له:

- ألا تخاف أن يكون مثل ربيع؟ ألا يثير الأمر ذعرك؟

حينها قطّب حاجبيه، وشعرتُ أنّي قد استنفدتُ صبره:

- بل أخاف من طريقة تفكيرك ومنطقك هذا! "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، وهبنا الله ربيع، وهذا الجنين الصغير من غير حولٍ منّا ولا قوّةٍ، وإن شاء أن يختبر صبرنا بطفلٍ آخر يعاني من مرضٍ ما، سنكون على قدر هذا الاختبار.
- أمّا أنا فمن مجرد التفكير بالأمر يفزعني، ليس لأجلي، بل لأجله هو.
- توكّلي على الله وسلّمي أمركِ له. جود! ردود أفعالكِ هذه ليست من طبيعتكِ، صدقيني، هذا مجرد تغيّرٍ عابرٍ بسبب الحمل.

التقط عمر باقة الورد من الأرض، ورفعها، فشعرتُ بالندم مما فعلتُ للتوّ، وقلت له:

- أنا آسفةٌ يا عمر!

أخذتُ باقة الورد مجددًا، وأردفت:

- سأكون عند حسن ظنّك بي، سأحاول، أعدك بذلك.

ابتسم بحنانٍ، وقال لي:

- بالمناسبة، هناك رائحةٌ غريبةٌ في البيت، تبدو لطيفةً، لكنّها ليست كذلك في الوقت نفسه.

ضحكتُ وأشرتُ إليه بأن يلحق بي إلى المطبخ، وهناك رأى عمر الناتج الكارثي لمحاولتي في خبز كعكة عيد زواجنا، تأمّلها بعنايةٍ، ثمّ قال لي:

- كيف استطعتِ حرق جزءٍ منها، وإبقاء الجزء الآخر نيئًا؟
- وما أدراني؟
- تحفةٌ فنيةٌ بحقٍّ، يبدو أنّنا سنعاني خلال الأشهر المقبلة.

ضحك ثمّ ضمّني إليه، وقال:

- سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، لا تقلقي، المهم أنّنا معًا.

غرستُ وجهي في صدره، ورحت أكرر في سرّي: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكّلتُ، وهو ربّ العرش العظيم.

جود   يناير 2015

كانت الساعة حوالي الخامسة والنصف صباحًا حين أيقظني عمر لصلاة الفجر. شعرتُ بالتثاقل، وأخبرته أنّني سأصلّي بعد نصف ساعة، فقد ضبطتُ المنبّه للصلاة مسبقًا. لكنه أصرّ أن نصلّي جماعةً، وقال إنّه سينتظرني. شعرتُ بالضيق منه، فقد نام منذ العاشرة ليلًا دون انقطاع، بينما لم أستطع النوم من حركات الطفل المستمرّة. قمتُ وتوضأتُ وصلّيتُ معه جماعةً. وبعد الصلاة، دعا عمر بصوتٍ مرتفعٍ لي، ولربيع، ولعائلتنا، فأمّنتُ خلفه، لكنّني بقيتُ منزعجةً من إيقاظه لي.

عدتُ إلى السرير على أمل أن أحظى بساعةِ نومٍ قبل موعد استيقاظ ربيع، لكن دون جدوى، ولا عجب، فاليوم هو موعد التشخيص النهائيّ، ورغم أنّ الأمر بات شبه مؤكّدٍ بأنّ ربيع مصابٌ بطيف التوحّد، إلا أنّني لا أزال أُمنّي نفسي بأن تأتي النتائج بنفي ذلك التشخيص.

تقلّبتُ في الفراش أكثر من نصف ساعة، ثمّ استسلمتُ ونهضتُ، استيقظ ربيع بعد ذلك، وبدأتُ معه جولتي الصباحيّة. وكالعادة، لم

يحمله عمر، ولم يساعدني، بل انشغل بالاستعداد للذهاب إلى الشركة. وقبيل خروجه، طبع قبلةً على وجنتَي ربيع، وقبّل رأسي، وقال لي:

- سأنتظركِ في السيارة أمام المبنى عند الساعة الرابعة والنصف، لا تتأخّري!

لا تتأخّري! ما الذي يقصده بالضبط؟ هل أتأخّرُ عن المواعيد بإرادتي؟! أم أنّ لديّ مسؤولياتٍ وطفلًا صغيرًا! ثمّ ها هو يخرج دون أن يستفسر عن خطّة اليوم، ودون أن يسأل عمّا إذا كنّا سنصطحب ربيع معنا أم لا.

حالما خرج عمر، اتّصلتُ بريم، التي أتت هي وزوجها لزيارتنا لمدّة أسبوع، وطلبتُ منها أن تأتي لتمكث مع ربيع خلال موعدنا، فاليوم ليس لدى ربيع جلسةٌ تقييميّةٌ، ولا داعي لأن يذهب معنا. وصلت ريم بالوقت المناسب ولم تتأخّر، أمّا أنا فمنذ وصولها رحتُ أشتكي لها عن عمر وتصرّفاته، كانت تضحك تارةً وتواسيني تارةً أخرى، ثمّ قالت لي بصراحة:

- جود، حبيبتي، يحقّ لكِ التذمّر، لكن لا تجعليه عادةً وطبعًا دائمًا.
- متى تذمّرت؟

- الظروف التي تمرّين بها صعبةٌ فعلًا: احتمال إصابة ربيع بطيف التوحّد، حملكِ القريب من نهايته...ولكن

قاطعتها:

- ولكن ماذا؟ عمر لا يراعي شيئًا مما ذكرته أبدًا!

ردّت ريم بهدوء:

- تتصرّفين وكأنّنا كنّا أميراتٍ في بيتنا، أو أنّ والدتنا كانت تعيش كملكةٍ مع والدنا!
- لا تخلطي الأمور ببعضها، هذا نصيب والدتي، وليس من الضروري أن أعاني من الأمر نفسه، وأعيش المصير ذاته!
- بالضبط، والحمد لله أنّ نصيبكِ ونصيبي ليس مثلها، وفي الواقع، إنّ عمر لم يُخطئ بشيء.
- لكنّه أصبح مزعجًا في الفترة الأخيرة، ويتصرّف وكأنّ الحياة تسير بشكلٍ طبيعيّ.

ردّت ريم بابتسامةٍ خفيفةٍ تعلو وجهها:

- هي تسير فعلًا بشكلٍ طبيعيّ! لن تتوقّف الحياة لمجرّد أنّكِ حامل، أو أنّ ربيع قد يكون مصابًا بالتوحّد.

- لكنّه والد ربيع! وعليه أن يتحمّل معي المسؤولية!
- وماذا تريدين منه؟ ربما هذه هي أقصى طاقته. ربما لا يُجيد التعامل مع الأطفال.

اعترضتُ هنا وأجبتها:

- لطالما كان يُجيد التعامل مع أطفال الجمعية!
- يراهم ساعةً أو ساعتين في الأسبوع فقط.

واجهتها بأكبر مخاوفي، وقلت لها:

- هو يتجاهل ربيع لأنّه لا يشبه أقرانه.

نظرت إليّ بحزنٍ، ثمّ قالت وهي تربّت على كتفي:

- أظنّ أنّ هذا وهمٌ أنشأتِه في داخلك وكبّرتِه. لا تظلمي عمر، ولا تظنّي فيه سوءًا، جود! تعاملي مع عمر بما يُرضي الله، فهو أيضًا يتعامل معك بما يُرضي الله.
- سأحاول، لكن ذلك لا يُلغي انزعاجي.
- دعينا نغيّر الموضوع وأخبريني الآن، ماذا سنأكل؟
- لا أعلم!

- اطلبي خضرواتٍ مشكّلةً من البقالة، وأخرجي لحمًا مفرومًا من الثلاجة، وسأعدّ أشهى كفتةٍ ذقتِها في حياتكِ.

أعدّت ريم الغداء، وساعدتها قليلًا. وبعدما فرغنا من الطعام، بدأتُ أجهّز نفسي، كان ربيع قد غفا، فوضعته في سريره. وعند الساعة الرابعة والنصف، اتصل بي عمر، وأخبرني أنّه ينتظرني أمام المبنى. وحين رآني وحدي، سألني باستغرابٍ:

- وربيع؟
- لا توجد جلسةٌ تقييميّةٌ له اليوم، ولا داعي لحضوره، أم أنّك لا تعلم ذلك؟

ثمّ أردفتُ بلهجةٍ تهكّميّة:

- كم أنتَ مهتم!
- لا، لم أكن أعلم، اعتقدتُ أنّ جلسة اليوم مثل سابقتها.
- لا، ليست كسابقاتها!
- وأين هو الآن؟

أجبته بحدّةٍ:

- من الجيد أنّك تذكّرت أن تسأل، ستمكث ريم معه ريثما نعود.

نظر إليّ بحدّةٍ، ولم يقل شيئًا، ثمّ انطلقنا نحو العيادة. وهناك استقبلنا الطبيب، وسأل عن أحوال ربيع، ثمّ اعتدل في جلسته، واتّخذ نبرةً جادّةً، وقال:

- بعد ستة أشهرٍ من المتابعة، أودّ أن أشارككما نتيجة التقييم. بناءً على الملاحظات والاختبارات، يتبيّن أنّ ربيع يُظهر خصائص تتوافق مع اضطراب طيف التوحّد بدرجةٍ متوسطةٍ.

كان الخبر صادمًا، فحين صرّح الطبيب بذلك بشكلٍ نهائيٍّ شعرتُ أنّ صاعقةً نزلت فوق رأسي، سألته بيأسٍ:

- هل يعني هذا أنّه مصابٌ بالتوحّد؟
- نعم، التشخيص يؤكّد وجود طيف التوحّد. هذا يعني أنّ ربيع يعاني من صعوباتٍ في التواصل الاجتماعي واللغة، ويميل إلى التكرار والروتين، لكنّه قابلٌ للتحسّن والتطوّر بشكلٍ ملحوظٍ مع التدخّل المبكر والمكثّف.

هنا بدأتُ أشعر بانهيارٍ داخليٍّ، سألته وقلبي ينزف:

- هل يمكن أن يُشفى تمامًا؟

- اضطراب طيف التوحّد لا يُشفى بالمعنى التقليديّ، لكنّه يُدار. كلّما بدأ التدخّل مبكرًا، كانت فرص التحسّن أفضل. الهدف هو أن يكتسب الطفل مهاراتٍ لغويّةً واجتماعيّةً واستقلاليّةً بشكلٍ تدريجيٍّ.

نظر عمر إليّ وهو مشفقٌ على حالي، ثمّ أمسك بيدي وضغط عليها، واستلم زمام الحديث وبدأ بطرح أسئلةٍ واقعيّةٍ ومتوافقةٍ مع وضعنا:

- دكتور، ما هي الخطوات التي يجب أن نبدأ بها؟
- البدء بجلسات تحليل سلوك تطبيقي، وجلسات نطقٍ ولغةٍ لتحفيز التواصل اللفظي وغير اللفظي، إضافةً إلى جلسات علاجٍ وظيفيٍّ لتحسين المهارات الحركيّة الدقيقة والحسّيّة، كما يجب تطبيق التمارين في المنزل يوميًا بالتعاون مع الأخصائيين.

سأله عمر:

- وهل يمكن أن يلتحق بمدرسةٍ عاديّة؟
- يعتمد الأمر على تطوّره خلال العامين المقبلين. بعض الأطفال من هذه الدرجة يندمجون جزئيًا، والبعض يحتاج بيئةً تعليميّةً داعمةً بشكلٍ أكبر. سنعيد التقييم كلّ ستة أشهرٍ لتحديد المسار الأنسب.

كنتُ قلقةً جدًا من فكرة أنّنا قد نكون تأخّرنا أو قصّرنا في حقّ ربيع، فسألته:

- عمره الآن ستة وعشرون شهرًا، هل تأخّرنا في التشخيص؟
- أبدًا، هذا وقتٌ مناسبٌ جدًّا لبدء التدخّل. يستجيب الدماغ في هذه المرحلة بسرعةٍ للتدريب. الأهم هو الالتزام بالخطّة وعدم تأجيل الجلسات.

سأل عمر، محاولًا التماسك:

- متى سنحدّد موعد المراجعة القادمة؟
- بعد ستّة أشهرٍ لإعادة التقييم وقياس التقدّم في اللغة والسلوك، وخلال هذه الفترة سأتابع التقارير معكما بانتظامٍ لضبط الخطّة حسب الحاجة.

راح عمر يطرح الأسئلة تباعًا، بينما بقيتُ في حالةٍ من الذهول والاضطراب، فلم أستطع متابعة الحديث، تولّى عمر الحوار مع الطبيب الذي كان يجيبه بكلّ وضوحٍ ورحابةِ صدرٍ. وحين خرجنا من العيادة، أمسك عمر بيدي وضغط عليها بحنانٍ، وكأنّه يقول: "أنا معك، لا تخافي".

في السيارة، أظهر عمر قوّة ثباته، أو لعلّه تظاهر بها! ليمنحني وربيع الدعم. لكن داخليًّا، لم أستطع تقبّل الموضوع. مع ذلك، قررتُ أن أتماسك وأتظاهر بالقوّة، لعلّي أجدها فعلًا.

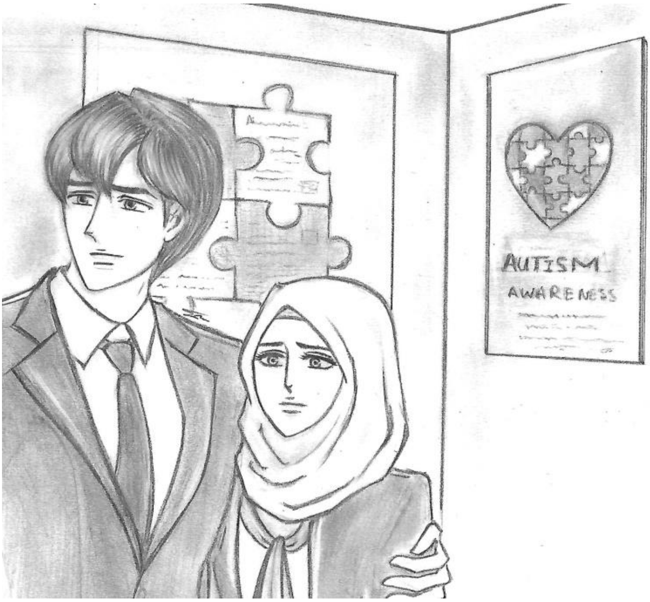

عمر

يناير 2015

لم أُصدم بالأمر، بل كنتُ مستعدًّا له. لكن كان ما هزّني حقًّا هو طريقة جود في التعامل مع الوضع الجديد. أشعر أنّي عاجزٌ عن مساعدتها ودعمها؛ فهي متوتّرةٌ طيلة الوقت، وتتذمّر من كلّ شيءٍ حولها.

أعلم أنّ الحمل بحدّ ذاته تحدٍّ كبيرٌ للمرأة، لكنّي ظننتُ أنّ جود ستكون أكثر تماسكًا. صحيحٌ أنّها تتظاهر بالقوّة أمام الجميع، لكن وما إن تعود إلى المنزل حتّى تنهار تمامًا. وفي كلّ حوارٍ يجري بيننا، تتفجّر المشكلات من أبسط التفاصيل دون أن ندري كيف بدأنا أو إلى أين انتهينا. لذلك حاولتُ قدر الإمكان أن أُقلّل من الحديث معها ريثما تنتهي أسابيع الحمل الأخيرة، مُمنّيًا نفسي بأنّ هذا التغيّر طارئٌ ومرتبطٌ فقط بالحمل. لكنّ صمتي لم يكن حلًّا فعّالًا، فقد أصبحت تشتكي منه، وتصفه بقِلّة الاهتمام!

لم يكن ذلك الصباح جيّدًا. استيقظنا على صراخ ربيع في الساعة الرابعة فجرًا، وبعد ساعةٍ من محاولات تهدئته، نام أخيرًا. جلستُ على حافة

السرير أفرك صدغيّ محاولًا استجماع ما بقي من طاقتي لأبدأ يومي، فقالت جود بنبرةٍ ساخرة:

- لا تؤاخذنا، لقد أزعجناك!

كانت الغرفة مظلمةً تمامًا، استدرتُ نحوها وسألتها باستغراب:

- لماذا تتحدّثين معي بهذا الأسلوب؟

لم تُجب، لكنّي سمعتُ صوت نحيبها. عندها أدركتُ أنّها متعبةٌ بشدّة، ولا طاقة لها لافتعال مشكلةٍ حقيقيةٍ معي. أمسكتُ يدها وسألتها بلطفٍ:

- ما بكِ جود؟ أخبريني!

أجابتني بصوتٍ مختنقٍ:

- لا تسألني سؤالًا تعرف إجابته.
- لكنّي لا أعرف الإجابة بالفعل!

لم تردّ، فقلتُ لها:

- سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، صدّقيني.

- كيف؟
- هل يعقل أن تسأليني أنتِ "كيف"؟ جود التي تعلّمتُ منها كيف أتعامل مع نفسي، وكيف أرى النور وسط كلّ عتمة، وكيف أحبّ كلّ ما وهبني الله إيّاه، وكيف أعمل لدنياي وآخرتي وأنا مطمئنٌ، جود التي كانت دائمًا بوصلتي حين أتوه... تسألني هذا السؤال؟

تنهّدتْ، ولم تُجبني، فأردفتُ كلامي:

- جود! أعرف أنّ ما تمرّين به سببه التعب والإرهاق، وأدرك خوفكِ على ربيع، وأعرف أنّكِ تشعرين أحيانًا بأنّكِ عاجزةٌ أمام عالمه المختلف، وأنّكِ لا تقدرين على فهم صمته أو نوبات غضبه أو عزلته. أعرف... وكلّ هذا ليس سهلًا عليكِ، ولا عليّ. لكن صدّقيني، ربيع يحتاجكِ بقوّتكِ وتماسككِ، يحتاج دفئكِ، وحضوركِ الذي يطمئنه في عالمه. نعم، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، سيكون إن شاء الله.

توقّفت جود عن البكاء، وهدأت بعض الشيء، لكنّها لم تردّ ولا حتّى بكلمةٍ واحدة.

جود　　　　مارس 2015

رفعت الطبيبة رأسها، وقالت:

- لا بوادر للولادة بعد، أعتقد أنّكِ ستتمّين أسابيع الحمل كاملةً، عودي الأسبوع القادم كي نجري الفحوصات الدوريّة، ونرى فيما إن كنتِ تحتاجين إلى تحديد موعدٍ للولادة، أو الانتظار حتّى لو تجاوزتِ الأربعين أسبوعًا.

لا أعلم لماذا أسعدتني كلماتها، وكأنّني أهرب من لحظة الولادة، رغم أنّها قادمةٌ لا محالة. أمسك بي عمر، وساعدني على النهوض ومضينا، وفي السيارة انهالت المكالمات على عمر، فشعرتُ أنّ هناك خطبًا ما، سألته:

- ما الأمر؟
- هناك بعض الوثائق والأوراق في الجمعية تحتاج متابعةً وتواقيعَ من العاصمة، تراخيصَ جديدةً، ومعاملاتٍ معقّدةً.
- وهل أنتَ المسؤول عن هذه المهمّة؟

أومأ برأسه بالإيجاب، فقلت له:

- لماذا لا تذهب غدًا؟
- لكن كيف سأترككِ وأنتِ على وشك الولادة؟
- كم يومًا تحتاج لقضاء تلك المهمّات؟
- يومٌ أو يومان، لستُ متأكدًا.
- إذًا لا تُضيّع الوقت، اذهب حالًا، طالما أنّ الطبيبة أكّدت عدم وجود بوادر للولادة حاليًا.
- هل ترين ذلك؟
- نعم! هذا أفضل من أن تسافر بعد الولادة، صدّقني.
- هل ستتدبّرين الأمر وحدكِ مع ربيع وأنتِ متعبةٌ من الحمل؟
- لا تقلق!
- ما رأيكِ أن تمكثي عند والدتي أو والدتكِ؟
- صدّقني، من الأيسر لي أن أبقى في البيت.

تنهّد وراح يفكّر، ثمّ قال لي:

- سأتفقّد الأوراق، وأتصل بشركة الطيران، إن وجدتُ حجزًا مناسبًا قد أسافر الليلة.

انقبض قلبي قليلًا، لكنّي حاولت أن أتماسك، وكي أغيّر الموضوع، سألته:

- لم نختر اسمًا للطفل بعد، ماذا سنسمّيه؟ أتعلم؟ بسبب انشغالي بربيع أشعر أنّي لا أولي الطفل الجديد أيّ عناية! لا يوجد لديّ أيّ اقتراحٍ!

أجابني بحماسٍ:

- أمّا أنا فلديّ اقتراحٌ جميلٌ ومميّزٌ، وأنا متأكّدٌ بأنّه سينال إعجابكِ.
- لقد أثرتَ فضولي، ما هو؟

عدّل جلسته ونظر إليّ بثقةٍ وهو يقول:

- ورد!

سألته كما لو أنّي أودّ أن أتأكّد ممّا سمعت:

- ورد؟

نظر إليّ مجددًا ورسم ابتسامةً عريضةً على وجهه، أمّا أنا فأطرقتُ رأسي ولم يعجبني اقتراحه، اسم ورد جميلٌ جدًّا، وليس لديّ أيّ اعتراضٍ عليه، لكن مشكلتي مع تعلّقه بـ"وردة الربيع". تذكّرتُ حديثه معي منذ عدّة أسابيع، حين كان يتغنّى بكتاباتي، أو بالأحرى، "كتابات وردة

الربيع"، تلك الخواطر التي كانت تنتشله من عتمته، وتدفئ قلبه، وتنير حياته...

ما هذا؟ كم هو غريب!

أشعر أحيانًا أنّه يحبّ وردة الربيع أكثر من جود!

عمر مارس 2015

أطرقتْ برأسها إلى الأرض، ثمّ أجابتني بنبرةٍ حادّةً:

- عمر! ما الأمرُ بالضبط؟

سألتُها باستغرابٍ:

- ألا يُعجبكِ الاسم؟
- الاسمُ جميلٌ، لكن ليس من الضروري أن نحصر أسماء أولادنا تحت راية "وردة الربيع"، أرجوكَ حاول أن تتناساه.
- ما الخطب؟ لماذا يُزعجكِ الأمر؟ اعتقدتُ أنّه سيفرحكِ.
- لا، لن يُفرحني.

أدارت وجهها إلى الطرف المقابل، فسألتُها:

- ما المشكلةُ يا جود؟ وضّحي لي!
- لنختر اسمًا آخر بعيدًا عن الحدائق والطقس والمناخ وفصول السنة.
- كما تشائين، مع أنّ اسم "ورد" لا علاقة له بالحدائق، الوردُ هو اسمٌ من أسماء السيف.

أجابت بتهكّمٍ:

- وبعيدًا عن السيوف!

نظرتُ إليها نظرةَ عتابٍ ممزوجةً بالغضب، ثمّ قلتُ لها:

- سنناقش الأمر حين أعود من العاصمة.

لم تردّ، وصمتنا طيلة الطريق، وحين وصلنا إلى المنزل، اتّصلتُ بشركة الطيران، ثمّ أسرعتُ إلى الغرفة كي أحزم حقيبتي. كانت جود تُحضّر ربيع للنوم، فقلتُ لها:

- سأسافر عند الفجر.

سألتني باهتمامٍ:

- هل تحتاج شيئًا؟

أجبتُها وأنا أختصر الكلام:

- لا، شكرًا.

كنتُ أشعر بالغضب تجاهها، لكنّي حين عاودتُ النظر إليها قلقتُ مجددًا: كيف سأسافر وهي حاملٌ في شهرها الأخير؟ سألتُها:

- هل ستكونين بخيرٍ حقًّا؟

أجابتني بثقةٍ:

- لا تقلق.

تأكّدتُ من جمع كلّ الأوراق والمستندات اللازمة، ولحسن الحظّ استطعتُ أن أحظى ببضع سويعاتٍ من النوم. وعند الفجر جهّزتُ نفسي للانطلاق إلى المطار. لم أشأ أن أوقظ جود، لكنّها شعرت بحركتي وأنا خارجٌ من الغرفة، فلحقت بي لتودّعني، ورغم أنّها لم تعتذر أو تحاول إصلاح الموقف، إلّا أنّ قلبي رقّ لحالها، فودّعتُها دون أن أعاتبها، وانطلقتُ.

جود

مارس 2015

كان يومًا هادئًا مع ربيع، ولم أضطرّ للخروج أو الاستعانة بأحد. اتّصلت بي الفتاة المسؤولة عن تنظيف المنزل واعتذرت عن الحضور بسبب توعّكٍ صحيٍّ، فوجدتها فرصةً جيّدةً للتأكّد من أنّ أغراض وملابس الطفل الصغير جاهزةً ومرتّبةً، ولا ينقصها شيءٌ.

كان الوقت عصرًا، ربيع في سريره، وأنا أجلس بجانبه على سجادة الصلاة أدعو الله وأقرأ بعض الأذكار. وفجأةً، شعرتُ بألمٍ حادٍّ في ظهري وبطني.

لم أقلق في بداية الأمر، فأنا أعلم أنّ آلام الطلق قد تبدأ قبل أيامٍ من الولادة. حاولتُ أن أسترخي، لكنّ الألم عاد بعد ربع ساعةٍ. ارتبكتُ بعض الشيء، وأخذتُ الأمر بجديّةٍ، وقلتُ في نفسي: إن تكرّر الألم بالوتيرة نفسها، فقد أكون على وشك الولادة. لكنّي طمأنتُ نفسي أنّه ألمٌ عابرٌ ولا علاقة له بالمخاض الحقيقيّ. لكن حين تكرّر مجددًا، دبّ الرعب في قلبي.

يا إلهي، كيف سألد وعمر ليس معي؟!

شعرتُ أنّي تائهةٌ، جعلتُ أدور حول نفسي بضع دقائق، ثمّ نهضتُ وتأكدتُ من أنّ حقيبتي جاهزةٌ، تلك التي سأخذها معي إلى المستشفى في حال الولادة. وبالفعل، تكرّر الألم بعد ربع ساعةٍ، وعلمتُ أنّي سألد خلال الساعات المقبلة. اتّصلتُ بوالدتي وكرم، ثمّ رحتُ أجهّز نفسي ودموعي تنهمر على خدّيَّ...

الولادة مخيفةٌ أصلًا، فكيف إن كنتُ وحيدةً بدون عمر؟!

أيقظتُ ربيع، وما هي إلّا ربع ساعةٍ حتّى وصل كرم، حمل ربيع وأغراضي، وساندني إلى أن وصلنا إلى السيارة. وحين خفّت الآلام بعض الشيء، اتّصلتُ بعمر، الذي أجابني بهدوء أعصاب:

- أهلًا جود، كيف حالكِ حبيبتي؟

أجبته بصوتٍ مختنقٍ:

- عمر! أنا على وشك الولادة.

ثمّ انفجرتُ بالبكاء. نظر إليّ كرم بحزنٍ، وراح يهوّن عليّ، أمّا عمر فقد ارتبك وسألني بعصبيّةٍ:

- كيف ذلك؟ ألم تؤكّد لنا الطبيبة ألّا بوادر للولادة؟

بكيتُ أكثر وصرختُ بألمٍ:

- وما أدراني أنا؟!

سحب كرم الهاتف من يدي، وقال له:

- قد تخفق التوقّعات أحيانًا، ولا أحد يعلم متى يحين موعد الولادة بالضبط، كلّها تقديراتٌ! لا تقلق يا عمر، نحن في السيارة متّجهين إلى منزل أهلي أولًا، ثمّ ننطلق إلى المستشفى.

كانا يتحدّثان بينما كنتُ أئنّ من ألمي. سمعتُ كرم وهو يطمئن عمر قائلًا:

- إنّه المخاض، لا تقلق يا عمر! هوّن عليك، سأعطيها الهاتف حالما يخفّ الألم.

وبعد بضع دقائق، أومأتُ لكرم كي يعطيني الهاتف، لأتحدّث مع عمر خلال الدقائق القليلة قبل بدء الطلقة التالية. حاولتُ أن أتماسك هذه المرّة، فقلتُ:

- عمر! لا تقلق، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.
- سآتي حالًا، كوني بخيرٍ أرجوكِ.

- متى أقرب موعدٍ لرحلة الطيران؟
- سأتّصل حالًا بشركة الطيران.

وبعد دقيقتين اتّصل مجددًا، سألني بقلقٍ:

- كيف أنتِ؟ أخبريني.
- على الوضع نفسه، متى ستأتي؟

أجاب بحزنٍ:

- أقرب موعدٍ لرحلة الطيران بعد ثلاث ساعاتٍ.

تنهّد ثمّ أردف:

- أنا آسف يا جود.
- ليست غلطتك، لا تعتذر، من كان يدري بذلك؟
- سأتّصل بوالدتي وأعلمها بالأمر، وسأبقى على تواصلٍ دائمٍ مع كرم ووالدتكِ. انتظريني، ولا تخافي.

في تلك اللحظة شعرتُ بالألم مجددًا، فقلتُ له:

- قد لا أصمد حتّى ذلك الحين، ادعُ لي.
- قلبي معكِ، في أمان الله وحفظه ورعايته.

أغلقتُ الهاتف، وبقيتُ أعاني. وحين وصلنا إلى المستشفى، كنتُ في حالٍ يُرثى لها. أخبرتني الطبيبة أنّ الأمر وشيكٌ بالفعل. ارتجف قلبي، وشعرتُ بفراغٍ لم أشعر به في حياتي كلّها. كانت أمنيتي الوحيدة في تلك اللحظة أن يكون عمر بقربي، يمسك بيدي، ويتحدّث إليّ، ويهوّن عليّ.

عمر		مارس 2015

لم أتوقّع أن تلد جود وأنا بعيدٌ عنها، كان قلبي يتفطّر وأنا أعدّ الدقائق عدًّا، وحين هبطت الطائرة، اتصلتُ بكرم حالًا، فأخبرني أنّ جود قد ولدت، وأنّها والطفل بخير، ولله الحمد. طلبتُ منه أن أسمع صوت جود ولو لثانية، فأخبرني أنّه خارج الغرفة، وأنّه لم يلتقِ بها بعد.

كان صبري ينفد شيئًا فشيئًا، لكنّي حاولتُ أن أتماسك، وجعلتُ أكرّر الأذكار والصلاة على النبي –صلّى الله عليه وسلّم–، وحين وصلتُ إلى المستشفى، دلّني موظّف الاستقبال مباشرةً إلى غرفة جود. جريتُ مسرعًا، طرقتُ الباب، ففتحت لي حماتي وأطلقت الزغاريد. كانت والدتي تجلس إلى جانب جود، بينما كانت جود منهكةً للغاية، استدارت نحوي، وكان لقاؤنا ذلك لحظةً من لحظات عمرنا التي لن ننساها ما حيينا.

أغرورقت عيناها بالدموع، لكن هذه المرّة كانت دموع الفرحة. احتضنتُها بقوّة، فغرست وجهها في صدري وتشبّثت بي. لقد كانت الأشهر الماضية صعبةً علينا، شعرتُ لمرّاتٍ عديدة أنّي بتُّ بغيضًا لها، لكن تلك اللحظة التي غمرتني بها أزالت عنّي كلّ تلك الشكوك.

إنّها جود، نصفي الثاني الذي يُكملني، وروحي وحياتي، وأمّ طفليَّ.

طبعتُ قبلةً طويلةً على جبينها وقلتُ لها:

- حمدًا لله على سلامتكما، أنا آسف لأنّي لم أكن معكِ.

حرّكت جود رأسها وكأنّها تنفي ما أقول، وأجابتني:

- بل كنتَ معي طيلة الوقت، عمر، لقد أصبح لدينا ولدان.

كانت كلماتها بريئةً للغاية، شعرتُ كما لو أنّها أدركت الأمر للتوّ، سألتُها:

- أين هو الآن؟ أريد أن أراه.

أمسكت جود بيدي لتمنعني من النهوض، وقالت:

- في الحاضنة، سيأتون به بعد قليل.

لم أشأ أن أكسر خاطرها، فبقيتُ بجانبها، إلّا أنّها أشفقت على حالي، وقالت لي بعد عدّة دقائق:

- لقد تأخّروا فعلًا، لِمَ لا تذهب وتستفسر عن الأمر؟

نظرتُ إليها بحبٍّ، وتوجّهتُ نحو الحاضنة لأراه، لكن قبل أن أقصد الحاضنة، خرجتُ سريعًا وذهبتُ إلى الشارع المقابل للمستشفى، هناك حيث يوجد بعض الصرّافات الآليّة. اطّلعتُ على حساب البنك الخاصّ بالصدقات، فوجدتُه فارغًا، يبدو أنّي قد استخدمتُ كلّ مدّخراتي فيه خلال الشهر الماضي، فأنا لم أتوقّع أن تلد جود قبل عودتي وقبل استلامي لراتبي للشهر القادم. بحثتُ عن بطاقة الحساب البنكيّ الآخر، ولحسن الحظّ وجدتها بحوزتي، سحبتُ مبلغًا من المال وجريتُ مسرعًا نحو المستشفى.

وبفضل الله كان التوزيع ميسّرًا وسلسًا، فهذا المستشفى هو ذاته الذي ولدت فيه جود المرّة الماضية، ومنذ ذلك الحين وأنا أتذكّر بعض المتعفّفين الذين يعملون هناك.

أنهيتُ المهمّة بحمد الله، وتوجّهتُ نحو الحاضنة، وقلبي يرقص فرحًا وشوقًا للقاء الصغير. وعند المدخل صادفتُ ممرّضةً تدفع سريرًا صغيرًا أمامها. اقتربتُ خطوةً، ثمّ أخرى، فوقع نظري على لافتةٍ صغيرةٍ معلّقةٍ على السرير، كُتب عليها: "ورد ابن عمر وجود".

الفصل الثامن

جود

أبريل 2015

نحيا في عالمٍ مليءٍ بالنِّعم، لكنّنا نتعامل معها على أنّها بديهيّات. نفتح أعيننا فنُبصر، نسمع الأصوات من حولنا، نمشي، نستخدم أيدينا، نُفكّر بعقولنا، نُعبّر عن أنفسنا، نأكل وننام ونضحك ونخطّط للمستقبل.

من البديهيّ أن نملك عائلةً تُحيطنا بالحبّ والرعاية، ومن البديهيّ أن نعيش في مأمن، أن ندرس، أن نتخرّج، أن نعمل، أن نتزوّج، أن نُنجب أطفالًا أصحّاء يذهبون إلى المدرسة ويُكملون تعليمهم.
ومن البديهيّ أن نكون مسلمين نعرف طريقنا إلى الله.

لكن الحقيقة أنّ لا شيء من ذلك بديهيّ!

كلّ ما نراه "عاديًّا" هو في الحقيقة نعمةٌ عظيمة.

أدركتُ هذا حين علمتُ بإصابة ربيع بطيف التوحّد. كنتُ أحمد الله دائمًا، نعم، لكنّني اليوم أعيش هذا الحمد بكلّ كياني، بكلّ تفاصيل يومي، بكلّ نظرةٍ في عيني ربيع، وبكلّ لحظةٍ أنتظر فيها منه كلمةً أو تفاعلًا بسيطًا.

دعائي في كلّ صلاةٍ أن يكون ورد سليمًا مُعافًى، وأن يُعين أخاه حين يكبر، فيشدّ عضده ويكون سندًا لأخيه.

حلمي اليوم هو أن أجد مدرسةً تقبل ربيع، تحتويه، وتفهمه.

لا! لم أكن أشعر بفيض النِّعم من حولي قبل هذه التجربة. إصابة ربيع كانت المُنبّه الذي أيقظني، ففتحتُ عينيَّ على تفاصيل لم أكن أراها، وقلبي على نعمٍ لم أكن أُدرك قيمتها.

"الحمد" ليس كلمةً نُردّدها، بل وعيٌ دائم، واستشعارٌ عميق، وامتنانٌ لا ينقطع، فالحمدُ لله.

جود يونيو 2015

يبتعد عن العالم، ينغلق على نفسه، يُصدر أصواتًا غير مفهومة، يُكرّر حركاته بلا توقّف، ويرفض أن ينظر إليّ مباشرةً.

يقول لي الطبيب: "كلّ حركة، كلّ تمرين، كلّ تكرارٍ مهمّ"، ويُعطيني قوائم طويلة من التمارين التي يجب تنفيذها يوميًّا.

أجلس معه كلّ صباح، أحاول أن أُطبّق كلّ توصية، أن أُعيد كلّ حركة، أن أصبر. أحيانًا ينجح الأمر، وأحيانًا تنهار الأمور بسرعة. يُقاطعنا بكاءُ ورد، أو رنّة الهاتف، أو جرس الباب، فيتوتّر أكثر، يبكي، يصرخ، ثمّ يرفض المشاركة. يتألّم قلبي حين أرى صعوبة التواصل في عينيه، وحين تتكدّس التعبيرات والاحتياجات دون أن أستطيع الوصول إليها.

أريد أن أُنفّذ ما يُوصي به الطبيب، أن أمنحه كلّ فرصةٍ للنموّ، لكلّ مهارةٍ مهما كانت بسيطة، ولكلّ تقدّمٍ مهما بدا ضئيلًا. لكنّ الوقت ليس ملكي وحدي؛ فأخوه الصغير يحتاجني أيضًا.

أشعر بالقصور، وبالذنب، وبالعجز أمام قوائم التمارين الطويلة التي لا أتمكّن من إنجازها كلّها.

ورغم ذلك، لا أستسلم. أحاول، أحتضن، أُعيد المحاولة، وأصبر.

أنا هنا يا ربيع...

سنتعلّم كلّ يومٍ شيئًا جديدًا، نظرةً تطول قليلًا، يدٌ لا تنسحب بسرعة، وبهذه التفاصيل الصغيرة سنتقدّم، إن شاء الله.

جود أغسطس 2015

لا أكتب كي أشتكي، بل لأنّ الكلمات تراكمت كرسائل غير مُرسلة. أنا جود، أمٌّ لطفلين، أحمل النهار على كتفي، وأطوي الليل بين بكاءٍ مؤجَّل ونَفَسٍ مقطوع. أقيس الوقت بعدد الوجبات، وبعدد الأكواب التي أملؤها ولا أشربها، وبعدد المرّات التي أسمع فيها اسمي دون أن ألتفت إلى نفسي. أقيسه بالاستيقاظات المفاجئة التي لا تُدوَّن في أيّ ساعة، وبالليالي التي تبدأ متعبةً وتنتهي أكثر تعبًا.

الوقت عندي لا يمشي، بل يُستهلَك؛ يتآكل بين تحضير وتهدئة واحتواء، ولا يترك أثرًا واضحًا سوى هذا الإرهاق الذي يتراكم بصمت. أُرضع الصغير وأهدهده على صوتي المتهالك، ثمّ أركض إلى ربيع، أواسيه دون أن أعرف، أو يعرف هو، لماذا يبكي. أرغب أن أبكي معه، لكنّني لا أستطيع؛ فبكائي سيزيد من مرارة اللحظة، وسيُوتّر الطفلين أكثر. في كلّ ليلة، أقف بين السريرين وأتساءل: هل سأمنح كليهما حقّه في التربية والاهتمام والرعاية؟!

أقف، أنتظر، لكن لا شيء يدلّني على الإجابة! حتّى والدتي، لا أستطيع الاستعانة بها أو الاتّكاء عليها، كما تفعل الكثيرات، ليس لأنّها بعيدة،

بل لأنّ قلبها مثقلٌ بما يكفي. أعرف أنّ خروجها من المنزل يجرّ عليها متاعب لا تُحتمل، وأنّ ذهابي إليها لا يمنحني دائمًا ما أبحث عنه من سكينة. هناك، حيث يعلو صوت أبي أكثر ممّا ينبغي، وحيث الصراخ حاضرٌ كأنّه عادة يوميّة، يصبح الجوّ خانقًا، لا يصلح للاسترخاء ولا للبوح. فأختار الصمت، وأحمل تعبي وحدي، لا قوّةً، بل رحمةً؛ كي لا أُضيف همًّا جديدًا إلى من أنهكها الهمّ أصلًا.

أكتب الآن، لكنّني لا أعرف إلى أيّ عنوانٍ تُرسل الأمّهات تعبهنّ. بحثتُ طويلًا عن بريد الشكوى، فاكتشفتُ أنّه لا يعمل للأمّهات، وأنّ الصناديق تمتلئ سريعًا ولا أحد يفتح الرسائل. لا صندوقَ بريدٍ يتّسع لأيامٍ تتكرّر، ولا ختمٌ رسميّ يعترف بأنّ التعب الصامت يؤلم أكثر. أبثّ ألمي حيث يجب، إلى الله وحده؛ هناك لا أحتاج أن أختصر، ولا أن أبدو قويّة، ولا أن أبرّر ضعفي. الله تعالى وحده يعلم، ويرى، ويسمع.

وإن وصلتكم كلماتي يومًا، فلا تُسجّلوها شكوى، بل سجّلوها كأثر تعبٍ مرّ من هنا، ولم يجد صندوقًا يحتويه، فارتفع إلى السماء.

جود	أكتوبر 2015

يفكّر بعقليّة العمل، كأنّنا في شركة، وكأنّ كلّ مشكلةٍ تُحلّ بالمزيد من الأيدي، وبمزيدٍ من الموظّفين! يراني أحوم ليلًا ونهارًا، ألهث بين المهمّات، يعجز عن المساعدة، لكنّه يُكرّر السؤال ذاته: "هل نجلب خادمة؟"

تراكمت الأعمال؟ لنُوظّف إذًا شخصًا جديدًا! وكأنّ الخادمة حلٌّ سحريّ، وكأنّ وجود شخصٍ آخر في البيت سيُذيب التعب، ويُخفّف الضغط، ويحلّ المشكلات. أُجيبه: "لا"، فلا يُعجبه الجواب.

لا أريد خادمةً. أنا أعرف أطفالي، أعرف احتياجاتهم أكثر من أيّ غريب. لا أريد أن يعتادوا على يدٍ غير يدي، ولا على صوتٍ غريب يتسلّل بين جدران بيتهم. هذا البيت بيتي، بمسؤوليّاته، بسكونه وضجيجه، بتعبه وفوضاه. لا بأس أن تأتي من تُساعدني في أعمال التنظيف الروتينيّة. أمّا الأطفال، حياتهم، وتفاصيلهم، فهذه ليست من مسؤوليّاتها أبدًا. أقول: "لا"، فيحسب أنّه أدّى واجبه. عرض الحلّ، وانتهى الأمر! مديرٌ رحيم! يدعم موظّفيه بزيادة العدد ليُخفّف المهمّات عنهم، لكنّه لا يعرض أن يحمل عبئًا بنفسه.

جود ديسمبر 2015

يُفتح الباب، يذهب عمر، يتركني مع الأصوات الصغيرة التي لا تهدأ، ومع الفوضى التي أحاول أن أسيطر عليها وحدي.

يُفتح الباب، يصل عمر، يردد بحماس:

"السلام عليكم، أين أنتِ يا جود؟".

أنا هنا، أنا هنا منذ سنوات، لم أتحرّك من مكاني!

يُفتح الباب، يذهب عمر، يخرج إلى كلّ ما هو بعيد عن البيت، ويتركني مجددًا. لكنّه وقبل أن يمضي يسألني: "هل ينقصكِ شيء؟"، أومئ بلا، وقلبي يردّد: ينقصني وجودك، وأن أشعر أنّك معي.

يُفتح الباب، يصل عمر، وأنا أتنقّل بين الصراخ والبكاء، وأحاول الصمود رغم التعب والانكسار. يقول: "جلبتُ معي الحلوى التي تفضّلينها، لقد كان المحلّ مزدحمًا، لذلك تأخّرت!". أشكره، وأقول في نفسي: لو جلستَ مع طفليك لكان أفضل لي من تلك الحلوى.

يُفتح الباب، يذهب عمر، ينطلق كي ينجز بعض المهمّات، لكنّه وقبل أن يمضي يسألني: "هل يلزمك شيء؟". أجيبه هذه المرّة: نعم، الكثير!

يقول: "إذن أرسلي قائمة بطلباتك، وسأُرسل السائق ليُحضرها".

يُفتح الباب، يصل عمر، يجد الطفلين نائمين، والعشاء جاهزًا، والبيت هادئًا وساكنًا. يسأل سؤاله المعتاد الساذج: "هل نام الصغيران؟ للأسف، يبدو أنّني لم أُلحقهما وهما مستيقظان هذه المرّة أيضًا".

أومئ برأسي بسخرية، كما لو أنّ الأمر سيختلف إن كانا مستيقظين!

إنّك يا عمر اقتصرتَ مهمّتك في التربية على توفير الاحتياجات المادّيّة فقط. نحن نحتاج إلى شريكٍ وأبٍ يبقى معنا في كلّ لحظة، يجعل الروتين أقلّ وحشةً وأكثر دفئًا. كفّ أرجوك عن سؤالي: "هل ينقصكِ شيء؟".

فوجودك معي هو أهمّ شيء. وأخشى أن تفتح الباب يومًا، فلا تجد الصورة التي اعتدت أن تراها.

أخشى من ذلك، وأراه وشيكًا.

جود   يناير 2016

"هل أنتِ موظفةٌ في شركةٍ ما؟ أم تعملين بشكلٍ مستقلّ؟ ما هي مهنتك؟ ما هي خبرتك؟ ما هي سيرتك الذاتية؟"

مهنتي؟! خبرتي؟! سيرتي الذاتية؟! أنا ربّة منزل!

"ربّة منزل! يا للعار!".

لطالما تساءلت: ما هي السيرة الذاتية بالضبط؟ أليست وثيقةً تروي جانبًا واحدًا فقط من حياة الإنسان؟ فلماذا غدت أكثر من ذلك بكثير؟ لماذا بتنا نحكم على الآخرين من خلال إنجازاتهم المهنيّة فقط؟ لماذا نقيس قيمة الشخص بعدد السنوات المكتوبة في سيرته الذاتية، بعدد الشهادات والدورات والخبرات؟

سيرةٌ ذاتيّةٌ طويلة، صاحبها يتطوّر بلا أدنى شك!
سيرةٌ ذاتيّةٌ متواضعة، إذًا صاحبها في مكانه يراوح!

من قال إنّ التطوّر في السيرة الذاتيّة يعني بالضرورة أنّ الشخص يتطوّر، ويصبح كلّ يومٍ أفضل من اليوم السابق؟ ومن قال إنّ السيرة الذاتية تمثّلنا بشكلٍ كاملٍ ودقيق؟ لماذا تُهمَل الجوانب الأخرى للحياة؟ ماذا

عن تطوّرنا الروحيّ، العاطفيّ، والاجتماعيّ؟ علاقاتنا بأهلنا وأصدقائنا؟ ارتباطنا بالله؟ تغيّرنا الداخلي؟ ووعينا بأنفسنا وبالعالم؟

ماذا سأكتب في سيرتي الذاتية؟

هل أكتب بأنّي أستيقظ كلّ صباحٍ لأكون:

أمًّا، طاهية، مربّية، زوجة، منظّمة، مدرّبة، ممرّضة، والقائمة تطول.

ربّة منزل، مهنةٌ لا تنال إعجاب هذا العصر.

ربّة منزل، استنزافٌ يوميّ، عملٌ بلا مقابل، دوامٌ بلا إجازة، وسنواتٌ تمرّ، دون ترفيعاتٍ، ولا حوافز.

ربّة منزل، عطاءٌ لا يُرى، وتعبٌ لا يُحسب، وصبرٌ لا يُقدَّر.

ربّة منزل، سيرةٌ ذاتية لا يقرأها أحد، وشهادةٌ لا يُعترف بها على الورق.

لكنّها تُكتب عند من يعلم كلّ شيءٍ، ويسمع ويرى.

جود

مارس 2016

أصل إلى بوابة الروضة، أنزل من السيارة، فأرى تلك النظرة التي أعرفها جيدًا. ليست اهتمامًا حقيقيًّا، بل نظرة شخصٍ رأى "زبونةً دسمة" قبل أن يرى أمًّا تحمل طفلها.

يبتسمون لي بحرارة، يكرّرون اسمي بترحيبٍ مبالغ فيه، ويفتحون الأبواب كأنّ المكان كان ينتظرني أنا بالذات!

وبرغم كلّ شيء، أشعر لوهلة أنّ الطريق ربما يكون أسهل هذه المرّة.
وأسمح لنفسي أن أتفاءل...
ربما هذه الروضة مختلفة، ربما سيحصل ربيع على فرصته أخيرًا!

لكن كلّ شيء ينقلب خلال ثوانٍ فقط. أسلّم ملفّه، أبتسم، وأقول بكلّ وضوح: "ابني مصابٌ بالتوحّد".

ثمّ يتكرر المشهد الذي أصبح مألوفًا حدّ الوجع: الابتسامات تتقلّص، والوجوه تتغيّر، ويبدأ التردّد في أصواتهم، ويتلاشى الترحيب الذي كان يغمرني قبل دقيقة.

"للأسف، وضعه يحتاج إمكانيات غير متوفّرة عندنا".

قبل دقيقة كانوا يفتحون الأبواب، والآن يغلقونها بلطفٍ مُهين، لطفٍ أشدّ قسوةً من الرفض نفسه. أقف أمامهم وأشعر أنّهم لم يستقبلوني أنا، ولا رأوا ربيع، بل رأوا السيارة، واسم العائلة، فقط! وحين ظهرت الحقيقة، انطفأ كلّ ذلك الاهتمام الزائف.

وقد يُغدقون عليّ بعطفٍ وامتنانٍ مصطنع، ويقولون: "سندرس الأمر، وقد نقبله... لكن فقط مع معلمة ظلّ". ثمّ تبدأ رحلة البحث عن معلمة الظلّ، ذلك الشرط الذي أصبح عبوري الإجباري لكلّ باب. أبحث، وأسأل، وأتواصل، لكنّني لا أجد. إمّا مشغولة، أو بعيدة. أعود إلى البيت أحمل ربيع وملفّه ووجعي، وأشعر أنّني أعيش معركةً غير مرئية، معركة بين مظهرٍ يفتح الأبواب، وحقيقةٍ بريئة تُغلقها.

ومع ذلك، أستيقظ كلّ يوم، أمسك يده الصغيرة، وأكمل البحث. أبحث عن روضةٍ تقبله، عن مكانٍ لا يخاف من كلمة "توحّد"، عن قلبٍ يرى الإنسان قبل التشخيص، وعن معلمة ظلّ لا تبحث عن راتب فقط، بل عن إنسانيّة. وأقول لنفسي كلّما شعرتُ بالإنهاك: أنا لا أبحث عن مبنى فخمٍ ومجهّز بأحدث التقنيات، ولا عن كادرٍ تدرّب في أفضل المعاهد والكليّات، بل أبحث عن مكانٍ آمن، مكانٍ يحتوي الأطفال بكلّ أطيافهم، يحتضن النشيط والهادئ، الاجتماعيّ والخجول، الذي يحتاج دعمًا، والمستقلّ بنفسه، مكانٍ يدرك أنّ التنوع ليس مشكلة.

أخرج وأنا أحاول أن أخفي عن ربيع خيبتي، وأذكّر نفسي أنّ المشكلة ليست فيه، المشكلة في تلك المؤسسات التعليمية التي ترى الأطفال "عملاء" يجلبون المال، وتفضّل العملاء الأسهل والأيسر، الذين لا يحتاجون وقتًا أو جهدًا إضافيًّا. تلك الأماكن التي تنسى -أو تتناسى- أنّ الروضة يجب أن تكون حضنًا، لا بوابةً انتقائيةً يعبر منها من تنطبق عليه الشروط، ويُترك عندها الأطفال المختلفون على العتبة.

سأستمرّ، ولن أسمح لرفضهم أن يكسرني. سأبحث، وسأجد المكان الذي يرى ربيع طفلًا يستحق أن يُحتضن، لا أن يُصنَّف.

المكان الذي يؤمن بأنّ كلّ طفلٍ، مهما كان مختلفًا، يستحق مكانًا آمنًا يتّسع له، كما هو.

جود
مايو 2016

كنتُ أظنّ أنّك لا تُحسن التعامل مع ربيع لأنّه مختلف، وكنتُ أحزن لذلك حزنًا ثقيلًا، حزنًا يُربك قلبي كلّما رأيتُك تتجاهله وتتخطّاه. لكن الآن، وبعد أن تجاوز عمر ورد السنة، أدركتُ الحقيقة، فالأمر ذاته يتكرّر، والوجع نفسه يتّخذ وجهًا آخر. ولسان حالي يتساءل:

هل أحزن أم أفرح؟

هل أحزن لأنّك بعيد، لا تمدّ لنا يد عطائك، لا تمنحنا ما تمنحه للآخرين، لا تشاركنا تفاصيل حياتنا، بحلوها ومرّها، بلحظاتها الصغيرة والكبيرة؟
أم أفرح لأنّني تأكّدت أنّ ابتعادك عن ربيع لم يكن بسبب اختلافه، بل لأنّ هذا طبعك، لأنّك ببساطة لا تُجيد أن تكون حاضرًا مع أطفالك؟

أنا تائهةٌ يا عمر، أراك كلّ يوم، وأتعجّب: كيف أصبحنا غرباء في المكان نفسه؟ كيف نقيم تحت سقفٍ واحد، ونعيش في عالمين لا يلتقيان؟

أنا أعيش يومي بين الضحكات والصرخات، بين القصص الصغيرة، وأنت تعيش يومك بين الاجتماعات والساعات، بين الأرقام والمهمّات، كأنّنا لا ننتمي إلى الحياة نفسها!

لم يعد هناك تجاوب بيننا. ما يُسعدني لا يلمسك، وما يُحزنك بات غريبًا عنّي. أكون ممتلئة فرحًا بابتسامةٍ صغيرةٍ من ربيع حين ينجح في لعبةٍ أو تمرين، وأراك في المقابل غارقًا في الصمت، مثقلًا بالحزن بسبب اجتماعٍ لم ينجح، أو بريدٍ إلكترونيٍّ لم يصل كما أردت.

أحاول أن أشاركك تفاصيلنا الصغيرة، أن أحدّثك عن جهود ربيع، عن محاولاته واجتهاده، أو عن موقفٍ طريفٍ أضحكني، لكنّك لا توليني اهتمامك الكامل، ولا تمنحني حضورًا حقيقيًّا، تكتفي بابتسامةٍ باردةٍ تجاملني بها، ثمّ تعود إلى عالمك الخاصّ، وكأنّ ما يملأ قلبي لا يعنيك شيئًا.

وفي المقابل، تمرّ عليّ أيّامٌ يثقل فيها صدري بألمٍ لا يُروى، ونخزةٍ لا تهدأ، حين أسمع تعليقات الناس عن ربيع؛ عن إخفاقه، عن تصرّفاته التي ينعتونها بالغريبة، عن أسئلتهم المزعجة التي تُلقى بلا رحمة، ودون أيّ اعتبارٍ لشعوري. أتحامل على نفسي، وأجمع هذا الوجع في قلبي، أحمله

وحدي طوال النهار، وأنتظر عودتك، لأجد فيك ملاذًا، لأحكي لك عمّا يؤلمني، لعلّك تخفّف عنّي وجع قلبي بهمسةٍ حانية.

لكنّك في اليوم ذاته تعود مفعمًا بالفرح، بسبب صفقةٍ ناجحةٍ أو تقدّمٍ ملحوظٍ في العمل، فتتراجع كلماتي أمام فرحتك، أبتلع حزني وأؤجّل الحديث، أو أحاول أن أبثّ لك بعضًا منه، فتُملي عليّ بنصائحك وتقول: "لا تُضخّمي الأمر"، وكأنّ هذا ما كنتُ أحتاجه منك! فأغرق وحدي بين أوهامي وخيبة أملي.

اختلّ التوقيت بيننا يا عمر، واختلّ الإحساس، حتّى صارت أفراحنا وأحزاننا تتناوب بشكلٍ متعاكس، أصبحتُ غريبةً عنك، وغريبةً عن نفسي. كنتُ كلّ شيءٍ في عينيك، والآن تمرّ بجانبي كغريبٍ لا يعرفني، لا ينتبه لوجودي، ولا يلحظ انكساري الصامت.

ضاع قلبي مع كلّ نظرةٍ افتقدتها، ومع كلّ كلمةٍ كان يجب أن تُقال ولم تُقل، ومع كلّ لمسةٍ احتجتُها ولم تمنحني إيّاها.

كنتُ أؤمن أنّ الحبّ سيبقى رغم كلّ شيء، لكن يبدو أنّ المسؤوليات الكثيرة والروتين أقوى منّا. لقد ضاع الحبّ الذي جمعنا يومًا بين جدولك المزدحم وواجباتي التي لا تنتهي. أحاول أن أملأ روحي بما

أقدّمه للأطفال، لكن لا شيء يسدّ الفراغ الذي تركته أنت، ولا شيء يعوّض غيابك وأنت حاضرٌ بالجسد فقط.

أين أنتَ يا عمر؟ أين ذهبت تلك الوعود التي همستَ بها في بداية الطريق؟ أين دفء يديك حين قلتَ لي:

"سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، لأنّنا معًا"؟

لقد أضعتني يا عمر، بيننا مسافات لا يملؤها أيّ كلام. وأخاف أن نستمرّ هكذا، أن نعيش معًا بلا روح.

أخاف أن ننسى أنّنا كنّا يومًا أحباء، وأن نواصل الحياة كأنّ شيئًا لم يمت بيننا، بينما كلّ شيء قد مات بالفعل. لقد أضعتني، ولن أستطيع أن أجد نفسي مرّة أخرى إلا إذا عدت.

فهل ستعود؟

الفصل التاسع

عمر

يوليو 2016

وصلتُ إلى مزرعة جدّي متأخّرًا. كان يومي مزدحمًا بالمهمّات. توقّعت أن أجد الجميع مجتمعين في الصالة الكبيرة، لكنّ الصمت استقبلني بدلًا منهم. لم يكن في الصالة أحد. توقّفتُ عند المدخل لحظةً، ثمّ سألتُ سامية، وقد بدت منشغلةً بشيءٍ ما:

- أين جدّي وجدّتي؟ وأين الجميع؟

رفعت سامية رأسها نحوي، وأجابت بهدوء:

- جدّك يستريح في غرفته، وجدّتك ووالدتك في الصالة الصغيرة تحتسيان القهوة، أمّا أخوالك فقد غادروا منذ أكثر من ساعة.
- وجود؟ والأطفال؟

ابتسمت وقالت:

- جميعهم هنا!

جميعهم هنا! إن كانوا هنا، فأين هم؟ لماذا لا أراهم؟ أومأتُ برأسي دون تعليق، ومضيتُ أبحث عن جود. مررتُ بالصالة الصغيرة لأُلقي السلام على والدتي وجدّتي. تبادلنا كلماتٍ سريعة، ثمّ سألتهما:

- أين جود؟

أجابتني والدتي بنبرةٍ عفويّة:

- كانت هنا منذ قليل، لعلّها مع الأطفال في الغرفة المخصّصة لهما.

اتصلتُ بها، لكن هاتفها كان خارج التغطية، فصعدتُ إلى الغرف العلويّة. طرقتُ الباب بهدوء ودخلتُ. كان ربيع وورد نائمين بعمق، ابتسمتُ للحظة، لكن سرعان ما تلاشت الابتسامة؛ جود لم تكن هناك. خرجتُ من الغرفة، ومررتُ على بقيّة الغرف في الطابق العلوي، واحدةً تلو الأخرى، دون جدوى.

أين اختفت؟!

نزلتُ مجدّدًا إلى الطابق السفلي، واتّجهتُ نحو المطبخ، وناديتُ بصوتٍ أعلى:

- جود، هل أنتِ هنا؟

سمعتني سامية، فتقدّمت نحوي. سألتُها بنفاد صبر:

- أين جود؟

قالت، وكأنّها تُعيد جملةً محفوظة:

- كانت هنا منذ قليل!

عدنا إلى الموال ذاته، كانت هنا منذ قليل! ما الذي يجري بالضبط؟ ولماذا تُكرّر سامية هذه العبارة وكأنّها تسخر منّي؟

بحثتُ مجدّدًا في الصالات، ولم أجد لها أثرًا. صعدتُ مرّةً أخرى إلى غرفة الأطفال، ثمّ عدتُ أدراجي بلا جدوى. وبينما كنتُ متّجهًا نحو الحديقة، قابلتُ سامية للمرّة العاشرة، فكرّرت لي الجملة ذاتها، وبالهدوء المستفزّ ذاته: "كانت هنا منذ قليل!". في تلك اللحظة، لم أعد متأكّدًا إن كنتُ غاضبًا أم مرتبكًا. سألتني سامية:

- هل تحتاج منها شيئًا ملحًّا؟

توقّفتُ لحظة، فكّرتُ، ثمّ أجبتُ:

- لا!

قالت بنبرةٍ مطمئنّة:

- إذًا اجلس وارتح، وتناول طعام الغداء أوّلًا، لقد أعددته لك.
- سأتناوله بعد قليل.

اعتذرتُ منها ومضيتُ. كان الغضب يختلط في داخلي بشعورٍ غامضٍ لا أجد له اسمًا. بحثتُ في كلّ الأرجاء، كان الطقس حارًّا، فاستبعدتُ أن تكون جود في الحديقة الخارجيّة، ومع ذلك خرجتُ إلى الحديقة لأبحث عنها، لعلّها تجلس عند النوافير الأماميّة. ناديتُ مرارًا:

- جود! جود، أين أنتِ؟

يا للإزعاج! أين اختفت؟

عدتُ إلى المبنى، وكرّرتُ البحث، لكن هذه المرّة دون أن أسأل سامية، كي لا أسمع ذلك الجواب المستفزّ مجدّدًا. توجّهتُ إلى الحديقة مرّةً أخرى، لكن هذه المرّة إلى الجزء الخلفيّ منها، مررتُ على حوض السباحة فلم أجد أحدًا، فأكملتُ طريقي نحو تلك المساحة التي خصّصها جدّي لزراعة بعض الأشجار المثمرة. لم نعتد الذهاب إليها كثيرًا، فهي لا تتميّز بشيءٍ لافت، سوى كوخ صغير، تحيط به الورود، وبحيرة صغيرة تتجمّع فوق سطحها الحشرات بشكلٍ مزعج.

وبينما كنتُ أمشي فوق التربة الطينيّة بغضب، ظهرت البحيرة أمامي، لكن شيئًا آخر لفت انتباهي: كرسيٌّ يتوضّع خلف البحيرة، كرسيٌّ خشبيٌّ أبيض! تسمّرتُ في مكاني، وحدّقتُ حولي بقلق، ثمّ وقعت عيناي على طرف ثوبٍ يتحرّك خلف الكوخ القريب من البحيرة.

اضطربت دقّات قلبي، تبدّد الغضب، وحلّ مكانه قلقٌ ثقيل، وسألتُ نفسي، بصوتٍ بالكاد سمعته: يا إلهي! هل أضعتُها؟

جود يوليو 2016

اكتفى برسالةٍ نصيّة كتب فيها: "سأتأخّر، لا تنتظروني". رميتُ الهاتف جانبًا، وتمتمتُ في داخلي بمرارة: ومن قال لكَ أصلًا إنّنا سننتظرك؟ لا تَعُد! ابقَ هناك في الشركة! مرّ على الجمعيّة، ثمّ عُد إلى الشركة مجدّدًا! اتّخذ لكَ غرفةً هناك، وواصل الليل بالنهار، ولا تعُد. حذارِ أن تعود، فالعمل أهمّ، والشركة أهمّ، وكلّ شيءٍ -على ما يبدو- أهمّ منّا.

لم أكن لآتي لو علمتُ أنّه سيتأخّر؛ فالخروج بالأطفال إلى مزرعة الجدّ عزمي ليس مهمّةً سهلةً أبدًا. إلّا أنّ عمر أصرّ أن نخرج منذ الصباح، وأن تصطحبنا والدته معها إلى المزرعة، وقال إنّه سيمرّ على الشركة لجلب بعض الملفات ويلحق بنا. كنتُ أُمنّي نفسي بيومٍ جميلٍ نقضيه معه، لكنّه -مرّةً أخرى- لا يهتمّ، ولا يفكّر بنا.

أنهينا طعام الغداء، جلستُ قليلًا مع جدّ عمر وجدّته وأخواله ووالدته، ثمّ صعدتُ مع الأطفال إلى إحدى الغرف العلويّة. وبعد عراكٍ لا يخلو من التعب والعناد، استسلما كلاهما للنوم. وبينما كنتُ أتأمّلهما وهما نائمان، لمحتُ عمر من النافذة وهو يركن السيارة في المرآب. ودون

تفكيرٍ أو تخطيطٍ مسبق، نهضتُ وتوجّهتُ نحو الحديقة الخلفيّة. أوصيتُ سامية أن تعتني بالأطفال ريثما أعود، وأن تجيب عمر إن سأل عنّي بهذه الجملة فقط: "كانت هنا منذ قليل". جريتُ، ودموعي تنساب على خدّيّ بلا مقاومة، لم تكن لديّ خطّة واضحة. وصلتُ إلى البحيرة الصغيرة، فتوقّفتُ أمام الكرسيّ، ورحتُ أتأمّله بحزنٍ ثقيل. لم أتوقّع يومًا أن يتحقّق هذا المشهد بالفعل!

في ذلك اليوم، منذ سنواتٍ طويلة، حين أضاع آدم سلام، سألني عمر وهو يمزح: أين سأجدك إن أضعتك؟ كان يظنّ أنّ هذا الافتراض ضربٌ من الخيال، أذكر أنّي اخترتُ هذا المكان بشكلٍ تلقائيّ، فقد انطبع في ذاكرتي منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها، مكانٌ ساحر، وشاعريّ إلى حدٍّ موجع، يختزل كلّ ما أشعر به من أمانٍ وغربةٍ معًا.

لا أعلم إن كان عمر يذكر ما دار بيننا في ذلك اليوم، ولا أعلم إن كان قد أدرك أنّ ما قصدته حقًّا هو الحديقة الخلفيّة في مزرعة جدّه.

وقفتُ أمام الكرسيّ، وأسندتُ ظهري إلى أحد جدران الكوخ الصغير، كأنّي أستند إلى آخر ما تبقّى لي من صبر. تركتُ جسدي يهدأ هناك، بينما كانت دموعي تنساب على خدّيّ ببطء، بلا بكاءٍ مسموع، وبلا قدرةٍ على

إيقافها. كان رأسي فارغًا تمامًا، لا فكرة تكتمل، ولا قرار يتشكّل، فقط ثِقَلٌ يجثم على صدري ويمنعني من التفكير.

كنتُ أنتظر، أنتظر دون وعيٍ واضح، ودون أن أعرف ما الذي أرجوه من هذا الانتظار. لعلّي أنتظر حضورًا، أو كلمةً، أو نهايةً ما... أو ربّما كنتُ أنتظر ألّا يحدث شيء. لم أكن أعلم بالضبط ماذا أنتظر، لكنّي كنتُ متيقّنةً من أمرٍ واحد: أنّ الوقوف هنا هو أملي الأخير.

عمر يوليو 2016

أصدرتُ صوتًا خافتًا، مجرّد إشارةٍ صغيرةٍ كي تتنبّه لوجودي، ولا تفزع، لكنّها لم تتحرّك. بقيت في مكانها، كما لو أنّها لم تسمعني، أو ربّما سمعت وتجاهلت. شعرتُ أنّها لا تودّ رؤيتي، ولا سماع صوتي. وقفتُ حائرًا؛ هل أتابع خطواتي وأتحمّل ما قد يجيء بعدها؟ أم أتراجع؟

اقتربتُ، وقفتُ بمحاذاتها، على الجانب الآخر من الكوخ، بقينا صامتين زمنًا بدا أطول من أن يُحتمل. كنتُ أسمع أنفاسها، شعرتُ بانكسارها، أعلم أنّها شكَت وحاولت مرارًا أن تشرح حاجتها إليّ، لكن لم أتوقّع أنّ الأمور تفاقمت معها إلى هذا الحدّ. رحتُ أفكّر وأحاول أن أفهم: متى بدأ كلّ هذا؟ وكيف وصلنا إلى هنا، إلى هذا الوقوف المتوازي، كأنّنا نسير في حياتين لا تلتقيان؟

لطالما حلمتُ أن أكون أبًا مثاليًّا، ألّا أُورّث أطفالي ذلك الفراغ الذي عشتُه، وألّا أكون زوجًا حاضرًا بالجسد فقط، غائبًا بكلّ ما عداه. وعدتُ نفسي أن أكسر الدائرة، أن أفعلها بشكلٍ أفضل. لكن وقوفها

هنا الآن، صامتة، بعيدة، يروي قصّةً أخرى، قصّةً لا تشبه وعودي ولا تشبه الصورة التي رسمتُها.

هل فشلتُ حقًّا؟ هل ذهبت كلّ تلك الوعود أدراج الرياح؟ وهل كنتُ، دون أن أشعر، أُعيد خطأ والدي بالطريقة نفسها، ولكن بحججٍ أكثر إقناعًا؟

حاولتُ، أُقسم أنّني حاولت، ولا أعرف متى اختلّ التوازن، ومتى تحوّل الغياب إلى عادة؟ هل بالغتُ في الغياب إلى حدٍّ لم يعد يُغتفر؟

أقنعتُ نفسي أنّها مرحلةٌ وستمرّ، أنّ التعب مؤقّتٌ، وأنّ الفهم مضمونٌ، فالشركة لا تنتظر أحدًا، والحياة لا ترحم من يتباطأ، والضغوط تتراكم بلا توقّف. يُقال إنّ على الرجل أن يحمل العبء، أن يؤمّن حياةً كريمةً لعائلته مهما كان الثمن. عملتُ، أرهقتُ نفسي، من أجلهم. أردتُ أن أكون سندًا، لا ظلًّا عابرًا. كلّ ما فعلتُه كان حبًّا... أو هكذا أقنعتُ نفسي. لكن، هل يمكن للحبّ أن يتحوّل إلى هروبٍ مقنّع؟

للمرّة الأولى، لا أتهرّب من هذا السؤال، ولا أؤجّله. أنظر إليه كما هو، بلا تبريرٍ وبلا أعذار، لأكتشف –على غير ما توقّعت– أنّني لا أملك له جوابًا صريحًا.

أتذكّر يوم هربت سلام من آدم. بحثنا عنها في كلّ مكان، وكنتُ أنظر إلى آدم آنذاك بنظرة ازدراءٍ خالصة؛ كيف لرجلٍ أن يدفع زوجته إلى هذا الحدّ؟ كيف يتركها تصل إلى لحظةٍ تهرب فيها منه، وتضيع؟ كنتُ أراه ضعيفًا، مقصّرًا، ومسؤولًا وحده عمّا حدث. وها أنا الآن أقف في المكان نفسه، وأرتدي الدور الذي احتقرته يومًا. ها أنا أضعتُكِ يا جود!

في ذلك اليوم، لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة ليعود آدم ومعه سلام، نصف ساعةٍ فقط كانت كافيةً لتُرمّم الشرخ، أو على الأقلّ لتؤجّله.

أمّا اليوم، فأقف هنا، عاجزًا، لا أعلم بأيّ كلماتٍ سأقنعها، ولا إن كان ما انكسر بيننا قابلًا لأن يُجبر أصلًا. والأسوأ من ذلك كلّه، أنّني للمرّة الأولى، لا أستطيع أن ألوم أحدًا سواي.

نظرتُ نظرةً خاطفةً نحوها، سحبتُ يدها وأمسكتُ بها، وبقيتُ صامتًا.

جود يوليو 2016

لم أكن واثقةً من أنّه سيدرك ما أعنيه بوجودي هنا، في هذا المكان، وحدي؛ لكن حين طال صمته، أدركت أنّه فهم تمامًا ما أرمي إليه. أمسك بيدي، لم أنظر إليه، لكنّ الارتباك كان جليًّا في ضغطته غير المستقرّة. وفجأةً، كسر الصمت دون أيّ تمهيد، وسألني:

- ماذا أفعل؟

لم أجد جوابًا. شدّ على يدي أكثر، وكأنّه يتمسّك بآخر خيط، ثمّ أعاد السؤال بصوتٍ أقرب إلى الرجاء:

- أخبريني... ماذا أفعل؟ هل انتهى الأمر؟ أم ما تزال لديّ فرصة؟

اضطرب قلبي، وتسارعت دقّاته على نحوٍ مُربك. حاولتُ أن أجد مخرجًا من هذا المأزق، فأنا لم أكن مستعدّةً لهذا الموقف، ولم تكن لديّ الطاقة لإعادة الكلام ذاته؛ ذلك الكلام الذي استُهلك حتّى فقد معناه، والعتاب الذي يدور في حلقةٍ مفرغة، والأخذ والردّ الذي لا يُفضي إلى شيء. كانت الأفكار تتزاحم في رأسي، وكلّ جملةٍ محتملة بدت إمّا قاسيةً

أكثر ممّا ينبغي، أو ضعيفةً لا تُنصف ما أشعر به. فكّرت، ثمّ أجبته بهدوءٍ بدا مصطنعًا حتّى على مسامعي:

- سأسألك خمسة أسئلة، ويكفي أن تجيب عن واحدٍ منها فقط.

قال بسرعة، وكأنّه يتشبّث بالأمل:

- أنا أسمعك.
- متى تلقّى ورد آخر لقاحٍ له؟

صمت قليلًا، أخذ نفسًا عميقًا بحزن، ثمّ قال:

- التالي...
- هناك لعبةٌ لورد، يحبّها ربيع كثيرًا ويسحبها من يده دائمًا، هل تعرف ما هي؟

فكّر، بدا أنّه يحاول استدعاء صورٍ لألعاب الأطفال، ثمّ تردّد، ولم يجب. ظننته سيحاول، لكنّه تراجع وقال بصوتٍ أخفض:

- التالي...
- هناك فاكهةٌ يفضّلها ربيع، وحين يأكلها يعصرها بيده قبل أن يضعها في فمه، ما هي؟

أجاب هذه المرّة أسرع، بنبرةٍ مشوبة بالضيق:

- التالي...
- لدى ربيع بعض الكلمات التي ينطق حروفها بشكلٍ معكوس، اذكر واحدةً منها؟

لم أترك له فرصةً للهرب، أردفتُ دون انتظار:

- لديّ جملةٌ أقولها حين يقع الأطفال فجأة، أو يسقط شيءٌ من أيديهم. ربيع ظنّها اسمًا للوقوع، رغم أنّها ليست كذلك. ما هي؟

ظلّ صامتًا، فتابعتُ دون رأفة:

- أين تجد فرش أسنان الأطفال؟ ما التوقيت الأفضل لاستحمام ربيع؟ هل يخاف ورد من الماء أم يحبّه؟ منذ مدّة أطلق ربيع اسمًا خاصًّا على لعبته المفضّلة، ما هو؟ بعد فطام ورد، عانيتُ كثيرًا حتّى وجدتُ نوع الحليب المناسب، ما هو النوع الذي أحبّه ورد؟ هناك بنطالٌ يحبّه ربيع جدًّا، حتّى إنّه يبحث عنه في غرفة الغسيل إن لم يجده، ما لونه؟ هناك أغنيةٌ يضحك ورد كلّما

سمعها، في البيت أو في السيارة، ما هي؟ ما آخر مدرسةٍ زرتها لأجل ربيع؟ وماذا كان ردّهم حين رفضوه؟

كانت الأسئلة تتوالى رغمًا عنّي، واحدةً تلو الأخرى، بحدّةٍ واستفزازٍ واضحين، لم يكن هذا امتحانًا له بقدر ما كان انهيارًا لي. أمّا هو، فكان ينصت بصمتٍ كامل. توقّعتُ أن يصرخ، أن يقاطعني، أن يقول: "كفى، توقّفي"، لكنّه لم يفعل.

تعبتُ فجأةً، تعبتُ من التفكير، من الأسئلة التي أعرف إجاباتها وحدي. توقّفتُ وصمتُّ. فسمعتُ صوت أنفاسه، كان حزينًا... حزينًا جدًّا، لكن ليس بقدر حزني. قال أخيرًا، بصوتٍ منكسر:

- أنا آسف... يبدو أنّني فشلتُ بجدارة.

سألته بهدوءٍ موجع:

- إذًا؟ ماذا علينا أن نفعل الآن؟

أخذ نفسًا عميقًا، مثقلًا بالمرارة، وبقي صامتًا للحظات، ثمّ قال بحزمٍ:

- لن أدعك تذهبين، مهما كان الثمن.

سحبتُ يدي بسرعة، وكنتُ على وشك الرحيل. أيسخر منّي؟ أيستخفّ بمشاعري إلى هذا الحدّ؟ ألا يفهم أنّ صبري قد نفد، وأنّني لم أعد أحتمل هذا الشكل من الحياة؟

لكنّه أمسك بي بقوّة، وضمّني إليه:

- سأكون قادرًا على الإجابة عن كلّ تلك الأسئلة. فقط... أعطيني فرصةً أخيرة، أرجوك!

شدّني إليه أكثر. غمرتني حينها مشاعر متداخلة: حزن، وأمان، وخذلان في آنٍ واحد. وبينما كنتُ أبكي على صدره، سألته سؤالي الأخير، بصوتٍ مكسور:

- هناك أمرٌ تفعله جود كلّ ليلة قبل أن تنام... هل تعرف ما هو؟

رفع وجهي بين يديه، نظر إليّ طويلًا، ثمّ قال:

- أعدك أنّك لن تفعليه بعد اليوم. لن أدعك تبكين، أعدك بذلك.

ذرفتُ دموعًا أكثر...

إذن فأنتَ تعرف الإجابة يا عمر... تعرفها، ولا أعلم إن كانت هذه المعرفة شفيعةً لك، أم شاهدةً عليك. تعرف، ومع ذلك ترضى بأن نكمل حياتنا بهذا الشكل؟!

كان ينظر إليّ باستجداءٍ صريح، بعينين تبحثان عن فرصةٍ أخيرة، ولم أستطع حينها إلّا أن أمنحه إيّاها. انهارت قواي في تلك اللحظة، وارتميتُ مجدّدًا على صدره، كأنّني أستسلم، لا له، بل لما تبقّى في داخلي من أمل.

سأمنحك هذه الفرصة يا عمر! حاول، أرجوك! حاول ولا تُخذلني هذه المرّة، لأنّها الأخيرة فعلًا، وبعدها لن يبقى في داخلي ما يُنقَذ، ولا ما يُمنَح.

عمر أغسطس 2016

كنتُ أنهي اتصالاتي مع الشركة حين نادتنا غالية لتناول طعام الفطور الذي أعدّته. أجابت جود وهي تغسل أيدي الأطفال بعد ما فرغت من إطعامهما:

- سآتي حالًا.

تحبّ جود غالية، وترى أنّه لا بأس من طلب المساعدة منها، لذا طلبنا منها مؤخّرًا أن تأتي إلى منزلنا يومين في الأسبوع، لتعتني بربيع وورد، في الوقت الذي نذهب فيه أنا وجود لقضاء بعض المهمّات، سيّما مهمّة البحث عن المدارس. أنهينا طعام الفطور، ثمّ سلّمت جود الأطفال إلى غالية، جهّزت نفسها، وانطلقنا.

هذا هو الأسبوع الرابع لي مع جود في رحلة البحث عن مدرسةٍ تستقبل ربيع. في الأسابيع الماضية، لم نكن محظوظين كثيرًا؛ حصلنا على مواعيد قليلة. أمّا اليوم، فلدينا ثلاث مقابلاتٍ في يومٍ واحد، لعلّ وعسى أن تنجح إحداها، ويقبلوا ربيع في إحدى تلك المدارس.

لم أُدرك معاناة جود حين كانت تخبرني سابقًا بصعوبة إيجاد مدرسةٍ مناسبة، وظننت أنّها تبالغ بعض الشيء... حتّى خضتُ التجربة بنفسي. كم من السهل التنظير والكلام!

وصلنا إلى المدرسة الأولى، فاستقبلنا المدير استقبالًا حافلًا. بدأ بالتعرّف عليّ وكأنّه ينوي توظيفي، فسأل عن شهادتي، ومكان عملي، وغير ذلك من الأسئلة التي لم أفهم ما صلتها بابني ربيع! ثمّ وجّه الأسئلة نفسها إلى جود. بعدها، قال تلك الجملة التي سمعناها أكثر من مرّة:

- ما شاء الله، الأب والأمّ يحملان شهادة الهندسة، ومبدعان!

لا أعلم كيف استنتج أنّنا "مبدعان" من مجرّد سيرٍ ذاتيّة، لكن هكذا بدا له. أكمل حديثه قائلًا:

- إذًا سيلتحق بمدرستنا طفلٌ ذكيٌّ ومبدع.

صمتنا قليلًا، ورأيت الانكسار في نظرة جود، التي ردّت عليه بحزم:

- عفوًا، حتّى الآن لم تسألنا عن الطفل نفسه. كلّ ما سألته كان عن شهاداتنا ومهنتنا، وكأنّك ستوظّفنا. بينما الحقيقة أنّنا نحن من سيوظّف هذه المدرسة من أجل ابننا، ونحن من يجب عليه أن يطرح الأسئلة: عن شهادات الكادر التدريسيّ والإداريّ،

عن مبنى المدرسة، عن أسلوب المدرسة التربويّ والتعليميّ، وكلّ ما يتعلّق بالمدرسة ومرافقها وأنشطتها...

همّ المدير بالرد، لكنّي قاطعته، مع أنّي لستُ ممّن يحبّون المقاطعة، إلّا أنّ الموضوع حسّاس للغاية بالنسبة لنا، واستفزّني استنتاجه بأنّ ربيع لا بدّ أن يكون مبدعًا ومتميّزًا في التحصيل الدراسيّ فقط لأنّه ابن مهندسين. قلت له:

- حضرة المدير، ابننا ليس كما استنتجت. ربيع لديه طيف التوحّد، وهذا لا يعني بالضرورة أنّه ليس ذكيًّا، لكنّه يحتاج إلى طريقةٍ خاصّةٍ في التعامل. ونحن هنا لنسأل إن كان الكادر التدريسيّ في مدرستكم قادرًا على التعامل مع حالته.

انفعل المدير أكثر، وقال بحماس:

- مصابٌ بطيف التوحّد؟ إذًا هو عبقريّ!

لا أعلم من أين جاء هذا الاعتقاد الخاطئ، بأنّ كلّ مصابٍ بطيف التوحّد لا بدّ أن يكون عبقريًّا، يبدو أنّها من الصور النمطيّة التي تُصوّر الأمور بشكلٍ حالم. أجبته، محاولًا هذه المرّة أن أكون أكثر لباقة:

- لا بدّ أنّك تشير إلى متلازمة أسبرجر، الحقيقة أنّ نسبة من لديهم هذه المتلازمة من بين المصابين بالتوحّد لا تتجاوز تسعة بالمائة فقط، وربيع ليس من هذه النسبة.

هزّ المدير برأسه بعد أن فهم الوضع جيّدًا، ثمّ قال لنا:

- للأسف، مدرستنا لديها معايير خاصّة في اختيار التلاميذ، ولدينا امتحانات قبول للصفّ الأوّل الابتدائيّ، وأحيانًا للتمهيديّ، ولا أعتقد أنّ ابنكما قادرٌ على خوض هذا الامتحان.

في تلك اللحظة، أيقنتُ أنّه يبحث عن مستوى أكاديميٍّ معيّنٍ للتلاميذ، فقط ليُبقي مدرسته في القمّة. ليقولوا: "انظروا إلى تلاميذ هذه المدرسة، كم هم متفوّقون!" وبذلك، يرتفع اسم المدرسة وسمعة المعلّمين فيها، رغم أنّهم لم يبذلوا أيّ جهدٍ حقيقيّ؛ فهم ببساطة اختاروا الأفضل مسبقًا.

ودّعنا المدير وركبنا السيارة، فبدأت جود تبثّ مخاوفها:

- هذه المدرسة التاسعة التي لم تقبل ربيع.
- ما زال لدينا موعدان آخران اليوم.
- لكنّني أحببت تلك المدرسة، وحزنت لعدم قبولهم ربيع.

- صدّقيني، لستُ آسفًا على هذه المدرسة التي لا تُبدي اهتمامًا بالتلميذ بقدر اهتمامها بعلاماته وتحصيله من أجل سمعتها فقط.
- هذه أفضل الموجود يا عمر، ألم ترَ كيف جرى الأمر في الأسابيع الماضية؟
- لا تيأسي، لا بدّ أن نجد مدرسةً مناسبةً له.
- أدعو الله أن نجدها بسرعة وننتهي من عمليّة البحث المرهقة هذه.
- آمين، والآن إلى أين الوجهة؟

أمسكت جود بهاتفي، بحثت عن عنوان المدرسة التالية، وانطلقنا.

جود أغسطس 2016

استقبلنا المدير ورحّب بنا. كان هذه المرّة أقرب إلى الإنسانيّة من أيّ شخصٍ آخر قابلناه. لم ينظر إلى عمر كصرّافٍ آليٍّ يدرّ المال، ولم يسأل عن سيرتنا الذاتيّة ليقيس مستوى ذكاء الولد من إنجازات الوالدين. وبعد حديثه معنا عن ربيع وتعرّفه إلى حالته بشكلٍ أعمق، تابع قائلًا:

- أحترم قراركما كثيرًا في دمج ربيع مع الأطفال الآخرين، لكن هل درستما تبعات هذا القرار فعلًا؟
- لقد درسنا الأمر، واستشرنا طبيب السلوك الذي شخّص حالته، وأخصائيّة النطق التي تشرف عليه، وصرّحا بأنّ ربيع قادرٌ على التفاعل مع المجتمع بعد التدريب، وأنّ المدرسة العاديّة هي الخيار الأفضل له.
- لكن معلّمة الفصل لن تستطيع أن توليه العناية الخاصّة التي يحتاجها ضمن فصلٍ عاديٍّ فيه أكثر من عشرين تلميذًا، لذا فإنّ ربيع يحتاج إلى معلّمةٍ خاصّةٍ ترافقه دائمًا.

- هل تقصد معلّمة ظلّ؟ بعض المدراء في المدارس الأخرى أخبرونا بذلك، واشترطوا وجود معلّمة ظلّ في حال قبولهم لربيع، لكنّهم في النهاية لم يقبلوه!
- أفهم استياءكم، لكن سألفت انتباهكم إلى إشكاليّةٍ متعلّقةٍ بسياسة المدرسة المصرَّح بها، فعندما لا تُصرّح المدرسة بشكلٍ رسميٍّ باستقبال الحالات الخاصّة ودمجها في الفصول، ثمّ تفتح أبوابها لاستقبالهم، فهذا قد يسبّب مشكلةً لدى الأهالي الآخرين، وقد يعترضون على الأمر.

سألته:

- إذًا ما الحلّ؟ هل توجد مدرسةٌ تعلن صراحةً أنّها تدمج هذه الحالات؟ ما الوضع في مدرستكم على سبيل المثال؟
- للأسف، مدرستنا لم تُصرّح بدمج الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة بعد، لكن كنّا قد تحدّثنا مسبقًا عن هذا الموضوع، ولم يُبتّ فيه، وسأعاود فتح هذا الملفّ مع مجلس إدارة المدرسة وملّاكها، وأوافيكم بالخبر.

شكرناه، وأضاف عمر:

- سأكون بانتظار رسالتك على أحرّ من الجمر.

قال المدير:

- غدًا سأعطيك الإجابة النهائيّة، لا تقلق. رافقتكما السلامة.

عدنا إلى السيارة، وكان لا يزال لدينا موعدٌ واحدٌ متبقٍّ. أمسكتُ هاتف عمر لأضع الخريطة، ففاجأني بقوله:

- جود، لا داعي للذهاب إلى المدرسة الثالثة. برأيي، اتّصلي وألغِي الموعد، ودعينا ننتظر جواب المدير.
- يبدو أنّك متفائلٌ إلى حدٍّ مفرط.
- دعينا نرى ما سيخبرنا به خلال هذين اليومين. لقد وعدني أيضًا أن يستفسر عن مدارس تقبل حالة ربيع إن تعذّر تسجيله لديهم.
- وما الضرر في أن نذهب الآن؟
- سمعة المدرسة القادمة غير جيّدة، سمعت أنّهم ماديّون إلى أبعد حدّ، ولا أحبّ التعامل مع هذا النوع. ثمّ إنّنا تأخّرنا على الأطفال، بالمناسبة لا أجدك تبدين قلقك عليهما اليوم!
- أريد أن أنهي مسألة المدرسة، لذلك لم أُظهر قلقي لك، لكن قلب الأمّ لا يتوقّف عن القلق.

ألغينا الموعد، وعدنا إلى المنزل، فوجدنا ورد نائمًا، أمّا ربيع فكان يلعب بثلاثة أكوابٍ بلاستيكيّة، يُدخلها في بعضها، ثمّ يفصلها ويعيد الكرّة.

يبدو أنّ غالية عثرت له على لعبةٍ جديدة.

عمر

أغسطس 2016

مرّ يومان وهاتفي لا يفارقني، كنتُ أضعه أمامي أينما ذهبت لألّا أضيّع مكالمة المدير التي ننتظرها بفارغ الصبر. وفعلًا، أوفى المدير بوعده واتّصل بي، عرّفني بنفسه -وكأنّه بحاجةٍ إلى ذلك- ثمّ قال:

- أستاذ عمر، بخصوص موضوع قبول ربيع، تحدّثتُ مع مجلس إدارة المدرسة، وللأسف لم ترق لهم الفكرة. يبدو أنّهم لا يريدون فتح باب اعتراضات الأهالي وما يرافقها من متاعب، ويفضّلون البقاء على الوضع الحالي.
- لكن ابني ليس عدوانيًّا، ولن يؤذي الأطفال.
- أنا متيقّنٌ من ذلك، لكن بعض الناس يخافون التغيير أو استحداث أمرٍ جديد، حتّى وإن كان أمرًا جيّدًا.
- شكرًا لجهودك على كلّ حال.
- العفو، وددتُ لو استطعتُ تقديم المساعدة، وأن نستطيع استقبال ربيع لدينا! على أيّ حال، لقد تحدّثتُ مع بعض الأساتذة والزملاء، وزوّدوني باسم مدرستين تستقبلان الحالات الخاصّة. واكتشفتُ أنّي على معرفةٍ بمساعد المدير في

إحداهما، كان زميلًا لي. لذا تواصلتُ معه وشرحتُ له حالة ربيع، ووعدني خيرًا إن شاء الله.

- لا أعرف كيف أشكرك، قابلتنا مرّةً واحدةً، وسعيتَ كلّ هذا السعي لمساعدتنا!
- يا رجل، الناس للناس، وإن خلَت خربت. سأرسل لكَ رقم هاتف زميلي، واسم المدرسة.
- جُزيتَ عنّا كلّ الخير!

جود سبتمبر 2016

لطالما تساءلتُ ما هي الصداقة حقًّا، وما الذي يجعل شخصًا ما حاضرًا في حياتك، لا لمجرّد الحاجة، بل لمجرّد الرغبة في المشاركة.

في السنوات الماضية، كانت قائمة صديقاتي تعجّ بالأسماء، وكانت الرسائل والمكالمات واللقاءات تحدث دون سببٍ محدّد: سؤالًا عابرًا، صورةً من يومٍ عاديّ، أو دعوةً قصيرة للحديث بلا مناسبة. كنّ يكتبن لي لأنّهنّ أردن ذلك، لا لأنّهنّ يحتجن شيئًا. كنتُ جزءًا من تفاصيل أيّامهنّ الصغيرة، وكان التواصل يحدث ببساطة.

أفتقد ذلك الزمن الذي كنتُ فيه صديقةً يُسأل عنها، لا شخصًا يُلجأ إليه عند الحاجة فقط. لا ألوم أحدًا، ولا أبحث عن تفسيرٍ، لكنّ الفارق بين ما كان وما أصبح صار واضحًا بما يكفي لأشعر به، حتّى دون أن أسمّيه. أسأل نفسي: يا ترى، هل أصبحتُ مملّةً إلى هذا الحدّ، فيبتعدون عنّي؟ أم ربّما أصبحتُ أكثر جديّةً من ذي قبل؟

ربّما يعتقد الجميع أنّ هاتفي لا يتوقّف؛ فجود -كما يظهر للعلن- محبوبةٌ وقريبةٌ من الجميع، فما بالك بدائرة صديقاتها المقرّبات؟ لكنّهم لا يعلمون أنّني لو أغلقتُ هاتفي لأسبوعٍ كامل، لما تراكمت فيه سوى

رسائل مجموعة العائلة، ورسالةٍ من مجموعة القرآن تذكّرني بالأوراد والأذكار... ورسائل جُمان.

نعم، جُمان! وحدها من أستثنيها من كلّ القوائم. فهي ليست من قائمة الصديقات، ولا من قائمة المقرّبات، بل هي الأخت، والصديقة، والسند، والداعم، ورفيقة الدرب. لا تتوقّف عن الاهتمام، لا تتعب من الإصغاء، ولا تملّ من التكرار. لا ترى في البُعد سببًا لقلّة الودّ، ولا في اختلاف الظروف مبرّرًا لتغيير صيغة الصداقة بيننا. أحمد الله أنّ لديّ من تسمعني وتهتمّ لأمري. فحتّى لو كان عمر بجانبي، وأختي، ووالدتي، سأبقى بحاجةٍ إلى جُمان؛ ففي بعض الأحيان، لا أحد يفهم ما أحتاجه إلّا هي. لذا، وعلى الرغم من بعدها، فقد كانت جُمان على درايةٍ بتفاصيل البحث عن المدارس خطوةً بخطوة، ودمعةً بدمعة، تخفّف عنّي، وتشدّ أزري، وتدعمني بدعائها ليلًا ونهارًا.

وفي ذلك اليوم، وبعد أن سمعتُ أجمل خبر، وجدتُ نفسي أرسل لها أوّل الناس لأبشّرها، فكتبتُ لها وأنا في السيارة:

- جُمان!

ردّتْ على الفور:

- بشّري؟!
- خرجنا للتوّ من مكتب المدير، الحمد لله، قبلوا ربيع في المدرسة.

قرأت جُمان الرسالة، واتّصلت بي حالًا، فسألتني، والابتهاج بادٍ على صوتها:

- ألف مبارك! أخبريني كيف جرى الأمر بالتفصيل.
- كما تعلمين، كانت الإدارة على درايةٍ مسبقةٍ بحالة ربيع، لذا كان الحديث أسهل بكثير. حتّى إنّهم أخبروا معلّمة الصفّ، وحضرت لتقابل ربيع وتتعرّف إليه.
- جميل جدًّا!
- وبالطبع هناك شرطٌ لقبوله، وهو أن ترافق ربيع معلّمة ظلّ.
- نعم، كنّا متيقّنين من هذا الأمر.
- سألناهم إن كانوا يستطيعون ترشيحها من قبلهم، فأخبرونا أنّه من الأفضل أن نجدها بأنفسنا، وأن نعرّفها على ربيع، ثمّ ترافقه إلى المدرسة يوميًّا.
- إذًا، لدينا الآن مهمّة البحث عن معلّمة الظلّ.
- نعم، هذا صحيح. أتعلمين؟ لقد عاملوا ربيع بالأقساط كبقيّة التلاميذ، دون زيادةٍ أو نقصان. أسعدني هذا كثيرًا، ليس للقيمة المادّية، بل لقيمته المعنويّة الكبيرة. شعرتُ أنّهم يرون طفلي كأيّ

طفلٍ آخر، دون استغلالٍ لحالته أو تبرير زيادة القسط بالجهد الإضافي...

وهنا لم أستطع أن أكتم دموعي، وجعلتُ أنتحب بصوتٍ منخفض، فمنحتني جُمان بعض الثواني دون أن تقاطعني، ثمّ قالت:

- هوّني عليكِ، لا تبكي. أسأل الله أن يرشدك إلى معلّمة ظلٍّ مناسبة. قد لا يكون الطريق سهلًا، لذا حاولي أن تستفسري وتسألي أينما ذهبتِ. وسأسأل والدتي، لعلّها تدلّنا على إحداهنّ. متى ستبدأ السنة الدراسيّة؟
- بعد أسبوعين. أخشى أن تبدأ السنة الدراسيّة، ولا يستطيع ربيع الالتحاق منذ البداية إن لم نجد معلّمة الظلّ.
- هذا الاحتمال واردٌ يا جود، فأغلب الظنّ أنّ البحث سيستغرق وقتًا أطول. لكن لا عليكِ، ربيع في المرحلة التمهيديّة، وأعتقد أنّه يستطيع الالتحاق لاحقًا. هل سألتما المدير عن هذه الجزئيّة؟
- لم يخطر ببالي هذا السؤال، لكن سأتّصل وأسأل.
- نعم، هكذا أفضل، كي لا تتوتّري أثناء البحث. صبرتِ طويلًا حتّى وجدتِ المدرسة، فحافظي على صبرك وهدوئك أثناء البحث، اتّفقنا؟
- إن شاء الله، دعواتكِ يا جُمان.

جود مارس 2017

كما توقّعت جُمان، استغرق البحث عن معلّمة الظلّ وقتًا طويلًا. كانت حالتي النفسيّة تتأرجح بين الصبر والتفاؤل، والحزن والإحباط. قابلنا العديد من المرشّحات، وحين أتانا ردٌّ بالموافقة، كانت فرحتنا لا توصف، كمن وجد كنزًا ثمينًا.

أوّل ما فعلناه بعد تلقّي الخبر وتحديد موعد التحاق ربيع بالروضة، هو ترتيب ملفٍّ في الجمعيّة لنكفّل طفلًا في وضعٍ مشابهٍ لحالة ربيع. فبالرغم من قدرتنا المادّيّة، كانت تكاليف المدرسة، ومعلّمة الظلّ، وأخصائيّة النطق، وطبيب السلوك، وألعاب ربيع وبطاقاته الخاصّة، تشكّل عبئًا ثقيلًا. فكيف بأهالي الدخل المحدود في مجتمعاتٍ لا تراعي هذه الحالات؟

حوّلنا الأسبوع الأوّل لدوام ربيع في الروضة إلى أسبوعِ احتفالٍ مستمرّ، كنّا في كلّ زيارةٍ لأهلي أو أهل عمر، نأخذ معنا طبقًا من الحلوى لنحتفل بهذا الحدث الرائع. وفي يوم الجمعة -موعد زيارتنا الأسبوعيّة إلى بيت عمّي- خطرت لي فكرة إعداد كعكة بنفسي. تذكّرت أنّ آخر كعكة أعددتها كانت قبل نحو ثلاث سنوات، في ذكرى زواجنا، حين كان

ربيع في عامه الثاني، ومنذ ذلك اليوم لم أصنع الحلويّات أبدًا. انتظرتُ عمر لينهي فنجان قهوته في الصباح، ثمّ قلت له:

- عمر، سأخبز كعكةً قبل أن تذهب إلى صلاة الجمعة. أريد أن أركّز، ولا أرغب أن يزعجني الأطفال في المطبخ.

نظر إليّ عمر باستياءٍ مبطّنٍ وقال:

- دعينا نشتري كعكةً من السوق!

ابتسمتُ وأجبته:

- لا أحبّها من السوق بسبب كثرة السكّر والملوّنات، وآن الأوان لأعاود إعدادها في البيت.

أخذ عمر نفسًا عميقًا، ثمّ قال:

- فلنشتريها اليوم للمرّة الأخيرة.

نظرتُ إليه باستغرابٍ وسألته:

- ما بك عمر؟ كأنّك لا تريد أن تجلس مع الأطفال؟
- أشعر برغبةٍ في الاسترخاء، إنّه يوم الجمعة، يوم عطلتي الوحيد.

كنتُ على وشك إشعال فتيل الجدال، فجوابي كان حاضرًا: "ماذا عنّي أنا؟ أنا أيضًا ليس لديّ يوم عطلة!" لكن كتمتُه، وأجبته بابتسامةٍ صغيرة:

- لا بأس، ارتح يا عزيزي، ارتح!

أخذ الأمر ببساطة، رغم نبرة السخرية التي أجبته بها، وابتسم، بينما بدأت "الحرب ثلاثيّة الأطراف" في المطبخ بيني وبين الأطفال والكعكة. حاولتُ أن أجد ما يلهي ورد، وأحتوي ربيع، ونجح الأمر جزئيًّا. وعندما عاد عمر من صلاة الجمعة، وجدنا جاهزين للانطلاق بعد يومٍ شاقٍّ ومتعب.

وصلنا إلى منزل عمّي، وكالعادة أعدّت زوجته أطعمةً لذيذةً. وبعد الانتهاء من الطعام، جلس عمر مع الأطفال، بينما ساعدتُ زوجة أبيه في ترتيب المائدة وتنظيف المكان. بعد ذلك جلبنا الحلويّات والفواكه. قطعنا الكعكة، وبدأ عمر بالثناء على ما صنعته علنًا أمام الجميع، ما أحرجني قليلًا، فكنت أفضّل أن يكون الإطراء بيننا فقط. أحيانًا ألاحظ أنّ مثل هذه التصرّفات قد تجرح مشاعر من حولنا، مثل أمّي التي لم تتلقَّ من والدي سوى النقد، أو حماتي التي لم تكن تتحدّث مع زوجها

إلّا في المناسبات، لكن عمر لا يدرك ذلك، ويبدو أنّه يفعل ذلك بنيّةٍ حسنة.

خلال جلوسنا، تلقّى عمّي اتصالًا من أحد شركائه لمقابلةٍ عاجلةٍ في مسألةٍ قانونيّة. خرج عمر معه، وبقيتُ أنا مع الأطفال. شعرت زوجة أبيه بحريّةٍ في الحديث، وبدأت تتكلّم عن عمّي وطبعه الجافّ، وخلال الحديث سألتني بعفويّة:

- ماذا فعلتِ بعمر ليصبح هكذا؟

اكتفيتُ بابتسامة، بينما أردفتْ كلامها قائلةً:

- أشعر أنّ عمر كالعجينة بين يديك... تشكّلينه كما ترغبين!

أخذتُ نفسًا عميقًا، ونظرتُ إلى سقف الغرفة، متردّدة: هل أخبرها عن خطّة "الهروب الكبير"؟ أم عن صبري الذي نفد حتّى آخر نقطة؟

ابتسمتُ، وأومأتُ برأسي دون أن أجيبها بشيء.

عمر
مارس 2018

عدتُ إلى المنزل، وكان من المفترض أن يكون كلّ شيءٍ على وضعه الطبيعي، لكنّني، على غير المتوقع، وجدتُ جود غاضبة. ألقيتُ السلام فلم تردّ، حدّثتُها فلم تُعلّق، اقتربتُ منها فأشاحت بوجهها عنّي. قلتُ في نفسي: لعلّها موجة نكدٍ جديدة؟!

لجود تقلّباتها الخاصّة؛ تكون في أجمل حالاتها حين تشعر بالإنجاز مع الأطفال: حين يحرز ربيع تقدّمًا، وحين يكون ورد أكثر تهذيبًا. أمّا تفاعلها مع المجتمع، فذلك عالمٌ آخر لا يمكن التنبؤ به؛ أحيانًا تزور صديقاتها فتعود مفعمةً بالفرح، وأحيانًا تعود مثقلةً بالصمت والضيق. وكذلك الأمر في الزيارات العائلية. حاولتُ مرارًا أن أستفسر عن السبب، لكنّها كانت تكتفي بالصمت. ومع الوقت بدأتُ أفهم الأمر من إشاراتٍ غير مباشرة. ففي كلّ مرةٍ كانت تغشاها تلك الحالة، كان الخيط الخفيّ يقود إلى سؤالٍ أزعجها عن ربيع، أو تعليقٍ عابرٍ لكنّه جارح. عندها أيقنتُ أنّ أمّ الطفل الذي يعاني من تأخّرٍ ما ليست كغيرها من الأمهات؛ مزاجها ليس ملكها وحدها، بل هو معلّقٌ بذلك الطفل: بتقدّمه، بتراجعه، وبأدقّ تفاصيله.

ومنذ أدركتُ ذلك، علمتُ أنّ إحدى أهمّ مهامي هي احتواؤها؛ أن أكون لها الداعم والسند. فنحن لا نملك الأريحية التامّة ولا المرونة الكاملة؛ نحن محصورون في مساحةٍ ضيّقة. لذلك لم يكن أمامنا خيار سوى أن نكون سندًا لبعضنا بكلّ ما أوتينا من قوّة. لا مجال أن أتركها تواجه أحزانها وحدها، لا مجال إطلاقًا. حتّى وإن بدا لي أنّ حزنها غير منطقيّ، أو دلالها في غير محلّه، إلّا أنّني الوحيد القادر على ملء هذا الفراغ.

لذا ومع كلّ موجة نكد، أجد نفسي مضطرًّا لاختراع أسلوبٍ جديد لانتشالها من تلك الحالة، بأسرع وقتٍ ممكن، وبأقلّ الخسائر والجراح. أدرك أنّها تلاحظ محاولاتي، وتقدّر الجهد الذي أبذله، وكلّ التحوّل الذي طرأ على حضوري في البيت ومع الأطفال خلال السنوات الماضية، لكن ومع ذلك، قد تنفلت منها أحيانًا عبارات استياءٍ حادّة ومفاجئة بلا سببٍ حقيقي.

أخذتُ نفسًا عميقًا وسألتها:

- ما بكِ يا حلوتي؟

أجابتني بنبرة غاضبة:

- لستُ حلوتك.
- كما تشائين... ما بكِ يا مليكة قلبي؟
- لستُ مليكة قلبك.
- كما ترغبين... ما بكِ يا زوجتي؟

نظرت إليّ، قطّبت حاجبيها، ثمّ تجاهلتني ومضت إلى غرفةٍ أخرى. تنفّستُ بعمقٍ ولحقتُ بها؛ فهي لم تمضِ إلا لأجل أن ألحق بها.

- جود! ما بكِ؟

شعرتُ أنّها على وشك الكلام. قلتُ في نفسي: يبدو أنّها لن تُرهقني بالجري خلفها في كلّ الغرف هذه المرّة. فسألتها مجددًا برفق:

- جود، ما الذي يحزنك؟ أخبريني.

تنهّدت، ثمّ أجابت:

- لم تعد تهتمّ بي أبدًا!
- أنا؟ أخبريني، بمَ قصّرتُ؟
- لا أريد أن أخبرك... من المفترض أن تعرف وحدك.
- ممم... نحن في شهر مارس، أهو عيد الأم؟

- احتفلتَ بجميع الأمهات، في الجمعية، وفي العائلة، وفي كلّ المدينة... ونسيتني!
- لكنّكِ أخبرتِني منذ عدّة سنوات أنّكِ لا تريدين هدية، بل مشاركة ومساعدة حقيقية. وغضبتِ حينها وقلتِ: "لا أريد شيئًا".
- لا أفهم، لماذا هذه أو تلك؟! ألا تستطيعون الجمع بين الاثنين؟
- معك حق، لم يخطر ببالي حقًّا أنّنا نستطيع الجمع بين الهدية الماديّة والهدية المعنويّة.
- هل تسخر منّي؟
- لا أبدًا، وهل يُعقل أن أسخر من مليكة قلبي؟
- قلتُ لكَ لستُ مليكة قلبك!

نظرت إليها وابتسمت وقلت:

- كما تشائين.

خرجتُ من الغرفة، وقد اتّضح لي الأمر. وفي اليوم التالي، جهّزتُ لها هديّتها. كنتُ أعرف تمامًا ما الذي تحتاجه جود في هذا التوقيت؛ هي لا تحتاج فستانًا فاخرًا، ولا حُليًّا تتزيّن بها، ولا حقيبةً تحملها؛ بل تحتاج ما يعيد إليها ذاتها، ويوقظ شغفها القديم.

اشتريتُ لها جهاز حاسوبٍ جديدًا، وطلبتُ من محلّ الهدايا أن يُتقن تنسيقه ويغلّفه بأناقة. وعلى البطاقة، كتبتُ لها بخطّي:

أشتاق إلى كلماتكِ المضيئة والجميلة، تلك التي تبعث في قلبي السكينة والطمأنينة. عودي إلى الكتابة، وإن خفَتَ عطاؤكِ زمنًا، فقد ازددتِ عمقًا ونضجًا، وتلك التجارب التي عبرتِها ستمنح أفكاركِ جمالًا أصدق.

بانتظار إبداعكِ يا مليكة قلبي.

جود أبريل 2019

استيقظتُ صباحًا مع ربيع، أعددتُ له فطوره، ووجبةً ليأخذها معه، نظّمتُ أموره ليتوجّه إلى الروضة، وفجأةً رنّ هاتفي.

- أهلًا بسمة، كيف حالك؟
- الحمد لله.
- هل هناك أمرٌ ما؟ ربيع سيخرج مع والده بعد قليل إلى الروضة، وسيلتقيان بكِ هناك. هل ترغبين أن يمرّ عمر عليكِ، أم ستذهبين بمفردك؟
- في الحقيقة، اتصلتُ لأخبركِ أنّني لن أستطيع الحضور اليوم.

أجبتها بلهجةٍ تحمل بعض الانزعاج:

- ولكن يا بسمة، هذه هي المرّة السادسة التي تعتذرين فيها خلال هذا الشهر! تكرّرت غياباتك، والإدارة لن تقبل بهذا الشكل. لقد أرسلته ثلاث مرّاتٍ من دونك، وغيابه بسببك ليس حلًّا.
- أعلم ذلك، ولكن ظروفي صعبة هذه الفترة، فوالدتي مريضة ولا أحد يعتني بها سواي.
- شفاها الله! ما مرض والدتك؟

- بدأت تظهر عليها مؤخرًا أعراض الزهايمر، ولا يمكن تركها وحدها. لذا نحن نتناوب على رعايتها، ولكن إخوتي طلبوا منّي أن أكون متفرغة لها، نظرًا لارتباطهم بأعمالهم.
- لكنّك أيضًا مرتبطة بعمل، أليس كذلك؟
- أقصد أنّ عملهم يتطلّب الحضور الدائم. أحدهما سائق تاكسي لا يستطيع الغياب، والآخر يملك محل بقالة.
- وأنتِ، هل ترين أنّ السيارة والمحل أهمّ من الطفل؟

ردّت بتوتر:

- سيدة جود، أعتقد أنّكِ تسيئين فهمي...
- بل أفهمكِ تمامًا. سؤالي الآن: هل سيطول هذا الوضع؟ هل ستتركين ربيع قبل نهاية السنة الدراسيّة بشهرٍ ونصف؟
- هذا الأمر مُحتملٌ بالفعل، لأنّي قد أضطر للتغيّب أكثر خلال الفترة القادمة، لذا سأنهي عملي معكم هذا الشهر.
- مفهوم!

سادت لحظة صمت، نادتني خلالها أربع مرّاتٍ، ثمّ أجبتها:

- وفّقكِ الله. لا تنسي أن تمرّي لاحقًا لتحصلي على مستحقاتك كاملةً.

أنهيت المكالمة وأنا في قمّة انفعالي، وقد ظهر ذلك في نبرة حديثي. لم يكن انفعالي بسببها فقط، بل كأنّ الذكريات كلّها انهالت عليّ دفعةً واحدة، واستحضرت في ذهني تجاربنا مع المعلمات الثلاث اللواتي عملن مع ربيع خلال العام الماضي، وكانت بسمة آخرهن.

المعلمة أسماء لم تحتمل ضغط العمل، أمّا المعلمة مرام، فقد جاءها عرض عمل "أفضل"، أو كما قالت: عملٌ حقيقيّ، وكأنّ مرافقتها لطفلٍ في المدرسة وإشرافها عليه لا يُعدّ عملًا حقيقيًّا، فتركتنا في منتصف العام.

إنّهنّ يتركن العمل فجأة، دون مراعاة لارتباط الطفل بهنّ أو لحالته النفسية. لم تظهر أيٌّ منهنّ حتّى الآن تعاطفًا حقيقيًّا مع ربيع. وكأنّ وضعه المادي الجيد – في نظرهنّ – يلغي استحقاقه للحنان والتعاطف. قالت لي إحداهنّ بكلّ فجاجةٍ وصراحة: "مع المال، لكلّ شيءٍ حلّ، يمكنكِ أن تجدي معلمة جديدة في أيّ وقت".

حين استيقظ عمر، أخبرته بما حدث بانفعالٍ، ونقلتُ له حديثي مع بسمة. فقال:

- جود، في الحقيقة، لقد أخطأتِ في طريقة تعاملكِ معها. يبدو أنّ لديها ظروفًا صعبة بالفعل، ولم تختلق الأعذار.
- لكن كان بإمكانها أن تجد من يعتني بوالدتها.

- لكلّ شخصٍ ظروفه يا جود، لا بدّ أنّها حاولت!
- عمر! أنا قلقة جدًّا، ستبدأ المدرسة العام المقبل، وسيصبح ربيع في الصف الأوّل، لا يمكن الاعتماد على معلمات يتركننا فجأة! ليس لدينا رفاهية التغيير الدائم!
- أعرف ذلك، لذا لا تصبّي توتركِ عليها، اتصلي بها واعتذري، وطيّبي خاطرها.
- لا أرى نفسي مخطئة.

استدرتُ إلى الجهة الأخرى وأنا غاضبة، أمسك عمر بحافة ذقني وأدار وجهي مجددًا إليه وقال وهو يبتسم:

- لو أنّك لا تشعرين بالذنب، لما أخبرتِني القصة بكلّ هذا التفصيل.

تنهّدتُ وقلتُ:

- ربما!

أردفتُ كلامي وأنا أحاول أن أدافع عن نفسي:

- لكنني أمّ وانفعلت.
- وهي أيضًا ابنة لأمٍّ مريضةٍ بالزهايمر.

شعرتُ بالندم، فأظهرتُ وجهًا حزينًا، مسح عمر على رأسي وهو يقول لي:

- لا بأس، كلّنا نخطئ، والأهم أن نُصلح الخطأ.
- سأتصل بها لاحقًا، لكن أجبني الآن: ماذا سنفعل؟ وكيف سنجد معلّمة ظلٍّ جديدة؟
- اتركي الأمر لي. سأسأل في الجمعية، وبين أصدقائي، وسأضع إعلانًا على وسائل التواصل الاجتماعيّ.
- آمل أن نجد معلمةً بديلة بسرعة!
- لا تقلقي، سيكون كلّ شيء على ما يرام.
- هل أرسل ورد إلى الروضة اليوم؟
- لا، أبقيه في المنزل مع أخيه، ما رأيك؟
- نعم، هكذا أفضل.
- على أيّ حال، سأنهي دوامي اليوم في الشركة باكرًا، وسنأخذ ربيع وورد إلى المنتزه الكبير.

ابتسمتُ وقلتُ في نفسي: كم تبدو الحياة أسهل حين يكون معي. قبل أن يستيقظ، كنتُ على وشك الانهيار من التفكير: كيف سنجد معلمة؟ وكيف سينهي ربيع السنة؟ أمّا الآن، فنحن ذاهبون للمنتزه!

تناول عمر فطوره، وتوجّه إلى الشركة، فاتصلتُ ببسمة واعتذرتُ منها. لأتفاجأ من حديثها أنّ السبب الحقيقيّ لهذا الأخذ والردّ كان ماديًّا، فقد أخبرتني أنّها تستطيع مواصلة العمل خلال الشهر ونصف المتبقّين من السنة الدراسيّة، شرط أن نضاعف راتبها لتتمكّن من تأمين أجرٍ لشخص يعتني بوالدتها خلال أوقات الدوام مع ربيع. وافقتُ على مضض، على الرغم من استيائي الشديد منها، أغلقتُ الهاتف وقد اشتعل الغضب بي مجددًا، لكنّي لم أطِل في ظنوني كثيرًا، إذ انبثق في مخيّلتي صوت عمر يقاطع أفكاري وكأنّه يقول: "جود، لا تسيئي الظنّ بالناس".

مضى النهار بعدها على خير، وحين عاد عمر، ذهبنا معًا إلى المنتزه، ثمّ مررنا على منزل حماتي. وحين أخبرناها بما جرى، لم تُبدِ أي تعاطفٍ مع بسمة.

أتعجّب أحيانًا من أين جاء عمر بكلّ هذه الرحمة واللطف في تعامله مع الناس؟
سبحان من وهبه هذا الخُلق الكريم!

عمر أغسطس 2019

إنّه موسم بداية المدارس، كنتُ أعمل في الجمعية، منكبًّا على الأوراق والطلبات، ففي هذا العام وسّعنا نطاق خدمات الجمعية لتشمل أحياء جديدة، لذا ازدادت المسؤوليات، واستُحدثت حالات مختلفة وجديدة. وبينما كنت مشغولًا، طُرق باب مكتبي. كانت الساعة تقارب السادسة مساءً، ولم تكن السكرتيرة موجودة في هذا الوقت. أجبت:

- تفضّل!

أطلّت فتاةٌ شابّة، وقالت:

- السلام عليكم!

رفعت رأسي، وأجبت:

- وعليكم السلام!
- أستاذ عمر؟
- نعم، تفضّلي... من حضرتك؟
- أهلًا أستاذ عمر، أنا غدير.

- أهلًا يا آنسة، يبدو أنّك لم تجدي أحدًا في الاستقبال.
- بلى، رأيت أحدهم وأخبرته أنّ لديّ موعدًا مع حضرتك.
- موعد معي أنا؟
- نعم، أستاذ... عمر! لقد تحدّثنا معًا الأسبوع الماضي بخصوص الإعلان عن الحاجة لمعلّمة ظل، واتفقنا أن نلتقي اليوم في الساعة السادسة مساءً.

شعرتُ بكَمّ المشاغل التي تزدحم في رأسي، وتنهكني حتّى نسيت هذا الموعد تمامًا، رغم أهميته البالغة! حمدًا لله أنّي لم أغادر الجمعية باكرًا! أجبتها بارتباك:

- هذا صحيح، اعذريني أرجوكِ، تفضّلي أهلًا وسهلًا. هل تشربين القهوة؟ الشاي؟
- لا شكرًا!

وبينما كنت أتحدّث إليها فتحت تطبيق "ماسنجر"، وبالفعل، وجدت المحادثة التي دارت بيننا. كانت قد تواصلت معي عبر إعلان نشرته في إحدى المجموعات الخاصّة بخريجي كليات التربية، وهو ما نصحني به أحد الأصدقاء، إذ أخبرني أنّ هذه المجموعات تضمّ طلابًا حديثي التخرّج من تخصّصات علم النفس والاجتماع والتربية. نشرتُ الإعلان

حينها على تلك المجموعة، وكانت غدير واحدة ممّن تواصلوا معي. عدّلت جلستي وتداركت الموقف، وقلت لها:

- أهلًا آنستي الكريمة، عذرًا على اللَبس، أرجو ألا أكون قد سببت لكِ أي إزعاج.
- لا أبدًا، ولا يوجد ما يستدعي الاعتذار، أستاذ... عمر!

قالتها وابتسمت مجددًا، فلاحظت أنّها في كلّ مرّة توجّه فيها الكلام لي، تتوقّف لثانية، تضيف كلمة "أستاذ" قبل اسمي، ثمّ تردف كلامها وتبتسم.

قلت لها:

- لنتحدّث في الموضوع. أظن أنّ لديكِ فكرةً عامّة عن طبيعة العمل.
- نعم، ولكن هلّا شرحت لي التفاصيل أكثر من فضلك؟

أومأت لها بالإيجاب، وبدأت أُحدّثها عن حالة ربيع، وعن طيف التوحّد، وعن الأعراض والتحديات التي نواجهها معه. تحدّثتُ بإسهاب، وكانت غدير مستمعة جيدة للغاية. سألتني عندما انتهيت من شرح حالة ربيع:

- ما هي مهامي كمعلّمة ظل إذن؟

أجبتها:

- سؤالٌ ممتاز، مهمّتك الأساسية أن ترافقيه في المدرسة، تساعديه على فهم التعليمات وتبسيطها. أحيانًا قد تضطرين لشرح المفاهيم له بطريقة خاصّة، كما يجب أن تتأكّدي من إتمامه للمهام المطلوبة. قد تحتاجين لتعديل الأنشطة أحيانًا بما يتناسب مع قدراته، بالتعاون مع الأخصائيين.

كانت تصغي باهتمام شديد وتدوّن ما أقوله في دفتر صغير. أردفتُ قائلًا:

- ومن المهم أن تساعديه على اتّباع القواعد، وتتدخّلي بلطفٍ إن صدر عنه سلوكٌ غير مناسب، مع تعزيز السلوك الإيجابيّ بالتشجيع والمكافأة، وأن تسهمي في تفاعله مع أقرانه، وتعزّزي مهارات التواصل والمشاركة لديه، وفي الحالات الطارئة، يجب أن تتدخّلي لتهدئته إن شعر بقلقٍ أو غضب.

أومأت بالإيجاب ونظرت إليّ كأنّها تقول: أكمل. فأردفت:

- التواصل مع المدرسة والأسرة، وتحضير تقريرٍ شهريٍّ عن تطوّره وعن العقبات التي تواجهكما، بالإضافة إلى المشاركة في بعض الاجتماعات التربويّة، والتعاون مع أخصائيّة النطق والطبيب المشرف.

قالت بابتسامة:

- شكرًا، أستاذ عمر، لقد شرحتَ المهمّة بشكل وافٍ، ويسعدني أن أتقدّم بسيرتي الذاتيّة لهذه الوظيفة.

أخذتُ سيرتها، واستغربت أنّها لم تتطرق لموضوع الراتب بعد. قلت لها وأنا أتصفّحها:

- كنتُ أتمنى لو أنّ زوجتي كانت معنا، كانت ستشرح لكِ بطريقة أوضح، أشعر أنّي سردتُ لكِ الأفكار بطريقةٍ مربكة!

قالت غدير:

- لا أبدًا، لكن بالتأكيد كان سيسعدني أن ألتقي بمدام جود!

توقفتُ فجأة، ونظرت نحوها باستغراب، وأنا أتساءل: كيف تعرف جود؟ أغلقتُ السيرة الذاتيّة، ونظرت في وجهها لثوانٍ... كانت تبتسم، وكأنّها تخفي شيئًا. لم تنتظر كثيرًا حتّى سألتني:

- ألم تعرفني بعد؟

ولوهلة، بدأت تتقافز في ذهني ذكريات قديمة، ووجوه أطفال مرّوا علينا في الجمعية، حتى لمعت صورة واحدة منهم: إنّها هي، غدير!

سبحان الله! كبرت ودرست وتخرّجت وها هي تجلس أمامي، تتقدّم لطلب أن تكون معلمة الظل لابني! ابتسمتُ ابتسامةً عريضة وقلت:

- أهلًا وسهلًا... بغدير الشطورة!

ضحكت وقالت:

- أستاذ عمر، وأخيرًا تذكّرتني!
- كان يجب أن أتذكركِ من الوهلة الأولى، لكن العتب على الذاكرة.
- لا بأس، المهم أنّك لا تزال تتذكرني.
- طبعًا أتذكّرك.

قلتها وأنا أحرّك يدي أمام وجهي، مشيرًا إلى تلك الرغبة التي رافقتها لسنواتٍ طويلة بأن ترسم على وجهي!

- كيف حالك وحال والدتك؟
- الحمد لله بألف خير!
- كنتِ قد سافرتِ إلى العاصمة؟ ألم تستقرّوا هناك؟
- نعم هذا صحيح، لكننا عدنا منذ سنةٍ إلى هنا، واضطررتُ إلى نقل أوراقي إلى الجامعة كي أتمّ سنتي الأخيرة. كانت رحلةً طويلةً من التعب، لكنّها أثمرت في النهاية!
- جميل جدًا!
- مررتُ إلى الجمعية أكثر من مرّة لألقي السلام، لكنّي لم أكن أجدك، ولم أجد مشرفاتي اللواتي أعرفهنّ.
- نعم، تغيّر أغلب الطاقم القديم، وأنا ليس لي مواعيد ثابتة بسبب انشغالي بعملي في الشركة وانشغالي مع الأسرة. أتعلمين؟ ستتفاجأ جود بكِ كثيرًا!
- أرجو أن تكون مفاجأة جميلة!
- بالطبع!

تنهّدتُ وأنا أسترجع الذكريات القديمة، وشعرت بتفاؤلٍ شديد، وأنّ ربيع سيكون بين أيدٍ أمينة. اللهمّ لكَ الحمد!

الفصل العاشر

عمر مارس 2025

كنتُ غارقًا في النوم حين سمعتُ صوتًا يناديني: "عمر! عمر!". كان صوتًا لطيفًا هادئًا، في البداية ظننته جزءًا من حلمٍ بعيد، لكنّه أخذ يقترب شيئًا فشيئًا، حتّى لم أعد أدري: "أما زلتُ أحلم؟". تسرّب الواقع إلى الحلم، أو ربما العكس. فتحتُ عينيّ ببطء، فرأيتها أمامي تحمل كعكةً مزينة، وتهمس بصوتٍ خافت:

- عمر، هيّا استيقظ!

فركتُ عينيّ وأدركتُ ما حولي، فأمهلتني جود نصف دقيقة لأغسل وجهي، ثمّ توجّهنا معًا إلى غرفة الأطفال. هناك أشعلنا عشرة شموع، وبدأنا نغنّي: "عيد ميلاد سعيد يا ورد!".

في البداية ابتسم ورد بخجل وغطّى وجهه بيده، وحين انتهينا من الأغنية نفخ شمعاته العشرة، واستلم هديته وكثيرًا من القبلات والأحضان.

تحبّ جود أن يتسلّم صاحب عيد الميلاد هديته منذ الصباح الباكر، وتحرص على أن يكون يوم ميلاده مليئًا بالفعاليّات؛ ليس بالضرورة أن

يُقام حفل ضخم أو يُدعى كثيرٌ من الناس، لكن من الضروريّ أن يشعر صاحب عيد الميلاد بالتميّز طوال اليوم، دقيقةً بدقيقة، وثانيةً بثانية. لذلك لا تفوّت هذه الفقرة الصباحية أبدًا، والتي تنتهي بتسليم الهدية.

أمّا عن اختيار الهدية، فبالنسبة لجود هي مهمّة دقيقة للغاية؛ إذ يأخذ الأمر وقتًا وجهدًا وصبرًا. تختار هدايا الأطفال بعناية، سيّما أنّها لم تُسلّمهما حتّى الآن أي جهازٍ إلكترونيّ، لا موبايلًا ولا جهازًا لوحيًّا. فهي تركّز على تنوّع الألعاب وجودتها وهدفها واستدامتها. ورغم أنّ الألعاب فقدت كثيرًا من قيمتها الحقيقيّة مقارنةً بما كانت عليه من قبل، فإنّي مع ذلك أجد أنّ جود تفعل كلّ ما بوسعها لتحافظ على هذه الخطوة المهمّة في حياة الطفل: اكتساب المهارات عبر اللعب.

وبما أنّ الطفلين كبرا قليلًا، بدأت جود تبتكر أنواعًا من الهدايا بحسب رغباتهما. فقد يرغب أحدهما في حضور مباراة لفريقه المفضّل، فتبادر جود إلى شراء التذاكر، ونذهب معًا لحضور المباراة. وقد يطلب الآخر زيارة حديقة الحيوانات لرؤية البطاريق -للمرّة العاشرة- فنأخذه إليها في يوم ميلاده. وهذا العام عبّر ورد عن رغبته في اقتناء ساعةٍ ذكيّة تناسب عمره، فحضّرتها له جود مسبقًا بالتنسيق مع جُمان. فما لا تستطيع جود تأمينه من البلد تتواصل بشأنه مع جُمان وتطلبه من أمريكا، حيث ترسله جُمان لنا عبر البريد قبل عيد ميلاد ربيع وورد.

استلم ورد هديته التي أحبّها للغاية، ثمّ بدأ كلٌّ منّا يجهّز نفسه للدوام. تناولتُ طعام الفطور على عجل، وبينما كنت أجمع أغراضي راحت جود تذكّرني بجدولنا المليء بالمواعيد. طمأنتها أنّي لن أتأخّر وسأعود في الموعد المحدد، ثمّ ودّعتها ونزلت سريعًا على الدرج.

انطلقت ومررتُ بالسيد مالك. فمنذ نحو عامين اعتدنا هذا الروتين: أن أمرّ على السيد مالك وأصطحبه معي إلى مقرّ الجمعية، ونعود معًا بعد انتهاء الدوام. فمنزل السيد مالك يقع على طريقي، وفي الوقت نفسه يبتعد عن وسائل المواصلات العامة، وقد تقدّم به العمر ولم يعد يقوى على المشي. لذلك أخذتُ على نفسي عهدًا أن أتكفّل بهذه المهمّة.

لم يعد السيد مالك عضوًا أساسيًا في مجلس الإدارة، إلا أنّه لا يزال يتردّد على الجمعية بشكل شبه يوميّ. له مكتبه الخاصّ وأثره المهم، فخبرته لا يمكن الاستغناء عنها، وهو يحقّق لنا توازنًا مهمًّا في الجمعية، ورأيه دومًا هو الراجح. أمّا أنا، بدّلتُ نظام دوامي بين الشركة والجمعية؛ فأصبح عملي الأساسيّ في الجمعية، وصرتُ أذهب إلى الشركة يومًا واحدًا في الأسبوع، وأُنجز ما يلزم من الأعمال من المنزل إن احتاج الأمر.

جلس السيد مالك في السيارة، وبعد أن ألقى السلام عليّ بدأ يدعو لي بالرزق والخير والبركة، ثم استهلّ حديثه قائلًا:

- يا عمر، يا بُنيّ، مشاغلك كثيرة، ولا داعي لأن تزيدها بأخذي وإيصالي معك.

فأجبته:

- يا عمّ مالك، كم مرّة تحدّثنا في هذا الأمر؟ وصّاني جدّي عزمي -رحمه الله- بك، فضلًا عن أنّك أستاذي الذي علّمني وأشرف عليّ طيلة هذه السنوات، هذا أقلّ ما أستطيع تقديمه.

تنفّس بعمق وقال:

- هو فضل الله يا بُنيّ.

ثمّ أتبعها بتنهيدة، وقال:

- سبحان الباقي الذي يدوم.
- لا يدوم إلا وجهه الكريم.

قال مبتسمًا:

- سبحان مُغيّر الأحوال؛ قد كنتُ أنا مديرك، وأنتَ اليوم مديري.
- لا تقل هذا، فلا أحد يعلو عليك.

- لا يا بُنيّ، هذه دورة الحياة الطبيعية. وأنا سعيد جدًا بتسلّمك رئاسة مجلس الإدارة، وبتفرّغك للجمعية، وسدّك الفراغ الذي تركه السيد عزمي، رحمه الله.
- رحمه الله، لا يمرّ يوم إلا وأذكره عشرات المرّات.
- جدّك ومجموعة من أصدقائه أسّسوا الجمعية، لكنّه هو الذي استمرّ فيها وعمل لها، وأعطاها الكثير من وقته وجهده وماله، حتّى غدت على ما هي عليه اليوم. أتعلم؟ منذ أن كنتَ شابًا يافعًا، كان عزمي باشا يتوسّم فيك الخير، ويرى فيك خير خلفٍ له.
- حقًّا؟
- نعم، طالما سمعتُ منه كلمات توشي بذلك.

اختلج صدري ودمعت عيناي، وسرحت وأنا أتخيّل ملامح جدّي في ذهني، ثمّ قلت لأقطع حالة الصمت تلك:

- رحمه الله. أسأل الله أن يكون كلّ عملٍ خيريٍّ في ميزان حسناته، وأن تستمرّ الجمعية في العطاء ولا تنقطع أعمالها الخيرية، فيبقى أجره موصولًا.
- آمين يا ربّ.

مضى الوقت ونحن نتحدّث حتّى وصلنا إلى الجمعية، وهناك توجّه كلٌّ منّا إلى مكتبه، واتفقنا أن نلتقي الساعة الثانية ظهرًا. ودّعني وقال:

- وإن احتجت إلى أيّ شيء فأنا موجود.
- لا غنى لي عنك.

جود مارس 2025

ما إن انطلق عمر إلى الجمعية، حتّى أسرعتُ أجهّز ربيع وورد للمدرسة. قال لي ورد وهو يحتسي كأس الكاكاو:

- أخبرتنا المعلمة اليوم أنّ حصّة العلوم ستكون في حديقة المدرسة، وسنتعلّم عن الأشجار وأوراقها.

نظرتُ إلى ربيع وابتسمتُ قائلةً:

- هذا جميل، إذن سيستمتع ربيع بهذه الحصّة، أليس كذلك؟

نظر إليّ ربيع وأومأ برأسه، فأردف ورد مازحًا:

- لكن لن ينطبق الأمر على غدير.

ضحك ورد بصوت عالٍ، فسألته:

- لماذا؟

أكمل نوبة ضحكه وهو يجيب:

- اسألي ربيع!

نظرتُ إلى ربيع وسألته:

- لماذا لا تحبّ غدير الحديقة؟

ابتسم ربيع بخفّة وقال:

- هي لا تحبّ الحديقة لأنّ فيها نحلًا، وقد لسعها سابقًا.
- آه، لقد تذكّرت! كان ذلك العام الماضي، أليس كذلك؟

أومأ لي برفق، فأردفتُ كلامي وقلت له:

- إذن عليكَ أن تحميها من النحل، اتفقنا؟

أجابني بخجل:

- حاضر.

وفي تلك اللحظة رنّ هاتفي، فوجدت رسالة صوتية من سلام. فتحتها كي يسمعها ورد:

- أهلًا حبيبي ورد، كيف حالك؟ كلّ عام وأنتَ بألف خير. سأتحدّث معك حالما تعود من المدرسة. أتمنّى لكَ يومًا ممتعًا

ومميّزًا، أرسلوا لي صورًا كثيرة، استمتع بوقتك، وأرسل قبلاتي لماما وبابا وربيع.

أمسك ورد بهاتفي وأرسل لها بحماس:

- شكرًا لكِ يا عمّتي. هل أنتِ مستيقظة إلى الآن؟ كم الساعة عندكم؟ أخبري حِسان أنّني سأغلبه في المرّة القادمة في الشطرنج.

نظرتُ إلى الساعة وقلت لهما:

- هيّا أسرعا، ستصل غدير بعد قليل. نظّفا أسنانكما قبل الذهاب.

وبينما كنت أتأكّد أنّهما ينظّفان أسنانهما بطريقةٍ صحيحة، رنّ هاتفي، فأجبت:

- أهلًا غدير، كيف حالك؟
- الحمد لله بخير. لقد وصلت، أنا أمام المنزل. هل الأطفال جاهزون؟
- نعم، يرتدّون الآن ستراتهم.
- جميل، كيف حال ورد؟ لا بدّ أنّه متحمّسٌ للغاية.
- طبعًا! لقد ملأ البيت صخبًا منذ الصباح!

- كل عام وهو بألف خير، أراكِ مساءً!
- إن شاء الله، إلى اللقاء.

سألني ورد وهو يخرج من المنزل:

- ماذا ستعدّين لنا على الغداء؟
- شرحات الدجاج مع البطاطا المقليّة والخضار.

تنهّد وأجاب:

- حسنًا، إلى اللقاء.

وانطلقا، فوقفتُ على الشرفة ولوّحتُ لهم جميعًا. ثمّ توجّهتُ إلى المطبخ، أمسكتُ هاتفي وأرسلتُ رسالة صوتية لجُمان:

- صباح الخير جُمانتي، كيف حالك؟ لقد انطلق الأولاد للتوّ إلى المدرسة. كانت بداية جميلة ليوم ميلاد ورد. لقد سعد جدًا بالهدية، شكرًا لكِ عزيزتي، وهو يرسل لكِ كلّ الشكر.

وضعتُ بعض الماء في ماكينة القهوة وضغطتُ الزر لأعدّ فنجان قهوتي، ثمّ فتحتُ الثلاجة وأكملتُ حديثي:

- سيكون يومي طويلًا، لكنّني متحمسة. سأحضّر بعد قليل الغداء، آسفة على الضجة، أنا أخرج الأشياء من الثلاجة وأرتّبها. سأعدّ شرحات الدجاج مع الخضار. أتعلمين؟ اليوم، عندما سألني ورد عن طعام الغداء، تنهّد حين أجبته، وفهمتُ ما يريد قوله. فهذه هي المرّة الرابعة التي أعدّ فيها الطبق المفضّل لربيع هذا الشهر. كما تعلمين، نضطرّ أحيانًا إلى تكرار بعض الأطباق من أجله، لأنّه يحبّها ولأنّها تناسب نظامه الغذائي، لا نريد أن يشعر بأنّه مختلف عنّا، فنأكل جميعًا الطبق نفسه. أمّا ورد فيفضّل البيتزا، ولا يمانع أن يأكلها يوميًا!

أخذتُ فنجان قهوتي، واخترتُ قطعة شوكولا لأستمتع بها مع القهوة، وجلستُ قليلًا لأرتّب مخطط اليوم. واكتشفتُ أنّنا لن نستطيع الذهاب إلى حديقة الألعاب اليوم، سيكون هذا ضربًا من الخيال، ليس لدينا وقتٌ كافٍ، رغم أنّ ورد كان يردّد أنّه يودّ الذهاب إلى هناك. ثمّ تذكّرتُ أنّنا كنّا هناك البارحة... أمسكتُ الهاتف وتابعتُ حديثي مع جُمان:

- سأخبركِ بأمرٍ آخر، ذهبنا البارحة إلى حديقة الألعاب، وبينما كنت أراقب ربيع وورد وهما يلعبان، خطرت في بالي مجددًا تلك الفكرة التي تراودني دائمًا؛ رغم صغر سن ورد، فهو يُدرك أنّ

أخاه ربيع يختلف عن باقي الأطفال. لم يكن يضغط عليه ليلعب معه، بل على العكس، سايره برقّة ويحاول أن يفهمه. أشعر أنّ ورد قد كبر قبل أوانه، وتحمل أعباء لا تناسب عمره، فقط لأنّه شقيق ربيع.

أنهيتُ فنجان القهوة، وجّهزتُ مقادير الكعكة ولوازم التزيين، صففتُها على الطاولة أمامي، ثمّ التقطتُ صورةً وأرسلتُها لجُمان، وأتبعتها برسالةٍ صوتية:

- أنظري ماذا جلبت صديقتك، أدوات احترافية لتزيين الحلوى. الكعكة الأولى هذا الصباح بدت جيدة، لكن آمل أن أستطيع تزيين الكعكة الثانية بشكلٍ أفضل. سنحتفل اليوم في بيت كرم، ستأتي والدتي ووالدي أيضًا، وغدًا سنمرّ إلى بيت حماتي، فهي مشغولة اليوم ولن تستطيع الانضمام إلينا. يا إلهي، كم أثرثر! بينما أنتِ الآن نائمة... سأرسل لكِ لاحقًا صور الأطفال، وبالطبع صورة الكعكة.

وضعتُ الهاتف جانبًا وبدأتُ العمل في المطبخ. وبينما كنت أقطّع الخضار، وصلني إشعار بريد إلكتروني. نظرتُ إلى الهاتف لأجد رسالةً

من لجنة المسابقة، خفق قلبي، غسلتُ يدي سريعًا، وقرأتُ الرسالة وأنا مرتبكة، وما إن فرغتُ حتّى أرسلتُ رسالةً صوتيّة جديدة:

- جُمان! تمّ تحديد موعد التكريم الأسبوع المقبل، ويبدو أنّني من المرشحين للفوز! أنا سعيدة! ترى هل سأفوز حقًّا بالمرتبة الأولى؟ لا أصدق!

التقطتُ صورةً عن الرسالة وأرسلتُها لعمر على الفور.

عمر　　　　مارس 2025

وصلنا في الموعد إلى بيت كرم، فوجدنا الزينة الجميلة تملأ البيت بهجة. وبعد أن تناولنا العشاء واحتفلنا بورد، وأطفأنا الشموع، جلستُ مع كرم نحتسي الشاي بهدوء. في تلك الأثناء غاب الأطفال قليلًا، ثمّ عادوا بعد نصف ساعة، وكلٌّ منهما فخورٌ بالرسمة التي زيّنت وجهه، والتي رسمتها زوجة خالهما: "باتمان" و"سبايدرمان". فأبدينا أنا وخالهما إعجابنا بتلك الرسومات.

أصرّ ورد على أن نلعب الشطرنج، بينما جلس ربيع يراقبنا بصمت. فاز عليّ ورد في الجولة الأولى، كعادته؛ فلستُ بارعًا في هذه اللعبة، على عكسه تمامًا. فقد ورث شغفه بالشطرنج من والدي الذي علّمه أصولها. حين رأيتُ والدي يعلّمه، عادت إلى ذاكرتي محاولاته القديمة ليعلّمني أنا ورفضي آنذاك. وتذكّرتُ كم كنتُ ألومه في شبابي وأقول في نفسي: إنه لم يحاول يومًا أن يقترب مني. لكنّني الآن أدرك أن الشطرنج ربما كانت طريقته الخاصّة في التقرّب إليّ. اليوم، حين نزور والدي، يجلس هو وورد لساعاتٍ في مكتبه؛ يعلّمه ويبارزه من غير أن يضجر منه أو يشكو.

قضينا وقتًا ممتعًا، وعدنا إلى المنزل عند الساعة الثامنة مساءً، كان الأطفال قد تعبوا كثيرًا، فانطلق ورد مع جود إلى الحمام كي تساعده في تنظيف الألوان عن وجهه، بينما جلستُ مع ربيع، فقال:

- أريد أن أكتب مذكّرات اليوم.
- هذا جميل، أحضر الدفتر!

أحضر ربيع الدفتر وجلس بجانبي، وبدأ يدّون:

اليوم كان عيد ميلاد ورد. استيقظنا صباحًا لأنّ ماما وبابا أحضرا كعكة فيها عشر شمعات. غنّينا له، ثمّ نفخ ورد الشمعات. حصل على ساعة وكان سعيدًا بها. ذهبنا إلى المدرسة مع غدير. وفي المساء ذهبنا إلى بيت خالي كرم. كان البيت مزينًا واحتفلنا بورد مرّة أخرى. لعب ورد الشطرنج مع بابا، وفاز في الجولة الأولى، ثمّ لعب مع خالي، لكن خالي فاز في النهاية.

سألته:

- هل كان يومًا جميلًا؟

أجابني:

- نعم!
- دوّن ذلك.

أومأ لي بالإيجاب وأضاف:

كان يومًا جميلًا مع بابا وماما وورد، أنا أحبّهم كثيرًا.

ضممته إليّ وقلت له:

- ونحن نحبّك كثيرًا، أكثر ممّا تتخيّل!

وفي هذا الأثناء نادته جود:

- ربيع! أين أنت؟ أتى دورك، يجب أن تنظّف وجهك قبل النوم.

نهض ربيع وذهب إلى والدته، فمررتُ على ورد كي أعطيه قبلة النوم، فشعرتُ وكأنّه يرغب في الحديث. هكذا هم الأطفال؛ تنتابهم مشاعر الحزن في نهاية يوم ميلادهم بعد أن يمضوا وقتًا رائعًا، والسبب أنّ يوم ميلادهم القادم بعيد جدًّا... بعد سنة كاملة!

سألته كي أسهّل عليه مهمّة بدء الحديث:

- أخبرني، كيف كان يومك؟

- لقد كان مثاليًّا، شكرًا لكما.
- والدتك دائمًا تعرف ما يُسعدكما.
- نعم، هي تعرف ما يُسعد ربيع وما يُزعجه، وتُخبرني دائمًا كيف أتعامل معه.
- ورد، حبيبي، نحن نعرف أيضًا ما يُسعدك أنت وما يُزعجك أنت. أمّا عن اهتمامنا الكبير بربيع وخوفنا من انزعاجه، فله أسبابه.
- أعلم، أخبرتني ماما بهذا الأمر مرّات عديدة، وقالت لي كثيرًا إنّها تحبني، لكن...
- لكن ماذا يا حبيبي؟
- لا شيء.
- ورد، يمكنك أن تخبرني بما يدور في بالك.

سكت قليلًا. كان يُحرّك طرف الغطاء بين أصابعه الصغيرة، ثمّ قال بصوتٍ خافتٍ دون أن ينظر إليّ:

- كنت سعيدًا اليوم، شعرت أنكم تهتمّون بي، وتفرحون معي.

ابتسمتُ وقلت له:

- لأنّك تستحق، يا ورد.

هزّ رأسه بخفّة وقال:

- أشعر أنّني يجب أن أكون طيبًا مع ربيع على الدوام، وأصبر عليه، حتّى لو لم أفهم ما يريد بالضبط، أو لم أرغب أن ألعب بما يريده. ماما تقول لي دائمًا: لا تزعج ربيع، هو يتضايق بسرعة، لا ترفع صوتك، لا تغيّر عليه الأشياء... وأنا أحاول، أقسم أنّني أحاول.

رفع رأسه ونظر إليّ بعينين صغيرتين فيهما حيرة، وقال:

- بابا، أشعر أنّني أنا الأخ الأكبر لربيع...

اقتربت منه أكثر، ووضعت كفي على رأسه، وقلت برفق:

- لأنّك تملك قلبًا كبيرًا يا ورد، أكبر من عمرك. لكنّك لست مضطرًا أن تكون كبيرًا دائمًا. نحن نحبك كما أنت: صغيرًا، طيبًا، بضحكتك، بلعبك، وحتّى عندما تحتاج أن تضع رأسك على كتفي وتبكي.

قال بصوتٍ متردد:

- أنا أحبّ ربيع، وأحبّ أن ألعب معه، ولكنّني أحبّ أن ألعب مع أصدقائي أيضًا. وفي المدرسة كثيرًا ما أشعر بالحيرة بين أن أبقى مع ربيع أو ألعب مع أصدقائي.
- لا تحتَر. في النهاية، ربيع ليس مسؤوليتك. حين تشعر برغبةٍ في اللعب مع أصدقائك، العب كما ترغب، وإن استطعت أشرك ربيع معكم.
- لكن أصدقائي لا يعرفون كيف يتعاملون معه.
- إذًا علّمهم، واشرح لهم أكثر عن أخيك.
- سأحاول.

ثمّ ابتسم بخجل وقال:

- شكرًا لكم على الساعة الرائعة، سأريها لأصدقائي غدًا.
- تستحقها يا ورد! أنتَ بطل.

سكت قليلًا ثمّ أردف:

- أحبّكم كثيرًا.
- ونحن نحبّك أكثر ممّا تتخيل!

وفي تلك الأثناء أتى ربيع، واستلقى في فراشه، تمنّيت لهما أحلامًا جميلة، وطبعت على جبينهما قبلةً وأطفأت النور. وتوجّهت إلى غرفة الجلوس، وهناك رأيت جود، منهكةً ومع ذلك تتصفّح شيئًا ما بعناية وتركيز، فسألتها:

- ماذا تفعلين؟
- أتدرّب على إلقاء القصة، ما رأيك أن تجلس أمامي كأنّك الجمهور؟
- الآن؟ بعد هذا اليوم الطويل؟
- نعم، أشعر بالحماس.
- تفضلي، كلّي آذان صاغية.

وقفت جود وبدأت تتلو قصتها، تلك التي شاركت فيها في إحدى المسابقات الثقافيّة. حين وقفت أمامي شعرت بأنّ الوقت يتباطأ، خفق قلبي، تمامًا كما خفق عند لحظات الحبّ الأولى. كانت كلماتها تتدفق بهدوء، وحملني صوتها وأسلوبها بعيدًا، فتبادر إلى ذهني ذاك اليوم، حين كانت تلقي أيضًا شيئًا من كتاباتها، وحين اكتشفت أنّها الفتاة التي أحببتها، ومنذ ذلك الحين وأنا أستكشف فيها جمالًا خفيًّا في كلّ تفصيل فيها.

وقفا عند ضفّة نهرٍ واسع. لم يكن اتساعه ما أخافهما، بل عمقه، وبُعد الضفّة الأخرى التي بدت كفكرةٍ بعيدة تُرى ولا تُطال.

كان القارب هناك: خشبة خفيفة، وشراع صغير.

جلسا ومضيا، وكان الماء في البدء مطيعًا، والريح تميل حيث يشيران. في منتصف الطريق تغيّر كل شيء! اشتدت الرياح، وجاءت من جهاتٍ غير محسوبة... دفعت القارب مرّةً، وخذلته مرّات، الشراع وحده لم يعد كافيًا!

تأرجح القارب، فأخرج كلٌّ منهما مجدافه، ضربة هنا، وضربة هناك، كأنّ كلًّا منهما يحاول النجاة بنفسه! تصادمت الضربات مع بعضها، كإيقاعاتٍ متضاربة، فاضطرب القارب أكثر فأكثر. تعالت الموجات، والريح تعصف بلا هوادة. نظر كلّ منهما إلى الآخر... أهي النهاية؟

لكن فجأة، بدأ الإيقاع يتقارب. ضربةٌ تتبع ضربة، نفسٌ يسبق نفس، وتناغم ينسج الأمان من الفوضى. لم تهدأ الرياح، لكن القارب استقام.

بقي الشراع في مكانه، لم يعد قائدًا، بل شاهدًا على المجدافين الذين يُكمِّلان نقصه. ومضيا، لا لأنّ الطريق صار أسهل، بل لأنّهما عرفا كيف يصنعان الأمان، بمجدافين، وشراعٍ صغير.

انتهت جود من إلقاء قصّتها، فسألتني:

- هل ترى أنّ الإلقاء جيد؟
- ممتاز!
- هل القصة مفهومة؟
- طبعًا، أخبرتك بذلك منذ كتبتِها.
- إذًا ما هو الشراع، وما هما المجدافان؟
- أهو امتحان؟
- اعتبره ما تشاء، لكن أجبني أرجوك.

نظرت إليها وابتسمت دون أن أجيبها، فقالت لي:

- هذا يعني أنّك لم تعرف!

حرّكت رأسي دون أن أوضّح موقفي، فقالت:

- أنتَ تهزأ بي، أليس كذلك؟
- القصة مفهومة، لكن ليس من الضروري أن يُفهم التشبيه كما قصدته تمامًا.
- لكن من المهم أن تفهمه أنت!

حاولت أن أستفزّها أكثر، فرحت أحكّ ذقني، ثمّ قلت لها:

- ما هي الهدية التي تريدينها إن حصلتِ على المرتبة الأولى؟
- هل تغيّر الموضوع؟ لا أريد أي هدية!

تابعتُ استفزازها، وقلت لها وأنا أرفع كتفيّ:

- كما تشائين!

لم ترد، ومضت إلى غرفة النوم وهي مستاءة، أمّا أنا فذهبت إلى المكتب، وفتحت صندوق أدوات التخطيط، وبدأت في إعداد مسودة العمل. أمضيت الليلة كلّها ساهرًا، لم أشعر بمرور الوقت، ولم أتوقّع أن أنهي اللوحة في جلسةٍ واحدة. نظّفتها، ثمّ وضعتها في إطارٍ أنيق، وتردّدت: هل أغلّفها على شكل هدية، أم أبقيها كما هي؟

فكّرت قليلًا، ثمّ اخترت أن أبقيها كما هي. وضعتها في غرفة الجلوس، في الزاوية التي تفضّل جود الجلوس فيها تحديدًا.

صلّيت ركعتين شكرًا لله على نعمه كلّها، تلك النعم التي لا تُحصى ولا تُعدّ، والتي تتسلّل إلى تفاصيل حياتنا الصغيرة قبل الكبيرة. وعلى نعمة شكر النعمة نفسها؛ اللطف الخفيّ الذي يجعل القلب في حالٍ دائمةٍ من الشكر، واعيًا لما يُعطى، وحاضرًا في زحام الأيام، لا يعتاد النعمة حتّى يفقد دهشتها، ولا يغفل عنها حتّى وهي بين يديه.

* تمّ توليد الزخرفة العربية في هذه اللوحة عبر الذكاء الاصطناعي

تمّت

لتقييم الرواية وإضافة تعليق أو مراجعة، زوروا صفحة رواية في الربع الأوّل على موقعنا.

رواية في الربع الأوّل

حين انهارت عائلة «عمر»، لم يخسر بيتًا أو أشخاصًا فقط، بل خسر شعور الأمان الذي ظلّ يبحث عنه طويلًا. في محاولةٍ للهروب، وجد عمر ملاذه في الكلمات، في عالمٍ لا وجوه فيه ولا أحكام. لم يبدأ الأمر بالبحث عن الحبّ، بل بشيءٍ يشبه الفراغ. ووسط هذا الفراغ، يلتقي بـ «وردة الربيع»، فتاة لا يعرف عنها شيئًا، لكنّها تعرف كيف تصل إلى أعماقه دون أن يراها، ودون أن تقصد ذلك. لم تكن سوى اسمٍ في البداية، حروفٍ عابرة لا أكثر، لكنّها، مع الوقت، بدأت تكتسب حضورًا، وصوتًا، حتى صارت أكثر واقعيةً من كلّ ما حوله.
لكن، هل يمكن لمشاعر وُلدت دون لقاء أن تتحمّل اختبار الواقع؟
هل ستزهر «وردة الربيع» وتزهر معها الأيام؟ أم أنّ الحب، حين يُختبر، يكشف الفرق بين ما نقوله وما نستطيع فعله؟

هذه الرواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإن ّ كلّ رواية قائمة بحدّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابّات لِكُلّ منهم قِصّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلّها.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

سحر وهبة

www.faibooks.com

@faibooks

@faibooks7

@faibooks7

info@faibooks.com

جميع الحقوق محفوظة لسحر خواتمي وهبة اعرابي - ٢٠٢٦